الجزء الأول :

بريمفيرا الحسناء

هذه روما أقدم عاصمات العالم المتحضر تنام وعلى كاهلها كلكل من الحزن القاتم وكان رعب غامض يجمد المدينة الرائعة فإذا هي تلتفع بالصمت وتصلي وتختنق وفي المكان ذاته الذي كان يجلجل فيه صوت شيشرون على منصة ميدان الفوروم الصاخب كانت تتعالي بعض الترانيم بأصوات شجيه حزينة وفي هذا المكان بالذات الذي قاتل فيه آل كراكوس دفاعا عن الحرية كان يضغط كابوس رهيب من طغيان آل بورجيا ولم يكن رودريك بورجيا سوى فرد من الثالوث المرعب الذي كان يبسط سلطانه على روما مدينة المدن ذلك أنه كان لرودريك أيضا ابن يمثل العنف وابنة تجسد الحيلة تجسيدا أما الفتى فقد كان يدعى قيصر وأما الفتاة فقد كانت تدعى لو كريس بورجيا

وها نحن الآن في شهر نوار من عام 1501 في هذا النهار بزغت الشمس في سماء صافية زاهية فالصبيحة مشرقة والفرح يغمر الأجواء غير أن روما كانت ما تزال ساكنة متجمدة وكأنها تعيش في ظل الكهنة الذين يرزح كابوسهم في كل مكان من أنحاء المدينة فقط أمام بوابة قصر "سانت آنج" الضخمة وقريبا من الفاتيكان كان قد احتشد بعوامل الفضول عدد من رجال الشعب وها هم بأقدامهم الحافية وآسمالهم ورؤوسهم المغطاة بقبعات حمراء يتأملون بدهشة واحترام شرذمة من الأسياد الشبان الذين اجتمعوا في الساحة وراحوا يتمازحون صاخبين ويتضاحكون ويترفعون عن أن يرمقوا بنظرة واحدة الجماعة التي وقفت مشرئبة الأعناق تنظر إليهم من بعيد

وكان هؤلاء الفرسان المكتسون بالمخمل والحرير فوق دروع رقيقة الصنع والممتطون أحصنة جميلة قد تجمهروا بالقرب من باب القصر وفجأة إذا بالباب ينفتح عريضا فيجثم الصمت على المكان وتنكشف الرؤوس وإذا برجل بشرته سمراء قاتمة متوشح بالمخمل الأسود يبرز على صهوة حصان أدهم ويتقدم نحو الأسياد الشبان الذين شرعوا يصطفون لتحيته وبعد أن ترك عينه تشردان على المدينة التي بدت أكثر صمتا وكأنما هي تعتلج بأسى عميق أخذ يهمهم هذه الكلمات التي لم يسمعها أحد:

-إن حبك ليحرقني يا بريمفيرا! آه فليهلكني الله إذا لم أمتلك جسدك في هذا النهار بالذات!

حينئذ أومأ بيده إلى الفرسان فأخذت شرا\متهم تسير نحو باب من أبواب روما بينما سرت كقشعرية في الجماعة المكتظة هناك هذه الكلمة التي رددتها الأفواه الخائفة:

-إنه ابن البابا غبطة قيصر بورجيا!

وفي هذه الصبيحة نفسها من نوار على بعد سبعة فراسخ من روما تقريبا وعلى طريق فلورنسا كان يسير منفردا على صهوة حصان مطهم فارس دلج متجها نحو مدينة المدن وكان يبدو عليه أنه في التاسعة والعشرين من العمر ذو بزة بالية فد رأفت سترتها مرات عديدة وحزمة علتها الرقعة غير أنه كان يملك وجها عزيزا وشعرا طويلا متهدلا على كتفيه في عقد طبيعية وشاربين دقيقين مرفوعين وقامة فارعة وعينين حييتين ثاقبتين وكان يملك خصوما هذا الدفق من الفرح البرئ المشع على وجهه

وكان يبدو على الشاب أنه يحلم بشئ منزها نظرة في أرجاء الريف الروماني القاحل العاري الذي تحرقه الشمس وإذا به يهتف محدثا نفسه:

-يا لبؤس هذا الريف! فإنه لا يشبه مطلقا الضواحي الزاهية في باريس الحبية لا بغاباتها ولا بحاناتها ذات الخمور اللذيذة والبنات الغويات (قد حرم الإسلام شرب الخمر والزنا) هيا يا " كابيتان" اجر بي يا صديق فلعلنا نقع على نزل مريح

أما كابيتان فإنه اسم الحصان الذي انطلق يعدو بصاحبه ولم تمض عشر دقائق حتى شاهد الفارس بعيدا غمامة صغيرة من الغبار كانت تتقدم نحوه وبعد برهة وجيزة ميز حصانين كان ينهبان الأرض نهبا وكان يخفق فوق أحدهما رداء أسود: إنه كاهن! وفوق الآخر رداء أبيض: إنها امرأة

وما كان أسرع دنوها منه ! وكان الفارس يتأهب لتحية السيدة البيضاء عندما أوقفت فجأة فرسها المسرعة مصطفة إلى جانبه وهي تصرخ مرتجفة :

-أغثني ، أغثني يا سيدي! فأجاب الفارس بحرارة:

-يشرفني يا سيدتي أن أعرف بماذا أستطيع خدمتك

-أنقذني من هذا الرجل! وبإصبعها دلت على الكاهن الذي توقف بدوره

-فصاح الفرنسي متعجبا:

- -رجل كنيسة!

-بل إنه شيطان وإني أتوسل إليك أن تساعدني لكي أستأنف الطريق وحدي .

فزمجر راكستان قائلا:

أيها الكاهن ، هل سمعت؟ عندئذ خاطب الرجل الأسود الثياب الصبية قائلا:

-لسوف تندمين ولكن ساعة لا ينفع الندم! فانفجر به الفارس الشاب قائلا:

- -صه أيها الكاهن! أو وحق السماء لأقصمن ظهرك بهذا السيف !

-أو تجرؤ على تهديد كاهن؟

-أما أنت فإنك تجرؤ على تهديد امرأة! ألا عد القهقرى حالا ولإ تقوتك فرصة تهديد أي كان بعد اليوم!

وفي الوقت نفسه كان الفرنسي قد شهر سيفه متجها نحو الكاهن الذي رمى الشاب بنظرة حاقدة ثم أعاد وجهة حصانه وفر هاربا باتجاه روما وظل رداءة الأسود يخفق طيلة دقيقة في الريح ثم أخذ يتوارى حينئذ عاد الفارس الشاب نحو السيدة فوجد صبية في حدود الثامنة عشرة حسناء عجيبة الحسن وفي هذه البرهة بالذات كان الاستياء يورد وجهها ويصبغه بالأرجوان فيزداد حسنها ألف مرة أكثر وكانت هي أيضا تبعت بنظراتها الكاهن المخيف ثم استدارات نحو مخلصها وقالت بصوتها العذب الطروب :

-إني أحفظ لك عرفان الجميل يا سيد؟ 00000000000فأجابها الفارس:

-راكستان 00

-فرنسي؟!

-باريسي يا سيدتي !

-حسنا يا سيد راكستان إني أشكرك على الخدمة التي أديتها لي.

-لكم كنت أتمنى يا سيدتي أن أشهر السيف على عدو ذي شأن كرامة لسيدة كاملة مثلك ولكن هل أستطيع أن أعرف ما شأن هذا الراهب؟

-لقد ارتكبت حماقة بابتعادي عن البيت وحيدة أكثر مما كان يجب فإذا بهذا الرجل يقترب مني ويشتمني بكلامه فأزمعت على الهرب ولكنه لحق بي وو -000000 هذا كل شي!

-لقد كان واضحا أن السيدة لم تفه بالحقيقة كلها . فأعاد الشاب كلامه قائلا:

-وأنت ، ألا تعرفينه ؟

فترددت برهة ثم حملت نفسها على القول:

-بلى اعرفه وبالتعاستي! إنه آله سافلة في يد رجل مشؤوم قادر آه يا سيدي لقد قلت إنه عدو غير ذي شأن بالعكس إن هذا الكاهن هو بالنسبة إليك منذ الآن عدو يخشى جانبه فإذا صادفته مره أهرب منه وإذا قادك القدر إلى الإلتقاء به فلا تقبل منه شيئا وعليك أن تخشى أولا أن يلقى بك في زانزانه من قصر " سانت أنج" فهذا الكاهن هو " دون كاركونيو!" فأجاب الفارس راكستان:

-إني أشكرك يا سيدتي على المخاوف التي تخامرك بشأني غير أنني لا أخاف شيئا.

-على يا سيدي أن أطلب منك خدمة ثانية

-تكلمي يا سيدتي

-بألا تحاول النظر إلى أيه جهة سأمضى ولا معرفة من أنا

-ماذا يا سيدتي ألن يكون لدي أي تذكار من هذه المقابلة ولن أعرف أي اسم سأطرحه على هذا الوجه الساحر الذي سيلازم أحلامي!

وكان الفارس يتكلم بصوت متأثر فنظرت إليه وقد جعلت الابتسامه ترتسم على شفتيها وقالت:

-لا أستطيع أن أفوه باسمي حتى لك انت الذي انقذتني ولكني أستطيع أن أقول لك اللقب الذي أدعي به

فسألها الفرنسي:

-وما هو هذا اللقب؟

-إنني أدعى بريمفيرا

وبعد أن أشارت إشارة الوداع أعطت السيدة البيضاء قوائم فرسها للريح واندفعت باتجاه فلورنسا

فبقى الفارس مذهولا من هذه الرؤيا وظل بصره معلقا على الرداء الأبيض الذي كان يخفق في غمامة من الغبار ولقد أبصرها تعرج إلى اليمين وتندفع في الرحب من الريف ثم تغيب في قعر طريق جوفاء؟ . وإذا به يقول في نفسه :

-بريمفيرا يالاسم الجميل بريمفيرا أي الربيع إنها بالحقيقة حسناء كالربيع المزهر ولكن ماذا يفيدني أن أفكر بها فلسوف تنساني بعد ساعة ثم ماذا يمكنني أن أرجو أنا المغامر الفقير الآتي الى إيطاليا لأطلب العمل في خدمة شريف من الأشراف !

وبهذه الفكرة القاتمة راح الفارس راكستان يكمل ما انقطع من طريقة إلى روما

راكستان فارس الصمام

لقد كان موكب قيصر بورجيا من النبلاء الشبان يخب بزهو منذ ساعتين تقريبا على طريق فلورنسا وكان ابن البابا يخاطب الريف ومن وقت لآخر كان سباب يفلت من شفتيه وإذا به يصرخ:

وأخيرا هذا هو! ثم اندفع إلى أمام فارس يكر نحوه

-دون كاركونيو !

-هوذا أنا يا مولاي !

-فل، أيه أخبار وراءك؟

-لدي أخبار حسنة وأخرى سيئه لقد أبصرت الفتاة

فاصفر وجه بورجيا وقال مرتجفا :أبصرتها؟

-ولقد كلمتها أيضا

-كاركونيو! سأجل أبي يهبك أرباح دير " القديسة مريم الصغرى "

-إنك سيد كريم يا مولاي!

-ولكن تابع الحديث لقد كلمتها إذن؟ وماذا قالت؟

-هنا تصبح الأخبار سيئه في تتجنبنا ولكننا سوف نبلغ الهدف

-أما عرفت اسمها الحقيقي؟ أما تبعتها؟ أما عرفت مخبأها؟

-لقد طاردت الفتاة يا مولاي وفقا لأوامرك ولكنني إذا لم أوفق إلى اكتشاف أمرها فالغلطة ليست غلطتي.

-يا للجحيم! لقد أفلتت إذن من قبضتي!

-لقد صادفتها (لا يجوز القول الصدف بل بلقدر) قرب غابة الزيتون فاقتربت منها وكلمتها كلاما رقيقا ولكنا أرادت الهرب فالتصقت بها وهي تكاد تجن وكنت على وشك أن أعرف حقيقة أمرها لولا التقاؤنا بقاطع طريق انبرى يخاصمني ثم هجم علي والسيف في يده وإذا بالطائر الأبيض يسلم جناحيه للريح ويطير.

-ياللعنة وهذا الرجل أين هو؟ ماذا ألم به؟ أتركته أيضا يغيب عن بصرك أيها الجبان؟

-كلا! لقد رصدته وإن هذا الغريب يتناول الآن فطوره في مطعم " الفورش" على بعد عشرين دقيقة من هنا فزمجر ابن البابا وقد أدخل مهمازية الذهبين في خاصرتي حصانه

-هيا في الطريق إليه

فاندفعت الشرذمة في عدو جهنمي ولم يطل بها الوقت حتى كانت أمام النزل الذي سماه الكاهن أما هذا النزل فقد كان أشبه بحانة في الطابق السفلي حيث كان المسافر لا يجد لتبريد عطشه سوى نبيذ ردئ وماء فاتر وكان هناك حديقة تمتد أما هذا الكوخ على طول الطريق التي لم تكن تنفصل عن الحديقة بأية حفرة ولا بأي سياج

وكان يرتفع في هذه الحديقة نفق ردئ المظهر وفي هذا النفق المسقوف بالقماش لفقدان الأغصان الخضراء كان الفارس راكستان يتناول الفطور ولم يكد الكاهن يراه حتى هتف قائلا :

-هو ذا الرجل!

فتفرس قيصر في الشاب الذي حيا الفرسان عند وصولهم ثم جلس يستأنف فطوره ولقد عرف راكستان الكاهن فسوى حالا منطقو الجلد التي تحمل سيفه كما أن عينه الثاقبة وهي تجوب الجمع كانت قد عرفت رجلا آخر هو قيصر بورجيا فتمتم الفارس في نفسه قائلا" إنه لقاء رائع! وإن نجمته السعيدة قد هيأت لي مفاجأة موفقة

أما قيصر بورجيا فكان قد استدار نحو النبلاء الشبان المحيطين به وصاح بأحدهم ساخرا:

-كيف يبدو لك يا " أسطور" هذا النبيل الشهير الذي يفطر في هذا القصر؟

ولم يسه الفارس عن حرف واحد من هذا السؤال كما انه فهم محتواه المهين فشرع يفكر قائلا :أظن أن المفاجأة لن تكون موفقه بشئ وأن نجمتي السعيدة غائبة عنها.

أما النبيل الذي ألقى عليه السؤال فكان قد تقدم بعض خطوات وهو رجل يناهز الثلاثين من العمر قوى البنية ذو رقبة غليظة كرقبة الثور وكان معروفا عنه في روما أنه مبارز رهيب ذلك أن خمس عشرة مبارزة المعروفة كان حصادها خمسة عشر قتيلا :

وراح الرجل الضخم يحدج الفارس ثم انفجر ضاحكا وقال:

إني أفكر بأن أعطي هذا المجهول عنوان الإسكافي الذي يرقع أحذية خدامي.

فانفجر الجميع بضحك عام. لكن بورجيا ظل رزينا إلا أنه غمز " أسطور" فتابع كلامه بإصرار "

-سوف أعطيه أيضا عنوان خياط لترقيع سترته ثم تقدم أيضا وقال: زه أيها السيد! أريد أن أؤدي لك خدامة

فنهض الفارس عندئذ وتقدم منه بدوره قائلا: أية خدمة تقصد يا هذا؟ أو تقرضني قليلا من هذه الروح التي تؤجج في خطابك؟

-كلا! ولكن إذا مررت على فإنني أعتقد أن حاجبي قد وضع جانبا بزته الأخيرة وهو يخلعها هبه عليك لأن بزتك هه تبدو في حاله يرثى لها.

-إنك تقصد ولا شك يا سيدي الرتوق العديدة التي تزين سترتي؟

-لقد حزرت من اللحظة الأولى!

-حسنا إذن! فهذه الرتوق هي موضة جديدة أريد أن أجعلها معروفة في إيطاليا ثم إنه ليسيئني أن تكون سترتك أنت سليمة وإني أطمع في أن أفتح لك فيها شقوقا بعدد الرتوق في صدري

-وبأي شئ من فضلك؟ فأجاب الفارس مستلا سيفه من غمده:

-بهذا!

فقفز "أسطور" عن صهوة حصانه ونضا سيفه وقال: أنا أيها السيد البارون أسطور من الأوصياء الأشراف

واني عريض الصيت في روما !

- أما أنا يا سيدي فإنني من الباستيل ومن الباستيل هذه ولدت حتى اللوفر يدعوني الناس فارس الصمام ذلك أني والصمام شخص واحد وهنا وسوس قيصر بورجيا بدهشة قائلا : إنه فرنسي!

أما اسطور فقد صرخ قائلا: هيا آذن الى الصمام، واني لسوف أحطمك وأثقب بطنك في آن واحد ومال كلا الرجلين إالى الأمام يتربص أحدهما الآخر ثم اصطدم النصلان

- سيدي البارون أسطور يا ذا العين الثاقبة هل عددت كم هي الرتوق في سترتي؟
- إني أرى ثلاثة يا سيد الصمام
- ـ أخطات إنها ستة فلك الحق بستة شقوق وإليك أولها

فقفز أسطور إلى الوراء صارخا لأنه قد أصيب في صدره وإذا بنقطة دم أرجوانية تلطخ حرير سترته الرمادية فصاح بورجيا : احذر يا أسطور

- وحق الجحيم لسوف أسمره في الأرض

ثم هجم الرجل الضخم شاهرا سيفه الا أن راكستان أجاب وهو منفجر يضحك: واإليك الضربة الثانية!
وهكذا ضربة إثر ضربة علم الفارس عليه ثلاثا أخر فكانت نقطة من الدم تظهر كل مرة! وبينما كان الرجل الضخم يجأر ويثب كان راكستان هادئا لا يتحرك ولكنه ما عتم أن قال: سيدي عندك الآن خمسة جروح فاحذر من السادس

فأطلق أسطور دون أن يجيب ضربة محكمة تلك التى يوفرها عادة لخصومة الأشداء ولكنه لم يعتم أن جرح جرحا آخر فعوى من الألم راميا سيفه ذلك أن راكستان كان قد ثقب له ذراعه الأيمن وهو يقول بهدوء: دونك الضربة السادسة!

ثم استدار نحو جماعة المتفرجين وقال: هل منكم من يريد اقتباس الموضه؟

فقفز اثنان أو ثلاثة من النبلاء الشبان إالى الأرض وصرخوا مزمجرين: دونك الموت!

إلا أن قيصر صرخ قائلا: كلاااا

أصمتوا بسلام !

ذلك أنه لم يكن في نفس بروجيا هذا غير عبادة واحدة هي عبادة القوة والمهارة ولكم أذهلته مرونة الفارس وصمودة فحدث نفسه بأنه سوف يجعله أحد أتباعه البسلاء لذلك اتجه إاليه بينما كان رجاله يتجمهرون حول أسطور الجريح وقال:

- ما اسمك أيها السيد؟
- الفارس راكستان يا صاحب الغبطه فارتعش بورجيا وقال:
- ولماذا تدعوني " صاحب الغبطه"؟
- لأنني أعرفك ومن ذا لا يعرف من هيبتك المحارب الشهير الذي تعجيب به فرنسا كسياسي كبير باسم دون فالنتينو والذي تحييه إيطاليا كقيصر جديد باسم بورجيا!
- فصاح بورجيا قائلا: إن مهارة هؤلاء الفرنسيين في فن الخطاب هي كمهارتهم في فن السيف

فتابع راكستان قائلا: جئت يا مولاي إلى إيطاليا يحدوني الرجاء بأن أنضوي تحت لوائك وانني فقير بالمال ولكنني غني بالأمل لذلك فقد فكرت بأن القائد العظيم قيصر بورجيا سيعجب بسيفي فيجعلني من رجال.

- حسنا! لن يخيب رجاؤك ولكن كيف يحدث أنك تجيد الإيطالية ؟
- لقد أقمت طويلا في ميلانو وبيزا وفلورنسا التي أنا قادم منها الآن ومن ثم فقد قرأت تكرارا دانتي الذي درست له الكوميديا الإلهية

في هذه الأثناء اقترب دون كركونيو من بورجيا وقال:

- لقد شهر هذا الرجل سيفه في وجه رجل من رجال الكنيسة ولولاه لكانت برمفيرا الآن في حوزتك

ولم يسمع راكستان هذه الكلمان ولكنه فهم من التعبير على وجه بورجيا بأن قضيته ستنقلب الى منقلب سئ فانبرى يقول:

- لم تسألني يا مولاي أين عرفتك وإني سأقص هذا عليك .

فقال قيصر بإيجاز: تكلم

فخلع الفارس قفاز يده اليمنى فإذا ماسة مغروزة في خاتم ذهبي تلمع في إصبعه الصغير

- أتعرف هذه الماسة يا مولاى؟

فهز بورجيا رأسه فيما تابع الفارس يقول: إنها ذخيرتي وإليك قصتها: وصلت منذ أربع سنوات إلى "شينون" عند المساء --- فقال بروجيا متعجبا: شينون!!

- نعم مولاي وكنت قد بلغتها في مساء يوم دخولكم إليها دخولا مازلوا يتحدثون عنه لأنه أحدا من الناس لم يشاهد أبهة كتلك ! فبغال موكبك كانت منعلة بالفضة وكانت الأحصنة مسمرة في حوافرها بمسامير من الذهب وكانت تلك المسامير شبه معلقة بالحوافر فراحت البغال والأحصنة تبذر الفضة والذهب الذي ازدحم عليه الناس لكي يجمعوا نثار جودك الزاخر . فقال بورجيا حالما:
- أجل إني لأذكر ذلك

- وفي المساء عند منتصف الليل ارتكبت غلطة فادحة إذا خرجت من القصر وحيدا وعندما اجتزت باب المدينة كنت متجها نحو بيت هناك منعزل غني المظهر فإذا .....
- فإذا بثلاثه أو أربعه لصوص يهجمون على طامعين ولا شك بجواهري
- تماما! ولكن هل تذكر تتمة الأمر؟
- وكيف أنسى ذيك؟ فقد كنت على وشك العياء عندما أقبل رجل مجهول فطرد بسيفه أولئك الأرذال.
- أجل، ولقد وهبتني يومئذ هذه الماسة الجميلة
- ولقد قلت لي بأن استخدمها لكي أكشف لك عن نفسي كلما كمنت بحاجة إلى حماية
- أيها الشاب أنت في خدمتي منذ هذه الساعة والويل لمن يجرؤ على مسك بأذى!!!

وأدار نظره لكي يعزز هذه الكلمات فإذا الموكب بأجمعه ومنه أسطور المعصب الذراع ودون كاركونيو قد انحنوا أمام الشاب الفرنسي الذي استولى على عطف اسكندر بورجيا الذي أمر قائلا: هيا أيها السادة إلى السير ولنعد إلى روما أما أنت أيها الشاب فإني أنتظرك عند منتصف الليل.

- وأين ألقاك يا مولا ي ؟
- في قصر شقيقتي لو كريس ، أي في القصر الضاحك
- في القصر الضاحك ! عند منتصف الليل ! سمعا وطاعة يا مولاي!

ثم انحني الفارس راكستان وعندما انتصبت قامته رأى شرذمة النبلاء تبتعد في غمامة من الغبار وكان الفارس قد لاحظ أن نظرتين حاقدتين مميتتين قد رماهما عليه خلسة البارون أسطور والكاهن كاركونيو ولكنه هز كتفيه ثم أكمل فطوره المتواضع وبعد أن دفع الحساب عاد فامتطى صهوة جوداه

القصر الضاحك

كانت الساعة الرابعة بعد الظهر تقريبا عندما دخل الفارس راكستان إلى المدينة وكان قد أكمل الطريق سيرا على قدميه ليتسنى له الاستلام إلى تأملاته وأحلامه والفارس راكستان هو بان أرصفه باريس وكان حتى ذلك التاريخ يعيش عيشة يحكمها القدر لأنه لم يكن يعرف أباه ولا أمه التى ماتت ساعة مولده أما والده فقد كان نبيلا فقيرا من مقاطعة غاسكونيا جاء إلى باريس يطلب الثروة ولكنه مات من البؤس والفارس مايزال رضيعا عند مرضعة

وكانت هذه المرضعه تبيع الثياب المستعملة تحت سقيفه منصوبة في زاوية شارع القديس أنطوان تقريبا باتجاه باب الباستيل الكبير ولقد تعلقت بالصبي الفقير اليتيم ووضعت في رأسها بأنها ستجعله خلفا لها في تجارتها بالملابس القديمة وعندما أصبحت أرملة أخذت لها عشيقا لتستعيض به عن زوجها وكان عمر الفارس الصغير عندئذ سبع سنين وكان عشيق التاجرة راهبا يقرأ ويكتب ويمارس الحساب ولقد انتقل العلم بأجمعه من دماغه الى دماغ الفارس الذي أصبحت معرفته وهو في سن الرابعة عشرة تقريبا معرفة كاهن وكانت التاجرة قد ابتدأت تحلم له بمستقبل باهر الا انها اصيبت بداء الحصباء وقضت نحبها.

وقد مشى الفارس الشاب باكيا وراء المرأه التى كانت تحل محمل أمه ثم جفف دموعه ودخل دكان المرحومة فاتختار لنفسه بذله كاملة يزينها سيف طويل

ولكن كيف عاش بعدئذ؟ من المحتمل أنه عاشر كثيرا الحراس العسكريين وبعض شذاذ الليل حتى أنه اصبح وهو في الثامنة عشرة مبارزا مرا يخشى جانبه في الحانات وعداء كبيرا وراء الفتيات وشاربا نهما لدنان تراه ممزق الثياب وسيفه الى النصف خارج القراب يلتقي بالحارس فيلطمه وبالبورجوازي فيوسعه لكما: أي انه اصبح من الرعاع الحقيقين

ولكن لا يظنن القارئ أن الفارس كان أحد بؤساء العصر من أهل التسول والنهب والسلب جل أمره أنه فطر على طبيعة مغامره ولقد كان يقتسم ما تملكه يداه بينه وبين من هم أكثر فقرا منه كما أنه كان يدافع عن الضعفاء دون أن يقترف أي عمل شنيع غير أنه بسبب تربيه المهمله في وسط أخلاقه مطاطه حيث لا موجه له غير شهيته للمغامرات كان يعيش على هواه مقتنصا القوت أينما تقع عليه يداه

وفي أحد الأيام إذا بهذا الذي يدعونه فارس الصمام والذي غدا يثير العب قد اختفى فجأه ومن المحتمل أن يكون قد ثقب صدر سيد نبيل أو اختطف امرأه بورجوزاي قادر ثم توارى عن الأبصار إلا انهمن المؤكد أنه قام في هذا الوقت بالذات بجولة ابتدأت في فرنسا وانتهت في أوربا

وكان من جراء ذلك أنه ازداد تعقلا إذ تغلبت في نفسه الصفات الحسنة على الصفات الرديئه فإذا بالفارس يطرح عنه هوس الشباب ويصبح من الشرفاء الكاملين

بهذا كله كان يفكر يطلنا وهو يقترب من روما فقد كان يعيش ماضيه بأشواق رجل يرى مستقبلا جديدا ينفتح أمان ناظريه أما هذا المستقبل فقد كان يدور حول هذا الاسم : بورجيا !!

وفيما كان يجتاز باب روما أخذ يقول في نفسه ها أنذا الآن بين عدوين السنيور أسطور والكاهن كاركونيو لقد هددت هذا واوقعت بذاك أجل ولكنني في حماية رجل قادر هو قيصر بورجيا وباللشيطان إذا لم أبلغ خدمته مركزا مرموقا! ولعلي لا محالة بالغ ذلك ترى من يدرى؟

حينئذ تطلع الفارس حوله بنظرات فاتح إلا أنه كان يرى في هذا المستقبل الذي كان يستشفه نقطه سوداء يظلم بها الأفق إذ أنه كان يفكر بتلك المرأة المجهولة العجيبة العذبة الاسم والوجه وإذا به يتنهد مرددا:

بريمفيرا ياللاميرة الساحرة ! أيقدر لي أن أراها مرة ثانية ؟ ولكنها من تكون؟ ولكاذا كان يطاردها ذلك الكاهن الرهيب؟ ولسوف اتوسل من أجلها وأحصل لها مهما كلف الأمر على حماية الرجل القاهر قيصر بورجيا!!

ولكن ياللفارس المسكين ..... لو كان يدرى !!

هنا رفع الفارس رأسه فلاحظ أن بعض الناس ينظرون إليه بفضول وعلم أنه يسير فوق جسر فالتفت إلى ولد وسأله قائلا:

أي جسر هذا؟

إنه يا سيدي جسر الرؤوس الأربعة

والقصر الضاحك هل تعرفه؟ فسأله الولد برعب بدا على وجهه قائلا: قصر السينورا لو كريس؟

أجل أتعرف موضعه؟ فقال الولد الصغير مادا ذراعيه:

هناك!!

ثم عدا هاربا كأن شيطانا دخل في ثيابه .

فتبع الفارس الإتجاه المعين مفكرا بهذا الرعب الغريب الذي استولى على الصبي ثم إذا به يستوضح رجلا عل الطريق وعندما سمع الرجل اسم القصر الضاحك حدجه بوجه مربد ثم سار في طريقه مهمهما يعلن ويشتم فتمتم الفارس قائلا: يا للعجب! ياللعجب!

الإ أنه وصل أخيرا إلى ساحة خالية قام فيو سطها بناء غني ولقد استوى في مقدمتها صفان من أعمدة الرخام الوردي يؤلفان ممشى ممتدا أمام القصر. وكان هذا الممشي ينفرج بشكل خليج فسيح فيظهر في قعره درج فخم من الرخام أيضا أما واجهة القصر فكانت مزينة بنحوت قديمة ثمينة مهوبة من بقايا الآثار التي يعثر عليها صدفة بين كنوز روما القديمة.

وعندما شاهد الفارس ذلك قال في نفسه : لا شك بأن هذا هو القصر الضاحك الذي استحق هذا الاسم من هذه التماثيل الكثيرة الضاحكة التى تزينه ومن هذه الأزهار التي نبتت داخل الممشي كحديقة لا نظير لها.

وفي مقدمة هذه الحديقة كان يقوم بالحراسه فارسان وقفا صامتين كأنهما تمثالا خياليين فمال الفارس إلى أحدهما يسأله أهذه هو القصر الضاحك؟ فأجاب التمثال منذرا: نعم إبتعد ! فهمهم الفارس في نفسه وهو مبتعد في طريقه يقول: ياللشيطان إنه قصر شددت الحراسة عليه!

وكانت الساحة خالية فإذا بالقصر الضاحك يبدو وكأنه قصر لسكان ألم بهم الطاعون أما راكستان فبعد أن خطا قرابة خمسين خطوة في الشارع المتفرع من الساحة وجد نفسه أمام نزل نشأت فيه الحياة ولكن على شئ من الفزع والتردد .

هناك نزل الفارس عن صهوة جوداه ودخل في النزل الذي كان يدعي " مقهى جانوس الجميل" حيث طلب مكانا في الأسطبل لحصانه "كابيتان" وغرفة له فقام صاحب النزل وقاد راكستان إلى غرفة صغيرة في الطابق السفلى ولكن الفارس قال ملاحظا:

إنها رطبه

ولكننا لانملك غرفة غيرها فارغة

سآخذها لأنكم هنا قريبون من القصر الضاحك فقال المضيف متعجبا: رباه ! أنت إذن في خير مكان لأنك من النافذه تستطيع رؤية مؤخرة القصر.

حينئذ فتح المضيف النافذه أو بالأحرى بابا شبيها بالنافذة فإذا بهبة رطبة تنفح راكستان على وجهه فيسرع إلى السؤال:

ماهذا؟

إنه نهر التيبر ألا تعرفه؟؟!

وفي الواقع كان النهر يجري بين صفين من البيوت دون رصيف أو ضفة وقد لاحظ راكستان ان سملا بعدة درجان كان ينتهى طرفه عند صفحة الماء وذلك وراء كل بيت وأمام باب الغرفة الشبيه بالنافذة وهنا قال المضيف مرة ثانية: أنظر أترى ذلك الدرج العريض عند كوع النهر؟ إنه درج القصر الضاحك .

فقال راكستان وهو يدخل إلى الغرفة ويغلق النافذه : حسنا!

تعجبني هذه الغرفة رغم رطوبتها فقال المضيف: ولكن الدفع سلفا

فدفع الفارس ما عليه ثم طلب خيطا وإبره وانهمك في إصلاح ثيابه إصلاحا دقيقا وبعد أن فرشاها ونظفها بكاملها قام وتناول العشاء ولقد استنفدت هذه ولقد استنفدت هذه المشاغل وقته حتى السعة التاسعة

وبعد ساعة أخرى من الوقت كان الفارس راكستان مفهمفا والسيف إلى جانبه ينتظر بفارغ صبر البرهة التي يذهب فيها إلى قصر لو كريس بورجيا

وكان قلبه يخفق قليلا عندما يفكر بأنه سوف يرى أكيدا وعن كثب المرأة التي يخلب حسنها عقول أحكم الناس ولقد كان صمت عميق يثقل كاهل المدينة النائمة ولم يكن هنالك غير خرير نهر النيبر الذي يبعث في الليل أصواتا حزينة كانها شكاوي بتألم بالغ حتى أنه أخيرا أخذ يتحرك لكي يخلص نفسه من هذا الشعور ولعى كل حال فبعد قليل سيجئ نصف الليل

هنا قام الفارس إلى شمعدانه فأطفأه وكان يهم بالخروج ملتفعا بمعطفه عندما ند عن النهر تأوه ممزق فارتعد راكستان وغمغم في نفسه يقول: الآن هذا ليس بوهم ! إن صوتا بشريا قد أرسل بالحقيقة هذه الزفرة

وإذا بصراخ اليم يصعد من جديد وكأنه يدوي في الغرفة فارتجف راكستان ثم ارتفعت زفرة ثالثة مختنقة فصاح راكستان : هذا آت من التيبر

ثم انطلق مسرعا ففتح الباب الشبيه بالنافذة فإذا بالليل صفيق وإذا بالثيبر المضغوط بين البيوت يدفق أمواجا سوداء فنزل الفارس على الدرجات الأربع وانحنى فوق النهر ثم مد يديه فالتقتا بقماش حريري على جسم رجل كان يزفر فأمسكه راكستان بكتفيه فساله الرجل قائلا: من انت؟

لاتخف إنني رجل غريب بل صديق

ليس هناك أصدقاء آه سأموت بعد قليل . إسمع !!

فأراد راكستان أن ينتشله من الماء غير أن الرجل قال وهو يشهق شهقة النزاع الأخير : كلا ! لا نفع من انتشالي لأنني سأموت بعد قليل ولكنني أريد أن أنتقم إسمع ! فقال راكستان وقد وقف شعر رأسه: تكلم إنني أسمع

حذر الكونت آلما وحذر ابنته فـ"هو" يريد أن يخطفها

ومن هو الكونت آلما ومن هي ابنته؟

ابنته بياتريكس ،بريميفيرا فارتعش راكستان من السخط

وقال: قلت إنه يريد اختطافها ..... فهمن هو هذا ؟

الذي قتلني الآن : انه مو.....

وفي هذه اللحظة انتفض الرجل انتفاضة مميتة ثم تقلص ساكنا وقد تركت يداه الحجر وانقلبت جثته في الماء فإذا به يغيب في وحل الأمواج السوداء فانطلقت عينا راكستان تبحثان في الظلام ولكن عبثا!!

حيئذ دخل إلى غرفته ومسح وجهه الناضح بعرق الكمد والقلق . ولم يلبث أن تلفظ قائلا: أواه ماهذا السر المخيف!!؟

إنها تدعى بياتريكس وهي ابنة الكونت آلما وهناك من يريد اختطافها فمن يكون هذا؟ من يكون؟

وفي هذه الثانية دقت ساعة في كنيسة القديس بطرس فقال الفارس:

هوذا منتصف الليل!!

ثم اندفع إلى الخارج راكضا نحو القصر الضاحك حيث كان بانتظاره حاميه الشهير قيصر بورجيا

ليالي روما

في البرهة التي كان فيها الفارس راكستان منهمكا بتعليق بعض الشرائط على سترته نحو الساعة التاسعة كان قيصر بورجيا برفقة أربعة شبان يدخلون إلى القصر الضاحك أما القصر فقد كان ينقسم إلى قسمين واضحين: يتألف القسم الأول من شقق رسمية ويحتوي دزينة من الغرف الفسيحة المطلة على الساحة والتي جهزت بطنافس فخمة لم ير لها مثيل. ولقد اجتاز قيصر ورفقته هذه الغرفة حتى وصلوا إلى باب من البرونز قام على حراسته نوبيان أسودان كالليل أخرسان كالصخر الأبكم عندئذ أشار قيصر إشارة واحدة فوضع أحد النوبين إصبعه على زر جعل باب البرونز ينفتح بسرعة

ولم يكد قيصر ورفاقه الأربعة يجتازون الباب حتى انغلق خلفهم فإذا بهم في بهو جدرانه العالية من الرخام المعروق وفي ضوء وردي كان ينهمر من قنديل في السقف فيدع المكان في شبه ظلمه وكان يصطف حول هذا البهو عدد من التماثيل الرخامية البيضاء التي يبرز عريها الأباحي إلى الأبصار بشكل مدروس وفي الوسط منه كانت بركة موزعة المياة تنشر برودة لذيذة في جو المكان ومن البركة كان يرتفع تمثال ملاك الحب وهو متقلص بينما راحت تتوجه وتجلوه إلهة اللذة ولقد كان هذا التمثال رائعة من روائع نحات شاب يعيش في حماية لو كريس ويدعي ميكال آنج بيوناروتي.....

وباتجاه المدخل كان هناك باب مصنوع من خشب الورد مطعم بسبائك لطيفة من الفضة كانت تحرسه امرأتان مستلقيتان على مسندين وسرعان ما فتح هذا الباب بطريقة سحرية فدخل قيصر مع صحبه إلى غرفة أقل اتساعا ولكنها ذات فخامة أكثر ذوقا وأكثر جمالا ولقد قام في أنحائها شمعدانات ذهبية تحمل مشاعل من اشمع الوردي الذي تتصاعد منه عطور مثيرة وكان هناك موسيقى تسمع كأنها قادمة من بعيد وهي ممزوجة بأصوات نسائية تتغني بالمجد

ولم يكن في هذه الغرفة من أثاث سوى خزانة للآنية وطاولة واسعة إلا أنه كان ينتشر هنا وهناك عدد كبير من المتكآت الوثيرة والسجاد السميك وكانت الطاولة تحمل قصاعا أسطورية الغنى تحتوى ثمارا مثلجه ومربيات غريبة وحلويات شهية كانت لوكريس وحدها تملك منها

أما الطاولة فقد كان عدة رجال آخذين مكانهم حولها لم يكونوا جلوسا ولكنهم متكئين على شبه أسرة على طريقة الرومانيين لالقدماء وكان يوجد بينهم امرأة : إنها سيدة القصر الساحرة المسيطرة على حواس الرجال أخت قيصر وابنة البابا لو كريس بورجيا!

وعندما دخل قيصر مدت له يدها التي كان كل إصبع فيها يلمع بثروة من الحجارة الكريمة وقالت : كم أنت متأخر يا أخي !

فأجابها قيصر قائلا: أعذرينا يا لوكريس العزيزة فلقد عدنا في الليل بعد نزهة طويلة

إني أعذرك ولكن ألا تكلمن أخاك بشئ

فاستدار قيصر نحو رجل جالس قرب لوكريس كان القلق قد ظهر على وجهه عندما رأى قيصر داخلا هذا الرجل هو فرنسوا بروجيا دوق غانديه الإبن الثاني للبابا وشقيق قيصر لوكريس

ولقد مد الأخوان يديهما وتصافحا مبتسمين غير أن كلا منهما كان يراقب كل حركة يقوم بها الآخر أما لو كريس فقد مالت في هذه اللحظة نحو فرنسوا وقبلته بعنف فقال قيصر ساخرا:

ياللحب الأخوي الذي يبدو لي غريبا رغم خبرتي في هذا الموضوع!

فقالت عندئذ لوكريس: إنني أحب فرنسوا لأنه خيرنا

فقال دوق غانديه قلقا مضطربا : إنك تغدقين علي عطفك ولقد نسيت أنه إذا كان بيتنا ينعم بالمجد وإذا كان عرش والدنا البابوي صامدا لا يتزعزع فالفضل في هذا إنما يعود إلى سيف عزيزنا قيصر

فقال قيصر منذرا: هذا صحيح فلطاما أجدت استعمال السيف فالطعن بالسلاح الأبيض هو من اختصاصي أكان ذلك السلاح سيفا أم خنجرا!!!

وفيما كان يقول هذه الكلمات أخرج خنجره ثم غرزه بضربة عنيفة فوق الطاولة فاعترى الجلوس ومن بينهم فرنسوا ارتجاف واصفرار أما لو كريس فقد انفجرت ضاحكة وقالت بمرح: هيا إلى العشاء!

ولم تكد تلتفت إلى ستارة من الحرير المقصب حتى أخذت تتحرك بالطف ثم أقبلت الوصيفات يسكبن في الأكواب سرقسطة وشيو معطرة وديمة المعصفرة التي تشبه بألوانها حجارة الياقوت وكانت الوصيفات وعددهن تسع بعدد الجلوس.

وكانت لوكريس مكتسية الذي كانت تبدو تقاطيعه كأنها منحوتة في الرخام وكانت بين حين وآخر ترمي نظرها على الستارة فإذا بها ترتجف ومهما كان رجفان القماش خفيفا فقد كان كافيا لإعلام لو كريس بأن أحدا هناك يرقبها ويصغى إليها

وفجأة إذا بها تسأل : ماذا يقولون في روما؟ فانبرى دوق ريانزي قائلا: تالله يا سيدتي إنهم يتحدثون بشئ غريب لم يرو مثله من قبل!

وماذا يروون يادوق ريانزي؟ فهم الدوق أن يفتح فمه بالحديث إلا أن فرنسوا قاطعه بالهجة متوسلة قائلا: أرجوك أيها الدوق!

ولكن الشراب الثقيل كانت قد بدأت تفعل فعلها في الرؤوس ، لذلك فقد استأنف الدوق حديثه قائلا: إنهم يروون في روما حكاية حب ! فقالت لوكريس : هلا رويت لنا الحكاية! فالحب هو الشئ الوحيد الذي يستأثر بالحياة والموت

ثم شرعت تعانق أخاها فرنسوا قائلة بصوت مخدر : قص أيها الدوق !

فصاح الحضور : أجل أجل ! هات عن الحب

وكانت الموسيقى البعيدة ترسل أمواجا من الألحان التي كانت تزاد رقة عندئذ تابع دوق ريانزي كلامه قائلا : إنها قصة حب طاهر عذري أخجل من روايتها هنا

فقال قيصر بلهجة مقتضبة : تكلم!!

سمعا وطاعة يا صاحب الغبطة : يحكى عن قائد مشهور أنه عاشق

فاجتمعت الأنظار على قيصر إلا ان الدوق تابع قائلا : بل إن العشق آخذ منه كل مأخذ حتى أن قلبه المقدود من البرونز قد أضحى الآن قلب حمامة إنه يتنهد ويتأوه أما المرأه التي اججت ضرام حبة فإنها شرسة لا يستطيع أحد أن يدانيها هنا تصبح القصة غريبة عن العقل إذ أن المرأه الشرسة بدل أن تتقبل بالشكر هدايا الأمير الكبير فإنها ترفضها وتحتقرها

فسألته لو كريس : وما اسم هذا العاشق الطريف؟ فتعلثم دوق ريانزي قائلا وهو متمتع بالسكر:

إحرزيه إنه موجود بيننا

فزمجر عندئذ قيصر بورجيا : لا داعي إلى ذلك فأنا العاشق والويل لم يفتح فمه منتقدا !

فتلجلج دوق ريانزي وقال: مولاي صدقني ------ فقاطعة قيصر قائلا:

أما المرأة الشرسة كما أحسنت تسميتها فقد كانت اليوم على وشك أن تقع بين يدي وكانت ستكف عن احتقاري

فانفجرت لوكريس ضاحكه وقالت:

أهكذا تخونني يا عزيزي قيصر؟

فأجاب قيصر الذي كان يشعر بأن عقله بات يغيب في سكر شديد سكر من الحواس وسكر من الكبرياء الطاغية : كلا يا الوكريس إني لا أخونك فأنت ملك لي كما ستكون ملكا لي هي أيضا وكما كانت لي امرأتك يادوق وكما يجب ان يكون كل شئ ملكا لي وحدي !!!

وكان قيصر يلهث في نوبة جنونية في هذه اللحظة بالذات قامت لوكريس إلى شقيقها فرنسوا دوق غانديه فطوقته بذراعيها وهي تتمتم:

لحسن الحظ أنك باق لي يا فرنسوا الأمين وها إني أخصك بفردوسي فإذا بقيصر يجأر دافعا الطاولة بغضب شديد:

يا للجحيم

وفي الوقت ذاته انتزع الخنجر الذي كان ما يزال مغروزا أمامه وتقدم نحو أخيه فرنسوا وهو يقول بصوت أعياه الغضب والسكر : آه ليصحبك إذن سرك إلى الجحيم!!

وارتفع ذراعه ثم انخفض فاخترقت المدية صدر دوق غاندية الذي سقط على ظهره قائلا والدم يتدفق من فمه: لقد مت !!

هنا جمد مشاهدو هذا الفصل كأنهم الحجارة أما لو كريس فقد تراجعت إلى الوراء وقد ارتسمت ابتسامة غريبة على شفتيها اللتين لم تبتهتا مطلقا وكان دوق غانديه التعيس الحظ يزفر قائلا: إلى إلى إني أشتعل ! قليلا من الماء أشفقوا علي قليلا من الماء !

فقال قيصر يهزء مشؤوم أتريد ماء؟ انتظر يا أخي فسأسقيك !

ثم أمسك برجلي أخيه وشرع يجره وهو يجأر قائلا : الماء لأخي فرنسوا! الماء بل كل مياه التيبر!

وبعد أن اجتاز به وهو على هذه الحال صفا من الغرف وصل إلى باب أخير ففتحه بنفسه فكان التيبر من دونه جاريا في الليل

عندئذ رفع قيصر الجسم وبدفعة عنيفة ألقى به في النهر

أما شهود هذا الفصل فقد هربوا بعد أن نصل لونهم من الفزع بينما قامت لوكريس بورجيا فرفعت الستارة الحريرة المذهبة ودخلت إلى حجرة خاصة في هذه الحجرة كان يجلس على الأريكة شيخ ذو ملامح صلدة متسم بخبث لا يحد وكان هذا الشيخ قد سمع كل شئ ورأى كل شئ من وراى الستارة التي كانت تتحرك من حين لآخر بالرغم من أنه والد فرنسوا دوق غاندية ووالد قيصر دوق فالنتينوا ووالد لو كريس دوقة بيزاقلية أي أن هذا الشيخ هو رودريك بورجيا أو الباب المزيف اسكندر الثالث

وعندما رأته لوكريس سألته قائلة: هل أنت مسرور الآن يا أبي؟

ليس كثيرا يا ابنتي فقد تماديتم قليلا يا لفرنسوا المسكين ؟

ولكن ماذا يمكننا أن نفعل نحن أمام إرادة الله؟ على كل حال هذا ما حصل وسأحتفل بقداس عن رحة نفسة يااللخسارة لقد كان حذفا فرنسوا هذا!! ولكن ألم يكن دوق غادنديه يزعج مشاريعي؟

هيا وإلى اللقاء يابنتي إني أمنحك البركة الرسولية

وعندما نهضت لو كريس كان والدها قد اختفي

نزوات لوكريس بورجيا

عادت لو كريس إلى "قاعة الوليمة" ولكنها ألفتها خالية فتمتمت قائلة:

يا للجبناء! لقد هربوا آه ما أقل الرجال ! لقد كان أبي رجلا ولكنه عجوز الآن أما أنا فإنني أشعر الآن بشهية لتمزيق عالم بأجمعه .

وتمددت على مقعدها وتناءبت ثم تابعت قائلة : إني ضجرة والضجر ينهشني نهشا إني أخلق وأبتكر كل يوم ملذات جديدة ولكن بال جدوى وبلا جدوى أراني أبهر روما بأبهة أعيادي المستمرة أجل إن قلبي قارغ والضجر البطئ يقرض روحي

وفجأة إذا بخيال ينتصب إلى جانبها فقالت وهي تمد يدها : هوذا أنت يا أخي؟

أجل إنه قيصر بروجيا الذي دخل إلى القاعة منذ لحظة ولو رأة أحد لما داخله الشك مطلقا بأن هذا الرجل إنما هو عائد من عرس أخيه . ذلك أنه جاء يطالع أخته بوجه مرح بينما راحت هي أيضا تنظر إليه مبتسمة ثم قالت:

أيها الشرير لماذا قتلت فرنسوا هذا المسكين؟ كنت تعتلج بالغيرة؟

نعم يالوكريس يزعجني ألا أكون المفضل أمام أصدقائي وما عدا هذا فما أنا بالأحمق الذي تظنين إذ تعتقدين أنني غيور مبتذل فأنا لا أهتم أن تكوني للآخرين شرط أن تكوني لي وحدي عندما أظهر

فهزت لو كريس رأسها وطفقت تفكر ثم قالت فجأة: هذا صحيح ولكنك سترث يا قيصري العزيز "فالحادث" يجعلك أيضا دوق غانديه

أجل يا أختي الصغيرة ولكن ستنالين حصتك من الورثة مليونا من الليرات الذهبية أيسرك هذا؟

طبعا يسرني فقد كنت أود بناء هيكل وليراتك الذهبية هذه كفيلة بتحقيق الهدف .

فهتف قيصر متعجبا: هيكل !!

نعم هيكل لفينوس ، فينوس الدنسة فأنا أريد أن أبعث عبادتها في روما وأريد أن يبني الهيكل بين كنيسة القديس بطرس والفاتيكان فينما يكون والدنا محتفلا بقداسه في هيكله المسيحي أكون أنا محتفلة بقداسي في كنسيتي الوثنية ولسوف نرى من منا سيتبعه عدد أكبر من المؤمنين.

فصاح قيصر: إن فكرتك لرائعة يا لو كريس !

ولكنها أقل روعة من فكرتك بالاستيلاء على إيطاليا وبتنصيب عليها ملكا يا عزيزي القيصر.

عندما أحقق خطتي يا لو كريس فكلانا سنحكم العالم!!

في هذه اللحظة ارتفع ضجيج صراخ قريب فأصغيا إليه فإذا هو آت ن شقق القصر فقال القيصر:

ما هذا ؟

هيا لنرى !

رمت لوكريس معطفا على كتفيها الرخاميين وانطلقت في الردهة يتقدمها قيصر ثم فتحت باب البرونز ووقفا هناك على العتبة فكان النوبيان الساكنان الصامتان مازلا في موضعهما ويطقان أجرد في يديهما غير أن مشهدا غريبا جذب أنظارهما هناك في قصر الردهة فقد كان ما يقارب الثلاثين خادما يجأرون ويشتمون محيطين أو محاولين الإحاطة برجل غريب كان وحده يقابل هذه المظاهرة المتكالبة حوله فهتفت لوكريس:

من هذا المتجرئ؟ وكانت على وشك أن تنطلق نحوه عندما أمسكها قيصر بقبضتها هاتفا :

هاها ! إنه الفرنسي الصغير ال1ي ضربت له موعدا هنا عند منتصف الليل ياله من مقدام!! ويالهذه الضربات ! دونك إلى اليمين! دونك إلى اليسار! أحسنت ! هوذا اثنان طريحان على الأرض أحسنت ! هوذا اثنان يبصقان أسنانهما ! يالك من مغوار ! يالك من مغوار!

ومضى قيصر يصفق بيديه بعصبية بارزة!

أما الرجل الذي كان ينازل الخدم مستثيرا إعجاب قيصر فقد كان الفارس راكستان ال1ي كان قد انطلق من نزل " جانوس الجميل" حين دقت الساعة الثانية عشرة .

ولقد كان يفكر وهو يعدو قائلا في نفسه: آه ! يا لهذه الرؤيا الفظيعة ! رج غارق في التيبر ! يا للمسكين لقد نحروه منذ حين! آه ! هذا الجسد كيف اختفى في اللجج السوداء .. ثم تلك الكلمات المبهمة : سوف يخطفون بريمفيرا! لا شك بأن الخاطف هو القاتل نفسه! ولكن من هو هذا القاتل؟ وأين يمكن العثور عليه؟ وكيف السبيل إلى إنذار الكونت آلما؟ يجب أن أقص هذه الأحداث الغريبة للقائد الفذ الذي ينتظرني فهو وحده قادر على اكتشاف الحقيقة

ولم يلبث الفارس وهو يخاطب هكذا نفسه أن بلغ قصر لوكريس فهم بأن ينطلق بين العواميد إلا ان الحارسين الخياليين اعترضا دربه آمرين :

إبتعد عرض الطريق! فقال راكستان: مهلا! إنني منتظر في هذا القصر

فأجاب أحد الحارسين: سر عرض الطريق!

يالك من عنيد يا عزيزي قلت لك إنني منتظر من قبل غبطة مولاي قيصر بورجيا . هيا افسح لي طريق المرور !

ولكن الحارس لم يذعن لطلب راكستان ثم إذا بدرزينة من الخدم ينطلقون نحو الفارس الذي قال في نفسه: يبدو أن الجنون هلم بالخدم بهذا البلد ولكن هل تراهم يجرأون على رفع أيديهم على ! إلى الوراء أيها الخدم!!

وأصبح شكل الفارس صارما حتى لقد تراجع الخدم أما الحارس فقد هجم على الشاب حينئذ فهم راكستان بأن انتصاره سوف يكون موقتا وبأنهم سيحيطون به إذا لم يعطيهم مثلا رادعا لذلك فقد قفز على الحارس وتكمش بساقه وأخذ يهزه هزا عنيفا لكي يقضي على توازنه.

عند الهزة الأولى صرخ الحارس مجدفا ثم تشبث بناصية حصانة وعند الهزة الثانية رفع عقب سيفه لسحق به خصمه الشديد إلا أن الوقت لم يمهله لتنفيذ مأربه فكان نبها لهزة ثالثة أعنف من الاثنتين السابقتين لذلك فقد بقى فمه المتأهب لقذف شتيمة مقذعة مشقوقا صامتا من الذهول أما راكستان نفسه فكان قد تراجع عدة خطوات وهو يكاد يشرف على السقوط.

فما الذي حدث إذن؟ شئ بسيط : ان راكستان لكثرة شدة على ساق الحارس العملاق كان قد انتزع جزمته الكبيرة فبقى مخبولا ورجلة عارية ولكنه لم يبرح مسمرا على متن حصانه بينما اندفع الفارس إلى الوراء تحت تأثير الهزة العنيفة حاملا بين يديه الجزمة الضخمة

عندئذ حصل تفرق بين الخدم ولكن عونا انضم إلى هؤلاء المهاجمين فإذا بعددهم يشارف الثلاثين وجميعهم مسلحون بالعصي

لذلك فقد ألفى راكستان نفسه محاطا من كل جانب لكنه فجأة أحس بفكرة منيرة تخرج من دماغه المزدحم فصرخ بينهم راعدا: آه أيها الأوباشَ! ويا حثالة الأرذال ! لأصدنكم بهذه الجزمه !

وأمسك الجزمة من قدمها وشرع يستخدم جذعها ككتلة من الأسلحة ثم دار بها على نفسه دورة قوية متجها في الوقت نفسه نحو الدرج الذي بغله والمظاهرة ما زالت مزمجرة خلفة

وعند طرف الدرج وجد راكستان نفسه في ردهة واسعة فالتصق في إحدى زوايها عندئذ أصبح المشهد ملحميا : ذلك أن راكستان كان ليوح بجذع الجزمة كما شمشون قد لوح بفك حمار ليفتك بأعدائه أما الجذع فقد كان يدور محوما فوق رأسه وفي كل لحظة كان يقع على رأس أو على خد أو على ظهر .

وكان هنالك صرخات ألم وإنذارات رهيبة ولقد استمر هذا حتى أنه سقط عشرة من الخدم فتراجع الآخرون طالبين النجدة

وبعد أن راى راكستان نفسه منتصرا في هذه المعركة الحربية دون أن يصيبه خدش واحد أطلق ضحكة قوية وهتف قائلا: هيا أيها الخدم! اذهبوا واخبروا سيدكم بأن الفارس راكستان هو الآن رهن أوامره فهتف صوت يقول : لقد أخبرتّ بكل شئ لأنك أنت أيها السيد قد أعلمت عن نفسك

فاستدار راكستان واجدا نفسه في حضرة قيصر ولو كريس وإذا به يستمر ثانية وهو مشدوه بروعة ابنة البابا الآسرة . فابتسمت لو كريس إلا أن الفارس كان قد انحنى مجيبا : يا مولاي وأنت يا مولاتي تكرما على بالعفو لأنني أسأت التصرف مع خدمكما أما دفاعي الوحيد الذي أقدمه فهو أمركم إياي بأن أكون هنا عند منتصف الليل إني لإطاعة هذا الأمر ليسهل علي اجتياز طابور من الأبالسة . فقال قيصر:

تعال أنا المذنت لأنني لم أخبر هؤلاء الحمق بأنني أنتظرك

فتبع راكستان الأخ و الأخت بينما ظل الخدم مذهولين ومقوسين حتى الأرض

أما النوبيان عند باب البرونز فقد كانا هنالك دون أن يقوما بحركة: إذ كان عليهما فقط حراسة الباب ولقد بقيا يحرسانه وعندما وصلت إليها لو كريس سألتهما قائلة :

وأنتما ماذا كنتما فاعلين لو حاول اجتياز هذا الباب؟

فابتسم الأسودان ابتسامة عريضة أبرزت أسنانهما الباهرة ثم لمسا بطرف إصبعهما نصل يطقانهيا وأشارا إلى عنق الفارس الذي أسرع القول: هذا واضح ! كانا يقطعان عنقي ولكن لكي أسعد بمشاهدتك يا مولاي أقسم بأني كنت مستعدا لمجابهة هذا الخطر.

فابتسمت لوكريس مرة ثانية وبعد أن ربتت على خدي النوبيين عبرت ومن خلفهما قيصر والفارس اللذان قادتهما إلى بهو صغير دهش راكستان من حاشيته الباذخة الرقيقة عندئذ قال قيصر: أقدم لك يا أختي العزيزة الفارس راكستان إنه فرنسي

وهذا العنوان كاف كتوصية تجعله يفوز بعطفك وما هذا بكل شئ: فالفارس راكستان أنقذ حياتي يوم كنت مسافرا إلى شينون .

فقال الفارس: آه يا مولا كم أنت عطوف لكي تتكلم عن مثل هذا العمل الرتيب!!

هنا قالت لوكريس: إنني أحب الفرنسيين ولسوف أحب حضرة الفارس بنوع خاص حبا لك يا أخي وإننا سنعلي من شأنك أيها الفارس!!

آه يا مولاتي إنني خجل من عطفك علي

فقالت لوكريس ببشاة: إنك تستحقة ولكنني أظن أنك بحاجة لمرطب بعد هذه المعركة الضارية فتعال إذن أيها الفارس! ثم أمسكته بيده وجرته معها فارتعش الفارس مقشعرا إذ أن هذه اليد الفاترة المتعبة كانت قد ضغطت على يده . ترى هل كان ذلك صدفة أم عن قصد؟

عندئذ أطبق الشاب المغامر عينيه طيلة ثانية وإذا به يقول في نفسه :

لربما كنت أخاطر مخاطرة كبيرة ولكن اللعبة تستحق.

ثم أعادت يده بشدة الضغطة الغرامية ليد لو كريس وبعد لحظه كانوا قد بلغوا ردهة الولائم فخيل لراكستان وقد تمشت الحمى في جسمه أنه انتقل إلى فردوس من ألف ليلة وليلة وكانت لو كرس بنفسها تضع أمامه الأترج والبطيخ المثلج ثم صبت في كأسه نبيذا مزبدا وقالت بنظرة أمعنت في هيجانة: إشرب هذا النبيذ من بلادك ولكنني أدارية بطريقة خاصه. فقال قيصر:

إن أختي شرهة إذ أنها تقضى وقتها في ابتكار وسائل من اللذة أكثر كمالا وذوقا.

فقالت لوكريس بابتسامة خاصة: أجل إني شرهة والشراهة لذة من ملذات الآلهة ! ألا اشرب هذه الراح أيها الفارس إنها الكوثر!! ثم ذق هذه المربيات فإنها من عسل الآلهة !!

عندئذ أفرغ الفارس كوبه فإذا بأوردته تشتغل ثم ذاق من المربيات فشعر بأن صدغيه يخفقان وبأن مخيلته انتحتحت على رؤى غريبة هي أقرب إلى الأحلام فشرع يقول: يا مولاتي إني أشرب وآكل وأسمع أصواتا وإني لأتسائل إذا لم أكن في حلم رائع بمسكن جنية فاتنة ..

يا للأسف إنك في بيت لو كريس بورجيا التي تفتش عن اللهو ولكنها لا تعثر عليه إلأا فيما ندر !

وماذا يا مولاتي! أتكونين تعسة ! ولكن قولي أي مطلب تشائين وأي مراد لا تبلغين لكي أجعله والله رهن يديك حتى ولو قلبت العالم رأسه على عقبه أو رحت كالطيطيان أتسلق جبال الألب مفتشا عن سر السعادة .

فهتف قيصر: أحسنت أيها الفارس . إلا أن راكستان تابع قائلا: ما أنا إلا برجل شريف بلا ثروة غير أنني أملك قلبا يعرف كيف يخفق وذراعا لا ترتجف وسيفا وإني أجعلها جميعها يا مولاتي تتفاني في خدمتك . فقالت لوكريس برزانة: إنني أقتنع بهذا.

هنا قال قيصر:

أما الآن وقد أصبحت محظيا لدى دوقة بيزاقلية فدعنا نرى كيف نجد لك مركزا رسميا يمكنني أن أحصل لك من والدي على شهادة تثبت أنك من حرس الأشراف. فقال الفارس وقد أعيد إلى الواقع: أعترف لك يا مولاي بأنني أفضل شيئا آخر .

ياللشيطان إنك رجل صعب! فالمنتمي إلى حرس الأشراف يجب أن يثبت أنه نبيل من الدرجة السادسة. ومن ثم (أضاف قيصر بفظاظة) مازلت أجهل من أنت.

فوقف راكستان وتحفز بخيلاء ثم قال بنغم جارح: ما رأيتك يامولاي تطلب صك نبالتي في شينون! فهتف قيصر: لقد أصبتني بكلامك هذا إصابة نافذة ! فتابع راكستان قائلا: أما عناوين سلالتي فهذي هي مطبوعة على وحهي وإني مستعد أن أمهرها بخاتم من رأس سيفي.

ما أبرع جوابك أيها الفتى !

وبما أنك تعتقد أنني قادم إلى إيطاليا لأكون حرس الكنائس فا أنذا قائل لك : الوداع يا مولاي

ولكن هون عليك ! أي شيطان نزق يقطن بردك يا هذا! إني أعرف أن تستحق أكثر وقد عرضت عليك هذا لكي أجربك . ولا أخفي عليك بأن تعجبني بأشياء كثيرة : بطريقتك التي سويت بها أمر أسطور العملاق الذي لا يغلب ، وبأجوبتك وبشكلك وبهذه اللطمات البارعة التي ألقمتها منذ حين أولئك الخدم الرعاع . ها ها ! لشد ما يضحكني هذا!

وانقلب قيصر ضاحكا بملء شدقية: ثم استوى فقال: اتريد إذن أن تعمل في خدمتي؟.

هذا ما قلته لك يا مولاي

إذن لك ما تريد فأنا بعد أيام سأجرد الحملة من جيد على بعض الأمراء الصغار الذين يحسبون أنهم في مأمن مني. ولسوف أعتمد عليك أيها الفارس لأن القليل الذي رأيته منك ينبئني عنك.

لذلك فسأجعلك تخوض غمار المعركة تحت أوامري على رأس فيلق من الجنود . فقال راكستان وقد وثب من مكانه: ماذا تقول يا مولاي ؟ لا شك أنك تسخر مني؟

تعال بعد غد إلى قصر " سانت آنج" لتأخذ شهداتك .

فانحنى الفارس مخمورا من الفرح وقد سمع ما يفوق أمانية ثم أخذ يد قيصر وحملها إلى شفتيه. غير أن قيصر استأنف قائلا:

يبقي لقي كلمة واحدة: هذا الصباح عندما أرعبت كركونيو الراهب المسكين هل التقيت بصبية ذات ثياب بيضاء تمتطي حصانا أبيض؟

فأعادت هذه الكلمات فجأة إلى عيني راكستان مشهد نره التيبر المخيف وجعلته يتذكر الصورة الرقيقة لتلك المرأة المجهولة التي دعت نفسها بريمفيرا وإذا به يفطن إلى اعترافات جريح التيبر معتقدا أن الوقت قد حان كي يفوه بكل شئ لقيصر بورجيا طالبا من حماية هذه الصبية لذلك فقد أجاب قيصر قائلا:

نعم التقيت بها وإنني .....

هنا توقف راكستان لأنه كان يفتش عن الكلمات التي من شأنها أن تضمن لبريمفيرا عطف قيصر بورجيا إلا أن الكلمات اختنقت فجأة في حنجرته ذلك أنه وهو ينحني أمام قيصر كان ألقى ببصر على الفسيفساء الرخامية المكونة منها أرض الردهة فإذا به يلمح بقعة واسعة من الدم . ولكن ترى لماذا أوقف هذا المنظر الكلمات الضرورية التي كان سيلفظها؟ وأي وحي أيقظ الفطنة النائمة في فؤادة النزق السريع الظنون؟ ثم أي ارتباط غريب اكتشف أو ظن أنه مكتشف بين بقعة الدم ومشهد نهر التيبر حتى اقشعر بدنه وصمت؟ وهنا قال قيصر :

ماذا كنت تقول أيها السيد؟

نعم التقيت بالسيدة التي ذكرتها وإنني آسف لقطعي حديث الراهب معها بعد أن عرفت أنه ينتمي إليك . فقال قيصر بوجه مربد: أنت إذن لا تعرفها؟

وكيف أعرفها ؟ فأنا أجهل اسمها ، بل إنني أجهل في أية طريق اختفت.

حسنا يمكنك أن تنصرف الآن ولا تنس ميعادك بعد غذ في قصر " سانت آنج"

لن أنسى إلا إذا فقد عقلي

هنا قام راكستان بشكل طبيعي فحيا لو كريس تحية عميقة لطيفة ولقد منحته يدها فقبلها ثم خرج محاولا ألا يفكر بشئ ولكن هاجسا قلقا جعله يفكر بعواقب هذه الحادثة فإذا به يرتجف ويتذكر تحذيرات بريمفيرا له. وفي هذه اللحظه بالذات شعر بيد تمسك يده وبصوت يهمس في مسمعه :

تعال ولا تثر أية ضجة!!

ظل راكستان رابط الجأش لأن الصوت الذي سمعه لم يكن عدائيا بل محببا ولكنه بالرغم من ذلك شعر بضيق في صدره

إلا أنه تشدد بسرعة وتبع دليله الذي كان إحدى وصيفات القصر وإذا به بعد قليل يجد نفسه في غرفة الولائم الفسيحة التي كان ينيرها الآن قنديل بضوئه الشاحب فأخذ قلبه يخفق هنا وسوس الدليل: : لا تنتقل من هنا ولا تتحرك وانتظر أن يأتي أحد فيأخذك

ثم مضت الوصيفة التي قادت الخادم واختفت فلم يعم راكستان أن أحس بعينيه مجذوبتين بقوة قاهرة نحو بقعة الدم التي كانت ماتزال هناك وعندما لمس الدم بيده وجد أنه لم يكن متجمدا يابسا فهمهم في نفسه قائلا : لم تكد ساعة تمضى على هذا الدم المراق! ولكن ماذا ترى يكون هذا الدم؟

ثم ظهرت بقعة ثانية ثم بقع أخرى ثم طريق من الدم فتتبع هذه الطريق خطوة خطوة وهو يلهث حتى بلغ بابا ففتحه غير أن طريق الدك كانت متواصله ففتبعها راكستان قاطعا عدة غرف حتى انتهى إلى باب آخر وعندما فتحه خنف في حلقه آهه ذعر وذهول إذ وحد نفسه على حافة نهر التيبر! عنئذ همس في نفسه قائلا:

يالله هل هذا ممكن ! ولكن بلى فالأحداث ترتبط بوضوح كبير وهاهي الحقيقة تملأ ناظري فالرجل القتيل ألقي من هنا ولا شك أنه طعن في هذا المكان لقد فهمت الآن أسباب الرعب المحيط بهذا القصر الذي ماهو غير بؤرة للقتل!! أما جنية القصر الساحرة فإنها نمرة ظامئة للدم ! ومن ثم من يعلم أنها لا تراقبني؟

في هذه اللحظه فكر الفارس بأن يرتمي في التبير لكي ينجو بنفسه . إلا أن فكرة الهرب عظمت عليه لذلك فقد ركز سيفه على خصره وأغلق الباب ثم عاد إلى قاعة الولائم حيث مكث عدة دقائق هناك واخيرا ظهرت الوصيفة نفسها فأخذته من يده كما فعلت سابقا واجتازت به ثلاث أو أربع غرف ثم توقفت عند باب وقالت له : باستطاعتك الدخول.

فتردد راكستان ثم هز كتفيه ودخل فوجد نفسه على عتبه مخدع معزل صغير أضئ بنور غامض كما تضاء المعابد في الليل وكان في قعر هذا المخدع امرأة استقلت على كومة من فراء الفهود ! : إنها لو كريس التي سمعها تناديه : تعال إيها الفارس!!!!

لقاء مع الحورية الفاتنة

كانت الساعة قد شارفت على الثالثة صباحا عندما عاد راكستان إلى نزل " جانوس الجميل" فارتمى من توه على سريره منهوكا ونام نوما نقيلا كالرصاص ولقد نائما حتى الساعة الثامنة حيث جاء صاحب النزل فأيقظه أما الرجل الروماني فقد كان آتيا لطلب أجرة اليوم الطالع إذ أن القاعدة كانت تقضي بالدفع سلفا.

فتنهد الفارس وألقي نظرة على الماسة في يده ثم رجا صاحب النزل أن يمضي فيحضر له صائغا وكان الرجل قد فاجأ النظرة إلى الماسة ففهم ماذا وارءها

الصائغ على خطوتين من هنا وسأجلبه لك في خمس دقائق إنه يهودي يشتري الحجارة الكريمة.

واجلب معه أيضا تاجرا للثياب فأجاب صاحب الفندق قائلا: هو نفسه تاجر للثياب.

وبعد دقائق معدودة عاد الرجل يتبعه عجوز ذو لحية مهيبة ولكنها قذرة وقد حيا هذا العجوز بارتباك ثم وضع على السرير تشكلية من البزات ولم يعتم أن قدم راكستان له ماسته فأخرج اليهودي من جيبه ميزانا صغيرا وزان به الجوهرة الرائعة وفحصها بعدسة مكبرة ثم ابتدأ يقدم ما يساوي ربع قيمة الماسة ولكنه شعر أنه يحال خصم قوي لذلك فقد اضطر على الاقتناع بربح لا يزيد عن ثلث الثمن الحقيقي.

حينئذ اختار راكستان بزة جديدة وراح يرتدي كل جزء من الثوب يقع ليه اختياره ولكن بعد أن تنتهى أفنانين المفاصلة عليه حتى أنه وجد نفسه أخيرا الأتفان لامعا مشرقا وقد سدد كل شيء من الحساب ودفع لصاحب النزل عن ثلاثة أيام سلفا. غير أنه لم يبق في يده إلا بعض الدنانير.

وكان موشكا على الخروج عندما أدل صاحب النزل إلى غرفته شخصا غريب المظهر جاء طالبا مقابلته ولقد كان هذا الرجل عجوزا صغير القامة نحيفا نحيلا له وجه شيطاني كوجه مفيستوفلس ولكن يخيل لرائيه أنه صائم دهرا.

دخل هذا العجوز وشرع يقوم بانحناءات عديدة وكان صاحب النزل قد أدخله مظهرا له شيئا من الاحترام الممزوج بالرعب. ولما كان هذا الأخير مزمعا على البقاء بدافع الفضول أشار إليه راكستان إشارة قاطعة تأمره بالخروج فخرج صاحب النزل ولكن دون أن يفته منظر واحد من هذه المقابلة إذ أنه انحنى على ثقب الباب فحضرها بكاملها وعندما ظن راكستان أنه أصبح وحيدا مع زائرة نظر إليه نظرة استفهام فأجاب العجوز الصغير:

أنا السنيور جياكومو

وماذا يأمر السيد جياكومو؟

إنني مكلف بأن أوصل لك هذا ، فقط

وكان السينور جياكومو قد فتح معطفه ووضع على الطاولة كيسا صغيرا ند عنه صوت معدني ثم قال وهو ينحني من جديد: في هذا الكيس مائة دينار ذهبي عدها إذا شئت . فهتف راكستان متعجبا : إنها لي!!

ألست مولاي الفارس راكستان؟

بلى أنا هو بلحمة وعظمة ولكن ترى هل أنا في يقظة أم في حلمَ!!

إذن هذه الدنانير الذهبية هي لك

ومن مرسلها إلي؟ تالله لسوف .....

صه ! عدها يا سيدي

فحل راكستان الكيس فيما كان وجه جياكومو الشيطاني ينشق عن ابتسامة غريبة . ولقد وجد الدنانير المالية كاملة فلم يشعر لكثرة ذهوله وسروره إلا وقد دسها في زناره الجلدي الملفوف حول خصره وعندما انتهى من ذلك تأهب لسؤال الزائر الغريب ولكن الزائر كان قد اختفى

فنادي صاحب النزل وقال:

أين السينور جيوكو؟

لقد مضى يا سيدي منذ لحظة! ثم انحنى صاحب النزل أمامه مرتين فأثار هذا الإجلال المفاجئ دهشة راكستان الذي قال:

لا شك أنك رأيت كل شيء

يا مولاي أرجوك أن تغفر لفندقي فقير كان يجهل منزلة السيد العظيم الذي يشرف نزله! ولقد كنت غرا حين تركتك تدفع سلفا وها إني معيد إليك المال . ابق يا سيدي ونم وكل واشرب ولأخسرن الجنة إذا طالبتك ببارة واحدة

يا للعجب ! ألا تخبرني ماذا يعني هذا!

هذا يعني أنني أعلم الآن ما كنت أجهل سابقا وهو أن النازل عندي حليف بل صديق بل قريب لأشهر أشراف روما! وإنني أعلم هذا لأن السنيور جيوكومو الذي خرج الآن من هنا ..

أجل من يكون السنيور جيوكومو ؟

إنه الرجل الوثوق لدى لو كريس بورجيا أي وكيل القصر المضحك .

وبعد أن تفوه صاحب النزل بهذه الكلمات بارتجاف وتأثر خرج متراجعا وهو يحيي منحنيا حتى الأرض .

فمكث راكستان طيلة دقيقة يحلم ثم قام إلى الاسطبل فأسرج حصانه كابيتان وقفز على صهوته بخفه ومضى يسير متمهلا في الطريق المؤدية إلأى الباب الذي دخل منه إلى المدينة الخالدة ترى أي سراب فاتن كان يجذبه إلى هذه الطريق طريق فلورنسا؟

وأي أمل غامض كان يقوده إلى النقطة التي التقى فيها بالسيدة البيضاء الرقيقة الحسن؟

هو نفسه كان يجهل هذا فقد كان منظر بريمفيرا قد خلق في نفسه شعورا من تلك المشاعر التي يزيد وضوحها وينغرز شبحها أعمق فأعمق كلما مر عليها الزمن أما هو فقد كان يتعذر أمام نفسه بأن عليه أن يحذر الفتاة مما يحاك حولها وعندما وجد نفسه في رحب الريف راح يخاطب نفسه بهذا الحديث:

لا شك أنني حتى الآن قد بدأت بداية موفقه هذه المبارزة مع أبرع مبارز في روما وعطف القائد الرفيع الشأن الذي ما كنت لأتجرأ على مقابلته والمغامرة الغريبة في هذه الليلة مع لو كريس والتي ترجمعت عن عطفها على بهذه المنحة من الذهبيات! أجل هذا كله حسن ثم ها قد أصبحت قائد فرقة وغذا سوف يمنحني مولاي بورجيا شهادة بذلك كلا لم يبدأ مغامر أبدا مثل هذا الطالع الفأل ! ولكن من أين يأتيني هذا الضيق المقيم في صدري؟

ذلك أن راكستان كان يشعر حقيقة بقلق غامض ينبجس من أعماق قلبه ولما كان لا يخشى شيا على نفسه فهو إذن خائف على مصير تلك الحسناء المجهولة لا سيما وأن المشهد على التيبر كان قد صفع مخيلته بعنف. رما كان باستطاعته أن ينسى بريمفيرا بعد أيا قليلة لو لم يجهر له الجريح الغامض بأنها معرضة لخطر جسيم

وإذا بالكلمات المشؤومة التي تفوه بها القتيل تظن ثانية في أذنيه.

عندئذ جمع ركبتيه ولمز بهما كشحي فرسه كابيتان حتى بلغ المكان الذي فيه ناشدته بريمفيرا مساعدتها مساعدتها من ملاحقة الكاهن كاركونيو ثم اجتازه منطلقا بين الحقول ومنحرفا نحو اليمين حيث كانت بريمفيرا قد عرجت من هناك ولم يطل به المسير حتى وجد نفسه في طرف غابة زيتون حيث اضطر إلى التمهل في سيره، لأن الجذور كانت تتشعب كوما أو حفرا في الأرض حتى أنه أخيرا نزل يمشي على قدميه.

ولقد وصل راكستان إلى شفة ساقية صغيرة كانت جارية في الغابة: فإذا بالمكان شهي بديع ولم يكن الفارس من ذوي الطبائع الشاعرية الميالة إلى التأملات اللذيذة إلا أنه رأى أن المكان أخل للاستراحة التي كان ينوي القيام بها لذلك فقد وقف ونزع لجام كابيتان وسقاه ثم تركه طليقا يختار وجبته من الحشائش والغروس الصغيرة النابتة هناك عندئذ بدأ يفكر بذاته فأخرج من حقيبته رغيفا ومربعا من اللحم وقنينة من النبيذ الأبيض وضعها لكي تبرد في الساقية وانبرى فقضم شريحة اللحم ثم راح يقول بصوت شبه مرتفع:

لله در هذه الغابة الرائعة وهذه الساقية الجميلة التي تجعلني طرواتها وكأني أعيد قصيده " لفرنسوا فيللون" كان يعلمني ؟إياها الراهب أما هذه القصيدة فلا ينقصها الآن إلا تلك الحورية الساحرة التي يتغني بها الشاعر.

وإذا بصوت عذب يجيب: الحورية حاضرة تشاهد وجبة طعامك ولكنك لا تراها

فانتصب الفارس بقفزة واحدة مذعورة وبقى مضطربا عندما رأى على الضفة الثانية من الساقية عليقة خضراء تخرج منها التي كان يفتش عنها عبثا : الصبية ذات الرداء الأبيض .. بريمفيرا!!

ولكم كانت تبدو في هذا الإطار أنها تستحق لقبها الشاعري أكثر من أي وقت مضى لأنها كانت حقيقة كجنية من جنيات الأزهار. ولما كان راكستان قد مكث صامتا مذهولا أما رؤيتها قالت بريمفيرا:

ماذا أيها الفارس أيخيفك منظر حورية الساقية ؟ فأجاب راكستان وهو لا يعلم ماذا يقول:

كلا يا سيدتي! فأنا لا أخاف إلا شيئا واحدا هو أن تتبخر رؤياك وأن يغيب منظرك البديع.

حينئذ ارتفع نظره بجرأة أكثر إلى الفتاة فإذا بظل سويداء ينسدل على وجهها وإذا بها تستأنف القول: ماذا تعمل في هذا المكان؟

كنت أبحث عنك! وأنت يا سيدتي؟

كنت انتظرك

فأطلق راكستان صرخة خفيفة من الفرح وبقفزة واحدة اجتاز الساقية الفاصلة بينهما وكان على وشك أن يرتمي على قدمي الصبية عندما أوقفته هذه بإشارة منها ثم تابعت القول بصوت متأثر:

كنت أنتظرك أيها الفارس لأنني عرفتك منذ لقائنا الأول رجلا لا يخشى أن يضع نفسه في خدمة المظلومين وأن يقارع الظالمين ولأنه ظهر لي أنك أحببت أن تعرف المرأة المجهولة التي دافعت عنها البارحة ومن ثم لأن شيا لا أعرف كنهه أضحى يهمس في داخلي بأنني أستطيع الركون إليك ركونا تاما فهل تراني أخطأت التقدير.؟

كلا يا سيدتي!! لم تخطئي التقدير بثقتك برجل لم يحلم منذ رآك ك إلا بأن يعيش وأن يموت في خدمتك دون أن يرجو مكافأة غير لذة تفانيه في الدفاع عنك

أجل إنني بحاجة إلى من يحميني ويا لأسف !

إني أعرف هذا يا سيدتي ! بل إنني أعرف شيا آخر دفعني إلى البحث عنك . فصاحت الصبيه تقول: وماذا عساك قد عرفت؟

أولا اسمك! فأنا أعلم أنك تدعين بياتريكس وأنك ابنة الكونت آلما

أما هي فقد عند سمعاها هذه الكلمات رامية حولها نظرة من الرعب ثم إذا بلامبالاة مفاجئة تظهر في عينيها عندئذ قال راكستان بحرارة :

ولكن اطمئني يا سيدتي فلن يخرج هذا الاسم مطلقا من فمي إذا كان لك وطر في إخفائه ولسوف أنساه حتى في أعز أحلامي لكي لا أذكر فيما بعد غير بريمفيرا اللقب المعبود الذي شرفتني به كثيرا عندما بحت لي به.

عندئذ مدت له يدها فحملها الفارس إلى شفتيه إلا أنها مضت تقول:

سامحني يا سيدي فأنا محاطة بالأحابيل والأعداء وهذا الاسم هو في الواقع سر من الأسرار وإني لمصعوقة بأن تعرفه حتى أنت الشريف المخلص.

الصدفة هي التي جعلتني أعرف هذا السر وإني أعترف بأن هذه الصدفة مرعبة.

وماذا تقصد؟

فروى راكستان المشهد الذي رأه وأعاد كلمات جريح التيبر وأثناء ذلك كان اصفرار أكثر شحوبا يكتسح رويدا رويدا وجه بريمفيرا . فإذا بها تحجب عينيها اللتين تدحرجت من أهدابها بعض الدموع ثم تمتمت تقول: آه لقد قضي علي !! فهتف راكستان عندئذ:

أقسم لك بأن أيام الشقي الذي يبكيك ستكون معدودة إذا أردت أن تبوحي لي باسمه !

فهزت بريمفيرا رأسها وهي ترتجف ثم قالت : نعم نعم ستعرف كل شيء ولكن ليس اليوم ولا في هذا المكان اليوم نهار الاثنين فلاقني نهار الجمعة عند الساعة الواحدة ليلا على طريق المدافن حيث يمكن أن تعد عن يسارك اثنين وعشرين مدفنا وعند الثالث والعشرين قف واقترب فيهتف لك رجل كلمة "روما" فأجبه أنت بكلمة "آمور" (أي الحب) عندئذ ستعلم من هم أعدائي وما هو عملي وما هي المخاطر التي تحدق بي ثم ما هي الأخطاء التي يتعرض لها كل من يقترب مني! ولكن من الآن حتى ذلك الحين إياك أيها الفارس أن تخطو خطوة واحدة على طريق فلورنسا حيث رأيتني أو أن تفوه بكلمة واحدة تثير الظنون بأنك تعرفني!

ولاشك أنك مطيع كلامي هذا إذا كنت تحمل لي قليلا من هذه الصداقة التي يخيل إلي أنني أقرأها في عينك

فوضع الفارس يده فوق قلبه الذي كان يخفق خفقانا شديدا وأراد أن يجيب . إلا أن بريمفيرا كانت قد دخلت بخفة وفتنة بين الأوراق الكثيفة وقبل أن يفيق راكستان من الاضطراب الذي بعثته فيه كلمات الصبية الأخيرة سمع على بعد خمسين خطوة من هناك عدو حصان منطلق فعاد مفكرا إلى حصانه كابيتان فلجمه وعندما خرج من الغابة امتطى الحصان وسار على طريق روما إلا أنه كان حذرا فقام بدورة صغيرة ثم عند المساء دخل إلى المدينة من باب آخر غير الباب الذي كان قد خرج منه .

اسكندر بورجيا

في اليوم التالي استعد راكستان ببزته المتألقة للدخول إلى قصر سانت آنج وبينما كان يهم بالخروج رأي جماعة من الناس يتضاحكون فيما بينهم ويسيرون جميعا في اتجاه واحد فسأل الفارس صاحب النزل الذي كان يمسك له الركاب باحترام بالغ:

- إلى أين يذهب جيمع هؤلاء الناس؟

إلي كنيسة القديس بطرس أيها السيد

إلى كنيسة القديس بطرس! فهل هناك عيد ديني؟

كلا! ولكنها جنازة غبطة مولاي فرنسوا بورجيا دوق غانديه الذي قتل بيد جبان

وكيف قتل؟

لقد وجدوا جثته مثقوبة بنصل خنجر!

وأين وجدوها ؟

في نهر التيبر تقريبا على بعد ثلاثماية خطوة من هنا ولم يكتف اللصوص بتقل غبطة مولا ي المسكين ولكنهم قذفوا جسمه في الماء آملين بأنه سيحمل إلى البحر إلا أن جثته وقفت عند شبكة كان قد مدها صيادو السمك

لقد وجدت الجثة إذن في التيبر! ثم انتقل فكر راكستان حالا إلى ذلك الجريح الذي رآه إلى ذلك الطريق الدموي الذي كان قد تتبعه بين شقق القصر الضاحك أما صاحب النزل فقد أضاف قائلا: ولقد جرى اكتشاف الجثة صابح البارحة

وهل من شبة على القاتلظ

لقد أوقف درزينة من الناس الرديئي السمعة ولا شك أنهم سيكتشفون المجرمين لأن غبطة مولاي قيصر هو المشرف بنفسه على التحقيق

أشكرك على روايتك يا سيد برتولومايو

أما برتولومايو فهو صاحب نزل "جانوس الجميل" وهو بعد أ، سر من استماع الفارس إليه باهتمام أضاف فجاه بلهجة مبهمة : أتعلم ماذا يهمس الناس؟ فقال راكستان وقد أصبح على صهوة حصانة.

ماذا يهمسون؟

إنهم يقولون -----

هنا صمت برتولومايو فجأة إذا تذكر أن الفارس تلقي البارحة زيارة جياكومو وكيل القصر الضاحك وهذا يجعله ولا شك صديقا لآل بروجيا لذلك تمتم متعلمثما :

لا شيء ! لا يحكي الناس شيئا فقال الفارس: بل أنا أخبرك ماذا يروي الناس

أنهم يرون بأن القصر المضحك هو المكان القريب من التير حيث وجد دوق غادنديه

عندئذ تضرج وجه برتولومايو ثم امتقع من الرعب

لا أعلم شيا يا مولاي ! أقسم لم بأنني لا أعلم شيئا ولا أقول شيئا ولا أفترض شيئا

هنا اتجه الفارس سائر الهوينا نحو قصر سانت آنج مجتازا كنيسة القديس بطرس حيث كان يجتمع الناس الذي قذفتهم جيمع الشوارع وما تزال ذلك أن موت فرنسوا بورجيا قد بعث تأثرا عميقا وقد كان الناس يعرفونه غريما لقيصر وخصما له لذلك فقد كانوا يرجون بأن الخصام المستتر الناشب بين الاخوين سوي ينتهى بهزيمة بل بموت ابن الباب البكر ذلك أن قيصر بورجيا قاهر رومانيا ومرهب روما كان يعيش في جو من البغضاء

أما راكستان فقد راح يلاحظ الجمع الغفير الذي كان يشقه ببطء وقد كانت اهناك هتافات مستترة ترجف بين الجمع وتسير على سطحه كما تسير انفاس عاصفة فوق البحر ولم تكن تتردد بعض الجماعات بالتصريح بأنه من الواجب الثأر لموت فرنسوا فتتجه الأنظار إلى قصر سانت آنج كأنما هي إنذار لقيصر

ولكن ترى هل تقع ظنونهم علي؟

ولما كان راكستان ساهيا عن نفسه فإنه لم ينتبه لكاهن بزي رجل عادي كان يجتاز الجماهير هامسا الكلمات في إذن البعض ومشير لآخرين إشارات غامضة هذا الكاهن هو دون كاركونيو ولكن بأيه مهمة كان يقوم هذا الرجل ؟

هذا ماكان يطرحه الفارس على نفسه لو أنه شاهد الكاهن إلا انه كان يسير محاولا أن يلم بمشاعر الناس المحتشدين هناك ومفكرا باللقاء الغريب الذي حصل له البارحة مع بياتريكس إلا ان فكرة الصبية قد تغلبت عليه أخيرا مستأثره بمجمل انتباهه

وعندما أصبح أمام باب قصر سانت آنج طرأ تغير عليه غريب على موقف الجمهور من الناس ولكان راكستان ارتجف لو أنه رأى في هذه الفترة العيون اللامعة التي كانت ترتمي عليه والابتسامات الشريرة التي كانت ترافقه الا انه لم ير شيئا فدخل في باحة القصر الذي كان مكتظا بالجنود وبالاسياد من جماعة النبلاء ذلك ان مللك فرنسا لم يكن محاطا بالحرس ورجال الحاشية كما كان ابن البابا.

وكان راسكتان قد نزل عن صهوة فرسه وشرع ينظر حوله مرتبكا عندما سمع صوتا غليظا يصيح قائلا: أيها الخدم ألا ترون أن الفارس راكستان يمد إليكم لجام حصانه؟

فقدم الحجاب المعنيون بهذا النداء وأخذوا كابيتان ثم قادوه إلىاحدى اسطبلات القصر وإذا به يصيح متعجبا : البارون أسطور!

فأجاب الرجل الضخم أنا هو وإني لأكون مسرورا بأن أضع نفسي تحت تصرفك لكي أقودك في هذه المدينة الصغيرة الكثيفة التي يتألف منها قصر سانت آنج

لا أعرف كيف أشكرك على عرضك هذا ايها البارون العزيز ولكن اسمح لي أولا ان استفهم عن صحتك إنني اراك معصب الذراع ولكنني ارجو الا اكون قد جرحتك جرحا بليغا

أنت ترى أنني لست في شبه نزاع أخير والسيف الذي سيسوردني الحمام لم يصهر بعد ولكن تعال سأقودك إلى جناح مولاي قيصر الذي يعقد اجتماعا مع والده الذي هو والدنا جميعا بالمسيح اليسوع

ورسم البارون علامة الصليب فظن راكستان أن الواجب يدعوه إلى تقليدة ثم تبع دليله البارون الذي جعله يتسلق درجا من الغرانيت الوردي الذي كان يفضي الى صف من الغرف المزانة ببذخ أقل غني من بذخ القصر الضاحك وغذا بهما يصلان الى بهو واسع حيث كان يصخب عالم كبير من النبلاء والحراس والحاشية الذين راحوا على هواهم يثرثرون عندئذ قال أسطور:

اسمحوا لي يا سادتي أن أقدم لكم حضرة الفارس راكستان الذي هو شريف فرنسي قادم الى ايطاليا ليعلمنا كميعا كيفية استعمال السيف ولقد بدأ بإعطائي أمثولة سوف اذكرها وقتا طويلا!

فاجتمعت الأنظار على الفارس الذي ارتجف إذ خيل إليه أ،ه مكتشف في صوت أسطور بعض النبرات الساخرة وأن الأنظار التي استدارات نحوه ما هي إلا أنظار هازئة

أما قيصر بورجيا فقد كان في الواقع عند البابا اسكندر بورجيا الذي كان في ذلك الحين شيخا في السبعين من العمر يحمل وجهه " المتموج المتلون" دلائل دبلوماسي داهية ولقد كان يلمع في عينة السوداء خفة مدهشة ولهب حيلة فظة كما أن السمات العنيفة كانت بارزة على هذا الوجهه الخالي من شحوب الشيخوخة والذي يبدو كأنه مشوي بالشمس

ولقد كانت قامة اسكندر هذا فوق الوسطى فهو كان يقف منتصبا رغم أنه أحيانا كان يتظاهر بانحناء الرأس دلالة على ثقل التفكير ولقد كان أيظا يظهر ريعانا جما فتظهر أصولة الإسبانية في عينه القاسية المتعالية وفي فمه الكاز وفي حاجبيه الكثيفين لقد كان الباب في شبه مصلي مخشوشن الأثاث يجلس في أريكة واسعة ذات ظهر مرتفع منقوش فوق مخدة مخملية وكان يقف أمامه شاب لم يكد يجتاز بسنه العشرين بينما راح البابا يتابع حديثا بدأه منذ نصف ساعة وعيناه مسمرتان على لوحة علقت منذ وقت قريب على الجدار وكان الشاب يتتبع نظر البابا باضطراب فقال البابا:

إنه جميل بل إنه رائع! لسوف تكون يا بني رافائيل راساما عظيما

فقال الشاب: هل قداستكم هي راضية عن هذه العذارء؟

- إنها مدهشة ! وإني لا أجد غير هذا التعبير لوصفها بل إنها عذبة وبسيطة جدا في كرسيها الشعبية هذه كما أنها شديدة الأمومة في مداعبة يديها لابنها ثم يالطفل يسوع ! هل يمكن تصوير طفل أكثر نبلا وقداسة؟ هيا يا رافائيل مر على أمين خزانتي مع هذا الوصل الذي أعطيتك إياه غير أن أموال صناديقي بأجمعها غير كافية لمكافأة موهبتك لأنني فقير فقير جدا

وكان الشاب الحديث السن ذو الجبين الناصع والعينين الحالمتين يستمع ببساطة إلى هذه النصائح وكان على أهبة الخروج عندما أوقفه البابا بإشارة قائلا:

- ولوحة التجلي هل يتقدم عملك فيها؟

- فبدا القلق على رافائيل سانزيو الذي تنهد وقال بصوت منخفض :

- أكاد أيأس من هذه اللوحة ولربما لم تستطيع يدي أبدا التعبير عن فكرتي

- يجب أن تتشجع ! يبقى لدي كلمة واحدة يا رافائيل الرقيق: كيف تختار نماذجك ذات الحسن الرائع ؟ ومن هي التي جلست أمامك لرسم هذه العذراء؟ لا شك أنها سيدة رفيعة المقام لأن رسمها ينبئ عن نبل مدهش في شخصها .

فأجاب رافائيل: لتسامحني قداستكم! فأنا لا أجد بين السيدات الرفيعات المقام من تملك عذوبة هذه الخطوط وأشعة النبل العميق التي تصدر عن النفوس العفيفة البريئة.

- **ومن أين تأخذ إذن نماذجك؟**

- **من الشعب الذي يعرف أن يحب ويتألم ويفكر**

- **إذن عذراؤك هي .....**

- **من بنات الشعب : عاملة متواضعة في فرن**

فأطبق البابا المزيف عينه ثم قال ببساطة : حسنا يا رافائيل أريد أن أعرفها هيا اذهب آلان

فخرج الشاب بينما راح البابا المزيف يتمتم وعيناه مسمرتان على صورة العذراء الجالسة على كرسي:

- **بلى يجب أن أعرف هذه الطفلة العفيفة البريئة وأن أحيي بعض الشرارات الكامنة في رماد قلبي المسن أواه يا ليتني أحب مرة أخرى ولكن إذا كان الرسم يخلق في هذه الأحساسيس التي كنت إخالها ميتة فكيف يفعل بي إذن النموذج الحي ؟ إنها عاملة في فرن؟ لا بأس ! فلسوف أخلق لها دوقية وعنوانا أثيلا لكي تصبح أهلا لرجل من آل بورجيا وهنا استدار اسكندر السادس نحو باب وقال:**

- **أدخل!**

ففتح الباب حالا وظهر قيصر

وسرعان ما طرأ تغير غريب على وجه البابا المزيف الذي بدا متألما شديدا إلا أنه كان من المستحيل معرفة ألمه إذا كان جسديا أم روحيا وبعد إشارة منه جلس قيصر دوق فالنتينو الذي كان يؤلف بدرعه وجزمته ووجهه الصلب وعينه اليقظى وفمه المجعد بابتسامة أباحية مفرطة نقيضا حادا لأبية ذلك أن قيصر كان يمثل الرجل العنيد الفظ بينما كان هذا الأخير ينظر إلى ابنه بطرف خفي فيما كان قيصر يدق السجادة بجزمته منتظرا وأخيرا تلفظ البابا قائلا:

- **إذن يا ابني أكانت هذه الفاجعة تنقصنا ! وهل كان من القدر لي في آخر أيام حياتي ان ارى احد أولادي يسقط قتيلا بخنجر مجرم بائس ؟ آه يا لشقوتي أنا الأب المسكين ! لأنني فقد أكثر أولادي خضوعا بل خيرتهم على الأطلاق@**

ثم مسح البابا المزيف عينيه اللتين كانت خاليتين من الدموع واستطرد قائلا:

- **ولكن سوف يكون انتقامي رهيبا! أتعرف ما هو العقاب الذي يستحقه القاتل يا قيصر ؟**

فارتعش قيصر وعبر ظل على جبنه ولكنه بقى صامتا فأمسكه اسكندر السادس بيده وقال: أريد عقابا شديدا لأن القاتل أكان من الشعب أو من النبلاء أو سيدا من ذوي السلطان أو قريبا من أقاربنا يجب أن يعاني التعذيب الذي امليت صيغته منذ برهة : تقتلع أظافرة ويبتر لسانه وتفقأ عيناه ويظل هكذا معروضا على خشبة التشهير حتى يموت عندئذ يؤخذ قلبه وكبده فيرميان للكلاب ثم تحرق جثته ويلقى برمادها في نهر اليبر!

أترى هذا كافيا يا قيصر ؟

- **ولكنك أنت قلت ذلك**

- **أجل إلا أنك فكرت به أيظا**

- **لنفرض أن هذا صحيح فماذا بعد؟**

- **يجب أن توضح لي هذا الأمر : مع من كان فرنسوا يتآمر علينا؟ هذا أمر هام يجب أن أعرفه**

- لا شك أن فرنسوا التعس قد اتفق علينا مع ألد أعدائنا

- سمهم يا أبي

في هذه اللحظه ارتدى وجه قيصر تعبيرا من الحقد جعل البابا يقول في نفسه" هذا هو ابني الوحيد" ثم عاد إلى الفكرة التي ما زالت تشغله وهتف:/

- أقول لك أسماءهم ؟ يالك من ساذج! لو استطعت إعلان أسمائهم لكانت المهمة سهلة إني أعلم أن هناك من يتأمر علينا هذا كل شيء وأعلم أن الخونة كانوا واثقين بأخيك لترأف بنفسه العناية الإلهية !

- ولكن فلنفكر بنفوسنا يا أبي

- هذا صحيح ولدي فكرة بهذا الشأن . فسأله قيصر قلقا :

- وما هي هذه الفكرة ؟

- لقد كانت أفكار الباب عادة شؤما على الذين يبوح لها لهم ولم يكن قيصر يجهل هذا وفجأة قال بورجيا العجوز : إني أفكر بتزويجك

فانفجر قيصر ضاحكا وقد اطمأن باله وإذا به يصيح قائلا:

وأي شر أتيته لكي تزوجني يا أبي؟

- لا تمزح يا قيصر ---- أنا أعلم أن الزواج يبعث فيك الكره والاشمئزاز ولكن إذا ما حدثتك عن زواج معقول فهذا معناه اني ارى فيه ترسيخا أبديا لسلطاننا

- ـ ها أنذا مصغ إليك يا أبي !!

- إسمع يا قيصر إني أتذكر أحيانا كل ما فعلته في سبيل مجد بيتنا وثرائه وإنه ليخيل إلى أن أشباحا اخذت تدور حولي الأمراء والنبلاء والمطارين والكردالة وجميعهم يؤلفون حولي دائرة من الرؤوس التي تهددني اجل جميع الذين تساقطوا حولنا بالسيف أو بالسم من آل ما لا تيسيا إلى آل مانفردي إلى آل فيتللي وسفورزا جيمعهم يقولون لي:" إي رودريك بورجيا لا بد للقاتل من أن يقتل ولسوف تهلك مسموما يا بورجيا!"

- هيا اطرد عنك يا أبي هذه الخيالات الصبيانية ! فهمهم البابا قائلا:

- قيصر قصر ! عندي شعور مخيف بأني سأموت بعد قليل وبالسم دعني اكمل ! إن مت أنا فما علي ولكن انت –

- وهل أنا مهدد بالموت؟

حينئذ شعر الأب بأن الرعب أخذ يفعل في نفس قيصر فتابع قائلا بعنف: أو كنت تعتقد إذن بأنهم يريدون رأسي أنا؟ كلا كلا ! لو لم يكن أمامهم سواي لتركوني أموت من الشيخوخة ... أما أنت ! فإنك وريث سلطاني أنت الذي احتتلك رومانيا ! أنت الذي تحلم بإحياء أمبراطورية نيرون ! أنت هدفهم الأول يا بني ! وهم لكي يتسنى لهم ضربك يعملون على هلاكي أولا.

فزجر قيصر وقد صعد الدم إلى عينية قائلا: إني أقسم بالجحيم لأحرقن إيطاليا بأجمعها قبل أن يلمسوا شعرة واحدة من رأسك !

-هناك ماهو أجدى من هذا يا قيصر ..... فصاح قيصر قائلا:

- تكلم ! إني مستعد لكل شيء

- هذا الزواج سيحل جميع مشاكلنا

- ولكن يجب أن أعرف

- اسم التي سيكون مهرها تهدئة إيطاليا وتدعيم سلطاننا الموطد ؟ حسنا : إنها ابنة الكونت آلما بياتريكس . فصاح قيصر متعجبا: ابنة الكونت آلما ؟

- هل تعرفها؟

- بل كنت اجهل أن للكونت ابنة ومن ثم كيف يمكنك يا أبي الافتراض أن التحالف ممكن بين آل بورجيا وآل آلما ؟ لقد قلت منذ لحظة إني احتللك رومانيا هذا صحيح ولكنني لم أستطيع إسقاط قلعة مونتفورتي! لذلك فإن الكونت آلما سيد قلعة مونتفورتي مايزال قويا متحديا مغطرسا كأنه إنذار دائم لنا .

- أجل إنك الأن تضع إصبعك على الجرح فلقد أصبحت قلعة مونتفورتي ملتقى جميع الناقمين لأن الكونت آلما بمكائده وشجاعته جمع حوله جميع أصحاب الأحقاد فهل ترى الآن أي مصلحة لنا بأن تصبح بياتريكس زوجة لك؟

- ولكن لن يوافق الكونت أبدا؟

- بإمكانك ان ترغمه على ذلك

- وكيف؟ بخطفك ابنته اولا

فمكث قيصر مهموما يفتش عن البراهين التي تنقذه من هذه العملية التي لم ترقه كثيرا لا سيما وأن قلبه كان يضم حبا آخر إلا أن البابا استأنف قائلا:

- ياله من ضرب مدهش! أن تسير إلى منتفورتي بقوات كافية فتستولي على هذا الحصن الأخير وتأسر الكونت آلما ثم تعرض عليه أن تتزوج من ابنته هذه هي الطريقة الوحيدة التي نتصر بها على أعدائنا بعد أن ثبطنا عزائمهم

وكان يقصر يعض طرف شاربه بغيظ كظيم عندما أضاف اسكندر وهو يراقبه بطرف عينه قائلا: أما الفتاة فإنها حسناء رائعة حتى أنها لتفتن بابا من البابوات!

فهز قيصر كتفيه عندئذ وثب البابا واقفا وقال:

- أرى أن الأمر لم يقع منك موقعا حسنا؟

فاستمر قيصر صامتا متشبتا فاستأنف البابا قائلا وهو يصب على قيصر نظرات تنطوي على خبث : حسنا إني أتنازل عن هذا الرأي ولسوف أجد وسيلة أخرى للدفاع عن أنفسنا دون اضطرارك إلى هذا الزواج المقيت من بريمفيرا هذه الصغيرة

حينئذ وثب قيصر شاحب اللون وقال بصوت أجش: ماذا قلت؟

- قلت : بريمفيرا لقب بياتريكس

- أو تقول إن بريمفيرا هي ابنة الكونت آلما؟

- أجل ! فما الذي يثيرك في هذا!

فاستدار قيصر نحو أبيه وقال: أبي متى تريدني أن أسير إلى مونتفورتي؟

- سأقول لك خلال أربعة أيام ----------لقد قبلت إذن؟ فقال قيصر كازا على أسنانه:

- نعم قبلت !

- حسنا ! إذهب الآن للاهتمام بجنازة فرنسوا لأن هذا الموضوع قد أثار بعض الحمى في العشب

فخرج قصر هازا كتفيه بازدراء فاستمع البابا برهة إلى صوت مهمازية المتباعدين المرنين على الرخام ثم تمتم قائلا: ياله من غبي!

أما قيصر فقد هبط على درج ثم على آخر حتى وصل إلى أقبية الفاتيكان ولم يصحبته أحد وهناك في وسط الأقبية فتح بابا سريا في الأرض ونزل إلى كهف مستدير وكان هناك جحر لا شيء يميزه عن غيره فضغط عليه بكلنا يديه فإذا بالجدار ينفتح عن ممر لرجل واحد يفضى إلى نفق ضيق مظلم عندئذ دخل قيصر في هذا النفق دون أن يشعل ضوءا ما اما هذا النفق فقد كان ممرا أرضيا يجمع بين الفاتيكان وقصر سانت آنج وكان ثلاثة فقد يعرفون في ذلك الزمن وجود هذا الممر وهم البابا وقيصر ولو كريس

الراهب كاركونيو أثناء العمل

كنا قد تركنا الفارس راكستان داخلا إلى ردهة الشرف المفضية إلى الجناح الخاص بقيصر بورجيا في قصر سانت آنج ولقد كان جمع الحاشية من النبلاء بعد تقديم البارون اسطور الساخر قد استدار نحو هذا القادم الجديد فالتفت إليهم راكستان وقال بتواضع كأنه الغطرسة : إن طيبة البارون أسطور يا سادتي هي التي تدفعة إلى تذكيريكم بانتصاري عليه إذ أصبته ست ضربات ممتالية

فاصفر أسطور وكان من الواصح أنه لا يستطيع مباراة الفارس في مضمار الغمز حيئذ تقدم شاب وحيا راكستان قائلا: حضرة الفارس قادم إذن كما قلت يا أسطور لتعليمنا فنون السيف؟ فقال راكستان:

أنا تحت تصرفك يا سيدي! فقال أسطور: إحذر لنفسك أيها العزيز رينالدو إن السيد يحمل إسما مخيفا إذ أنه يدعي فارس الصمصام

فانفجرت عدة ضحكات حول راكستان ثم قال رينالدو :

لكم يشرفني أن أرى إلى أيه درجة ينطبق هذا اللقب على صاحبه !

فأجاب راكستان :

ولكن هذا أمر صعب

ولماذا إذن من فضلك؟

لأنني لا أريد أن أتغلب عليك

بل قل لأنك لا تريد منازلتي

كلا ليس السبب منك إذ أنني لا أطلب شيئا خيرا من أن أعطيك الأمثولة الصغيرة التي أنت بحاجة إليها

حينئذ ساد صمت شديد فأردف الفارس قائلا: إني آسف إذ ربطت البارحة نفسي بقسم

أقسمت بألا تعرض نفسك للخطر بعد الآن ؟

بل لأنني رأيت كم هي سهلة إصابتكم أيها الرومانيون

فارتفعت بعض همهمات منذرة ولكن راكستان تابع قائلا: لقد أخذتني الشفقة عليكم ! فصرخ رينالدو هائجا منذرا: وماذا بعد ؟؟؟؟

لقد قررت ألا أقبل مبارزة في روما إلا مع خصمين فإن صمصامي هل أنت صاغ، أنما يحتاج إلى سيفين على الأقل

ياللمسيح ويااللعذراء !! ..... ويااللقرون الشيطان !!!

هذه الهتافات المختلفة انبجست من عدة أفواه فإذا بثلاثة سيوف تلمع كالشرر وسيف رينالدو واحد منهم

لقد طلبت سيفين فقدمتم ثلاثه ولكنني أقبلها ما دمتم تقدمونها إلي

حينئذ سحب سيفه من غمده وانبرى متأهبا بتحد رائع وبعد لحظات شن الثلاثة هجومهم معا فأخذت سيوفهم تحوم تحويما وأخذ صمصما راكستان يبعث شررا متطايرا وإذا به يقول ساخرا: اليوم يا سادتي سأعطيكم درسا بسيطا وسترون كيف يمكننا أن نجعل ثلاثة سيوف تتطاير وهو ترتسم دوائر في الفضاء وإليكم الأولى!

فإذا بأحد المبارزين يصيح بغضب لأن سيفه قد فر من يديه !

فقال الفارس فجأة:

والثانية !!

فإذا بسيف رينالدو يفر وإذا به يصرخ قائلا : أين سيفي! أين سيفي!

ثم عدا وراء السيف فوجده معوجا

في هذه اللحظه اقترب كاهن كان في زاوية مظلمة يراقب هذه المبارزة ففتح معطفة وأخرج منه سيفا مجرا قدمه لرينالدو قائلا: هذا سيف آخر لن يعوج! فاقتحم به هذا العي لكي تصون شرف روما ولكي تنقذنا من شره

لم يسمع رينالدو هذا القسم الأخير من كلام الراهب لأنه لم يكد يأخذ السيف حتى اندفع نحو الفارس وتأهب المنازلته في اللحظة التي سمعه فيها يصيرخ قائلا: الثالثة !

وإذا بخصمه الثالث قد تطاير سيفه من يده عندئذ استدار راكستان نحو مهاجمه وقال متضاحكا : ألا يكفيك درس واحد؟ ولكن زه زه ! في يديك سيف جديد؟ لقد ظننت أن سيفك قد اعوج

فلم يجب رينالدو بل ظل يشغل سيفه غير آبه لسخريته فأضاف راكستان قائلا: أرى أنك لم تفهم جيدا إنتبه إنني أبدا بتخدير قبضتك بهذه الضربات وبهذه السلسلة من الضربات المزودجة أقيد سيفك ثم ..... هوذا سيفك الرابع يطير!!

ولقد فر السيف راسما نصف دائرة ثم سقط بين المتفرجين فأذا بصرخة تسمع ذلك أن السلاح عند سقوطة كان قد خدش يد حاجب مار من هناك فتراكض الرهب نحو الحاجب وقال : هو ن عليك! ثم اصمت واتبعني فإني سأشفى لك هذا الجرح

فتبعه الحاجب متعجبا إذ أن خدشه الذي يكاد لا يرى لم يكن بهذه الخطورة لكي يستدعي مثل هذا الاهتمام

إلا أن تراجعا أخذ يحدث في دائرة رجال الحاشية الذي شرعوا يكشوفن عن رؤسهم إذ أن قيصر بورجيا قد ظهر فجأة ولم يلبث أن قال: هيا على أحصنتكم إلى الجنازو الاحتفالية ولكن بعد أيام ستذهبون على احصنتكم إلى المعركة !

فارتفع صوت الجمع الغفير تحية لقيصر ثم أخذوا يلتفون حوله وهو مستطرد يقول:

أجل أيها السادة سنمضى إلى المعركة بعد قليل فليستعدن كم منكم بسرعة لحملة سوف تكون قاسية! ولآن فلنذهب إلى دفن أخي الحبيب فرنسوا أما أنت أيها الفارس راكستان فستقف إلى جانبي أيها السادة أقدم لكم حضرة الفارس راكستان صديقي بل أحسن الأصدقاء !

ثم توجه قيصر حالا نحو درج الشرف الكبير الذي يوصل إلى باحة القصر ومن خلفه حاشيته التي تبعته بين صرصرة المهاميز أما راسكتان فقد شرعت أيد عديدة تمتد نحوه وكان البعض يساروعون إلى تحيته كمقرب إلى قيصر والبعض الآخر يظهرون إعجابهم بشجاعته .

في هذه الأثناء كان دون كاركونيو الراهب الذي أمد برينالدو المجرد من سلاحه بسيف جديد قد جر معه الحاجب الذي خدشه السيف ولكنه لم يخط به عشرين خطوة حتى وقف الرجل كمن أصيب بدوار مفاجئ وإذا به قد أصبح باهت اللون أراد أن يتلكم إلا أن بلعومه لم يصعد إلا صرخه مختنقة في الحنجرة ولم يلبث أن خبط في الأرض؟.

وكان كاركونيو يتابع بانتباه مراحل هذا النزع الأخير

فرأى أن الرجل قد تشنج جسده ثم خفق في رجفة أخيرة ثم سكن مصعوقا على الأرض وقد أسلم الروح.

فغمغم دون كاركونيو قائلا في نفسه : حسنا ! لقد صحت تقديراتي فالسم يربط اللسان حالا عندما يبدأ مفعوله فما من هذر إذن ساعة النزاع ولكن ساعة النزاع أقبلت بسرعة فقد كنت مقدرا أنها لن تحين قبل ساعتين من حدوث الجرح يجب إذن تعديل كمية السم ,

ثم مضى كاركونيو سائر الهوينا منحنى الرأس مشغولا بحسابات علمية .

وجرت جنازة فرنسوا بروجيا دوق غاندية باحتفال مهيب وبعد القداس الاحتفالي في كنيسة القديس بطرس طوف بالجثمان في المدينة وبعد أن انتهى الطوفان في المدينة كانت الساعة الخامسة تقريبا عندما أعيد النعش إلى كنيسة القديس بطرس حيث أغلق ووضع في سراديب الكنيسة المقدس

وأثناء المسيرة كلها كانت جماعات من الشعب تتمتم عند مرور قيصر غير أنه لم يعرها انتباهه إلا فيما ندر ولكن إذا بصراح يعلو أكثر فأكثر فرفع قيصر رأسه الذي كان يخفضه إيهاما بالحزن ثم قال في نفسه: أوه أوه ! أصحابنا الرمانيون شجعان اليوم ! وإنهم جريؤون بالنظر مباشرة إلى وجهي! إلا أنه لاحظ بعد قليل أن ألوف التهديدات الصاعدة من الشعب لم تكن موجهة إلية فقال في نفسه : ياللشيطان ! من تراهم يقصدون؟

لقد كان الفارس راكستان واقفا إلى جانبه على يمينه ومن خلفه " أسطور" المقرب المنزل عن عرشه ثم رينالدو والدوق دي ريانزي ثم مائة من النبلاء وألقى قيصر نظرة إلى خلفه واستغرب أن يرى رجال الحاشية الذين كانوا في عشرين حالة سابقة يرصون صفو فهم حوله كيف أنهم الآن لم يتحركوا؟ حتى أنه خيل إليه أن بعض النبلاء يتبادلون بعض إشارات مع أبناء الشعب فاصفر قيصر ترى هل خانه صحبه؟

ولكنه لم يلبث أن اطمأن الآن لهتافات أخذت تنفجر فجأة واضحة المعنى : الموت لقاتل فرنسوا!

ليلق الفرنسي الملعون في التيبر!

نطلب العدل ! والمشنقة للقاتل

واتضح أن القبضات كانت تمتد نحو راكستان

ياللشيطان ! أسامع أنت أيها الفارس؟

إنني سامع يا مولاي ولكنني لا أفهم

ولكن ماذا تراك فعلت لهم؟

لم أفعل شيئا يا مولاي يا للسماء ..... هاهم يشتعلون غضبا !! هيا استعد يا كابيتان !

وإذا بالموقف يصبح حرجا وقد رأى راكستان نفسه مطوقا بل مفصولا عن قيصر بين مد الجمع الزاخر وجزره كأنما هو في عاصف مفاجئ حينئذ شد الفارس أعنة حصانه أما بورجيا فقد كان على أهبة أن يدور إلى الوراء لكي يأمر بالهجوم على هؤلاء المتمردين لو لم يمسك رينالدو لجام حصانه صارخا : إلى القصر ! ثم نعود منه

بقوة لقمع هذا العصيان أما الآن فإنهم قد يسحقوننا بعددهم. فبقى راكستان وحيدا ولم يسأل نفسه لماذا ترى يتهمه الشعب بقتل دوق غانديه لأنه لم ير الراهب كاركونيو مستترا بثياب الجماعة من الناس ومنتقلا من جمع هنا إلى جمع هناك كل ما رآه أنه محاط من كل جانب ولكنه صمم أن يبيع حياتة غالية في هذه اللحظه الخطرة خفق أمام عينه خيال بريمفيرا فتأوه نادما ولكنه غمغم في نفسه : لن تهون عزيمتي بل سأظهر لهؤلاء الأوغاد أيه ميتة يستطيع أن يموتها المغامر المسكين الذي لا رأسمال له سوى حسامه واستهانته بالموت

ثم غرز مهمازيه في كشحي حصانه فإذا به وهو غير معتاد على مثل هذه المعاملة ينتصب على قائمتيه الخلفيتين ثم يشرئب إلى أعلى ثم يوزع حوله درزينه من الرفسات الرهيبة وبلمح البصر كانت دائرة من الفراغ قد انفرجت حوله فيما راحت تعلو ولولة ممزوجة بعويل المصابين الذي حطم كابيتان أحناكهم

أما راكستان فقد رد على هذا الصراخ الصاخب بضحكة منفجرة وهو رغم أنه لم يسل سيفه الذي كان غير نافع في تلك اللحظة ظل مركزا على صهوة حصانه مرتفع القامة كهرقل الذي كان بإمكانه أن يطرح إلى الأرض جيشا من المردة

وكان كابيتان لا يزال يدق الأرض بقوائمة دقا جنونيا ويزبد وينفخ كما تنفخ العاصفة وإذا براكستان يترك له العنان على عواهنه فوثب الحصان ثم شرع يرفس الهواء بحوافره حينئذ زعق راكستان:

شقوا الطريق أيها الأوغاد ! ايها الأرذال ! فأجاب الجمع صاخبين : الموت للقاتل

ثم سمع أزير بندقية إلا أن الفارس لم يصب برصاصة واحدة لأنه كان يدور على نفسه في سرعة خاطفة وهو يتقدم نحو ساحة القصر إلا أن عشرة من صفوف الناقمين كانت تكون حاجزا منيعا بين الفارس وهذه الساحة ومع ذلك فقد استمر راكستان متقدما ولكنه أبصر فجأة رجلا يقترب منه وفي يده ساطور عريض

وكان هذا الرجل على أهبة أن يطع عرقوبي كابيتان فأبصر راكستان الهلاك أمام عينه إلا أنه شعر بأن قواه ازدادت مائة مرة فإذا به في اللحظة التي وثب فيه الرجل بساطوره على كابيتان ينحتي بسرعة البرق ومسك الرجل من حزامه ثم يرفعه ويضعه مقلوبا على سرح حصانة

لقد كان هذا الرجل كاركونيو بالذات ! ولكن راكستان لم يعرفه لأنه لم ينظر إليه بل انطلق مباشرة نحو الحاجز من الناس المزمجرين الصاخبين المتقلبين عليه في هذه اللحظة ترك راكستان لجام حصانه وأخذ بقبضته الرجل المنتفض أمامه ثم رفعه فوق رأسه بذراعين متصلبين وبعد أن وقف على ركابي فرسه طوح بالراهب بعنف وقذفه بملء عزيمته على الجمع من المهاجمين ثم أمسك من جديد لجام الحصان وانطلق به مندفعا كالعاصفة فإذا به يثب وثبة مدهشة قافزا فوق عدد من الصفوف وساقطا في الجانب الآخر من الحاجز البشري.

أما الراهب فقد تدحرج جارا معه عند سقطته على الأرض ثلاثة أو أربعة من الرجال إلا أنه عاد فتحامل على نفسه ونهض مغمغما : إنه الشيطان ! إنه الشيطان

بينا وقف جمع المحاصرين مخبولين من الذهول لأنهم رأوا الفارس راكستان يفلت من أيديهم متجها على حصانه نحو باب القصر الكبير

في بيت الماغا الساحرة

كان في روما حي خاص يسمونه "الغيتو" مؤلف من عدة أزقة متشابكة كانت مياه السواقي تتجمع في وسطها مليئة بعفن النفايات والأقذار وعلى بلاط هذه الأزقة كان يزدحم عالم من الصبيان أنصاف العراة ومن العجائز الجالسات القرفصاء ومن الكلاب والهرره وكنت تسمع في هذا الحي المشوش الغريب جميع ألسنة العالم المعروف وكنت ترى كل باب مفتوحا على حانوت وكانت الحوانيت أشبه بخانات تباع فيها الأشياء المختلفة الأنواع والأصناف .

أما هذا الحي الذي لم يكن لسكانه الحق في تركه إلا فيما ندر هذا "الغيتو" الذي كان يبتعد المسيحيون عنه بخوف وإشمئزاز فقد كان مخصصا للكفرة والوثنين فهناك كان يعيش مصريون شذاذ من بائعي الرقى (؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟) وغجر من كاشفي الحظ ويهود من تجار الحجارة الكريمة والأقمشة ومغاربة من صانعي الأسلحة وزرود الفولاذ(؟؟؟؟)

إلى هذا الحي نقود القارئ الآن في مساء اليوم الذي جرى فيه ذلك الحوار الغريب بين البابا وقيصر وذلك الحديث بين البابا ورفائيل سانزيو ذلك اليوم الذي تمت فيه جنازة فرنسوا ثم بسالة راكستان وحصانه كابيتان.

في مساء ذلك اليوم عندما كانت تدق الحادية عشرة دخل رجل زقاق من تلك الأزقة المبوءة يرافقه أربعة خدم: واحد يسير في المقدمة حاملا قنديل في يده وثلاثة يسيرون خلفه مسلحين بالمسدسات والخناجر وبعد أن اجتاز هذا الرجل وصحبه السلسلة التي تقطع الزقاق دخلوا متوغلين في حي "الغيتو" ولقد كان الرجل من حين إلى حين يعين الطريق لرفاقة بكلمة مقتضبة.

وبعد قليل توقف الزائر الليلي أمام بيت منخفض متداع أكثر ضعة من البيوت المجاورة له وبإشارة أمر اصحابة أن ينتظروا في الشارع ثم دخل في ممشي صغير وتسلق درجا خشبيا أوصلة إلى باب ففتحه ودخل فيه ثم أغلقه خلفه وإذا به في غرفة ينيرها ضوء مشغل من الخشب الصمغي أمام امرأة مقرفصة في وسط الغرفة وذقنها على ركبتيها امرأة تبدو من وجهها المجد أنها عجوز عتية السن إلا أن الناظر إليها إذا رأي بصرها الثاقب قد يمنحها ما يقارب الستين.

وعند دخول الزائر هزتها رجفة قوية كان منظر هذا الرجل قد أحيا في داخلها ألما سريا وسرعان ما قال الرجل : أنت بانتظاري أيتها الماغا . حسنا حسنا!

لقد أعطيت علما بزيارتك فأعددت نفسي للاجابة عليك ترانيم خاصة وها أني مستعدة الآن

وعندئذ فك الرجل عرى معطفه وخلع قمع رأسه إلى الوراء فإذا به مقنع الوجه له قفازان في يديه وقد غاب شعره تحت قلنسوة سقط حرفها على قفا رقبته هنا انتابت العجوز قشعريرة ثانية وأخذ الزائر الغامض الغريب ينزه على الغرفة نظرا مفكرا ولقد ساد عليها جو من السحر: فهنا في زاوية يبدو هيكل عظمي له تكشيرة قبيحة علق واقفا بواسطة بعض اللوالب النابضة ولقد وقف على عظمة كتفه ديك أسود الريس كان يهز من وقت لآخر جناحيه ويفتح فمه منذرا وكان عند قدمي العجوز أفعيان ترفعان رأسيهما صافرتين أما السقف فقد تدلى منه بعض الضباب (الحراذين) المقششة كما أن بوما مسر على درفة الباب وكان هناك طاولة واسعة تحمل قماقم وقرعات زجاجية وانبيقا ثم مدخنة أشتعل فيه جمر ملتهب تحت طنجره يغلي فيها خليط عجيب من الأعشاب ذات العبير.

وكانت اساحرة مرتدية ثيابا بالية مبرقشة ولا يعلم أحد من هي أو ما اسمها وهي هناك منذ زمن بعيد يقصدها الناس في طلب مشورتها وتنبؤاتها وهم يخافونها للقوة الشيطانية التي ينسبونها إليها ثم إنهم يسمونها الماغا أي الساحرة (حرم الأسلام السحر)

ولقد كان يظنها الناس مصرية ولكن لو أن ممحصا درس وجهها لما وجد فيه علامة واحدة من مميزات المصريين بل إنه قد يجد في وجهها ملامح خاصة بالإسبانيين هنا سألها الزائر:

أتعلمين من أنا ؟

فمكثت العجوز صامتة

أنا لورانزو فيشيني بورجوزاي ثري لن يسأل عن أجر مشورتك لقد أخبروني عن علمك وبالرغم من أن نفسي المسيحية تنكر رقياتك فقد أردت أن ألجأ إليك مرة أولى أرجو أن تكون الأخيرة في حياتي.

فبدا على الماغا أنها تضحك في سرها

ولكن ماذا تقصدين؟ ألا تصدقينني؟

في هذه اللحظة صفق الديك بجناحية تصفيقا صاخبا فأمرته العجوز قائلة: إهدء يا طائر!

ثم استأنفت القول بهدوء:

إنك للمرة الثالثة تأتي إلى هنا أيها السيد !!

فذهل الرجل مصعوقا إلا أن العجوز تابعت تقول : جئت للمرة الأولى منذ زمن طويل تطلب إلى وسيلة للقتل دون أن يشك أحد في أنك القاتل فر كبت لك ذلك الماء المميت الذي استعملته مع رجل لم يشرب منه إلا بعض نقاط ممزوجة بسائل آخر ولقد مضى الرجل معافى لأن السائل لم يتغير لونه ولم يتغير طعمه ولكن بعد انقضاء ثمانية أيام أصيب الرجل برجفان شديد انتقل إلى دماغه فأقبل الأطباء يقصدون الرجل ولكن بعد فوات الأوان : إذ أن الرجل قد مات في عارض من الجنون رهيب وقد قضى عليه من بعيد الماء الذي لا يرحم دون أن يعرف من قتلة بل دون أن يشعر أنه قتل ....لقد قتله السم الدقيق الذي ركبته لك : الأكواتوفانا (1)

وظل الزائر في أريكته محبوس الأنفاس فتابعت المرأة قائلة : في المرة الثانية أيها السيد جئت تطلب أن أنقذك من على كادت تودي بك إلى القبر لقد استدعيت يومئذ الأطباء دون أني يعيد إليك أحدهم قواك المنهارة ولكنني أعطيتك قمقما فيه شراب قضيت ليالي عديدة في تحضيره لك فاد إلأيك النشاط بعد شهر واحد كعهدك تماما من الشباب ولقد حدث هذا منذ عشر سنوات يا سيدي

أنت حقيقة ساحرة !! صرخ الزائر . إلا أن العجوز استطرد ت وهي منحية نحو الرجل : في المرة الأولى كنت تدعي اسطفانو، وفي المرة الثانية جبوليو فاينزا واليوم لورانزوفيشيني ولكنني سأقول لك اسمك الحقيقي : الاسم المرعب الذي يخيفك أنت نفسك.

ثم انحنت أكثر وتمتمت الاسم في اذن الزائر الذي ارتجف ثم صاح: وحق السماء أنت عالمة بأشياء كثيرة ولسوف تموتين !

وإذا به يضع يده على سيفه غير أن المرأة العجوز مدت إليه ذراعها قائلة : كلا لن أموت لأن ساعتي لم تقترب بعد ولأن مصيري ومصيرك لم ينتهيا ... ثم لن تقتلني لأنني لم أخنك ولأنك مازلت بحاجة إلي

حينئذ هدأ روع الزائر المجهول وقال/ أنت على حق أيتها الساحرة فقد كان بإمكانك فضح سري ولكنك لم تفعلي لذلك فإنني أثق بك ولكن هذا الاسم الذي كشفه لك علمك الجهنمي.

فقاطعته الماغا قائلة: أيها السيد هذا الاسم هو أكثر اختفاء في قلبي منه في فكرك أنت

إني أصدقك !!

حسنا ! فلنر إذن ماذا تريد لقد جئتني في زيارتك الأولي تطلب موتا وفي زيارتك الثانية تطلب حياة فماذا تلطب مني الآن ؟ فأجاب الرجل مغمغا:

جئت اطلب الحب.

فانتفضت المرأة مرتجفة ولمعت عيناها الحادتان بلهب غريب وانقلب وجهها المجد بألم عنيف دام عدة ثوان ثم عاد رويدا رويدا إلى جموده اما الرجل فقد كان يستطرد قائلا: لقد منحتني سلطة القتل ومنحتني سلطة الحياة فامنحيني أيتها الماغا سلطة الحب! ركبي لي الشراب السماوي الذي لا يجعلني فقط محبوبا من المرأة التي أريد ولكنه يخلق في عروقي من الشغف ما يشبه السيل

أنت تعلمين أيتها الماغا انني مسن وأن دمي قد اعتراه الجمود على بطء إلا أنني ما زلت ظمآن للحب! أريد أن أحب أيتها الماغا وها أنذا أرمي كنزا على قدميك

فهزت الماغا رأسها فقال الرجل بقسوة : أترفضين ؟

إني أرفض كنوزك فقط أما الشراب الذي حدثتني عنه والذي سيعيد إليك الشباب بعض ساعات فإنه غدا سيكون جاهزا فأضاف الزائر قائلا : ولكن لا تنسي أن تجعلي هذا الشراب يمنح الإمرأه التي أخذتها مقدرة النسيان بأنني مسن . ثم المقدرة على حبي . فقال العجوز : يجب أن أعرف من هي!!

من هي ! أكاد لا أعرفها أنا نفسي فلقد رأيتها مرة واحدة اليوم وحتى الصباح كنت أجهل أنها موجودة إلا أن رسمها بعث في رغبة محرقة لرؤيتها ! ولكن ماذا يكون الرسم إذا قيس بجمال الأصل الرائع! لقد رأيت السم بعد ظهر هذا اليوم في مقري من كنيسة القديس بطرس فطفقت مختبئا أتأمله ولم أعرف أبد في حياتي الطويلة ما يشبه الشعور الذي تأجج في نفسي فقالت الساحرة بلهجة حزينة: أبدا لم تعرف مثل هذا الشعور؟

كلا أبدا؟

وكيف يسمونها ؟

إنها عاملة فرن بلا اسم ولا عائلة

فاقشعرت العجوز ووضعت يدها على قلبها لتحد من خفقانه ثم مضت تسأل : والرسم من صنعه؟

رسام شاب يدعي رفائيل سانزيو ولكن دعينا من هذا ..... هل ستعملين ما طلبته منك؟

سأعمله

وكم من الوقت سيكلفك؟

شهرا

شهرا !!! ولكن هل ستنجحين ؟؟

سأنجح

حسنا !! ليكن إذن كذلك وبعد شهر سوف تريننني

سأكون مستعدة لتسليمك الشراب

عندئذ نهض الزائر واتجه نحو الباب ثم انزل على الدرج وانضم إلى مرافقيه عائدا معهم إلى قصر سانت آنج وفي ساحة القصر مد يده لكل منهم بقطعة ذهبية فتناولوها وابتعدوا متفرقين وعندما غابوا عن بصر الرجل المجهول مشى هذا نحو القصر ودخله دون ما صعوبة

ولوكان أحد يرصده لرآه بعد دقائق معدودة يعيب في ظلمة النفق الضيق الذي كان قيصر بورجيا قد اجتازه عند الصباح ولكن باتجاه معاكس وبعد أن انطلق من أقبية قصر سانت آنج وصل بواسطة باب سري إلى غرفة نوم في الفاتيكان حيث نزع عن وجهه القناع وحيث استلقى على سرير رسم عليه تاج ومفتاحان ولم يلبث أن نقر على جرسة فضية وعندما أقبل حاجبة مسرعا أمره قائلا: أحضر شرابي الساخن

فأسرع الخادم منفذا الأمر

والآن قل لقارئي أن يحضر

فاختفى الحاجب وحل محله كاهن شاب

آنجلو يا بني لي ساعتان أتقلب على سريري دون أن أجد الكرى فاقرآ لي شيئا .....ماذا؟ خذ الإنيادة.
فأجاب الكاهن:

سمعا وطاعة يا قداسة البابا!!!

العذراء الجالسة على كرسي

قبل أن نرجع إلى بطلنا الفارس راكستان فلنعد إلى بيت الماغا ساحرة حي " الغيتو" التي بعد أن غدرها الزائر بقيت مقرفصة في زاويتها بالقرب من الأفعيين وهي تحلم بشيء عميق سمر عينيها مفتوحتين وكانت عيناها اللتان لم تخلقا للبكاء ناضحتين بساقية من الدموع راحب تسيل نقطة إثر نقطة ثم تجف على خديها الملتهبين بحمى محرقة أجل لقد كانت الماغا تبكي ! وعندما سمعت هياج الديك محييا الفجر تمتمت قائلة : بعد قليل يطلع النهار!

عندئذ نهضت من مكانها ومضت تتلمس طريقا إلى صندوق قديم خشبي فتحته وضغطت على لولب فيه حتى انتفتح جاروره وامتدت يداها إلى وسط هذا الجارور فأمسكتا علبة من الخشب منقوشة مطعمة بالذهب وكانت العلبة تحتوي على شيئين فقط: خنجر حده مصقول ولا شك أنه من صنع مغربي ولقد كان هذا الخنجر بسيطا جدا وله قراب مغطى بمخمل قرمزي ناصل اللون.

أما الشيء الثاني فإنه تمثال مصغر موضوع داخل إطار من الذهب المزين بالماس والدر وكان هذا الإطار وحده كافيا لكي يؤلف ثروة كبيرة للماغا ومثل التمثال المصغر شابا يرتدي ثوبا كان سائدا بين تلامذة الإسبانين في القرب الخامس عشر!

وله رأس مغبر مطبوع على العزم والخيلاء وعينان سوداواون حاجبان غليظان وفم ساخر وبالاضافة إلأى هذا كله جرأه لا تصدق وعناد عنيف إلا أن الصلاة والقسوة النادتين عن التمثال كانتا تلينان خلف هذا الإشراق الذي يضيفه عليه الشباب ولقد راحت الماغا تنظر إليه بألم شديد متمتمة:

إيه ياحبي ! إيه يا شبابي! أين أنتما الآن ؟ إن قلبي مدفون في هذه العلبة التي لم أجروء على فتحها منذ عشر سنين أي منذ زيارته الأخيرة آه أيها القلب الشقي لماذا لم تساعدني الشجاعة على اقتلاعك عندما .....

وفجأة وقعت على ركبتيها وأخذت تجهش بالبكاء وفمهما ملتصق على التمثال الصغير.

أمي !! يا أمي المسكينة ! أما زلت تنتحبين؟

صوت شديد الحنان لفظ هذه الكلمات فسارعت الماغا إلى غلق العلبة فالجارور فالصندوق ثم عادت إلى باب يفتح على غرفة مجاورة فرجع الصوت قائلا: أين أنت؟ لقد سمعتك

فأنارات الماغا مشعلا ودخل إطار الباب ظهرت فتاة بسن السادسة شعرة تقريبا يتألق جبينها بإشعاع لم تحلم بمثله نفس شاعر وتنبلج عينيها عن طهارة صافية ويتفتق ثغرها كتويج من الحنان حتى أنه ليخيل إلى ناظرها أنها ليست عذراء فحسب بل هي العذرية بالذات

وعندما أنير المشعل تقدمت الفتاة وهي شبه مكتسية وبقدمين حافيتين نحو العجوز فطوقت عنقها الذابل بذراعين خارقي البياض نحو العجوز ثم تركت رأسها الجيل يستريح على صدر العجوز النافر العظام حينئذ قالت الماغا: روزيتا! آه يا تعزيتي الوحيدة !

ثم رفعت روزيتا عينيها نحو الساحرة بحنان وقالت : كنت تبكين يا أمي لهم طارئ عليك أفلا تقولينه لي أنا أبنتك؟

ابنتي ..... أجل ابنتي ! ابنتي الوحيدة !

وهمهت العجوز هامسة في سرها : لتكن معلونة تلك "الأخرى" التي حطمت قلبي كوالدة كما كان "هو" قد حطم قلبي كحبيبة

ثم تابعت بصوت مرتفع: أجل يا عزيزتي روزيتا لدي هم يقتلني رويدا رويدا ولكن لن أقوله لك لأنني سأضطر إلى أن أروي لك قصة حياتي الكاملة ملقية على طهرك نقابا دنسا يربد به نقاؤك !!

أمي إني أحبك من كل قلبي وأتألم لألمك أتمنى أن أعرف مصائبك لكي أقاسيها معك أعزيك

آه يا روزيتا الحبية إن وجودك بقربي هو وحدة تعزية لي لا حدود لها وإن لمسة وإحده منك تكفي لتنسيني موقتا الألم الشديد الذي يقرض نفسي ولكن ها أنذا قد كففت عن البكاء . فلنتحدث قليلا لأن الوقت قد حان لأقول لك بعض الأشياء

وكان النهار قد ارتفع وملأ بألقه جوانب الكوخ فسألت الفتاة : ماذا تريدين أن تقولي؟

فلم تجب العجوز بل طفقت تتأمل هذه الطفلة

آه يا ليتني أمك الحقيقة !!

بل أنت أمي الحقيقة أمي الوحيدة لأن أمي الحقيقة قد تركتني !

أجل وعن هذا أريد أن أحدثك

وما نفع هذا يا أمي وعلام نوقظ تلك الذكريات ؟

هذا ضروري ! هل ستذهبين اليوم إلى مرسم رافائيل؟

عند سماع هذا الاسم اهتزت جوانج روزيتا من الفرح وتمتمت:

رافائيل!!

فأخذت العجوز يدها وقالت : أنت مغرمة به إذن؟

نعم يا أمي روزا إني أحبه من كل نفسي وهو يحبني كذلك ....آه كم هو جميل وطيب!

هذا صحيح إنه يملك طبيعة شاعر فنان

ولقد عينا تاريخ زواجنا شرط ألا تمنعي موافقتك عنا وغدا سيأتي رافائيل ليحدثك في الأمر

لست مهتمة للتاريخ كوني سعيدة هذا ما يهمني ولكن هل ستلتقين به اليوم؟

كلا يا أمي لأنه انتهى من وضع آخر لمسات ريشته في رسم هذه العذراء الجميلة التي نقل ملامحها عني ولسوف نلتقي هنا غدا لأنه من المؤكد أنه حمل اليوم لوحته لقداسة البابا

للبابا !!

نعم يا أمي ! وإن رسم حبيبي رافائيل هو أهل لأن يظهر بين روائع الفاتيكان

هنا ساد الصمت بعض دقائق ثم إذا بالفتاه التي تدعوها العجوز روزيتا والتي يدعوها الجيران " لا فرنارينا" أي عاملة الفرن لأنهم لا يعرفون اسما آخر لها تبتسم ابتسامة ذاهلة وتقول : عندما أفكر بسعاتي أراني متسألةً ّا كنت لن أفتقدها بشر مستطير!

عندئذ ارتجفت الماغا ثم سألت بقلق شديد : ماذا تقصدين؟

لا شيء يا أمي إنها إفكار مجنونه تنتابنيّ! ولكنني أشعر أنني سعيدة جدا طوال ست سنوات عشتها معك ! ألا تذكرين كم تألمت قبل ذلك .؟

فارتجفت الماغا متألمة وهمهمت في نفسها : تلك هي غلطتي!

فاستطردت روزيتا قائله:/ كان عمري عشر سنوات وكلما ابتعدت صعدا في ذكرياتي أجد انني كنت محتقرة مضطهدة إذ كان البعض يدعونني الهجينة الصغيرة ويقسم آخرون بأنني لم أكن معمدة أما الأمرأة التي كانت تحتفظ بي في بيتها فقد كانت تضربني لاسعة كتفي عند أقل هفوة بعصاها الثقيلة.

ولقد كانت العجوز تصغي إلى هذا الحديث بانتباه عميق بالرغم من سماعها له مرات عديدة أما الفتاة فقد تابعت تقول: كانت تلك المرآه شريرة فدعاها الناس الخفاش الدموي ولم أكن أعرف لها إسما أخر كما أنها كانت تدعي أنني مجهولة الاسم لذلك فقد اعتاد الناس أن يسموني لافورنارينا ولقد ظل ها الاسم مخلوعا على حتى أن رافائيل نفسه يدعوني به احيانا آه يا لتلك المرحلة القاسية من حياتي ! يوم كنت أرتدى أسمالا بالية وأسير حافية القدمين وأعمل في الفرن طول النهار,

ولم تكن الخفاش الدموي تطعمني إلا نزرا يسيرا حتى انني حسبت في أحد الأيام أن ساعتي قد دنت من الجوع إلا انني شاهدت في فرن الخفاش الدمو ي أرغفة استثارت شهيتي فانتظرت حلول الليل وقمت فسرقت رغيفا واحدا وفي اللحظه التي كنت فيها اهم بالعودة إلى الوكر الذي انا فيه استيقظت المرآه البغيضة ورأتني ! فأقبلت تطرحني في الأرض وتدوس علي ثم انحنت علي وعضتني عضة سال معها دمي فصعقت من الرعب وأغمي علي .. وعندما ألإقت وجدت نفسي هنا بين ذراعيك يا أمي روزا وكنت تشهقين باكية هكذا كما تفعلين الآن !! ولكن لماذا تبكين يا أمي ! فلقد انقضى كل هذا

لقد انقضى كل هذا ولكن ذكره مازال يلذعني كالحديد الحامي

آه يا أمي الطيبة روزا! كم أنا حمقاء لكي أقص عليك أشياء كنت تجهلينها !!! ولكن ها قد انتهى الآن كل شيء فقالت العجوز : إن ما لم ينته هو تأنيب الضمير فهتفت لا فورنارينا متعجبة : تأنيت الضمير !!

أجل وستعملين ما كنت جاهلة

آه إنك تخيفيني يا أمي !

أخيفك ! هذا لا شك عقاب لي . فهتفت لافورنارينا متعلثمة :

امي ! أمي ! أي دوار قد استولى عليك ! إن كلماتك تثير رعبا في نفسي

فقالت الماغا فاتله ذراعيها : مع ذلك يجب أن تعلمي وأن تعرفي الحقيقة . اسمعي : فأنت عندما عانيت الأضطهاد وعندما عذبت طفولتك كان ذلك بإراتي

عنئذ استلقت الماغا على ركبتيها حتى لامس جبينها الغبار وصاحت /

ألعنيني يا روزيتا لأنني كنت جلاك أنا بنفسي!

أألعنك يا أمي أنت التي أنقذتني والتي جعلتني أعرف لذة الحب؟

اسمعي .... أنا التي أسلمتك إلى خفاش الدم فتعلثمت لافورنارينا قائلة : إنه حلم مخيف !!

ولم أسلمك فقط إلى هذا الشيطان ولكنني كنت أدفع لها دراهما لكي تقيم على كرهك وتعذيبك

آه يا أمي روزا! أرجوك أن تنهضي

لن أنهض قبل أن تعرفي كل شيء فقد كنت أرصد آلامك وأسد رمقي بها وكانت دموعك تبرد قلبي المقروح . واستطال ذلك حتى تلك الليلة التي رأيتك فيها ترتجفين وتختلجين تحت نواجذ خفاش الدم فإذا بثورة عاتية لا افهم مصدرها تثور في نفسي فطفقت عليك وانتشلتك من هناك! وكنت مستعدة أن أهب حياتي شرط أن تنسى ذلك الاستشهاد الطويل ولكنك لم تنسى ! أو واه من تلك الساعات الرهيبة التي قضيتها عندما كنت تقصين علي شقاءك المنصرم! ومن تبكيت الضمير الذي كان يرهقني! اما الآن بعد أن عرفت كل شيء فما عليك إلا أن تصبي لعنتك على نفسي .

فشهقت لا فورنارينا ثم انحنت على الأمرأة العجوز فرفعتها قليلا وطوقتها بذراعيها قائلة بصوت مرتجف : أمي أمي إني أحبك ! وانت أما عدت تحبين ابنتك ؟

عندئذ جأرت الماغا صارخة/: ربي ربي! أها تغفر لي ولا تدفعني عنها بل إنها تدعوني أيضا أمها !

وهكذا فقد ظل الكوخ الحقير لدقائق طويلة يرجع زفرات هذين الكائنين البائسين اللذين كانت هذه اللحظة من الفرح تحمل إليهما القلق كألم أخير عندئذ طردت روزا العجوز الدموع من عينها وقالت: الآن يا ابنتي يجب أن تعلمي كل شيء

ولكن يا امي لقد حان الوقت لأن أذهب إلى فرن "نوشيا"

لن تذهبي اليوم يا ولدي!

لكنك ستخسرين أجرة نهاري . فأجابت الماغا بحرارة تشبه الحمي: قلت لك يا روزيتا بأنك ستعلمين كل شيء أتفكرين بأجرك الزهيد؟ حسنا تعالي وانظري .

هنا قادت العجوز الفتاة حتى الصندوق الخشبي وفتحت جارورا ممتلئا بقطع الذهب والفضة ثم صاحت قائلة: ألم تفهمي أنني عندما تركتك تستسلمين لتلك الأعمال الوضيعة كنت أريد فقط إبعاد الظنون عنك ؟ كلا يا ابنتي لن تذهبي اليوم إلى الفرن ولا غدا ولا في الأيام المقبلة

وصمتت العجوز متمتمة في نفسها: آه ! لقد كان هنا ، هنا في هذا المكان!

ثم عادت إلى لا فورنارينا تقول مرتجفة: اسمعي يا روزيتا ! ستعرفين لماذا أنت ابنة بلا اسم ولا عائلة وستعلمين لمااذا أسميتك روزيتا أنا التي أدعي روزا ولماذا أبغضتك بغضا شديدا – أجل ستعلمين كل شيء يا ابنتي لأن الخطر الذي يداهمك إنما يفوق هولا كل ما عانته طفولتك البائسة ولسوف يبدي لك خفاش الدم ذاته رقيقا أمام النمر الذي يرصدك في الظلام !!

خاتم اسكندر بورجيا الذهبي

تقودنا هذه الرواية إلى مسرح آخر يجري فيه العمل وإن هذا الفصل الذي ستتلى حوادثه الآن لا يفرضه مجرى الحوادث وحسب ولكن قد يكون هناك علاقات غامضة تربطه بالفصل السابق الذي خططنا ملامحه منذ حين ومن واجبنا إظهار هذه العلاقات

لقد كانت الساعة نحو العاشرة صباحا عندما توقفت عربة قرب الباب الفلورنسي في ظل غوطة من السنديان فنزلت منها امرأة مجلببة بالسواد ودخلت على قدميها إلى روما متجهة بسرعة نحو الفاتيكان ولكنها لم تتقدم منه من جهة واجهته الأمامية بل من الجهة الخلفية داخل حديقة عريضة مسورة بالجدران كان يستحيل الدخول إليها إلا من باب صغير مهمل وعندما وصلت المرأة المحجبة الوجه بنقاب سميك إلى هذا الباب أخذت مفتاحا ووضعته في غاله الصدئ الذي امتنع قليلا ثم انفتح عندئذ توقفت الزائرة لتكبح خفقان قلبها ثم اتجهت نحو دارة أنيقة مختفية في دغل مكتظ من أشجار الدفلى وكان خادم مسن يتنزه عند باب هذه الدارة فلمح المرأة المجهولة وهب إليها يصرخ غاضبا: كيف دخلت إيتها السيدة ! أخرجي حالا!

فلم تجب المرأة ولكنها أخرجت من صدرها خاتما ذهبيا وقدمته إلى الخادم قائلة: أرجوك أن توصل هذا الخاتم إلى حيث أنت أعلم ولا شك

فانحنى الخادم خاشعا وتمتم مبتسما: أجل يا سينيورا أعرف أين أوصله ثم أخذ الخاتم وانطلق به نحو القصر

فدخلت الزائرة إلى غرفة منزوية في تلك الدارة وجلست تنتظر مرهفة السمع خافقة القلب حتى مرت ساعة وهي على هذه الحال ثم إذا بوقع أقدام تجرى مسرعة على رمال الحديقة وإذا برجل يظهر فجأة في الباب ملقيا على الزائرة نظرة المليء بالفضول والقلق فنهضت السيدة وكشفت عن وجهها فهتف الرجل مغمغما : الكونتيسة آلما ! فأجابت المرأه بصوت ضعيف: كنت تدعوني فيما مضى يا رودريك ، أنوراتا!

لا أعرف الآن سوى الكونتيسة آلما يا سيدتي المرآة العدوة لكنيستنا أما أنا فلست سوى خاطئ مسكين يقضى أيام حياته الأخيرة مستغفرا الله القدير عن ذنوبه الماضية ولكن اجلسي يا سيدتي

فأطاعت المرأة وقد أطلت الدموع من عينيها بينما راح الرجل يراقبها ببصر حاد وإذا بالسيدة تتمتم قائلة: سبع عشر سنة

أجل منذ سبع عشرة سنة دخلت إلى هنا للمرة الأخيرة ثم إنك تتحدث عن ذنوبك فمن ترى يغفر لي ذنوبي !

الله كبير يا سيدتي

وسكت الرجل منخفض الرأس متشابك اليدين فتابعت السيدة قائلة: أجل! إني أتألم منذ ذلك الزمن البعيد لأنني خنت واجباتي يوم رمتني بين ذراعيك دقيقة من الأطماع ولكنني عوقبت بقسوة آه لكم فكرت بتلك الطفلة التي تركتها عند عبته الكنيسة ولكم قلت مرارا في نفسي إن المصائب التي ألمت ببيتنا لم تكن إلا عقابا عادلا

الله عادل يا سيدتي فهتفت الكونتيسة ألما بلهجة ثائرة :

أو تقول لي هذا أنت الذي نصحني بهجر الطفلة وأنت الذي نشرت الألم على بيت آلما كما نشرته على جيمع بيوت النبلاء في إيطاليا؟

البابا غير مسؤل عن اخطاء العاشق . فأجابت الكونتيسة بمرارة : نعم أيها الأب الأقدس أنت لم تعد روردريك بالنسبة لي ولم أعد أونوراتا بالنسبة لك وها إنني الآن أرفع صوتي للأب الأقدس وللحبر الأعظم أقدم توسلي المتواضع.

تكلمي فلعل باستطاعتي أن أخفف عنك

أيها الأب الأقدس لو كان الأمر يتعلق بي وحدي لكنت هجرت هذا العالم باكرا إلى دير يغلق جدرانه على عاري وذكرياتي .

فقال البابا مستخفا: هذا قصد رائع!

ولكنني لا أملك حق تنفيذه ثم لو كان الأمر متعلقا بالكونت آلما لكانت معنوياته الضعيفة تخضع حالا لما تمنحه إياه قداستكم مقابل تخليه عن كونتية مونتفورتي

ليتأكد الكونت آلما أنه واجد في روما وفي الفاتيكان ذاته مركزا ممتازا عندما يروق له أن يترك حصنه عش النسر وإني أمنحك صلاحية إبلاغه هذا

لست بحاجة لإبلاغه الامر فالكونت آلما عالم بأنه سيغنم من خضوعه لقداستكم وهو يفكر به دوما

فمن يقف في طريقة إذن؟ إنني سأفتح له ذراعي الأثنتين

من ذا يمنعه من تسليم حصن مونتفورتي؟ ومن ذا يمنعني أن أدخل الدير؟ إنها ابنتي بياتريكس

هذه الطفلة ! حسنا لسوف أقدم لها مهرا غنيا بل سأجعلها أميرة والرجل الذي سيكون من نصيبها ربما صعد هو نفسه على عرش فتصبح ابنتك ملكة ! أتسمعين يا أورنوراتا؟

إن قداستكم لتدعوني من جديد أونوراتا!

أيها المسيح ! لقد أفلت هذا الإسم على لساني

ولكن من الرجل الذي سيكون من نصيب ابنتي ؟

فقال البابا بلهجة فيها من الأبهة شيء كثير : اسمه قيصر بورجيا دوق فالنتينوا

ابنك!!!

هو نفسه ! وثقي أيتها الكونتيسة أنني أمنحك في هذا اليوم دليلا على الحب لم تنله واحدة سواك

ولكنك تجعل من هي بياتريكس ! إن دم آل سفورزي الذي نسيته أنا يجري دافقا في عروقها إنك تظن أيها الأب الأقدس أن الكونت آلما هو الذي حمى حصن مونتفورتي القلعة الوحيدة التي صمدت أمام قيصر بورجيا وجيمع الناس إنما يظنون ذلك ولكن بياتريكس هي التي أشعلت حماس حامية الحصن وهي التي فرضت على ابنك الهزيمة وهي حتى اليوم مازالت مستعدة للقتال (ثم تابعت الكونتيسة وقد ارتمت على ركبتيها) آه أيها الأب الأقدس عن هذه الأشياء كنت أريد أن أخاطبك فقد جئت أطلب عطفك على ابنتي لأن ابنك آخذ في تجهيز حملة جديدة على حصن مونتفورتي إني أستحلفك باسم الله الرحيم أيها الأب الأقدس أن تنقذ ابنتي التي بقيت وحيدة لي وأن تمنع ابنك من متابعة خطته لاسيما وأن إماراة مونتفورتي البائسة لن تضيف إلى تاجك سوى زهيرة فقيرة فاترك لنا هذه الخلوة ودعني أقضي فيها البقية الرثة من عمري ودع الكونت يعيش فيها قناصا مسالما ومقابل ذلك فإني أقسم لك بأنه لن تبدر في مونتفورتي طيلة بقائي حية أية محاولة ضد سلطان آل بورجيا

هنا لجأ البابا إلى أسلوب كان معتادا عليه فأجاب المرآة التاعسة سائلا:

أنت إذن ترفضين زواج ابنتك من قيصر؟

فرفعت المرآة رأسها بدهشة وقالت : إني لا أرفضه ولكنه مستحيل لأن في نفس بياتريكس حقدا عليكم جميعا قد ورثته من آل سفورزي

لتتحقق مشيئة الرب!

أيها الأب الأقدس إني أنتظر قرارك فبأي جواب تريدني أن أعود إلى مونتفورتي؟

يا لأسف ! لقد استقل قيصر عن تأثيري عليه ولقد قام بحروبه ضد إرادتي ولن يكون هناك قوة في العالم تمنعه عن الهجوم على مونتفورتي

فنهضت السيدة ملقية آخر نظرة يائسة ثم قالت : الوداع يا رودريك!

عندئذ خرجت أونوراتا امرأة الكونت آلما متعثرة الخطى ولم تكد تبتعد قليلا حتى نهض البابا متمتا : يا لهذا الشبح ! لم اكن أبدا انتظر هذه الزيارة بل كدت أنساها أونوراتا الطيبة

ثم تقدم الشيخ نحو باب فتحه ودخل إلى غرفة مجاورة حيث كان هناك رجل ينتظر جالسا في الظل هذا الرجل هو قيصر بورجيا الذي أتي به البابا عندما نقل إليه الخادم خاتم الكونتيسة الذهبي وسرعان ما قال البابا:

إذن هل سمعت ؟

سمعت كل شيء ولسوف أمحو هذا الحجر الصغير الذي يدعى مونتفورتي !

على شرط أن المحاربة بياتريكس .....فقاطعه قيصر مصفرا :

بريمفيرا !! !

أسمعت ما هي عواطفها نحوك ؟ فأجاب قيصر بصوت مربد:

لسوف أرغمها على تغييرها

ولكننا إلى أن يحين ذلك حيال عدوة جديدة : هي الكونتيسة آلما التي كنت أعتقد قليلا عليها لتمهد أمامنا الصعوبات فإذا هي بدل أن تكون حليفة لنا تمضى إلى بياتريكس لتحول نفورها منك إلى كره بل إلى حقد شديد عليك

ستفعل هذا إذا وصلت حية إلى مونتفورتي أما ابنتها فقد لا تراها عن قريب

وماذا تقصد؟

أقصد أن بياتريكس شوهدت في جوار روما . فصرخ البابا مرتجفا:

في جوار روما! آه إن آل سفورزي هؤلاء مبارزون أشداء مخيفون ! إذهب يا بني فسأمضى أنا إلى الصلاة راجيا السماء أن تفصل بين الأم وابنتها إلى الأبد.

فهمهم قيصر: بل أنا سآخذ على عاتقي هذا العمل

آه إني فطنت لقد نسيت الكونتيسة هذه الجوهرة الصغيرة هذا الخاتم الذهبي فباستطاعتك أن تلحق بها لترد لها هذا الرمز الذي قد يكون من الواجب أن تحتفظ به على كل حال إذا لم يكن خاتمها بعينه فهو خاتم آخر مع تعديل بسيط .

فقال قيصر بصوت اجش:

هاته يا أبي. ولم يكد يستلم الخاتم حتى وثب مندفعا إلى الخارج

.....

أما الكونتيسة آلما فبعد أن ابتعدت بسرعة وصلت إلى المركبة التي كانت تنتظرها قريبا من الباب الفلورنسي ولم تكد تصعد إليها حتى مضت العربة تنهب الأرض نهبا إلا أنها لم تكد تقطع خمس مائة قدم حتى تبعها فارس أخذ يشير إلى الحوذي بأن يقف عندئذ انحنى الفارس على باب المركبة وحياها بإجلال فعرفته الكونتيسة وتمتمت وهي باهتة اللون: قيصر بورجيا

أنا هو يا سيدتي لقد أردت أن أقدم لك جليل احترامي رغم العداوة القائمة بين بيتينا وعندما أراد أبي أن يبعث في أثرك خادما يحمل إليك شيئا نسيته لم أقبل أن يكون هذا الخادم شخصا آخر غيري . فسألته الكونتيسة متعجبة: شيئا نسيته؟

هذا الخاتم ولقد أكد لي والدي أنك ستأسفين على إضاعته لذلك أردت أن أوفر عنك ما ينكدك

فابتسمت الكونتيسة ابتسامة حزينة وقالت بعد أن علت الحمرة وجهها : إني أشكرك يا سيدي . ثم مدت يدها لتتناول الخاتم الذهبي إلا أنها أطلقت آهة صغيرة لأن نتوءا في طبعة الخاتم خدشها في راحتها خدشا طفيفا . فقال قيصر : عذرا هل آلمك شيء يا سيدتي؟

كلا لا شيء

الوداع إذن يا سيدتي لقد انتهت الآن مهمتي ولكن دعيني أضيف بأنني سأحتفظ لك ولذويك مهما كانت ضرورات الحرب بعطف عميق

واستدار قيصر بحصانه قافلا نحو روما إلا أنه قبل أن يدخل إلى المدينة وقف يتأمل العربة التي شرعت تغيب ثم غمغم قائلا:

ستصل هذه المركبة بعد ثلاثة أيام إلى مونتفورتي ولكنها لن تصل إليها إلا بجثة هامدة !

غير أن المركبة لم تذهب إلى مونتفورتي بل توقفت في نزل "الفورش" حيث تعرف الفارس راكستان إلى قيصر بورجيا وهناك حبست الكونتيسة آلما نفسها في غرفة لم تتركها إلا بعد سقوط الليل إذ امتطت صهوة حصان وتابعت وحدها الطريق .

ولم يطل بها الطريق حتى انحرفت عن طريق فلورنسا ثم راحت تسير الهوينا طيلة ساعتين حتى وصلت آخيرا إلى مضيق بين الصخور بني في قعره بيت ذو مظهر متواضع ولم تكد الكونتيسة تطل على هذا البيت حتى خرج ظل أبيض من بين الصخور الجاثمة بين العليق وانتصب على الدرب فهتفت الكونتيسة : بياتركس!!

فقالت بياتريكس وقد اقتربت تضم أمها بين ذراعيها : لكم برحني القلق عليك لأنك تأخرت كثيرا

وأسرعت المرأتان فدخلتا إلى البيت الذي أغلق بابه خادم مسلح . هنا سألت بياتريكس أمها تقول:

إذن يا أمي هل نجحت؟ وهل استطعت رؤية الأشخاص الذين كنت تأملين لقاءهم.

فأجابت الكونتيسة بصوت مختنق: كلا لم اجد هؤلاء الأشخاص في روما

آه يا أمي لكم يفرحني هذا ! لأنك عندما أخبرتني البارحة بعزمك على نشدان السلم بيننا وبين آل بورجيا لم أستطع أن أصد الانقباض عن قلبي آ أنه ليس من سلم يرتجى في إيطاليا ما دام هؤلاء المسوخ يبصرون النهار هيا تشجعي يا أمي فقد صممت على متابعة النضال حتى النفس الأخير ولكن هل أنت متأكدة من أنهم لن يكتشفوا خلوتنا هذه ومن أنهم لم يحلقوا بك راصدين ؟

اطمئني يا بياتريكس لأنني تبعت خطتك تاركة المركبة في نزل "الفورش"

حسنا فعلت ! على كل حال سنتهي أسرنا هذا مساء غد سأمضى إلى موعدي الأخير في روما وبعد غد عند الفجر سنترك هذه الخلوة التي قضينا فيها شهرا بأكمله لنعود إلى مونتفورتي

آه إن نفسك نفس بطلة يا بياتريكس !!

من الواجب أن أكون كذلك عندما يصبح للرجال قلوب نساء

إنك تقصدين أباك!

أجل ! ولكن ماذا بك يا أمي إني أراك تصفرين؟

لا شيء فقد أردت أن آخذ هذه الكأس من الماء لأنني أشعر بعض ملتهب إلا أن يدي لم تساعدني على حمله . فقدمت بياتريكس الكأس لها قائلة: اشربي يا أمي

فحاولت الكونتيسة أن تمسكه إلا أنه أفلت من أصابعها المشنجة وسقط متحطما على الأرض

لست أعلم ما بي ! إني أشعر كأن يدي مشلولة . فصرخت بريمفيرا تقول: هذا ما أراه يا أمي ! إن يديك مبيضة وأصابعك مشنجة ترى ما الذي حل بك؟

ها قد تخدرت ذراعي وإن صقيعا مميتا يصعد حتى مرفقي بل هو ذا رأسي يدور آه لقد فهمت الآن!!

لفظت الكونتيسة هذه التنهيدة الأخيرة بصوت يملأه الرعب.

فسارعت بريمفيرا أخذة أمها بين ذراعيها كأنها تريد ان تحميها من شر مداهم ثم أخذت تمتم وهي تكاد تفقد رشدها : ماذا أعمل !!

ماذا أعمل ! فأجابتها الكونتيسة : لا شيء لأن السم الذي يجري في عروقي هو سم لا يرحم . فصرخت بريمفيرا مصعوقة من الخوف : سم !!

- سم آل بورجيا !!!

فظلت الفتاة مذهولة مصروعه على الأرض. فتابعت الكونتيسة قائلة بصوت لاهث: فتشي في صدري لأن يدي ميتتان .

فأطاعت الفتاة مسرعه مادة يدها إلى صدر أمها

تجدين خاتما هاته !

هذا هو يا أمي

هذا ليس خاتمي لقد بدلوه بخاتم آخر وضع السم في طبعته

آه ما أقسى هذا الحلم !

بل إنها حقيقة رهيبة يا بياتريكس ..... وها إني سأموت

كلا كلا !

قلت لك سأموت وبعد ساعة أكون قد انتهيت . لذلك أصغي إلي ولا تقاطعيني

فركعت بياتريكس وطوقت خصر أمها بذراعيها وأخذت تجهش ببكاء منخفض.

بياتريكس إنك فتاة صغيرة ولكنك قوية ويمكنك الاستماع إلى كل شيء

ولكن أي شيء لا أعرفه؟

بل إن الأشياء التي سأقولها لك تحتاج إلى شجاعة يمدني بها الموت فقط وثقي بأنني لن أراك فيما بعد لكي لا يحمر وجهي خجلا منك

تخجلين !! أنت أمي التي هي من آل سفورزا!!

أجل يا بياتريكس إني امرأة مذنبة !! إسمعي لقد حل عندنا رجل بينما كان أبوك غائبا في سفر طال ثمانية ايام وأخذ الرجل يغريني حتى شعرت بجنون غريب ينتابني وحتى سقطت

فارتفع نشيج قاس من حنجرة بريمفيرا .

وصرت ألتقي بالرجل بعدئذ بقصره في روما فكان لهذه العلاقة تابع يجب أن تعرفيه : ذلك أنني أصبحت اما لطفلة ولدت .

وعندما لفظت الكونتيسة هذه الكلمات ألقت نظرة ملتهبة على بريمفيرا التي لم ترفع وجهها بل ظلت تستمع مشوشة القلب من الهول عندئذ تابعت الكونتيسة تقول: ولم أكن زوجة مذنبة فحسب بل صرت أيضا أما مجرمه لأنني قبلت نصيحة الرجل وتركت الطفلة هناك على عتبة الكنيسة الصغيرة المبنية عند مدخل حي الغيتو والتي تسمى كنيسة الملائكة ومنذ ذلك الحين أخذ الضمير يعذبني فصرت افتش عنها ولكن عبثا تلك هي جريمتي الحقيقة يا بياتريكس التي ها أنذا أكفر عنها اليوم ليس بالموت ولكن بالندم الذي يشد على قلبي شدا مميتا

أما تلك الطفلة يا بياتريكس أختك فإنني أشعر أنها حية وربما كانت شقية معذبة لذلك فإني أتوسل إليك أن تفعلي ما لم تستطع فعله أمك الميتة فتشي وجدي أختك وأنقذيها من الشقاء لكي لا تلعن أمها المجهولة آه يا بياتريكس يا ابنتي أنتي أنتظر وعدك لي

فرفعت بريمفيرا نحو أمها نظرة مضطربة وهمست تقول: أختي !!

أجل أختك فهل ستفعلين ما طلبته منك ؟ فقالت بياتريكس بوسوسة كان التأثر يخنقها على شفتيها : سأفعله يا أمي ولسوف أجد هذه الأخت ولسوف أحبها !!

فلمع الفرح في عيني الكونتيسة وقالت وهي تبحث عن الكلمات بجهد لأن لسانها اخذ يتعلثم : آه !! ها انذا اموت شاعرة بالغفران

وبالحب يا أمي إني أحبك كما فعلت دائما

ثم أدنت بريمفيرا شفتها الطاهرة من جبين أمها الخاطئة وطبعت عليه قبلة مشفقة بنوية

أرجوك كفى عن التفكير بالماضي

يجب أن أقول لك اسمه

اسمه .؟؟؟؟

أجل يجب أن تعرفي والد شقيقتك ! إنه الرجل الذي يغرق إيطاليا بالدماء والذي سممني بواسطة ابنه إنه اسكندر بورجيا

فندت عن الفتاة صرخة من الرعب وسارعت إلى السؤال:

أوه! لم أسمع أعيدي هل هذا ممكن؟

إلا أن الكونتيسة آلما بقيت بلا حراك صامته إلى الأبد إذ أنها أسلمت الروح في رجفة مخيفة أما بريمفيرا فقد سقطت راكعة عند ركبتيها .

في مرسم رافائيل سانزيو

لندخل الآن إلى بيت جيل قائم على صفح ؟" بينشيو" إحدى روابي روما في الطابق الأول من هذا البيت غرفة فسيحة يدخل إليها النور امواجا زاهية: إنها مرسم رافائيل سانزيو

كان الفنان بمساعدة شاب من عمره منهمكا بإنزال اللوحات التي كانت تملأ جدران المرسم وكان الشابان كلما أنزلا لوحة يربطانها بحبل ثم يدليانها عن الشرفة إلى عربة كانت مقيمة أمام العتبة فيستلقيها عامل ويشرع في تنضيدها في مكانها حتى أنه ليبدو أن القوم مزمعون على رحيل وكان الشابان أثناء عملهما يتحدثان. فقال صاحب رافائيل: إذن سأنقل لك هذه اللوحات إلى فلورنسا.؟

نعم يا عزيزي ماكيافيللي وإني أرجو أن ألقى مساعدة هناك بفضل أستاذي الرسام " باريجان"

سأعمل على نقل هذه الكنوز إلى فلورنسا في مدة أقصاها خمسة عشر يوما وسأكتب لك يا سانزيو

شكرا يا ماكيافيللي أعلم انه باستطاعتي الاعتماد على صداقتك ولكن لماذا لا تنتقل أنت بنفسك إلى هناك لكي نلتقي معا؟ إن فلورنسا هي دماغ إيطاليا

فهز ماكيافيللي رأسه وقال: سأذهب يوما ما إلى هناك لكي أرتب ملاحظاتي وأبدأ الكتاب الذي أفكر به دائما ولكنني واجد هنا مادة للكتابة لا أجدها في أي مكان آخر

وما ذا تعني.؟

أعني أنني لن أجد نموذجا لكتابي خيرا من بورجيا يا له من مجرم أصيل! وياله من مثال رائع للحاكم المستبد الذي يوحي للشعب بفظاعة الاستبداد! آه لكم أنا سعيد بالتراجع عن طعن بورجيا بخنجري لأنني أريد أن يكون كتابي طعنة نجلاء في صميم الطغاة! أريد أن أصور الطاغية صورة قبيحة حتى تقسم الإنسانية بأن تتخلص إلى الأبد من جميع امرائها وجميع ملوكها أتفهم الآن يا رافائيل لماذا أريد البقاء في روما على مقربة من أعمال هذا المسخ الذي يدعي بورجيا؟

ورفع ماكيافيللي إلى جبينه يده المحرقة ثم عاد فجأة إلى رافائيل الذي كان يتأمله فقال: اغفر لي لأنني تركت نفسي تثور على سجيتها بينما أعلم أن أخطارا جمه تحيط بك ولكن قل لي بما1ا أنت تفكر واجما؟

فارتعش رافائيل سانزيو ارتعاشه قوية وتمتم وقد استولى عليه قلق مفاجئ: أني أفكر بروزيتا

حبيبتك لافورنارينا؟ ولكنك لم تقل بي ما هي أسباب رحيلك من هنا؟

إن الدقائق ثمينة الآن يا ماكيافيللي ولكنك ستعرف السبب يوم تتبعني أما اليوم فاعلم فقط أن روزيتا مهددة بخطر رهيب إذ أن ما روته لي البارحة الماغا ساحرة حي الغيتو قد صعقني صعقا ولسوف نكون أنا ولافورنارينا غدا عند الفجر بعيدين عن روما أما الوقت الذي سيسبق سفرنا فإننا سنشغله بحفلة الزواج الليلية التي لن يحضرها أحد غير الشهود

فليكن كذلك! ومتى يعقد الزواج؟

في هذه الليلة في كنيسة الملائكة الصغيرة على مدخل حي الغيتو حيث كانت لافورنارينا مطروحة هناك ساعة وجدتها الماغا الساحرة في هذه الكنيسة ستصبح روزيتا امرأتي

في أيه ساعة؟

عندما يحتفل بالقداس الأول أي في الساعة الثانية صباحا بعدئذ سنترك روما سرا على الأقدام حتى نصل على المركبة التي ستنتظرنا في المكان الذي تعينه أنت

كن مطمئنا سكون كل شيء جاهزا ثم إني أملك خمسين ذهبية خبأتها في درج هل انت بحاجة إليها؟

كلا أنني غني الآن لأنني قبضت البارحة من خازن البابا ثمن لوحتي : العذراء الجالسة على كرسي

وكان تنزيل اللوحات قد تم فودع الصديقان أحدهما الأخر على أمل أن يلتقيا في حفلة كنيسة الملائكة لأنهما اتفقا على أن يكون ما كيافيللي إشبينا لفورنارينا ثم انتقل رافائيل حالا غلي كنيسة الملائكة ودخل إليها وكان متجها نحو السكرستيا عندما أبصر راهبا يخرج منها وقبعته نازلة على عينيه فاقترب رافائيل منه قائلا: أتستطيع يا أبت أن تخبرني إذ كان كاهن هذه الكنيسة موجودا الأن؟ فرمقه الراهب بنظرة سريعة وندت عنه دهشة أخفاها بسرعة ثم اجاب قائلا: الكاهن مريض وأنا أحل مكانه هل لك حاجة؟

الموضوع يا أبت يتعلق بالزواج

حسنا يا ابني وماذا يلزم؟

أن يكون الزواج متواضعا بلا بهرج ولا ضجة لذلك فإن الخطيبة راغبة في أن يتم الزواج أثناء الليل

أنت هو الخطيب؟

نعم يا محترم

والخطيبة من هي؟

ستعرف اسمي واسمها في الوقت الضروري

حسنا حسنا يا ابني! وانت أيضا تريد أن يتم هذا الزواج في الليل؟ ربما أردتما أن يظل سريا؟ لا تخف يمكن أن تبوح لي بكل شيء يا ابني!!

نعم يا أبت الجليل يجب أن يظل هذا القران سريا

حسنا حسنا لدينا قداس في الساعة الواحة ليلا وقداس آخر في الساعة الثانية

هذا الأخير يوافقني

أحسنت الاختيار ولكن متى؟

في هذه الليلة يا أبت

إذن عليك أن تحضر هذه الليلة عند الساعة الثانية مع خطيبتك ومع شاهدين ولوسف أكللكما

فشكر رافائيل الراهب واندفع إلى الخارج أما الأب المحترم فقد انتظر ابتعاد الشاب ثم اتجه مسرعا نحو السكرستيا حيث كان هناك كاهن عجوز منهمك بترتيب إحدى الخزائن فالتفت إليه الراهب وقال: أيها الأخ دومينيكو عد إلى بيتك الآن

فرفع الكاهن السمن نظرة تعجب على الأب المحترم الذي تابع قائلا: إنك مريض اليوم!!

هل أنا مريض يا دون كاركونيو؟

أجل وحتى نهار الغد أفاهم أنت؟

فانحنى الكاهن المسن بتواضع جم وتمتم قائلا: لتكن مشيئتك يا دون كاركونيو ! أما دون كاركونيو فقد قال له : منذ الصباح يمكنك أن تعود إلى الكنيسة ولكن حتى ذلك الحين إياك أن تغادر السرير

فسلم الكاهن العجوز مفتاح الكنيسة للراهب ومضى مبتعدا عندئذ خرج الراهب بدوره فأغلق بالمفتاح الكنيسة ثم انطلق مسرعا على طريق الفاتيكان

.....

إنها الساعة الواحدة .... ناموا بسلام يا سكان الحي!!!

هذا ما صاح به حارس الليل على مدخل حي الغيتو أما رافائيل سانزيو وخطيبته روزيتا لا فورنارينا الصغيرة فقد كانا في بيت الماغا يودعان الساحرة العجوز وكانت الماغا تعزي لافورنارينا الباكية بين ذراعيها والتي كانت تجهش قائلة: أمي أرجوك تعالي معنا . فأجابتها الساحرة بصوت قاس تقول: يجب أن أبقي هنا ! ولربما تبعتكما بعد قليل لأن عملي العادل لم ينته بعد ....

لقد كانت هذه الكلمات تحتوى معنى التهديد واضحا ولكن ترى من هو المقصود بهذا التهديد؟ هذا هو السؤال الذي طرحه رافائيل لحظه على نفسه ولكنه سرعان ما عاد إلى الواقع فقال بصوت متأثر: كما تشائين أيتها الماغا إلا أن الظل سيعكر سعادة روزيتا إذا لم تكوني بقربها وإننا نعدك إذا عشت معنا بأننا سنجعل شيخوختك سعيدة وقالت لافورنارينا:

أجل كيف يمكنني العيش بعيدا عنك ؟

فتنهدت الماغا واربد وجهها ثم قالت: اذهبا ايها الولدان لقد حان الوقت ؟

فقال رافائيل: ولكن لا تنسى وعدك لي بأنك ستخبريني من هم الأعداء الذين يهددون حياة روزيتا ومن هو ابوها

من هو ابو روزيتا؟ ستعرفه عندما يحين ذلك أما الآن ففكرا فقط بحبكما وأسرعا في الهرب إلى روما !

سنكون في فلورنسا بعد أيام قليلة

حينئذ فقط يمكنني أن أتنفس الصعداء .... هيا اذهبا!!

وضمت الماغا روزيتا بتأثر شديد ثم انسحبت بسرعة إلى الغرفة المجاورة أي إلى غرفة لافورنارينا الصغيرة والدموع تنهمر من عينيها وعندما مضى الحبيبان جلست القرفصاء وحيدة ورأسها على ركبتيها والألم العظيم يستبد بتقاسيم وجهها ثم راحت تتمتم في نفسها قائلة: الآن انتهى كل شيء فقد ذهب فرحي وطارت سلوتي وتعزيتي وتلاشي وامحى كل ما كان في حياتي المظلمة من بقايا الطهر والألق وها قد دقت الساعة لكي انتقم من نفسي!

وكانت الساعة قد قاربت الثانية عندما بلغ رافائيل وروزينا كنيسة الملائكة وإذا بهما يشاهدان في مؤخرة صحن الكنيسة معبدا جانبيا تنيره شمعتان بضوء شاحب بينما وقف الشهود منتظرين وهم اصدقاء لماكيافيللي ورافائيل عندئذ خرج من السكرستيا كاهن وبرفقته صبي لخدمة القداس أما المكان فقد كان يجثم عليه صمت جليدي

وجرى الاحتفال بالقداس بطريقة سريعة ولم يكد يتبادل الخطيبان مجبسيهما حتى اقترب ماكيافيللي من رافائيل قائلا له: العربة منتظرة قرب الباب الفلورنسي خارج الأسوار وسأنطلق الآن لأفتح الباب فعليك انت أن تسرع

ثم اختفى الشاب فخرج رافائيل سانزيو ورزيتا من الكنيسة واقترب منهما الشهود فحيوا العروس مهنئين ثم ابتعدوا فبقى رافائيل وروزيتا وحيدين ولم تمض لحظات حتى أخذا يجدان السير في شارع ضيق كثير التعاريج .. غير أنهما شعرا فجأة أن خمسة عشر شبحا انتقضت من حولهما من الأمام ومن الوراء واقبلت تطوقهما فشهر سانزيو خنجره بينما صرخت روزيتا صرخة قوية من الرعب ولم يفه رافائيل بكلمة ولكنه انحنى على امرأته فحمها بذراعه فحملها بذراعه بينما راحت ذراعه الثانية تهوي بالخنجر على جماعة انتصبوا أمامه إلا أنه لم يكد يخطو خطوتين حتى هوى متدحرجا على الأرض لأنه أصيب بضربة على راسه ولم يسمع بعد ذلك إلا صرخة استغاثة يائسة ثم أغمي عليه !!!

.....

عندما استرد رافائيل وعيه كان الليل ما يزال منسدلا على المدينة لذلك فقد شاهد النجوم تلمع هنالك عاليا بين السطوح ولكنه لم يلبث أن نادى بصوت حزين متأوه يقول: روزيتا!! روزيتا!!!

ثم أخذت يداه تتلمسان في الظلام وإذا بمشاعر الحقد تنتابه وتشحذ قواه فيستطيع النهوض على ركبتيه وينظر حوله سارد البصر ثم ينادي من جديد: روزيتا! ولكنه لم ير شيئا ولم يسمع أحدا يجيبه وإذا بالحقيقة الرهيبة تبرز واضحة في ذهنه : لقد اختطفوا روزيتا !! ولم يبق له سوى امل واحد هو أن يخبر الماغا بما حدث لأن الساحرة كانت تعلم أشياء كثيرة وهي تعرف ولا شك من يهمهم اختطاف لافورنارينا إذ أنها كانت قد اخبرته بأن بقاء الفتاة في روما إنما يعرضها إلى خطر جسيم ناصحة إليه الهرب إلى فلورنسا.

عندئذ تحامل رفائيل على نفسه وهو ما يزال طائشا تحت تأثير مقبض السيف الذي هوى على رأسه وسار مترنحا في طريق حي الغيتو حتى وصل إلى بيت الساحرة فدخله مسرعا وإذا بأحد المشعلين قد لفظ أنفاسه الأخيره وإذا بالصندوق مفتوح وجواريره مبعثرة بالقرب منه فصاح بصوت مبحوح من القلق يقول: ماغاااا!!!

ما غا!! ثم اندفع نحو غرفة روزيتا فإذا هي فارغة وإذا بالماغا قد اختفت ولم يبق له أثر في البيت

طريق المدافن

في هذه الليلة بالذات كان الفارس راكستان قد غادر نزل جانوس الجميل حيث كان مايزال ساكنا وكان قيصر بورجيا قدم له منزلا في قصر سانت آنج بعد نجاته من الأقتحام الذي كاد الجمهور فيه أن يقطعه إربا إربا إلا أن الفارس رفضه قائلا:إنني لأختنق يا مولاي في القفص الجميل الذي تعرضونه على لأنني كنت طيلة حياتي الماضية من متشردي الليل وأنا أحب أن أعود إلى منزلي في أيه ساعة أشاء وأبواب هذا القصر تغلق عند الساعة التاسعة.

ولم يَحلف قيصر بورجيا في طلبه بل إنه أجيب بلا مبالاة الفارس كما كان من قبل قد أعجب بشجاعته لذلك فقد راح الفارس هذه الليلة في الشوارع المليئة بالظل والصمت حتى وجد نفسه أخيرا عند مدخل طريق المدافن هذه الطريق التي كانت تتقدم في الظلام محاطة بالمدافن القديمة التي راح القمر يرسم فوقها رقعا مبيضة وهنا أخذ الفارس يتمتم في نفسه قائلا : قالت لي: المدفن الثالث والعشرين إلى اليسار أما كلمة السر فهي أن أجيب بلفظة " آمور" على اسم روما

ثم تقدم وهم يعد المدافن التي كانت تارة ملتصقة بعضها ببعض وطورا منفصلة بمساحات طويلة نبتت فيها شجيرات متماسكة خضراء وجعل يفكر في نفسه بأنه سيري للمرة الثالثة هذه الصبية الغريبة التي ما يزال مصيرها لغزا أمام ناظريه والتي لم يستطيع أن يبعدها عن مخيلته وعندما بلغ المدفن الثالث والعشرين أخذ قلبه يخفق خفقانا شديدا وراح يدور حول المدفن ولكنه لم ير أحدا ففكر في نفسه قائلا: ترى هل جئت متقدما أم متأخرا؟

في هذه اللحظة ارتفع بالقرب منه صوت يتمتم قائلا: روما!

فأجاب الفارس مرتجفا: آمور!

ثم ظهر رجل من جب من الشجر الملتف ودنا من الباب البرونزي الذي يسد باب القبر فدفعه وغاب لكي يتسنى لراكستان الدخول. فدخل الفارس ووجد نفسه في حجرة ضيقة ينيرها مشغل صغير أما الأرض فقد كانت من البلاط الرخامي وإذا ببلاطة قلعت من حجرها تاركة مكانها ثقبا مفتوحا أسود.

وعندما انحنى راكستان على هذا الثقب أبصر درجا حجريا ينغرز في الأرض فنزل عليه حتى وصل إلى حجرة ظهر في جهة منها نور خفيف فاتجه نحو هذ النور ووجد أن الجرة مفضية إلى غرفة فسيحة ينيرها عدد من الشموع فتمتم قائلا: إنها الديناميس!

وكانت الغرفة التي دخل إليها مستديرة يحيط بها عند جدرانها صف من المقاعد البسيطة المريحة أما عددها فإنه يبلغ العشرين وقد جلس على كل كرسي مها رجل وبإشارة من يده دل أحد هؤلاء الرجال الفارس على مقعد شاغر فاقترب راكستان وجلس عليه منتظرا

مر ربع ساعة كان راكستان خلالها يدرس ملامح الذين يحيطون به ولقد رأى أن أغلبية هؤلاء الرجل هم شبان يبرز على وجوههم نموذج الجمال الإيطالي الذي يجمع بين الصلابة والرقة في آن واحد إلا أن جوا من الرصانة كان يطبع هذه الوجوه المختلفة بطابع مشترك هو طابع الإرادة القوية عندئذ اختصر راكستان ملاحظاته بهذه الفكرة " هؤلاء هم رجال حقيقيون إذا تآمروا على أحد – وهذا ما ينبئني به شكلهم- فيا ويل من يتآمرون عليه ! ولكن " هي " أين هي الآن؟ وما هو دورها في هذه التمثيلية الرهيبة التي أرى ملامحها على هذه الوجوه؟ وما هو الدور الذي هيأته لي؟ ثم بأي شيء يستطيع أن يطمع فارس مثلي لا درع عنده ولا درهم؟

في هذه اللحظة سمع حفيف ثوب وهسهسة اقدام خفيفة في الحجرة التي مر فيها راكستان فاستدارت جميع الرؤوس نحو هذه الجهة وراح الفارس بنظرة سريعة يتفحص مرة أخيرة الأشخاص الغامضين المجتمعين في هذه المقبرة ثم تنهد تنهدا عميقا ولقد لاحظ بأن ملامح الجميع تشير إلى فروغ الصبر من الانتظار

إلا أن ثلاثة منهم أو أربعه كانوا يعبرون عن شعور واضح لم يكن راكستان ليخطىء في تقديره! وهو شعور الحب !

وظهرت فجأة امرأة – عرف راكستان أنها بريمفيرا- مغطاة الوجه بنقاب وعليها ثياب سوداء لاحظ الجميع أنها دلائل حزن جديد فجرت بينهم همهة ووقفوا جيمعا مطوقين الفتاة التي يجهر شكلها بألم عميق لا تستطيع التغلب عليه عندئذ أخذ أحد المجتمعين وهو شيخ ذو لحية رمادية يد الفتاة وقال لها: ماذا تعني يا بياتريكس العزيزة ثياب الحداد هذه ؟ تكلمي أيه مصيبة حلت عليك؟ فرفعت بريمفيرا نقابها وقالت : إنها مصيبة فادحة كما قلت أيها الأمير ما نفريدي ! مصيبة ألمت بأغلى من أحب وكادت تغرق عاطفتي البنوية في خضم من الأسى والأسفاه ! لقد ماتت أمي !

ماتت؟ الكونتيسة آلما؟

مقتولة مسممة ؟ ألا يكفيكم هذا أيها الأسياد المجردون من أملاكهم ؟ أيها الأمراء والبارونات والكونتات المغتصبون ؟ أوتلزمكم جرائم أخرى ؟ إليكم إذن بعد الكثير من رجال الشعب والكثير من النبلاء إليكم أمي ضحية جيدية تسقط اليوم لا لشيء إلا لكونها أمي! ثم تلك اليد ذاتها التي تضرب وذلك هو الطاغية نفسه الذي يصمم الجريمة : اسكندر بورجيا!! وذلك هو الرجل نفسه الذي ينقض على الفريسة المعينة : قيصر بورجيا الإبن البكر للبابا!!

فهتف الفارس راكستان في داخلة قائلا: قيصر بورجيا الرجل الذي أعطاني الحماية والذي وضعني على رأس فيلق لكي أشاركه حملته بعد قليل؟؟!!

أما المجتمعون فقد سرت بينهم رجفة عاتية وارتسم على وجوههم شعور حقد عنيف إلا أن الأمير ما نفريدي هو الذي تابع قائلا: بياتريكس يا ابنتي دعيني امنحك هذا الاسم لأن أباك غائب عن المكان الذي كان عليه أن يحتله إنني أتفش عبثا عن الكلمات التي تستطيع تعزية حزنك ماذا!! هل تجرأ آل بورجيا أن يحملوا يدهم على الكونتيسة آلما؟ إنها داهية نكراء يا ابنتي !! ولكن إذا كان شيء يستطيع تعزيتك فهو التأكد من أن الانتقام قريب وأن أصحابنا الحاضرون جميعا في هذا الاجتماع الذي عينته أنت قد أتوا بأخبار حسنة : رومانيا أخذت تتحرك وفلورنسا بدأت تظهر نقمتها على سلطان آل بورجيا وبولونيا وبلومبينو على وشك أن يثورا وفورلي

وبيزاروا وإمولا وروميني شرعت بتعبئة الرجل وتكفي شرارة واحدة لإشعال هذا الحريق المتأجج تحت الرماد !

فارتدى وجه بياتريكس العذب قناعا إراديا من العزيمة والإقدام ومضت تقول: أيها الأسياد الأعزاء مهما كانت الضربة التي حلت بي قاسية فإنها لن تبدل شيئا من قراري لقد عصت قلعة مونتفورتي في المرة الأولى على قيصر وفي هذه المرة ستنطلق من حصن مونتفورتي إشارة التحرر . إن قيصر بورجيا يستعد الآن للهجوم على قلعة آل آلما التي هي معقل حرياتنا الأخيرة لذلك فعلينا أن نحضر في مونتفورتي جميع قوى المقاومة فصاح الجميع في صوت واحد قائلين : إلى مونتفورتي ! أما بياتريكس فقد تابعت تقول: ولآن نحن على وشك الفراق ولكنني سأقوم بواجبي نحوكم جميعا فاقدم لكم هذا الرفيق الجديد الذي بيننا.

فانتقلت الأنظار بعطف على راكستان وقال الأمير مانفريدي: لقد رأيناه داخلا منذ قليل ولما كنت يا بياتريكس وحدك تعطين كلمة المرور فإن أحدا لم يدهش لحضورة

عندئذ أمسكت بريميفيرا بيد الفارس قائلة : أيها الأسياد إني أقدم لكم الفارس راكستان صاحب السيف الأبي والقلب النبيل الذي لم يتردد عن إنقاذي معترضا لحقد آل بورجيا . فمد الأمير مانفريدي يده لراكستان قائلا: أيها الفارس أهلا بك بيننا.

إلا أن الجميع قد دهشوا لأن راكستان لم ياخذ اليد التي مدت غليه بل بقى منخفض الرأس وقد استبدت به موجة من الحزن فإذا بصمت مملوء بالوعيد والإزدارء يسود المكان مما حدا بريميفيرا إلى أن تتراجع إلى الوراء باهته اللون . عندئذ رفع راكستان رأسه وراح يجول ببصره الممتلئ ثقة على الجمع حتى انتهى إلى بيريميفيرا فمضى قائلا: يا سيدتي لا يليق بي أن أخفى الحقيقة ومهما كانت نتائج صراحتي علي أن أعلمك بأنني مرتبط بصاحب الغبطة مولاي قيصر بورجيا منذ وصولي إلى روما

فصرخ الأمير مانفريدي قائلا: هذه خيانة!!

كلا ليست خيانة يا سيدي! إنه سوء تفاهم لست مسؤولا عنه ! ولولا هذه الظروف لكانت الكلمة التي لفظتها تكلفك حياتك !! أما الآن فإني أصفح عنك نظرا لشيخوختك ومخاوفك ولأفكار أخرى لن أشرحها ... فصرخ الشيخ يقول: تصفح عني ؟ للمرة الأولى يخاطب الأمير مانفريد بهذا الشكل

نعم ياسيدي ولي الحق في مخاطبتك كذلك لأنك أهنتي باتهام باطل ولو كنت أمبراطورا لكنت أكبر منك قدرا لأنني أمتنع عن رد الإهانة بالاهانة

لقد تلفظ راكستان بهذه الكلمات برقة متناهية وبنبل وترفع حقيقين حتى أن جيمع اولئك الرجال لم يتماسكوا عن الإعجاب به وكانت بريفيرا قد انتحت جانبا وأخذ تراقب هذا المشهد دون ان تفصح بشيء عن حقيقة مشاعرها أما الأمير مانفريدي فقد عض على شفته وقال موجزا : افصح ماذا تعني؟

فاستدار الفارس نحو بريميفيرا وقال: يا سيدتي عندما سعدت بلقائك واستطعت أن أحول بينك وبين ذلك الراهب كنت أجهل صداقاتك وعداواتك حتى أنني لم اكن أعلم أن الواجب الذي قمت به كان يعرضنني لانتقام الأمير بورجيا لو كنت أعلم ذلك لكان لي شرف عظيم أن أعرض نفسي للمخاطر من اجلك ولكنني كنت اجهل حقيقة الأمر تماما لذلك فإنني لا أستحق أبدا الإطراء الذي خلعت ه على منذ حين بل إنني أضيف انني جئت فقيرا إلى إيطاليا لأضع نفسي في خدمة مولاي قيصر بورجيا

فقال الأمير مانفريدي باندفاع: حسنا ياسيدي إذا لم تكن مرتبطا.....فقاطعه راكستان قائلا: ولكنني ارتبطت لأنني قابلت الأمير بورجيا الذي استقبلني استقبالا يفوق رغائبي وإن عطفه على وترحابه بي كانا من القوة بحيث يمنعاني ان أحكم عليه الآن قبل أن أرى أعماله بنفسي

إذن ما شأن حضورك إلى هنا؟

كنت أجهل أنني سألتقي بأعداء بورجيا

عندئذ تقدمت بريميفيرا تقول: السيد راكستان على حق إذ أن وجوده ناتج عن سوء تفاهم أنا مسؤولة عنه والآن يا سيد راكستان أنت حر وإن عهدك بعدم البوح بما رأيت وسمعت سيكون كافيا لنا

فشعر راكستان شعورا قاسيا بأن حفرة قد فغرت فاها بينه وبين الفتاة التي كان يعبدها عبادة ربما كان لا واعية لذلك فقد اجاب بصوت تغلب عليه التأثر: وأنت أيضا يا سيديت أصفح عنك .... لقد طلبت عهد مني بألا أبوح بشيء وهذا يفترض ظنك بأنني جدير بالخيانة !! ولكن بما أنك أنت طالبة هذا العهد فإليك عهدي الذي تطلبين.

عندئذ انحنى جماعة المتحالفين وقد دهشوا بهذا النبل الذي بدا في أقوال الفارس وفي موقفه. فحياهم راكستان تحية فضفاضة ثم اتجه بخطى ثابتة نحو الحجرة الموصلة إلى القبر . أما بريمفيرا فقد رأته يبتعد وهي ممتقعة اللون إلا أنها شعرت بأن حزنها على أمها كان يمزق قلبها بقسوة أشد وبأنها كم تكون سعيدة لو أعطي لها أن تخبئ رأسها في صدر المرأة الغائبة التي مضت وخلفت لها الدموع

نفس معذبة

صعد راكستان إلى سطح الأرض باهت الوجه وكأن شيئا جديدا وعميقا قد دخل إلى حياته وكان يعتلج في نفسه شعور حاد من اليأس والفرح والكبرياء إذ أنه كان يحس بقدرته على القيام بأعمال اسطورية تفوق الخيال ويحس في الوقت نفسه بوحشة أكيدة أخذ يرتجف لها قلبه رجفات عنيفة وطفق يسير بخطي بطيئة محاولا ان يفهم حقيقة ما يدور في نفسه مستفيضا بهذا الحديث الباطني : عندما كان يحدث لي في الماضي أن أشعر بخفقان قلبي لرؤية امرآه كنت أقول مرارا إنني أحب ثم كان يحدث خصام أو مبارزة فينسياانني المرآة الحبوبه كنت عندئذ حرا ويالللنشوه العذبة في هذه الكلمة ! كنت حرا دون أن يربطني شيء حرا بأن أقطع العالم بفرح شديد يجعلني أحس كأنني في بيتي.

وهنا وقف قليلا فمسح جبينه بقفا يده ثم تمتم قائلا: حرا ووحيدا .... وحيدا....أهذا إذن ما يخيفني؟ ألست اليوم كما كنت بالأمس ؟ ألست اليوم حرا؟ من ترى يمنعني أن أودع بورجيا وأن أودع إيطاليا كلها؟ من ترى يمنعني أن أسرج كابيتنا إذا وأن استأنف سياحاتي الجميلة في الجبال وفي الوديان؟

أجل ومن ترى يمنعني عن كل ذلك؟

ألا أن صورة بريمفيرا خفقت أمام عينية وإذا به يراها جميلة تحت نقابها الأسود وفي عاطفة حزنها الغامر وبالدموع المتساقطة من عينيها ولكم كان يود أن يقدم مختارا عن كل دمعة منها كأسا من دمه ! عندئذ شعر أن هذه الصورة لم تعد لتتركه أبدا فتنهد طويلا وتمتم مصعدا من اعماق قلبه : بريمفيرا!!!

وبينما كانت يده الشنجه على عينه اللتهبتين بالحمى شعر أن يده هذه قد ابتلت بشيء : أجل لقد كان راكستان يبكي

وإذا به يجدف قائلا: ـألهذا الحد أنا مضطرب ! آه إن هذا ليفوق قدرتي إني أحب أجل هنا يكمن الداء ! إني أحب ولا يتطرق شكي إلى ذلك ولكن هنالك أدوية للحب أيتها الأبالسة ! ثم ماذا يمكنني أن آمل من حبها وقد رأيتها محاطة بهؤلاء الأسياد الكبار ومن بينهم من ملكوا الجمال والشباب والشجاعة ولا شك أنها عشيقة أحد هؤلاء ! لذلك عد أدراجك أيها الفارس واذهب منذ غد حاملا وداعك لأمير بورجيا

إلا أن فكرة جديدة أتته فارتجف قائلا: أأترك بورجيا !!

أأترك الرجل الذي سيكون سبب ثروتي ! هذا الذي جعلني قائدا والذي هيأ لي طريق المستقبل والمجد الذي طالما حلمت به ثم كيف أتنازل عن كل شيء ساعة بلوغ الهدف ولماذا؟ أجل لماذا؟

وإذا بالجواب يأتيه في غمرة من الفرح المر:

من أجلها ... من أجلها سأتنازل عن لقبي كقائد ! ومن أجلها سأرفض الثروة والمجد وسأترك بورجيا لأنه عدو آل ألما ولأنه حمل يده على والدة بريمفيرا أجل سأفعل كل هذا دون أن تدري "هي" فهيا إلى الطريق يا راكتسان وهيا إلى السفر إلى مكان آخر قد يتنظرك فيه البؤس لا لشيء إلا لأنك جننت فسمحت لقلبك أن يخفق!!

La vida secreta de los BORGIA

Juan Ignacio Cuesta

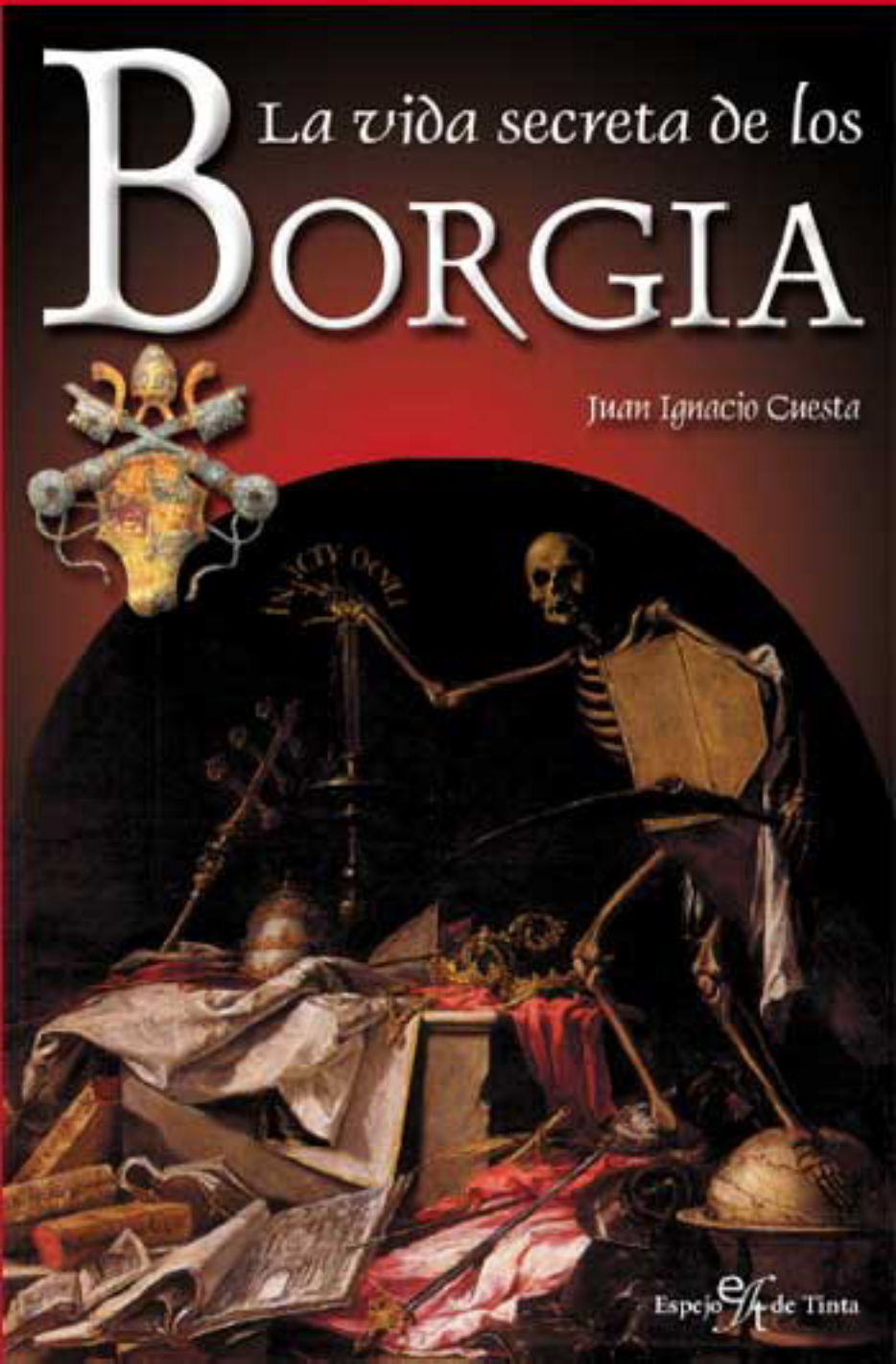

Espejo de Tinta

في هذا الكهف الذي يحرسه تنّين مخيف يخشع أمامه أكثر الناس شجاعة . فسأله راكستان قائلًا : وما اسم هذا التنّين ؟ قال: اسمه « الخُرافة » لأن الناس يعتقدون في هذه الناحية بأن الشيطان يسكن هذه المغارة الطبيعية .

في هذه اللحظة سُمع ضجيجٌ مبهمٌ آتٍ من بعيد ، فخرج راكستان من الكهف وتسلّق صخرة وأخذ يراقب الريف ، ثم عاد يقول : إن تنّينك يا صديقي لا يفيد شيئاً : لأنهم قادمون توّاً إلى هنا . وإن عدد المشاعل القادمة نحونا لتنبىء بأن جيشاً صغيراً سيطوّقنا بعد قليل .

ولم يكد راكستان ينهي كلامه حتى وقف شبح صامت في قعر المغارة ، وإذا بهذا الشبح يتقدّم نحو الرجال الثلاثة ، بينما راحت الجلبة في الخارج تقترب رويداً رويداً . فهتف ماكيافيللي قائلًا : يجب أن نهرب !

— أن نهرب ؟ ولكن من أين ؟ فنحن الآن مطوّقون من كل جهة وعلينا أن نفكر كيف يجب أن ندافع عن أنفسنا . هيّا استعدّ يا رافائيل ! وعندئذ تمتم الشبح الغريب قائلًا : رافائيل !

ثم وثب نحو الرسّام وأخذه بذراعه ورفعه قليلًا ناظراً إليه بحرارة ثم صرخ قائلًا : هوذا أنت يا رافائيل ؟ فقال رافائيل دونما تعجب وقد بات لا يفاجئه شيء في الوجود: الماغا ؟! إلا أن زمجرة الأصوات المقتربة أخذت تردّد في الليل هذه الكلمات : الموت ! الموت ! يجب أن نقبض على الأحياء ، والموت للماغا وللشيطان ! فقال راكستان : يا للموقف الحرج لا سيما وأننا لا نملك سلاحاً !

فصاحت بهم الماغا وهي لا تفهم غير شيء واحد : رافائيل مطارد ويجب إنقاذه ، قالت تعالوا !

ثم جرّت سانزيو إلى قعر المغارة حيث أخذت تنحّي أغصان الشجر عن ثقب ظهر فاتحاً شدقه . ولقد دفعت الماغا إلى هذا الثقب رافائيل وماكيافيللي وراكستان دون أن تحاول معرفة هذين الغريبين اللذين هما ولا وشك صديقان للرسّام . أمّا الصخرة التي تستعمل غطاء لهذا الثقب فقد كانت على شفا الفتحة مسنودة بعارضتين خشبيتين ، ولقد رأينا الماغا عند زيارة البابا لها منهمكةً بإخفاء هذا الثقب بالأوراق والأغصان اليابسة . وعندما فهم راكستان بلمحة عين طريقة إغلاق هذا الدهليز هتف في نفسه قائلًا: لقد نجونا .

وكان رافائيل وماكيافيللي والماغا قد غابا تماماً في الثقب ، ثم لحق بهما راكستان ، فصاحت به الماغا قائلة : إسحب العارضتين . فأمسك بطرفهما وشدّهما إليه بعنف ، فسقطت الصخرة منغلقة على الثقب . عندئذ امتلأت المغارة بجلبة الجنود الذين دخلوا إليها وهم يصرخون : الموت ! الموت ! قفوا ! استسلموا !

وكان آخر ما سمعه راكستان من فصيل الجنود الداخلين إلى الكهف كلمات اليأس وخيبة الأمل . ثم راح يسير وراء الماغا في هذا النفق الضيّق الذي ينزل تحت الجبل بدرجات طبيعية محفورة في الصخر ، وإذا به فجأة يبصر نوراً على بعد خطوات أمامه : إنها الماغا التي أنارت مشعلًا بدّد من حوله دكنة الظلام . وكانت الماغا تسير في طليعة هذه القافلة الصغيرة وهي تدفع المشعل مرفوعاً فوق

وحده فاضيه

رأسها ، وفجأة إذا بالنفق يكفّ عن الانحدار ويصبح رواقاً ، فدخلت الماغا فيه . وفي هذه اللحظة سمع راكستان فوق رأسه هديراً بعيداً أصمّ ، ففهم أنهم الآن فوق مجرى نهر الآنيو . وبعد مائة خطوة تقريباً أخذ الرواق يصعد صعوداً خفيفاً حتى انتهى إلى مغارة واسعة ليس لها مخرج واضح ، فوقفت الماغا وقالت :

ـ نحن الآن في الجهة الثانية من هاوية الوادي وفي قعر المنحدر ، أمّا الرجل فيمكنه الخروج من ذلك الشقّ المختفي وراء جبوب العليق ، ومن هذا الشق يمكنكم الهرب عن طريق مجرى النهر . فقال ماكيافيللي : وأنتِ أيتها الماغا ؟

ـ أنا أريد البقاء هنا ، فلا تسألني أكثر من هذا . فقال ماكيافيللي عند ذاك : تعال إذن يا رافائيل . فقالت الماغا بلهجة شديدة : بل أبقَ هنا يا رافائيل .

ـ سأبقى إذن !

ثم أمسكت الماغا يد سانزيو وسألته تقول : من هذان الرجلان ؟

ـ صديقاي الحميان وكلّ ما تبقّى لي في هذه الدنيا .

فارتعشت الماغا ولاحظت عياء رافائيل الذي لم تكن تنتبه إليه ، إلا أن الرسّام تابع قائلاً : إنها أغلى ما أملك في العالم ، وأنت أيضاً غالية عليّ يا روزا الطيبة لأنها كانت تدعوكِ «أمّها» ، آه ، لو تدرين كم أقاسي من الألم ! يا لرهبة القدر ! بل إني أكاد أموت !

وألمّت نوبة عنيفة بهذا الشاب المسكين فراح ينشج نشيجاً

مضنياً ويرتجف كان به حمّى قاتلة مستسلماً لذراعي العجوز التي صرخت به مذعورة من غمّه الشديد قائلة : بالله عليك قل لي ما يُحزنك يا رافائيل ، يا ولدي العزيز . ألا بح بهمّك لصديقتك الطيّبة روزا العجوز ! فقال : آه ، لو كنت تدرين ! لقد ماتت ! فوثبت روزا صارخة : ماتت ؟ من الذي مات ؟ أوتقصد روزيتا ؟ فهزّ رافائيل رأسه بالإيجاب . عندئذ صرخت الماغا قائلة : يا للقدر المشؤوم ! لقد كُتب لك يا رافائيل أن تتألم بسبب نزاع روزيتا . ولكن تعال يا بنيّ ، وأبقيا أنتما يا سيديّ .

عندئذ جرّت العجوز رافائيل معها إلى قعر المغارة وجلست هناك على حجر بينما ترك الرسّام رأسه يقع بين أحضانها . أما راكستان وماكيافيللي فقد كانا يشاهدان في اضطراب ، حزن صديقها وهما عاجزان عن تهدئته أو التخفيف من ألمه . ولكن إذا بالمشهد ينقلب فجأة بشكل عجيب ، فإذا هما يريان الماغا تقرّب رأسها من رأس رافائيل الذي كفّ حالاً عن النحيب ورفع رأسه يتطلّع إلى العجوز متسائلاً بشك ، بينما راحت هذه تؤكد له بعض الأمور بإشارات متتالية بارزة . وإذا به يركض نحو صديقيه ويلقي نفسه بين ذراعيها وهو يصرخ صراخاً مؤثّراً ويقول : إنها حيّة ! أوتسمعان ؟ إنها حيّة ! وكان يعيد هذه الكلمة بهيجان غريب جعل راكستان وماكيافيللي ينظران كلّ منهما إلى الآخر ويهزّان رأسيهما . إلا أنه قال لهما : كلا يا صديقيّ ، لست مجنوناً ولم يحملني الفرح على الجنون ، ولكنني أقول لكما إن روزيتا حيّة !

وفي هذه الأثناء اقتربت الماغا منهما فصاح سانزيو بها قائلاً :

أيتها الأمّ روزا ، أخبريها بأن ابنتك حيّة وأعيدي عليها ما سمعته منك .

ـ ما دمتما صديقتي رافائيل فإنني أؤكد لكما أن روزيتا حيّة . فقال راكستان متعجباً : إذن لقد كذب رودريك بورجيا ولم يكن جرس الحزن يقرع من أجلها .

ـ كلا ، لم يكذب في هذه الحادثة على الأقلّ ... لأنه يعتقد هو أيضاً بأن الفتاة ميتة . فصاح رافائيل قائلاً: إروي لهما كل شيء. فراحت الماغا تقصّ عليهما ما تعرفه من شأن الفتاة قائلة لهما : إن شراب الحب الذي أعطته لبورجيا العجوز كان مخدّراً ومنوّماً فعّالاً يسبغ على شاربه جميع مظاهر الموت . ولكن إذا ألحق هذا المنوّم بمحلول آخر معاكس فإنه يعيد الحياة لشاربه، وهكذا فقد كان للماغا هذا القصد الجنونيّ الأخير بأن تلعب بواسطة الموت لعبة رهيبة . أما روزيتا ، فهي الآن جثّة جامدة متصلّبة ، وهذا ما يجعل الماغا تفكر بمسألة واحدة : أن تدخل إلى قبر الميتة في الوقت المناسب لكي تعيد إليها الحياة .

الاحتفال الجنائزي

*

عندما انتهت روزا فانوزّو من حديثها ساد المغارة صمتٌ عميق. ثم كان راكستان أوّل العائدين إلى الكلام عندما أوجز الموقف

قائلاً: لا يبقى لنا سوى الاستيلاء على جثّة المرأة الميتة لكي نوقظها مكمّلين عمل هذه السيّدة الجريء. ولكن ما هي المدة التي يسري فيها مفعول المنوّم دون خطر ؟ هل يمكنك أن تحدّديه أيتها الماغا؟ فقالت : نهاران وليلتان تقريباً . قال : حسناً ، هذا أكثر مما يلزم لأن دفن الفتاة سيجري غداً . ألا تشجّع وتشدّد يا رافائيل .

وكان رافائيل قد ترنّح مرتجفاً عند سماعه كلمة «دفن الفتاة». ولكنه عاد فتماسك قائلاً لراكستان : أكمل حديثك يا صديقي ، إن ما تقوله رهيب، ولكن من الضرورة أن يُقال. فتابع الفارس قائلاً : بعد الدفن تصبح الأشياء بسيطة لأننا سننتظر حلول الليل فندخل إلى مقبرة تيفولي الصغيرة ، وبعد دقائق قليلة نخرج جسد الفتاة الجميلة النائمة. فقالت الماغا: هذه كانت فكرتي، وإنني متأكدة من النجاح بفضل مساعدتك . فعاد راكستان إلى الحديث قائلاً : اتفقنا إذن ! أما الآن أيها الأصدقاء فإن خير ما نفعله هو أن ننام لأننا غداً سنكون بحاجة إلى قوانا. لننم بينما تجوب عساكر بورجيا وهاد الريف ومهاده . بل أطلب إليكما أن تناما أنتما ، لأن لديّ كلمة يجب أن أقولها لسباداكاب المسكين الذي ينتظرنا مع الأحصنة . فقال ماكيافيللي : نصيحة الفارس جيدة !

وهكذا نامت الماغا إلى جانب الرجلين لقضاء بقية الليل . أما راكستان فقد تسلل إلى خارج المغارة من الباب المشقوق في الصخر والذي كانت الماغا قد دلته عليه . فإذا به واجدٌ نفسه في أسفل المنحدر قريباً من المكان الذي يحفر فيه نهر الآنيو ، وهو ينحدر متكسراً صاخباً ، بحيرة ضيّقة قبل أن يهرب في قعر الوادي نحو

السهول . وفي الجهة الثانية من المنحدر ، هناك إلى فوق ، كانت توجد المغارة التي اقتحمها جنود البابا. وعندما رفع راكستان نظره نحو هذه المغارة وجد السكينة والظلام والصمت تخيّم جميعها على المكان ، فأخذ يتسلق خاصرة الجبل الموعرة حتى وصل إلى القمّة حيث راح يتفحص الريف بانتباه ، ولكنه لم يرَ شيئاً لأنه من الراجح أن يكون الرجال الذين أرسلوا لمطاردته مع رفاقه قد أمسوا الآن بعيداً ، هذا إذا لم يعودا إلى الفيللا، وفي كلتي الحالتين لن يكون راكستان بجوار الفيللا مراقباً .

لذلك فقد انطلق باتّجاه الباب الصغير الذي دخل منه إلى الحديقة،ولم يلبث أن وصل إلى الغابة الصغيرة حيث كان سباداكاب وفقاً لأوامر راكستان يحتفظ بالأحصنة في حالة استعداد للهرب . وكان الفارس يقترب من المكان مفكراً يقول: أرجو ألا يكونوا قد اكتشفوا موضعه فألقوا القبض عليه .

ولكن إذا بصهيل يرتفع بالقرب منه ، فهمهم قائلاً في نفسه : إنه كابيتان الذي يعرفني دون أن يراني . ولم يكد يخطو بضع خطوات حتى سمع سباداكاب يقول له:هوذا أنت يا سيدي الفارس؟ لقد أحسست منذ دقيقتين بوجودك في هذه الغابة لأنني لم أعد أستطيع تهدئة حصانك كابيتان الذي كاد يفلت مني. فسأله راكستان على الفور قائلا : ألم تبصر شيئاً يجري حواليك ؟

– بلى ، أبصرت مشاعل تجري بعيداً وسمعت صراخاً ثم خيّل إليّ أن فصيلاً من الخيّالة خرجوا من الفيللا وانحدروا إلى الجبل ، ففهمت أنهم يطاردونكم وظننت أنه من المستحيل أن أراك مرّة

ثانية .

– لقد انحدر الخيالة إلى الجبل ؟

– أجل ، ولم يصعد خيّال واحد إلى تيفولي .

– لقد افترضوا إذن أننا أخذنا طريق فلورنسا ، فتكون تيفولي والحالة هذه غير مراقبة . هذا شيء رائع ! فعليك إذن أن تعود بالأحصنة إلى « نزل الزهور » لكي تنتظرنا هناك قائلا لمن يسأل عنّا بأننا نقوم بنزهة على الأقدام للاطّلاع على مناظر الجبل الغريبة . وإذا تنبّه أهل تيفولي لأمرنا فيمكنك أن تنتظرني هنا لكي تبلغني ذلك . فقال سباداكاب : لقد فهمت يا سيدي . فتابع راكستان قائلا : وعند انبلاج الفجر استأجر عربة متينة مقرونة إلى حصانين قويّين ، وإليك بالدراهم لكي تدفع أجر العربة التي يجب أن تكون صالحة للجري سريعاً في جميع الطرق ، كما يجب أن تظلّ جاهزة طيلة النهار . أما إذا سألوك عنها فعليك أن تبتدع عذراً من الأعذار . ثم جهّز لي زيّاً كاملاً من الثياب التي يرتديها عادة القرويون في تيفولي . هيّا امضِ الآن وستراني غداً صباحاً ، هل فهمت ؟

فجرّ سباداكاب الأحصنة وابتعد . أما راكستان الذي كان واثقاً من ذكاء خادمه فقد عاد إلى المغارة حيث تمدّد على أوراق يابسة ونام نوماً متعباً . وعند الصباح نفذت إلى المغارة أشعّة الشمس من خلال العليق المتشابك فوق الشقّ الذي خرج منه ، فأفاق راكستان ورأى رافائيل وماكيافيللي يتحدثان مع الماغا فقال لهم : صباح الخير ! ألا تريدون أن نتروّق ؟ ولكن .. ماذا

نتروّق ؟ فأجابته الماغا قائلة : لقد احتطت للأمر في حالة سكناي في هذه المغارة أياماً عديدة وهيأتُ من الأكل والشراب نبيذاً لذيذاً وخبزاً محمّصاً وشيئاً من اللحوم المقدّدة .

فقام ماكيافيللي وراكستان وحدهما فأكلا وشربا ، ثم روى الفارس الترتيبات التي وضع خطتها وأعلن أنه سيباشر العمل فوراً. فسأله ماكيافيللي قائلاً : أتريد أن أرافقك ؟ فقال : كلا ، من الأفضل أن أكون وحيداً لأننا قد نثير الأنظار علينا لو مضينا اثنين معاً ، وإنني سأعود نحو أواخر النهار لأخبركم متى يجب أن نبدأ جميعنا العمل . فصاح سانزيو قائلاً : ترى ، ماذا كان يحلّ بي لولاك ؟ ونظرت الماغا إلى راكستان وقالت : إني أطلب لك أن تنال السعادة في أحد الأيام وأن تتحقّق جميع أمانيك ! فقال راكستان : أوَيبدو عليّ أنني أتمنّى شيئاً لا أدركه ؟ فقالت :

ـ أيها الفتى ! إنني عجوز مسنّة تعذّبت كثيراً في حياتي ، ولقد تعلمت القراءة في وجوه الرجال ، وإنني أرى ألماً عميقاً يكمن في قلبك ، ولكنني أتمنّى أن يحبك الشخص الذي تصبو إليه كما تستحق .

فانطلق راكستان إلى خارج الكهف مفكراً بكلمات الماغا ، وبعد أن سار في درب ضيّقة بين الصخور العالية ووصل إلى أعلى الشفير المطلّ على الجبل لاحظ أن كل شيء في الناحية هادىء خلا بعض المعازين الذين برزوا من حواشي الصباح . أما فيلا البابا فقد كانت ساكنة كعادتها إلا أن جرس الكنيسة الصغيرة فيها كان ما يزال موزعاً أنّاته الحزينة في الأجواء الصامتة ! ولقد تبيّن

لراكستان دون أن يخطىء أن خيّالة البابا قد أصبحوا بعيدين الآن. ذلك أن رودريك بورجيا ، بعد أن هرب ماكيافيللي وسانزيو وراكستان خلال الحديقة ، أخذ ينادي إلى نجدته حتى سمعوه وأقبلوا فخلصوه، فافترض البابا أن الرجال الثلاثة إنما يعرفون الماغا ويعرفون موضع سكنها وهم ولا شك واصلون إليها، فأرسل حرسه إلى المغارة لكي يقبضوا على الرجال الثلاثة وعلى الماغا معهم، ولكن المغارة كانت فارغة فاعتقد بورجيا عندئذ بأن الأربعة ومن بينهم الماغا قد هربوا بطريق فلورنسا ، فأرسل جنوده في هذه الطريق بينما كان راكستان عائداً إلى تيفولي حيث وجد سبادا كاب في انتظاره.

فسأله راكستان قائلاً : ماذا يقولون في تيفولي ؟

ـ لا شيء سوى أن شخصاً قد مات في الفيلا البابوية وسيدفنونه اليوم .

ـ حسناً ! والعربة هل جهّزتها ؟

ـ إنها جاهزة مع الزيّ القروي .

عندئذ قصد الاثنان معاً إلى « نزل الزهور » ودخلا إليه من باب خلفي، وبعد عشر دقائق خرج راكستان منه بزيّ فلاح يحمل مجرفة على كتفه ، وراح طيلة النهار يدور في جوار الفيلا مراقباً ما يجري في أرجائها . وعندما انحدرت الشمس نحو المغيب بدأ راكستان يخشى أن يؤجّل الجنّاز إلى الغد، إلا أنه سمع أجراس الكنيسة تدقّ معاً بطنين ملحّ ، وإذا ببوّابة الفيلا الرئيسية تفتح فجأة ويخرج منها عدد من الكهنة يتقدمهم حامل الصليب وهم يرتلون صلوات الموتى ، وإذا بالنعش يظهر أيضاً مجللاً بجرام أبيض

ويحمله ثمانية خدم. ولقد أحسّ راكستان بقلبه يخفق خفقاناً شديداً لفكرة الفتاة الممددة في النعش، هذا النعش الذي ينقل فتاة حية إلى القبر. كما أنه أحسّ برعشة شديدة أمام رهبة هذا الموكب الحزين! ووراء النعش كانت تسير فرقة من عشرين جندياً يأتي خلفهم سكان الفيلا البابوية. أما راكستان فقد راح من بعيد يراقب هذا الموكب الجنائزيّ الذي دخل إلى تيفولي وأخذ عدد كبير من السكان ينضمون إليه. عندئذ اقترب راكستان من هذا الجمع الغفير وانخرط فيه دون أن يعرفه أحد، وظلّ يساير الموكب حتى دخل إلى الكنيسة فدخل معه.

هناك في الكنيسة أخذ الكهنة يرتلون الصلوات، ثم ران الصمت فجأة بينما كان أحد الكهنة يدور حول النعش ويرشّه بالماء المقدّس وفقاً للطقوس الكنسية. وكان النعش موضوعاً في وسط الكنيسة، وقد مُمِّر عند زواياه الأربع قريباً من الشمعدانات الأربعة، أربعة جنود يشهرون السيوف. وبعد قليل دخل الكاهن إلى السكرستيّة ومن خلفه طغمة المشتركين معه في الجنّاز من القساوسة والشمامسة والرهابين. عندئذ انتهى الجنّاز وأخذ الناس يخرجون من الكنيسة التي أصبحت بعد عدّة دقائق فارغة، ولم يبقَ هناك غير عجوز كانت جالسة بالقرب من راكستان وقد أخذت تتأهب لمغادرة مكانها، إلا أن راكستان مال إليها وقال: ألن ينقلوا النعش إلى المقبرة؟ فهتفت العجوز مغتبطةً كمن ينقل خبراً جديداً، قالت: كيف؟ ألا تعلم ماذا سيجري؟

ـ كلا، لا أعلم شيئاً.

ـ كان قداسة البابا يحبّ هذه الفتاة كثيراً وقد قرّر أن يُنقل الجثمان غداً على عربةٍ لكي يدفن في روما.

فأحسّ راكستان بدوار عنيف يستولي عليه وتمتم قائلاً: سينقلونها إلى روما؟

ـ أجل، أكنت لا تدري إذن؟ وقد قرّر قداسته تكريماً للصغيرة المسكينة أن يجعل حرس الشرف يسهرون طيلة الليل حول النعش. أنظر، ألا ترى الجنود كيف يقفون كالتماثيل الجامدة؟ آه ما أروع هذا المشهد!

فخرج راكستان من الكنيسة مترنّحاً وراح يجوب الشارع وهو يقلّب في رأسه هذا السؤال: تُرى، كيف أستطيع أن أفتح النعش الذي سيسهر عليه الحرس؟ وبعد أن ابتعد خمسين خطوة عن الكنيسة شاهد سقيفة تستند إلى فندق وقد وقف تحتها فرقة الحرس التي رآها راكستان ترافق النعش. وكان الجنود قد ألقوا سلاحهم وخلعوا معاطفهم الإحتفالية الرسمية، وكان منهم ثلاثة أو أربعة يتثاءبون. فعرف راكستان أن هذه السقيفة ستكون مركزاً لفرقة الحرس طيلة بقاء النعش في الكنيسة، وأن هؤلاء الجنود هم حرس الشرف الذي تحدثت عنهم العجوز. وكان عددهم ستة عشر جندياً من حاملي الرماح، يضاف إليهم جنود الكنيسة الأربعة الواقفون حول النعش.

وشاهد راكستان قائد الفرقة وقد جلس إلى الطاولة في قاعة الفندق المعدّة للأكل، وجعل يغازل خادمة جميلة كانت قد جلبت إليه النبيذ ليشرب. وفيما كان الفارس يتفحّص الجنود بشكل

وحده فاضيه

ساذج كان يعود إلى فكره هذا السؤال : تُرى ، كيف أستطيع فتح النعش ؟ سيكون حوله أربعة من الحرس يتغيّرون كل ساعتين . أربعة حراس ! هذا عدد كبير ولكنه لا يفوق قوّتي عندما أستطيع العمل دون جلبة . تُرى ماذا سيعمل الفارس ؟ هو نفسه لا يعلم ولكنه يفتّش عن حلّ دون أن يقف عند قرار حاسم .

وفي هذا الجوّ من القلق النفسي عاد راكستان إلى « نزل الزهور » مسرعاً إلى خلع ثيابه القرويّة وارتداء بزته كفارس . عندئذ شعر بجوع شديد لأنه لم يأكل شيئاً منذ الصباح ، فنادى خادمه سباداكاب وقال له : أطلب إليهم أن يجلبوا إليّ العشاء .

ولم يكد سباداكاب يخرج من الباب حتى ناداه راكستان قائلاً: كلا ، لا تجلب شيئاً فقد غيّرت فكرتي . فقال سباداكاب : أرى أن سيدي الفارس معذّب ، ولكن عشاء جيداً لا يضرّه الآن . فقال : بلى ، سأتعشّى ، ولكن في غير هذا المكان . فسأله قائلاً : ستخرج إذن يا سيدي ؟ فقال راكستان : نعم . أمّا أنت فاسهر وانتظرني هنا . فقال : والعربة ، هل يجب أن نحتفظ بها ؟ فقال راكستان : طبعاً . إنما أريد أن أسألك ، هل من الممكن صرع رجل بلكمة واحدة بطريقة تجعله يسقط دون أن يصرخ ؟

— أجل ، لقد حدث هذا معي يا سيّدي .

— ورجلان ، هل يمكن صرعهما معاً دون أن يصرخا ؟

— نعم ، إذا كانا غير متيقّظين . ولكن إذا فشلت اللكمة فهل تدري ماذا يفعلان ؟

فارتعش راكستان وحضرته للمرة الأولى فكرة قتل الجنود الأربعة، إلا أنّ هذه الفكرة سبّبت له اشمئزازاً لم يستطع التغلب عليه . ولكن ما العمل إذن ؟ أجل ، ما العمل ؟

وكان راكستان شاحب الوجه عندما غادر خادمه دون أن يستطيع الإجابة على سؤاله المخيف، متجهاً نحو الفندق الذي يعسكر أمامه الجنود. وعندما وصل إليه دخل توّاً إلى القاعة العامة وأبصر أن القائد ما يزال في مكانه ، فراح ينادي بطريقة تسترعي انتباهه، قائلاً : أيها الخدم ! أيها الأوغاد ! أيها الأبالسة المناجيس ! فصاح القائد الذي كان جالساً في الزاوية أمام طاولة وضع عليها العشاء قائلاً : أحسنت ، لا فضّ فوك ! ففكر راكستان قائلاً في نفسه: إذا كان هذا القائد قادماً من روما ، وإذا كان قد صادفني هناك فلا شكّ أنه سيعرفني . ولكنه تابع مناداته ضارباً على الطاولة بمقبض سيفه ، فإذا بثلاث خادمات يقبلن نحوه مذعورات قائلات : أيّة خدمة يريد حضرة الفارس ؟

— العشاءَ أيها الأبالسة ، وبسرعة ! فقد مللتُ من العشاء وحيداً كما أنني مللت الانتظار !

فوقف القائد وتقدم توّاً نحو راكستان الذي قال في نفسه : الحذرَ الحذر ! ولكن القائد حيّاه قائلاً : أرى يا سيدي أنك من رجال السيف . فقال راكستان : أجل أيها القائد ! قال: أيضجرك العشاء وحيداً ؟ قال راكستان: إنه يميتني يا سيدي لأننا في نابولي ، من حيث أنا قادم ، لم نعتد الحياة الكئيبة ، بل إننا نحب الشرب بنهم كما نحب الضرب بشفار الحسام . فصاح القائد مغتبطاً : أهلاً

إذن أيها الفارس ، فأنا حالتي أخت حالتك ويؤنسني أن نتجالس وأن تقاسمني الطعام .

ـ إنّ دعوتك قد أثرت عليّ وإنني لأقبلها بطيبة خاطر ، ولكن بشرط واحد !

ـ ما هو هذا الشرط ؟

ـ أن تسمح بأن أعاملك كصديق، أي بأن أدفع أنا الحساب.

ـ ليس لديّ أي مانع ، إنك تدفع نفقة الطعام وأنا أدفع نفقة الخمر ، فإلى الطاولة إذن! فقال راكستان في نفسه: إنه لم يعرفني. ثم قال بصوت عال وهو يجلس : أوتستطيع أن تشرح لي سبب وجود حضرة القائد وجنوده البابويين في هذا النزل القروي ؟ لعلكم قادمون من روما ؟ فتنهّد القائد وقال : روما ؟ من ستة أشهر لم أضع قدمي فيها لأنني منفيّ يعيش في منفاه .

ـ منفيّ يعيش في منفاه ؟ هل ارتكبت ما أثار النقمة عليك؟

ـ كلا ، ولكنّ قداسته جعلني قائداً على حرس الفيللا البابويّة ، وهذا ما يضجرني لا سيما وأنني منذ ستة أشهر لم ألعب إلا « دقّاً » واحداً بطاولة النرد .

ـ سنلعب « دقّاً » بعد قليل إذا شئت !

ـ آه ، لا شك أنك خيّال لطيف !

ـ إذن أنت الآن مفصول إلى تيفولي كقائد للحرس ؟

ـ نعم . ولقد وصل قداسته إلى تيفولي منذ حين ، وإني آمل أن أعود برفقته إلى روما . كأسكَ يا سيدي !

ـ كأسكَ أيضاً ! ولكن ما دام قداسة البابا في الفيللا فلماذا

أنت هنا إذن ؟

ـ لقد حدثت هذه الليلة في الفيللا حوادث غريبة .

ـ هذا صحيح ؟! ألا تقصّ عليّ ماذا جرى ؟

ـ لقد كادوا يخطفون البابا .

ـ يخطفون الأب الأقدس ؟

ـ جماعة من اللصوص ... لكي يرغموه على دفع الجزية .

ـ هذا حادث غريب !

ـ الأب الأقدس هو الذي أخبرنا ذلك عندما تراكضنا لإغاثته فوجدناه مع البستاني موثوق الساقين والذراعين ، ولقد شرح لنا كيف استولى اللصوص عليه .

ـ وماذا حلّ بهؤلاء المعتدين ؟

ـ لقد اختفوا كأن الشيطان أخذهم برفقته ، وأنت تعلم أن الشيطان ليس خرافة باطلة .

ـ لا شك في هذا أيها الصديق العزيز ، مع العلم أن الإيمان بالشيطان ليس خرافة .

ـ هذا صحيح . ولقد اعتقد البابا أن الأشقياء قد التجأوا إلى مغارة مسكونة .

في هذه اللحظة دخل جنديّ إلى القاعة فقطع القائد حديثه والتفت إلى الجنديّ قائلاً: وأنتِ ماذا تريد؟ ألا تدعُوننا نشرب بسلام ؟ فقال الجندي : أيها القائد ، هذه ساعة إبدال حرس الشرف . ولقد أمرتني بأن أنبّهك إليها . فقال القائد : حسناً ، إذهب الآن . فمضى الجنديّ . أما القائد فقال : يا لهذه الأشغال

الشاقة التي عليّ أن أقوم بها طيلة الليل ! ولكن أين كنت في الحديث ؟ فقال راكستان : عند المغارة المسكونة .

ـ أجل ، فقد التجأ الأشقياء إلى هذه المغارة بصحبة عجوز ساحرة ، ولكننا عندما وصلنا إلى المغارة لم نجد أحداً .

ـ هذه ولا شك معجزة !

ـ تماماً كما قلت يا سيدي لأن المغارة كانت محاطة بالجنود والبلاد تفيض بهم ، فيجب أن يكون الشيطان قد أخذهم برفقته ، وهذا ما يعتقده جميع الناس .

ـ إنها بالحقيقة حوادث غريبة !

ـ وهناك ما هو أغرب أيضاً ، أوتريد مرافقتي إلى حيث ستشاهد ما هو عجيب ؟

ـ أوتريد الذهاب بعيداً ؟

قال راكستان هذه العبارة الأخيرة وقد شعر برعشة من الفرح تستولي عليه ولكنه اجتهد في إخفاء فرحه تحت قناع اللامبالاة . فأجاب القائد قائلاً : هنا قريباً إلى الكنيسة . فقال راكستان ضاحكاً : ولكن ليست الساعة ساعة القداس أو صلاة العصر . قال القائد : تعال ولسوف ترى . فقال راكستان : إني أقبل لأستفيد من رفقتك . فقال الضابط : وعندما نعود سنلعب «دقاً» بطاولة النرد .

أمام النعش

*

خرج القائد من النزل يتبعه الفارس راكستان فإذا بأربعة جنود وقفوا منتظرين أمام السقيفة . عندئذ مشت هذه الفرقة الصغيرة وكان الليل قد أرخى سدوله . ولقد تظاهر راكستان بأنه يسير جنباً إلى جنب مع الضابط بطريقة تجعل الجنود يعتقدون بصداقة حميمة تربط بينهما . وفي الكنيسة أبدل الحرس فحلّ الأربعة الجدد محلّ رفاقهم الذين كانوا واقفين كالتماثيل . عندئذ أسرع الضابط عائداً إلى النزل لكي يلعب « دقاً » بطاولة النرد ، ولم يكد يجلس إلى الطاولة وحجارة النرد بيده حتى قال لراكستان : هل أعجبك المشهد ؟ فقال راكستان : إنه مشهد حزين ، هذا النعش وهؤلاء الجنود المتربّصون كأنما الميت مقبل على الهرب .

فانفجر القائد ضاحكاً ضحكته العريضة وقال : كلا ، ليس من خطر على الميت الذي هو امرأة يقوم الجنود على حراستها تكريماً لها .

ـ إنها امرأة ؟

ـ أجل ، ويظهر أنها من أقرباء قداسة البابا المقرّبين ويقول الناس إنها ابنته . فضحك راكستان وقال : ويقولون أيضاً إن البابا كان بمرع الشباب ! قال : وهو كذلك الآن بمرع الشيخوخة . فقال راكستان : حتى أن الفقيدة هي ...

ـ ثمرة من ثمار علاقاته الغرامية الغابرة . يا للصغيرة المسكينة

التي لم تكد تبلغ السادسة عشرة من العمر ! فقال راكستان: وهل شاهدتها أنت ؟ قال : نعم ، ولقد كنت على وشك أن أقع بها مغرماً .

ـ الآن فهمتُ ... ولكنني لم أفهم لماذا قلت إن هذا العمل هو من الأشغال الشاقة بالنسبة إليك، فقال الضابط: لأن اضطراري إلى النهوض مرّة كل ساعتين سيفقدني فرصة ذهبية. فقال راكستان: وما هي هذه الفرصة الذهبية ؟ قصّها لي بالله عليك. فقال : ألا ترى هذه الخادمة الصغيرة التي تسير بقدمَي غزالةٍ وتنورة قصيرة ومقلتين مشتعلتين مكهربتين ؟ قال : بلى ، إنني أراها . فتابع الضابط يقول : إنها تجنّ بي ، ولكن الوظيفة قبل كل شيء .

هنا طرح الضابط حجارة النرد وصاح متهللاً : دشاش ! لقد ربحت ! فقال راكستان بلهجة مغمومة : سنلعب الآن دوراً ثانياً لكي أستردّ خسارتي . فقال الضابط : ولكن شُدّ من حيلك فأنا لا أغلَب بالطاولة . قال راكستان : يا للشيطان ! كنت أعتقد أنني سأتغلب عليك .

ـ هذا مستحيل !

ـ سوف نرى : بنج ودو ... هيّا العب ، الدورُ لك الآن .

وكان راكستان يكثر من صبّ الخمر في قدح الضابط حتى أصبح يلعب لعباً متعتعاً ، غير أنه ربح «الدق» مرة ثانية. وكانت الخادمة تظهر أمامه من حين لآخر، فالتفت إليها وتنهد قائلاً: ليتني متحرر من هذه الوظيفة الشاقة ! فقال راكستان: ولكن ما الذي يمنعك من الجمع بين الوظيفة والحب؟ فنظر إليه القائد بوجه مذهول

ثم غمغم قائلاً : وماذا تعني ؟ قال : تباً للشيطان ! يجب أن يخدم الأصدقاء بعضهم بعضاً . لذلك فإنني أحلّ محلك ! فقال الضابط مندهشاً : أنت ؟ قال : أنا ، وماذا يمنع ؟ إنني أتقن هذه المهمّة . فقال الضابط : كلا ، لا أستطيع المخالفة . إنك رجل لطيف على كل حال .

ـ دع عنك قيود الوظيفة وانظر فالفتاة تدور حولك بعين تبدو فيها لوعة الحب . ألا تشجّع ولا تخف !

ـ أتشجّع ؟ بلى ، سأتشجّع على الشرب !

فأومأ راكستان إلى الخادمة التي أقبلت مسرعة لكي تسكب في قدح الضابط ، وكانت قاعة النزل قد خلت تماماً من الناس ومن أصحابها الذين مضوا إلى النوم بعد أن أغلقوا الباب الرئيسي . وعندما دنت الخادمة من راكستان قام فقبّلها ثم جلس يقول : يا لهذا الوجه الرقيق المخمليّ !

وكانت الخادمة لا تمانع إلا بشقّ النفس، فدفعها راكستان على ركبتي الضابط وقال: يا للغادرة، إنها لا تريدني! فحدق بها الضابط قائلاً : أجل ، إنها تحبّني . فقال راكستان : امضِ إذن ونم معها فأنا أقوم بالحراسة مكانك . فنهض الضابط واستند إلى ذراع راكستان قائلاً : إنك صديق حقيقيّ ، قل لي ما اسمك ؟

ـ ماذا يفيدك اسمي ؟ استفد الآن من الفرصة السانحة .

ـ كلا ، لأنني سأتعرض إلى الطرد بل إلى أكثر .

ـ إمضِ ولا تخف لأنني سأوقظك كل ساعتين .

ـ هذه فكرة جيدة !

— إذهب إذن ، يا لك من رجل موفور الحظ ! فمال القائد على راكستان الذي أخذ يرتجف من فرحه ، قائلاً : إسمع ! كلمة السر هي « التير وتيفولي » . وعندما يسمعها رجالي سيفعلون كل شيء كأنهم يتلقون أوامرهم مني . ولكن عليك كلّ ساعتين ...

— بعد كلّ ساعتين سأمضي لتغيير الحرس، وإذا حصل حادث ما سأوقظك .

— يا لك من صديق ! ألا قبّلني !

فقام راكستان إلى الضابط وعانقه ثم قاده نحو الدرج الذي راحت الخادمة الحسناء تسلقه بخفة ومرح ، وبعد لحظات سمع صرير باب يُغلق . فقال راكستان في نفسه : بعد خمس دقائق سيرتفع شخيره وسيبقى هكذا حتى نهار الغد !

ولم يلبث راكستان أن خرج إلى السقيفة ، وكان الجنود قد رأوه يتعشّى برفقة قائدهم فاعتقدوا أنه صديقه الذي جاء لمجالسته ومسامرته. ولقد رسخ اعتقادهم هذا عندما نادى راكستان العريف وقال له كلمة السرّ ثم أمره أن يعيّن الرجال الأربعة الذين كان دورهم بالحراسة ، فحيّاه العريف ومضى مسرعاً لتنفيذ مهمته .

وعندما أقبلت ساعة تغيير الحرس مثّل راكستان دوره بدقة رائعة تماماً كما فعل الضابط أمامه . بل إنه قد زاد في صلابته العسكرية ومن عجرفة صوته التي أعطت الجنود فكرة عالية عن مؤهلاته . وعندما عاد إلى السقيفة قام بمراقبة المركز ، ثم قسّى صوته وقال : ناموا الآن ! أما أنت أيها العريف فعليك أن تخبرني عن دقة النظام !

ثم خرج وقد بدا عليه أنه يقوم بوظيفته بدقة فائقة . وعندما أصبح في الشارع اعترضه شبح : إنه سباداكاب . فجرّه الفارس إلى زاوية لكي يستمع إليه ، فقال سباداكاب : سيدي ، لقد جاء إلى « نزل الزهور » صديقاك وامرأة وجميعهم في حالة يرثى لها من القلق عليك ، وقد أرسلوني لكي أفتّش عنك !

— إذهب وقل لهم إن الأمور على خير ما يرام .

— وهل أخبرهم بعودتك ؟

— كلا ، إسمع . هل يمكنك أن تأتي بالعربة دون ضجيج إلى ساحة الكنيسة ؟

— أجل ، بوضع قشّ حول الدواليب وبتغليف حوافر الخيل.

— وهل يمكنك أن تكون في الساحة بعد ربع ساعة ؟

— بعد ربع ساعة على الضبط ؟

— على الضبط بعد عشرين دقيقة . ويجب أن يكون صديقاي والمرأة داخل العربة ، وقل لهم ألا يأتوا حركةً قبل أن يروني .

فانطلق سباداكاب نحو « نزل الزهور » . أمّا راكستان فقد اتجه مسرعاً إلى الكنيسة وكانت إرادته في أن يعمل وحيداً . وقد اعترف بعدئذ بأنه عندما دخل إلى الكنيسة أخذ يرتعش كمن أصيب ببرد قارس لأن الوضع كان رهيباً وكان يكفي أن يشكّ به أحد الجنود لكي ينهار كل شيء ، لذلك فقد كان من الضروري أن يضرب ضربة واحدة ولكنها محكمة .

وعندما دخل راكستان إلى الكنيسة ظهر له الجنود الأربعة مجلببين بالظلّ ولقد دلّت وقفتهم المنخسفة على أن النعاس يدبّ

فيهم بل إن أحدهم كان ينام نوماً كاملاً وهو واقفٌ مستند إلى رمحه . ومن قعر الكنيسة أخذ راكستان طيلة برهة يتفحص الموقف وهو مقطب الحاجبين بسبب التفكير العميق . ثم إذا به يندفع مسرعاً بعد أن وجد الحلّ المنشود فيتقدم تواً إلى الجندي النائم ويضع يده على كتفه فإذا به يفيق مرعوباً بينما انتصب الآخرون انتصاب التماثيل الجامدة . عندئذ قال راكستان : يظهر يا صديقي أنك تنام أثناء قيامك بالحراسة وهذا لا شك جرمٌ جسيم . فتمتم النائم متلعثماً : إنه التعب يا سيدي الضابط . فقال راكستان: التعب لا يؤثر في الجندي الصالح. فخفض الرجل رأسه خجلاً. وتابع راكستان قائلاً: في فرقتي يعاقب النائم أثناء وظيفته بشهرين من السجن في الزنزانة فكم يجب إذن أن يكون قاسياً عقاب حرس الشرف ؟ فارتجف الجندي وبُهت لونه ، وتابع راكستان قائلاً : سأخبر بالموضوع ضابطك الذي أنا شاغلٌ وظيفته الآن. وإني أعتقد أن عقاب السجن سيزداد أكثر من شهرين بكثير لأن الظروف موجبة .

– إني أعدك يا سيدي الضابط بأن ...

– ولكنك متساقط من النعاس ولا تستطيع أن تعدني بشيء، وأنتم أيضاً أيها الثلاثة إذهبوا وناموا في المركز لأنني لست شيطاناً إلى هذا الحد لكي أجعلكم تنامون وأنتم وقوف .

وانتظر راكستان بقلق ميت نتيجة كلماته الأخيرة ولو استطاع امروءٌ في هذه الأثناء أن يحزر فكرته وأن يقارن بينها وبين ابتسامته الطفولية العريضة التي كانت تبرز على وجهه لكان

يعجب إعجاباً كبيراً بمقدرة الفارس النفسية. أما الجنود فقد نظروا إليه نظرة صبيانٍ تعرض أمامهم لعبة جميلة لذلك فقد تابع راكستان قائلاً : قلت لكم اذهبوا إلى النوم ! لأنني لا أريد أن يترك مروري بين جنود الأب الأقدس تذكارات سيئة على جماعة طيبين مثلكم. وها إنني أحل مكانكم فأحرس الميتة كضابط من فرقة الرماة لا شك أنه يساوي أربعة جنود . فتردد الجنود الأربعة قليلاً فجأر راكستان بهم قائلاً : إذهبوا إلى النوم وإلا غضبت عليكم ! فقال النائم: شكراً لك يا سيدي الضابط ! ثم اتجه حالاً نحو الباب فتبعه الجنود الثلاثة مرددين : شكراً لك يا سيدي الضابط !

فاستلّ راكستان سيفه جهاراً كأنه يستعد للقيام بدور الحراسة وعندما غاب الجنود الأربعة أسرع إلى باب الكنيسة فرآهم مبتعدين في الظلام . عندئذ انتظر بعض دقائق ينهشه الملل من الانتظار ويخفق قلبه خفقاناً مميتاً ولكنه شعر أن الجوّ قد خلا له تماماً للقيام بمهمته فتهيأ للدخول إلى الكنيسة إلا أنه سمع ضجة خفيفة تعلو إلى جانبه فوقف في مكانه وخنجره في يده ولكنه شاهد العربة تظهر من خلال الظلام الداكن .

عندئذ دخل إلى الكنيسة وأسرع نحو النعش فنزع عنه بساط الرحمة الذي يلفه ثم أدخل رأس خنجره بين الغطاء والنعش وأخذ يرفعه قليلاً قليلاً ثم انتقل إلى مسمار آخر وهكذا دواليك حتى ارتفع الغطاء عن شقٍّ تستطيع يداه أن تمرّا فيه. فإذا براكستان يركع على ركبتيه ويُدخل يديه في الشقّ العريض شاداً به إلى أعلى بينما راحت المسامير تصرّ وهي مقلوعة من أماكنها ، وفجأة قفز الغطاء

عن النعش فظهرت الفتاة الميتة بيضاء مسجّاة في موضعها حتى لقد امتلأت نفس راكستان بشك رهيب . إلا أنه هزّ كتفيه وقد أعاده إلى صوابه الخطر المداهم ثم انحنى على المرأة لكي ينقلها بين ذراعيه إلا أنه شعر في هذه اللحظة بيد تقع على كتفه !

وحدة راكستان

*

ولنعد إلى المغارة فبعد خروج راكستان منها ساد فيها انتظار طويل وقلق على الفارس الذي لم يعد . ولقد أتى المساء والثلاثة ينتظرون ثم أقبل الليل فأخذ قلق ماكيافيللي يتزايد دقيقة بعد دقيقة : ترى هل قبضوا على راكستان ؟ أما رافائيل فقد شعر بأن قواه أخذت تتلاشى وأنه لم يعد باستطاعته الاحتمال أكثر من ذلك فقال بصوت قصير : لنذهب إذن !

— بل لننتظر قليلًا .

— لا أستطيع .

ففهم ماكيافيللي أن سانزيو أصبح في الرمق الأخير من قواه فقال : فلنذهب إذن ولكن لنمرّ أولاً على نزل الزهور لعلّنا نقع على بعض الأخبار .

— كما تشاء شرط أن نذهب ! ألا توافقين أيتها الماغا ؟ ألست تخافين مثلنا وقوع داهية مخيفة تجعل بقاءنا هنا مستحيلًا ؟ فقالت

الماغا بلهجة حزينة : بلى .

وبعد نصف ساعة كان الثلاثة في « نزل الزهور » حيث أبصر ماكيافيللي في ساحة النزل رجلًا بدت عليه هيأة الانتظار فأشار إليه بيده وقال :

— هوذا سباداكاب ! ثم وثب نحوه وعندما وصل إليه أخبره سباداكاب كل ما أمره به راكستان .

— ولكن أين هو الفارس الآن ؟

— لا شك أنه يدور في تيفولي ، وها إني عازم على الذهاب إليه لأنني أعددت كل شيء وفقاً لتعليماته . فقال ماكيافيللي مهموماً : يجب يا سباداكاب أن تتصل به فتخبره بأننا هنا . قال : كلوا هذا إليّ !

ثم خرج سباداكاب وأخذ يسير في شتى الطرق حتى عثر على راكستان كما مرّ معنا آنفاً . وعندما عاد سباداكاب إلى « نزل الزهور » كان الليل قد أرخى سدوله السوداء . ولم يكد ماكيافيللي يراه حتى سأله بحرارة تشبه الحمّى ، قائلًا : قل أين الفارس ؟ قال سباداكاب : إنه ينتظركم في ساحة الكنيسة ، ألا ساعدوني بسرعة ! وانطلق نحو العربة وشرع يلفّ القشّ حول دواليبها يساعده في عمله هذا رافائيل سانزيو وماكيافيللي اللذان أنجزا المهمّة بسرعة مدهشة ولقد كان ماكيافيللي يتمتم قائلًا : راكستان بحاجة إلى العربة فلا شك إذن أن الأمور أصبحت جاهزة لبلوغ الأرب . عندئذ عادوا يستنشقون نسيم الأمل ويتسابقون في تغليف دواليب العربة وحوافر الخيل حتى أنهوا كل شيء في دقائق معدودة .

وحده فاضيه

وعندما صعدت الماغا إلى العربة أمر رافائيل سباداكاب قائلاً :
هيّا انطلق !

فخرجت العربة من النزل . أما ماكيافيللي وسانزيو فقد اندفعا مسرعين حتى بلغا ساحة الكنيسة حيث سحبا خنجريهما ثم دفعا الباب ودخلا بسرعة خاطفة إلى الكنيسة التي بدت مقفرة، ولكنهما لم يقفا بل تقدّما إلى الباحة الوسطى حيث أخذ ماكيافيللي يد سانزيو ودلّه على الشكل الغريب الذي يبدو فيه راكستان وهو مكبّ على النعش في بقعة من ضياء الشموع المصفرّة ، فوثب رافائيل نحوه ، وفي اللحظة التي كان فيها راكستان منحنياً فوق روزيتا جاء سانزيو ووضع يده على كتفه فإذا بالفارس يزأر كالأسد رافعاً رأسه وشاهراً خنجره بعد أن ترك الفتاة تسقط في النعش . ولكنه سرعان ما عرف رافائيل فأضاءت الابتسامة ثغره وقال :

ـ حنانيك يا صديق لقد وصلتَ في الوقت المناسب ، خذ احملها أنت لأنك في الواقع الزوج الذي يحق له ذلك .

فنظر رافائيل إلى روزيتا بادىء الأمر نظرة ذهول ، وعند سماعه كلمات راكستان الأخيرة تراجع إلى الوراء كاشفاً عن رأسه ثم أومأ إلى الفتاة ، ففهم الفارس فكرة الفنان الذي ترك له شرف نقل امرأته لكي يتمّم ما بدأه وحيداً . عندئذ أخذ راكستان الفتاة على ذراعيه ونقلها إلى العربة حيث وضعها على ركبتي الماغا . وأراد رافائيل أن يتكلم معلناً عن وفائه وعرفانه للجميل إلا أن دمعة انهمرت من عينيه هي التي عبّرت عن عالم أفكاره هذه ، أما راكستان فقد أعطى أوامره قائلا: إذهب يا سباداكاب واجلب

حصاني وحصانك واترك حصانَي هذين السيدين في الإسطبل . أما أنت يا ماكيافيللي فاصعد إلى مركز سوّق العربة، إني أعتقد أنك ماهر في القيادة . فقال ماكيافيللي ضاحكاً : نعم أيها القائد .

وكان رافائيل منذ اللحظة الأولى قد صعد إلى العربة وانحنى فوق وجه روزيتا منتظراً فعل الشراب الذي جرّعته الماغا لامرأته الشابّة . وكانت العربة قد قطعت مسافة من الطريق عندما لحق بها سباداكاب ، عندئذ قفز راكستان على متن حصانه ، وبعد أن اجتازوا قرية تيفولي بسير عاديّ انطلقوا يجرون بسرعة جنونية طيلة ساعة من الليل الدامس، وكان راكستان وسباداكاب يجريان من ناحيتي العربة ويحاولان ألا يتّصلا مباشرة بطريق فلورنسا .

وبعد ساعة من الجري المتصل صرخ رافائيل متهللاً فأوقف ماكيافيللي العربة فقفز الرسّام الشاب منها وأخذ يدّ ذراعيه نحوها وكأنه في سكرة من الغبطة والحبور . عندئذ أطلّت روزيتا وهي ما تزال مبيضّة البشرة محرورة العينين فهتف رافائيل بها قائلاً بتأثر عميق: إليك يا روزيتا الفارس راكستان وماكيافيللي صديقيّ الحميمين اللذين حدّثتك عن إخلاصهما وتضحيتها . فقالت روزيتا وهي تبتسم ابتسامة فائقة الرقّة والحنان :

ـ إني أبارككما لأنكما أعدتماني إلى رافائيل، ولكم أنا سعيدة بكما ! وإني لن أنساكما أبداً كأخوين . فهتف رافائيل قائلاً: أجل كأخوين ، لأنّ هذه الكلمة هي خير ما يمكنني أن أعبّر به عن عرفاني للجميل . فقال راكستان بلهجة رصينة : في هذه الحال إني أطلب القبلة التي تجعلني هذا اللقب الثمين جديراً بها .

فمدّت روزيتا له خدّيها اللذين طبع عليهما قبلتين وهو يقول بلهجة رقيقة : لتكوني سعيدة يا أختي الصغيرة ! ثم أتى دور ماكيافيللي . وهكذا مرت دقيقة لا تُنسى من السعادة الكاملة بين هؤلاء الأشخاص المجتمعين تحت السماء الجميلة المليئة بالنجوم والمعطرة بأنفاس الليل . وعندما صعدت روزيتا ورافائيل إلى العربة صرخا متعجبين لأن الماغا كانت قد اختفت. فتمتم سانزيو قائلاً: يا للأسف، لقد تشبّثت بقرارها في تركنا ولم تستطع دموع روزيتا أن تثنيها عنها كما أننا في روما لم نفلح أن نصطحبها معنا . أما روزيتا فقد راحت تبكي بكاءً صامتاً ، عندئذ قال ماكيافيللي : هيّا ، يجب أن نذهب . فأجاب رافائيل متنهداً : أجل ، لنذهب !

فاندفعت العربة في جريها من جديد. عندئذ خرجت الماغا من الجبّ الذي اختبأت خلفه وراحت تنظر بعينيها الممتلئتين بالدموع إلى العربة التي كانت تبتعد رويداً رويداً . وعندما اختفت العربة عن ناظريها استدارت بوجهها نحو تيفولي وأخذت تسير بخطىً ثابتة ولم يبقَ في عينيها الآن غير شعاع الإرادة الرهيبة .

*

كان الفجر قد شارف على الانبلاج ساعةً عرّجت العربة على طريق فلورنسا . عندئذ أوقف راكستان أصحابه قائلا : هذه هي الطريق حرّة أمامكم فما عليكم إلا أن تتجهوا مباشرة نحو فلورنسا أما أنا فلم ينتهِ عملي في هذه الناحية من البلاد . فصرخ عندئذ ماكيافيللي وسانزيو قائلين : أوتريد الانفصال عنا ؟

إلا أن توسّلاتهما وحججها وإلحاح روزيتا على البقاء لم تتغلّب

جميعها على قرار راكستان . فجرى بينهم عندئذ وداع حافل بالتأثر الشديد ولم يفترقوا إلا بعد أن أقسم راكستان على اللحاق بهم إلى فلورنسا في وقت قصير . هنا استأنفت العربة سيرها بقيادة ماكيافيللي ، وظلت روزيتا ورافائيل منحنيين على النافذة وهما يتبادلان إشارات الصداقة والإخاء مع راكستان . وفجأة غابت العربة في عكفة من الطريق ، فوجد راكستان نفسه وحيداً ، وإذا به يميل نحو سبادا كاب قائلا : إن المعركة الجديدة التي سأبدأها بعد قليل ستكون خصبة بالضربات القاسية وبشتّى الصدمات . فقال سبادا كاب : عندما أكون برفقتك يا سيدي فأنا لا أخاف شيئاً، ولكن هل ستستأنف القتال يا سيدي. قال: نعم يا سبادا كاب، فهل يلائمك هذا ؟ فقال : نعم يلائمني ، ولكن هل تسمح لي بسؤال واحد ؟ فقال : إسأل ما تشاء .

– لقد كافحتَ حتى الآن ضد زبانية الحاشية والأسياد الأقوياء والبابوات أنفسهم ، فضدّ من تريد الآن القتال؟ فأجاب راكستان ببساطة يقول : ضدّ أحد الجيوش .

النفق القريب من النافذة

*

تاه راكستان طيلة أيام في الجبال متردداً يريد تارة أن يعود إلى فرنسا ويعزم طوراً أن يطير إلى فلورنسا . إلا أن القدر حمله

على التقرب أكثر فأكثر من مدينة مونتفورني . ولو أن أحداً في ذلك الحين قام يخبره بأنه متّجه عن غير قصد إلى مونتفورني لكان أثار دهشته لأن الفارس كان ينوي بصدق الإبتعاد عن هذه المدينة، ولكن قوّة كانت تجذبه إليها دون أن يدري. ذلك أن راكستان شعر في مساء اليوم الخامس من سفره بأنه لا يبتعد عن مونتفورني إلا مسافة يومين وإذا به يجد نفسه في نزل فقير يقع في قرية صغيرة كان قد دخلها منذ ساعتين تقريباً .

ولم يكد راكستان يدخل إلى هذا النزل الوحيد في القرية حتى جلس وأمامه على الطاولة قنينة من النبيذ ، وكان قد تمّ هذا اللقاء بينه وبين قنينة الخمر في ظلّ نفق غليظ مظلّل بأوراق الأشجار والأزهار إذ أنه يقع في حديقة خضراء ويتّصل بالنزل من جانبه الخلفي فلا يبقى بينه وبين جدار النزل غير ممرّ ضيّق .

وليتصوّر القارىء الآن هذا الجدار المثقوب بنافذة صغيرة مشقوقة تطلّ على غرفة في الطابق الأرضي ، ويحجب النفق عنها حرارة الشمس وأنظار ذوي الفضول . وليفترض القارىء أيضاً عدة أشخاص مجتمعين في هذه الغرفة يتحدّث بعضهم مع البعض الآخر فلا يقولون شيئاً إلا ويسمعه راكستان الجالس تحت النفق والذي نراه الآن معيراً أذنيه لأنه سمع بعض كلمات أثارت فضوله . ولم يُضع راكستان عندئذ من الحديث كلمة واحدة بل إنه قد اهتم به اهتماماً شديداً وراح يدنو رويداً رويداً من نافذة الغرفة الصغيرة لكي يتسقّط كل كلمة تقال فيها . وعندما أصبح الحديث مقبلاً على نهايته انحنى راكستان قليلاً وأوماً إلى رجل كان

في الساحة يصقل لُجُم الأحصنة ، فأسرع راكضاً . فهمس راكستان في أذنه قائلاً : أنظر إلى هذه الغرفة يا سباداكاب ، إن بابها يفتح على الممشى الذي يجتاز النزل ويجب أن تقف أمام الباب دون أن تأتي بحركة واحدة والخنجر مشرّع في يدك ، فإذا فتح الباب وأراد أحد أن يخرج فما عليك إلا ...

– أن أبقر بطنه بهذا الحدّ الفولاذيّ .

– تماماً . إذهب ، إنك ذكي !

وعندما قدّر أن سباداكاب احتلّ مركزه الذي عيّنه له خرج من النفق ودخل في الممرّ الضيّق حتى وصل إلى النافذة التي عبرها وقفز منها إلى الغرفة الصغيرة قائلاً بلهجة ساخرة: مرحباً يا سادتي! إني سعيد بلقائكم !

زواج بريمفيرا

*

نحن الآن بحاجة لأن نترك راكستان في هذا الوضع الذي فرغنا من تصويره لأن الأحداث التي كانت تجري في مونتفورني هي من الأهمية بالنسبة للرواية بحيث لا نستطيع إغفالها الآن . وها نحن مع القارىء ندخل إلى مونتفورني في مساء يوم جميل من أيام الصيف ، فإذا بهيجان غريب يسيطر على المدينة وإذا بجماعات من الرجال والجنود يتوافدون إلى الساحة الكبيرة التي ارتفع فيها

قصر آل آلما بهندسته الفلورنسية الأنيقة . وكانت واجهة القصر مشعّة بأنوار كثيرة وقاعة الأعياد فيه ممتلئة بجماعة من الأسياد المكتسين بزّات القتال ومن بينهم الأشخاص الذين شاهدهم راكستان في دياميس روما. وكان الجميع ينتظرون قدوم الكونت آلما وابنته بياتريكس ، ومن جملتهم ثلّة من الشبان اجتمعوا حول شيخ مسنّ ذي لحية بيضاء : إنه الأمير مانفريدّي الذي كان في طليعة من لبّوا نداء الكونت آلما بالرغم من سنيه الاثنتين والسبعين .

أما الكونت آلما فها قد أصبح ، مختاراً أو طائعاً ، روح مؤامرة واسعة انضمّ إليها جميع الذين جرّدهم جشع قيصر بورجيا من ممتلكاتهم وسلطانهم وجاههم . ولم يكن هذا الاجتماع في قصر آل آلما إلا لتقرير الإجراءات التي يجب أخذها للوقوف في وجه آل بورجيا ، ذلك أن أحد الجواسيس كان قد وصل بعد الظهيرة وأخبرهم أن قيصر بورجيا قد غادر روما على رأس جيش مؤلف من خمسة عشر ألف جندي بين مشاة وخيّالة مع عشرة مدافع من نافثات اللهب وثمانية مدافع من قاذفات الكلل الحجرية الكبيرة .

وكانت الساعة في قاعة الأعياد قد أشارت إلى الزمن المقرّر لحضور الكونت آلما وجلوسه على عرشه بين هؤلاء الحشد من الناقمين على آل بورجيا والذين أخذوا يتهامسون بأشياء مختلفة ، وفجأة ارتفع صوت أحد المحيطين بالأمير مانفريدّي يقول : الكونت آلما هو قائدنا الذي نأتمر بأوامره ، ولكن يبدو أن هذا الشرف فضفاض عليه .

فساد الحضورَ صمت جليديّ ! هنا فُتح الباب الموجود إلى جانب العرش ، فدخلت بياتريكس منه وحيدة مما أضفى على الحاضرين دقيقة تعجب وقلق فراحوا يتساءلون بينهم وبين أنفسهم قائلين : تُرى ، أين الكونت آلما وما هو فاعل الآن؟ ولقد انقلب تعجبهم إلى فضول عندما رأوا بياتريكس تتجه نحو العرش وتصعد إليه وقد ران من حولها كابوس من الصمت ، فتدير على الجمع نظرة واثقة وهي واقفة منسرحة القامة في رداء طويل من المخمل الرمادي ثم تقول : سأخبركم خبراً مشؤوماً ، لقد اختفى الكونت آلما من مونتفورتي .

فضجّت القاعة لهذه الكلمات ورفع عدّة قادة أصواتهم صارخين: يا للخيانة !فبسطت بياتريكس يدها فارضة الصمت وقالت: يستطيع من استولى عليهم الخوف أن ينسحبوا وليبقَ الآخرون في هذه القاعة ! ومهما كان عددهم قليلاً فلي أمل كبير أن أحميَ بهم مدينتي مرة ثانية من جور آل بورجيا .

فلم يخرج من القاعة أحد ، عندئذ أدارت بياتريكس على الجمع نظرة رقيقة معتزّة لمع فيها لهيب من الفرح وهتفت قائلة : لا بدّ إذن وأننا منقذون مونتفورتي ، بل ومنتصرون على الطغيان في إيطاليا بأجمعها ! وإنني أشكركم أيها الأسياد الأعزاء لأنكم جميعاً من البسلاء !

وكان جميع هؤلاء الرجال يصغون إلى عبارات بياتريكس الرقيقة التي أخذت تثير فيهم عواطف التضحية والفداء ، فإذا بهم يهتفون لها ويصفقون طويلاً. ولقد فهمت بياتريكس بأنها أصبحت

الآن الحكمَ الذي لا ينازع على القرارات التي سيتخذها هؤلاء الثائرون ، لذلك فقد جلست على العرش كأنها هي القائد في غياب الكونت، ولكن في هذه اللحظة رفع شاب تدلّ سيماؤه على الخيلاء صوته وقال : أنا جان مالاتيستا ، ابن غيدو مالاتيستا القتيل في « ريميني » دفاعاً عن حريته ، أعلن بأن إيطاليا إنما تئنّ تحت وطأة عبودية مخزية ، ويجب علينا أن نستعيد ما سلبنا إياه آل بورجيا ، وبعد إنقاذ مونتفورتي علينا أن نحرّر ريميني وأوربان وبيزارو وفابانزا و كومورينو ! فهل أنتم موافقون على أن يعمل اتحادنا هذا المؤلف منذ اليوم في سبيل تحقيق هذا الهدف الجليل ؟

فهتف جميع الحضور هتافاً واحداً حماسياً، فتابع جان مالاتيستا قائلاً : لقد كان لنا قائد أعلى هو الكونت آلما الذي اختفى اليوم ، فهل تعرفون كيف ؟ وهل تعلمون ما حلّ به ؟ أعتقد أنني أعرف أنا كل شيء .

فأبدت بريفيرا حركة استطلاع وفضول ، فاستطرد جان مالاتيستا قائلاً : دخل إلى مونتفورتي منذ أيام رجلان بزيّ حاجّين من الحجّاج دون أن ينتبه لأمرهما أحد ، ولقد شاهدت الكونت آلما مرّات عديدة يجتمع بهما ويتحدث إليهما في أعماق حديقة قصره ، ولقد استطعت البارحة أن أدنو منهما لأتميّز هيأة أحدهما رغم تخفّيه بحذر شديد خلف معطفه الرهبانيّ الذي يغطي جسمه ورأسه ، ولقد رأيته وعرفته فهل تعرفون من هو هذا الحاج؟ وهل تعلمون مع من كان الكونت آلما يجري محادثات سرّية كنت مستعداً لأن أطلب إليه أن يقدّم عنها شروحات علنية في هذا

المساء ؟ إليكم إذن ما كنتم تجهلون : لقد كان الكونت آلما يفعل ذلك مع راهب إن هو إلا روح قيصر بورجيا الشريرة وهو يُعرف في روما باسم دون كار كونيو .

فغمغمت بريفيرا مصفرّة الوجه قائلة : دون كار كونيو ! وإذا بعاصفة تثور بين الحضور الذين راحوا يصرخون من جديد : يا للخيانة ! يا للخيانة ! فمدّ مالاتيستا يده لإعادة الصمت ثم أكمل قائلاً : إنه من السهل معرفة حقيقة ما دار بين الكونت وهذين الرجلين، فهذان الحاجّان هما رسولا البابا وقيصر بورجيا ولقد جاءا لمفاوضة الكونت على الاستسلام ، وإذا كان الكونت غائباً عن مونتفورتي الآن فهذا معناه أنه قبل عروض اسكندر السادس أي أنه باع نفسه ... وإذا لم نجعل منه مثلاً للآخرين فلا شك أن دبلوماسية البابا ودهاءه سيهددان اتحادنا بشرّ العواقب !

عندئذ ارتفعت أصوات عديدة تقول : هذه هي الحقيقة ، الكونت خائن ... يجب معاقبة الكونت فليعاقب ! أجل ليعاقب الكونت !... ليعاقب عقاباً شديداً يكون مثلاً للآخرين ! أما جان مالاتيستا فقد تابع قائلاً : أيها الأسياد ، إني أقترح إعلان الكونت آلما جهاراً بأنه خائن نذل مع تجريده من لقبه وممتلكاته وإعطاء الأمر بالقضاء عليه حال مصادفته . فصاح الجميع : أجل ، أجل ! إننا موافقون !فهتفت بريفيرا وهي مسلوبة اللون من اليأس: رحماكم أيها الأسياد !

غير أن صوتها ضاع بين رعد الأصوات المزمجرة وبين صلصلة السيوف التي أخذت تغادر قرابها ، فسقطت على أريكتها خائرة

وحده فاضيه

القوى . في هذه اللحظة وقف الأمير مانفريدّي الذي كان يتمتع بتأثير قوي على قادة الحرب الأشداء ، هؤلاء الذين قادهم في أكثر من معركة موجهاً إياهم بحكمة أصيلة . وعندما وقف ران الصمت على المكان فاتجه إليهم وقال بلهجة واثقة : أيها السادة ، لقد رأيت بنفسي المجازر التي حدثت حيث كان الحصاد ينمو أثناء السلم . إنني شيخ مسنّ كما ترون ، ولكن أمن إيطاليا هو فوق كل شيء وما زالت كتفاي صلدتين قادرتين على حمل الدرع ، ولقد رأيتموني في طليعة من انضمّوا إلى حركة الإنقاذ وفي طليعة من باشروا العمل ، لذلك اسمحوا لي الآن أن أعلن لكم رأيي بصراحة . فصرخت أصوات من كل ناحية تقول : تكلم ! تكلم أيها الأمير ! فتابع قائلاً :

ـ أعتقد أن حرارة الشباب هي التي دفعت القائد الباسل جان مالاتيستا إلى المغالاة! أما فيما يتعلق بالكونت آلما فيجب ألا نأخذ بحقه قراراً ناجماً عن التسرع والحماس . تُرى هل نسيتم أن ابنة الكونت آلما بياتريكس الحبيبة هي الآن جالسة على هذا العرش ؟ ألا انظروا إلى هذه الفتاة الرقيقة الجسم التي أعطتنا جميعاً مثل الشجاعة والاقدام ! ألا انظروا إلى وجهها الباهت اللون !

فانتقلت جميع الأنظار إلى بريفيرا ، ولقد سادت الجميع رعشة من الشفقة والتأثر لوضع هذه الفتاة التي قُتلت أمها واختفى أبوها منذ حين . عندئذ تابع الأمير قائلاً : أيها الأسياد ، إني أقترح تأجيل القرار بشأن والد بياتريكس !

فوافق أكثر الحضور على هذا الاقتراح ، حتى أن جان

مالاتيستا نفسه الذي نظر إلى بريفيرا وامتقع وجهه لشحوب وجهها عاد يقول بصوت بدا عليه التأثر : أيها الأسياد ، إني موافق على اقتراح الأمير الجليل مانفريدّي بتأجيل القرار ، ولكن كم من الأيام نؤجّله ؟ فأخذ جميع الحضور ينظرون بعضهم إلى بعض بذهول وتردّد ، إلا أن جان مالاتيستا سارع إلى متابعة الكلام قائلاً : أيها الأسياد ، إن تأثري لوضع الكونتيسّة الصبيّة لا يقلّ عن تأثر الأمير مانفريدي وعن تأثركم جميعاً . وإنني أضيف بأن اقتراحي السابق هو مرتبط باقتراح آخر أريد أن أعلنه لكم .

وهنا استدار جان مالاتيستا نحو بريفيرا وكان يبدو أشدّ تأثراً عندما قال : أيتها العزيزة بياتريكس ، أيتها الكونتيسّة الحبيبة ، إنكِ حقاً قائدتنا والروح الحيية لأرواحنا. وإن شجاعتك الفتيّة هي التي ألهبتنا و كلماتك هي التي أنعشت الأمل في قلوبنا ، وليكن لساني طعمة للكلاب إذا كنت قد تفوّهتُ بكلمات جرحتك! فقالت بريفيرا : كلا لم تجرحني كلماتك يا جان مالاتيستا. فقال الشاب بلهجة أشدّ : كلنا هنا نموت لأجلك وقت الحاجة ، وإذا كان الكونت آلما قد تركنا فهو قد تركك أنتِ أيضاً يا بياتريكس لذلك عندما اقترحت تجريد الكونت من ألقابه فقد كنت أقصد بين هذه الألقاب أجملها على الإطلاق، أي لقب الوالد بالنسبة لك ! وإنني أقبل الآن تأجيل هذا القرار ، ولكن من الضروري أن يحلّ في المعركة شخص آخر محلّ الكونت آلما .

هنا توقف الشاب قليلاً تحت تأثير العاطفة ، إلا أنه لم يلبث أن تابع قائلاً وقد مزّقت كلماته حجاب الصمت الكثيف : إني أقترح

الانتظار ثلاثة أيام فإذا لم يعد الكونت ينفّذ القرار به مباشرة .
أو تقبلون بهذا ؟ فقال الأمير مانفريدي : إنني أقبل ! وقال القادة الآخرون : إننا نقبل !

أما بريفيرا فقد أومأت تشير إلى الخضوع للأمر الواقع . عندئذ عاد جان مالاتيستا فقال : بعد ثلاثة أيام سنكون بلا قائد وستبقى بياتريكس وحيدة في مدينة سيحاصرها العدوّ ، وسنكون إذن بحاجة إلى قائد يوحّد صفوفنا وإلى حامٍ لبياتريكس ، وعلى بياتريكس أن تختار منذ الآن حامينا وقائدنا ! وبعد ثلاثة أيّام إذا لم يعد الكونت آلما سيصبح هذا الرجل الذي تختاره بياتريكس قائداً لقضيتنا وزوجاً لبياتريكس ذاتها .

فارتفعت همهمة مشوشة بين الحضور . فلقد كان كثيرون من هؤلاء الرجال يحبون الفتاة في سرّهم ، وإذا بعيون كثيرة قلقة تقع على مالاتيستا الذي كان يبدو عليه أنه هو المرشح ليكون قائد المعركة وزوج بياتريكس . إلا أن مشاعر كثيرة أخذت تخفق في فؤاد الفتاة فشردت نظراتها ثم وقفت وقالت بصوت ضعيف : يفاجئني اقتراح جان مالاتيستا لأنه يبدو لي غريباً . فصاحت أصوات عديدة تقول : ولكنه اقتراح معقول !

عندئذ بدا لبريفيرا جلياً أن معارضتها ستطيح بالقضيّة التي كرّست نفسها لها ، ولكن رؤيا سريعة عبرت أمام عينيها فرأت نفسها في كرم زيتون على ضفة ساقية قفز فوقها فارس شاب وجاء مقبّلاً يدها ... وإذا بها تهدىء من روعها وتقول : حسناً ، إني أقبل . فحدثت رجفة عامّة بين الحضور الذين سادهم صمت عميق ،

فتابعت عندئذ بريفيرا قائلة : أيها الأسياد الأعزاء ، إن الذي أختاره قائداً وزوجاً لي هو من يحوز ثقتكم واحترامكم ومحبتكم جميعاً ، إنه الأمير مانفريدي .

فارتفع رعدٌ من الهتاف تحية لهذه الكلمات ، لأن جميع الحاضرين كانوا يقدّرون الأمير مانفريدي كقائد يمكن الأخذ برأيه في المجالس والمعارك ، ولكن اثنين أو ثلاثة اربدّت وجوههم من الغيظ ، ولكنه غيظ ظل كظيماً . وكان جان مالاتيستا في عداد هؤلاء الحانقين . أما الأمير مانفريدي فلم يستطع إخفاء السرور الذي بعثه في نفسه اختيار بريفيرا له فإذا به يتقدّم نحو الكونتيسة بياتريكس ويحني قامته الطويلة آخذاً ومقبّلاً يد التي يمكنه أن يعتبرها خطيبته ، إلا أن هذه القبلة جعلت بريفيرا ترتعش بل إن قلب الفتاة أخذ يشعر بخوف شديد عندما سمعت الشيخ المنحني يتمتم قائلاً لها : كوني مباركة يا بياتريكس لأنك وفّرت هذا الحبور لشيخوختي هذه ، لقد كنت أنظر إليك كابنتي ولكنك أردت أن أكون زوجاً لك وهذا مجدٌ عظيم لي . ثم رفع الشيخ قامته واستدار نحو الجمع من الحضور وعيناه تلمعان ، وصرخ وقد بدا ممتلئاً بالقوة ، قائلاً : إني أقبل الشرف المزدوج الذي ولّيته ! أيها السادة ، إني أعيّن فالانتان ريكاردو رئيساً لحيّالتنا وتريفولسا دي بيومبينو قائداً للمشاة . كما أنني أعيّن رودريكو دي مولا وجان مالاتيستا وجيوليو دورسيني أركاناً لمجلس الحرب .

فوافق جميع القادة وهم وقوف على هذا الاختيار ، كما أنهم شرعوا يحيون بريفيرا بالهتافات العالية .

ومضت الأيام الثلاثة . وكان الأمير مانفريدي قد أرسل خلالها خيّالة في شتى الاتجاهات مفتشين عن الكونت آلما ، ولكن جهودهم ضاعت سدىً فأصبحت عندئذ خيانة الكونت واضحة . وفي اليوم الرابع شرعت الأجراس تدق دقاً متواصلاً و « النوبة » تقرع أمام القصر بينما راح حشد غفير من الناس يتكدّسون في الساحة وفي الشوارع المجاورة التي امتلأت بالضجيج والجلبة . وعند الظهيرة من النهار ظهرت الكونتيسة بياتريكس في أعلى الدرج الرخاميّ الفخم تحيط بها فتيات الشرف، ولقد أمسكت بذراع الأمير مانفريدي وراحت وإياه ينزلان على الدرج المغطى بسجادة ثمينة ، ولقد كان الأمير متألقاً مغتبطاً . أما هي فقد كانت شاحبة اللون في فستانها الحريري الأبيض الفاخر وبتاجها الذهبي فوق شعرها الأشقر ، وكأني بها ملكة على أهبة أن تفتتح عيداً من الأعياد ، أما هذا العيد فهو حفلة زفافها

اللقاء

*

لقد كان جان مالاتيستا على صواب فيما رواه، فالحاجّان اللذان فاجأهما مع الكونت آلما كانا رسولي اسكندر السادس : البارون أسطور ودون كار كونيو . ولقد كان الكونت آلما آنئذ في الستين من عمره يقضي معظم وقته صامتاً سقيم الجسم، وكان أيضاً مفطوراً

على التردد والتقلب والشك وعلى استعمال الحيلة دائماً في المعارك التي يخوضها ، كما أنه كان مولعاً بالراحة ولعا شديداً. أما بياتريكس فقد كانت تحب الصيد والتمارين العنيفة وكانت تشحب من الحنق كلما استقبل أبوها بتكريم وتعظيم مبعوثاً من قبل البابا .

وكان قيصر بورجيا قد أراد الاستيلاء على مونتفورتي ولكن بريمفيرا أخذت تجوب قرى الريف وأطيانه مبشرة بالحرب ومثيرة الحماسة والنقمة حتى اضطرّ مخضعُ المقاطعات الرومانية إلى التقهقر. غير أن الكونت آلما كان يعلم أنه لا بد من الاستسلام عاجلاً أو آجلاً، لذلك فقد دبّ الرعب إلى نفسه عندما عرف أن بياتريكس ماضية في إعداد حلف كبير من الأسياد الذين جار عليهم آل بورجيا . ولقد تظاهر الكونت بقبول القيادة العليا أو بالأحرى فإن بياتريكس هي التي قبلت عنه .

وكان اسكندر السادس بدهائه قد عرف ما انطوت عليه طباع الكونت آلما الذي عندما جاءه البارون أسطور ودون كار كونيو وعرضا عليه عروض البابا لم يرفضها إلا شكلياً ، إلا أنه في صبيحة اليوم الذي كان مقرراً لاجتماع القوّاد في قصره ، خرج من المدينة ملتحقاً بالبارون والراهب اللذين كانا بانتظاره ، وعند وصوله إليهما شعر بالخجل يستولي عليه فقال موارباً : إني أرافقكما يا سيّديّ لأنني أريد مواجهة البابا منعاً للحرب الضروس ، ولكنني أرغب في العودة سريعاً . فقال الراهب كار كونيو : بل لا حاجة لك بالذهاب إلى روما لأن قداسته موجود الآن في تيفولي التي هي قريبة عليك .

ثم أخذ الرجال الثلاثة يحيّون على أحصنتهم والكونت آلما في الوسط بين كار كونيو وأسطور كأنما هو أسير . وتابع الكونت قائلاً : أما العروض التي قدّمتها إليّ فإني لا أريد المفاوضة بشأنها. فقال أسطور : ومع ذلك فإنها عروض مغرية : قصر ودخل سنويّ يبلغ ألفي دينار ذهبيّ . فأضاف كار كونيو قائلاً : مع وظيفة بيّر قدّار والموارد الرائعة التي تتبعها .

— ومع الحقّ بامتلاك عشرين من الحرس .

— ومع رتبة قائد لحرس الأشراف .

— ولقب مشير في مجلس قداسته الخاص .

أما كار كونيو فقد ختم هذه المزايدة قائلاً : يا لسعادتك ! إن هذا هو أعظم مركز في روما ، أي أن مقامك سيأتي مباشرة بعد قداسته وغبطة مولاي قيصر .

— دعنا الآن من هذا ! هكذا قال الكونت آلما بعد أن حسب في نفسه قيمة هذه المنافع التي سيغدقها عليه الأب الأقدس .

ولم يتوقف هؤلاء الحيّالة الثلاثة عن المسير إلا بعد أن عبر الليل بظلامه الأدكن . ثم استأنفوا المسير حتى المساء حيث عرّجوا يطلبون المأوى في نزل يقع على الطريق بين مونتفورتي وتيفولي . وفي هذا النزل بالذات كان الفارس راكستان قد توقّف في طريقه إلى مونتفورتي كما رأينا ذلك في فصل آنف .

أما الرجال الثلاثة فقد جلسوا في غرفة مبرّدة وتناولوا عشاءهم بشهية نادرة ، وعندما امتلأت بطونهم وانتهوا من العشاء أصبحوا في وضع من انسرح لسانه للثرثرة في شتى الأحاديث . فقال أسطور

ساخراً : إني أفكر كيف تكون الآن وجوه قادتك من آل مالاتيستا ومانفريدّي وأورسيني ! فابتسم الكونت ابتسامة مرغمة وقال : أرجوك ، دعنا نتكلم عن شيء آخر . فقال كار كونيو : أجل ، لنتكلم عن شيء آخر ، فهل تعلم أيها البارون بماذا كنت أفكر ؟ قال : كلا ، تكلم يا كار كونيو . فقال: إني أفكر كيف كان وجه أحد معارفنا عندما ألقي به في جبّ الأفاعي .

— ها ، ها ! لقد عرفت من هو .

— وكيف كان وجهه عندما قطع السيّاف عنقه ، آه لكم أنا آسف على تغيّبي عن مثل هذا العيد !

— من المؤسف أن تكون إعادة هذه الأشياء مستحيلة ، فالفارس راكستان مات وشبع موتاً ، لقد مات ودفنوه في بطن الأرض .

في هذه اللحظة ظهر شبح في النافذة ثم قفز إلى الغرفة قائلاً بصوت نحاسيّ : مرحباً يا سادتي ، إني سعيد بلقائكم ! فوثب أسطور من مكانه ، أما كار كونيو فقد غمغم متلعثماً وهو مسمّر في موضعه : راكستان !

وكان الكونت آلما يشاهد هذا الفصل مذهولاً دون أن ينبس بكلمة واحدة . ولقد سمع راكستان يقول : مهلاً أيها البارون أسطور ! إن الأموات الذين دفنتهم ما زالوا أحياء يرزقون. فردّد أسطور مذعوراً : الفارس راكستان !

— أجل ، الفارس راكستان بعظمه ولحمه . وإني أؤكد لك أنها ليست غلطة هذا الراهب الجليل هي التي جعلتك تراني مرّة

ثانية . أرجوك ، عد واجلس في مكانك . ترى ، هل أزعجتُ جلستكم العائلية ؟ إذا كنت تطفلتُ على مجلسكم الموقّر فبالله أخبروني !

ثم نظر إلى الكونت آلما وقال : إسمح لي يا سيدي الكونت أن أقدم لك نفسي : إنني الفارس راكستان ، ولقد كنت أبحث عنك لأخبرك أشياء هامّة . وإذا بالراهب كاركونيو يجار فجأة : إمضِ بأخبارك إلى الجحيم من حيث أتيت . ثم ارتمى على راكستان شاهراً خنجره، ولكنّ راكستان كان أسرع من البرق فوثب إلى خلف وامتشق حسامه فهوى خنجر الراهب في الفراغ. عندئذ صاح هذا الأخير: يا أسطور، وأنت أيها الكونت، عليكما بهذا الرجل!

فأفاق البارون من ذهوله واستلّ سيفه من غمده . فأضاف كاركونيو قائلًا : عليكما به قبل أن يهرب من النافذة ! فأجابه راكستان وهو يقرع بسيفه سيف البارون.: إطمئن ولا تخف أيها الجلواز العزيز ! فصرخ كاركونيو عندئذ : الغوث ! الغوث ! ثم انطلق نحو الباب . أما الكونت آلما فإنه لم يتحرك طيلة هذه الحوادث ، لأنه كان يجهل من هو هذا القادم الجديد ، ولأنه لم يكن مستعداً للزج بنفسه في معركة بدت له أنها مجرّد خصومة بين الراهب وراكستان . وفي هذه الأثناء كان الراهب قد فتح الباب إلا أنه لم يلبث أن زمجر حيال خنجر سبادا كاب صارخاً:يا للجحيم ! فزأر راكستان قائلًا : إطعن ! فهوى سبادا كاب على الراهب بطعنة صاعقة ، فسقط إلى الأرض وهو يشتم ويلعن قائلًا : اللعنة اللعنة ! لقد هلكت !

وفي اللحظة ذاتها كان سيف راكستان يخترق كتف البارون أسطور الذي وهنت عزيمته من شدّة الضربة . وعندئذ قال راكستان : إنه الجرح السابع إذا كنت ذاكراً ! فزمجر البارون قائلًا : إطمئن ، سأعوّض عنها جميعاً بضربة واحدة .

– ما شككتُ أبداً بقوّتك أيها البارون ، ولكن أتسمح أن أضمّد جرحك قليلًا ؟

– أشكرك ، لستُ بحاجة إلى شيء ! ولكنني أرجو فقط متابعة سفري مع الكونت . فتضاحك راكستان وقال : بل كنتُ سأدعو الكونت إلى نزهة صغيرة .

عندئذ تحامل الراهب المطروح على الأرض على نفسه فنهض ولفظ قائلًا : أهرب أيها الكونت أهرب ! فقال راكستان : ليس من سبب لهرب الكونت . فسأله الكونت عندئذ قائلًا: ماذا تريد مني أيها السيد ؟ فتقدّم راكستان منه وهمس في أذنه قائلًا : إنني الآن قادم من روما ولقد فررت من السجن في مساء اليوم الذي كان معداً لقتلي لأنني رفضت مهمّة تدبير أسرك في مونتفورتي . فهتف كاركونيو يقول : لا تصدّقه أيها الكونت ، إنه كاذب. ثم أخذ يزحف على ركبتيه محاولاً الوصول إلى راكستان ، فوضع سبادا كاب يده على كتفه ودفعه إلى الوراء . في هذه الأثناء كان البارون أسطور قد أغمي عليه . أما كلمات راكستان القليلة فقد جعلت الكونت آلما يقشعرّ ويشعر دون أيّ شك بأنها تعبير صادق عن الحقيقة. عندئذ تابع راكستان كلامه قائلًا: لقد رفضت تأجير نفسي لنذالة اسكندر بورجيا . أما البارون أسطور فقد

رضي أن يفعل ذلك . فقال الكونت بتحفظ : وماذا بعد أيها السيد ؟ فقال راكستان : لقد سمعت في اليوم الذي أوقفت فيه قيصر بورجيا يأمر زبانيته بأن يعدّوا لك أرهب زنزانة في قصر سانت آنج .

فأخذ الكونت آلما يفكر تفكيراً عميقاً ولقد تذكر عدداً كبيراً من الأسياد الذين جذبتهم روما بوعود مغرية ثم فتكت بهم على مذبح ضحاياها . أما راكستان فقد استطرد قائلاً: إن رأسي يا سيدي مطروحٌ للبيع ، وإن عدداً كبيراً من الجلاوزة المسلحين هم الآن في أثري يبحثون عني في كل مكان . وكان باستطاعتي أن أفتّش عن الخلاص بعيداً عن هذه الأرض لو لم أغيّر طريقي قاصداً مونتفورتي وذلك لكي أنقذ شريفاً مثلك خدعته مكيدة هذا الراهب الذي هو خير خادم للمراوغ الكبير الذي يدعى بورجيا . أما الآن فقد ارتاح ضميري لأني أنذرتك فإذا شئت الذهاب إلى روما فإن لك الحرية الكاملة ... هيّا تعال إذن يا سبادا كاب !

واستدار راكستان هامّاً بالخروج ، إلا أن لهجته الرصينة المتأثرة ووضوح صدقه تآزرا على إقناع الكونت آلما الذي صاح قائلاً : إنتظر يا سيدي . فانتظر راكستان وكان قد قرّ قراره بينه وبين ذاته على إرجاع الكونت بالقوّة إذا ما فشل في إقناعه بالرقّة واللين . أما هذا الأخير فقد رمق البارون أسطور الذي كان ما يزال مغمياً عليه ثم اتجه بنظره إلى الراهب الذي منعه جرحه عن الحراك والذي أخذ يحدجه بنظرات مليئة بالحنق والحقد ، وكانت

هذه النظرات كافية لجعله يقرر الذهاب مع راكستان .

هنا اتجه الكونت إلى الفارس وقال : لقد قررت أن أرافقك يا سيدي قليلاً لأنني بحاجة إلى الكلام معك ولكنني لن أؤخرك عن الهرب . ثم التفت إلى كاركونيو وأضاف يقول : وسأعود إلى هنا ... لأنه يجب أن أمضي إلى روما . فقال راكستان : سبادا كاب هيّا بالخيل !

وبعد بضعة دقائق كان الكونت آلما وراكستان يخبّان معاً على طريق مونتفورتي ، وكان سبادا كاب قد سأل راكستان قائلاً:

— ألا يجب الإجهاز على الراهب ؟ فأجابه راكستان قائلاً : دعه ، سيموت يوماً ما على يد الشيطان .

وظلّ الكونت طوال ربع ساعة يخيّل صامتاً على طريق مونتفورتي ولم يكن قد صمم نهائياً على الرجوع إليها ، كما أنه لم يصرف أنظاره عن روما إلا مكرهاً . غير أنه كان يفكر في نفسه بأنه في حال عودته إلى مونتفورتي سيجد لنفسه مخرجين: إذا انتصر حلف البارونات فإنه سيكون سيد الموقف كأنه هو الذي قاد المعركة بالإسم إن لم يكن بالفعل . وإذا انتصرت جيوش قيصر بورجيا فيمكنه الادّعاء بأنه أعيد إلى مونتفورتي قسراً لا اختياراً وكان راكستان يتفحّصه بزاوية عينه قائلاً في نفسه :

— هوذا إذن والد بريفيرا ! ترى كيف استطاع هذا السيّد المسكين الذي يجبن حتى عن متابعة خيانته أن يلد مثل هذه التحفة الرائعة التي هي بياتريكس ؟ وكيف استطاع هذا الجبان النذل أن يهب الحياة لمثل هذه الحسناء المنطوية على الشهامة ؟

وكانت الكونت من جهته يسرق إلى الفارس نظرات سريعة، وهو معجب إعجاباً خفيّاً بشهامته وبسيمائه الدالّة على العزم والتصميم . وأخيراً خاطبه قائلاً : هل أنت يا سيدي متأكد من النوايا التي يضمرها لي قيصر بورجيا ؟ إننا الآن وحيدان ولا خوف عليك من هذا البارون الغليظ ومن هذا الراهب الحقود .

— إنك تقلب الأدوار التي تمثلها يا سيّدي الكونت !

— كيف ذلك ؟

— الراهب والبارون هما اللذان تخلصا من خوفهما مني لأنني عفوت عن النزر من الحياة الذي تبقّى لهما .

— أولا تخشى إذن أن يمضيا فيثيرا عليك ثأر قيصر بورجيا وأبيه ؟

— إني أقسم لك يا سيّدي الكونت أنني غير آبه لثأر البابا وعائلته . لقد ضخّم الناس قوّة آل بورجيا الذين لو أقلعوا عن طرق الحيلة والغدر ولو استطاعوا أن يجابهوا خصومهم بغير السمّ الذي يدسّونه لهم في الولائم التي يدعونهم إليها ، لكانوا يظهرون على حقيقتهم مجرّد أرانب رعناء ومجرّد لصوص من قطاع الطرق .

— إني أراكَ متمادياً في الحديث عنهم !

— أجل ، لأنني عرفتهم عن كثب . فقد رماني قيصر بورجيا في أحلك وأفسد زنزانة من قصر سانت آنج ، ولكنني وضعته مكاني مكبّلاً بالسلاسل . ولقد أرادت لوكريس بورجيا أن تقضي عليّ بطعنة من خنجرها المسموم ، ولكنها لم تنجُ من قبضتي إلا لاشمئزازي من قتل امرأة . أمّا رودريك فقد ألقيت القبض عليه

وأوثقته بالحبال وكان باستطاعتي أن أقتله أو أن أنقله حيث شئت لو كان لي أرب في ذلك ... إنّ آل بورجيا هؤلاء إنما يمثلون مهزلة أمام الناس .

وكان الكونت ينظر بذهول متزايد إلى هذا الرجل المتكلم بهذه اللهجة عن أسياد إيطاليا والعالم . وبعد بضع دقائق عاد إلى سؤاله الأول قائلاً : هل أنت متأكد من النوايا التي يضمرها لي آل بورجيا ؟

— لقد سمعت قيصر بأذنيّ هاتين يأمر بأن تُعدّ لك زنزانة في قصره .

فخفض الكونت رأسه لأنّ فشل خيانته يرهقه أكثر من الخيانة ذاتها ، ذلك أنه رغم ضعفه ووهنه لم يكن ليقرّر دون صراع داخليّ تركَ ابنته وأصدقاءه وحلفاءه وكل شيء لكي يضمن لنفسه سلماً مخزياً مجبولاً بالعار . وها هوذا الآن يفقد حتى هذا السلم الذي كان يطمع به لأن ذهابه إلى روما أصبح يعني زجّه في زنزانات آل بورجيا . فما العمل إذن ؟ أيَعود إلى مونتفورتي ؟ ولكن من يضمن له أنه لن يُعتقل ويُسجن في عاصمته ذاتها ؟ أوليس من المرجّح أن يكون سبب غيابه الحقيقي قد اتضح جلياً ؟ وهكذا فلم يكن يرى في أيّة ناحية اتجه إليها إلا العار والدمار والبؤس .

وإذا بفكرة الانتحار تلمع في ذهنه ، ولكن الانتحار يقتضي قدرة جسدية لم يكن الكونت يمتلك مثلها ، لذلك فقد غمغم في نفسه قائلاً : ها أنذا أرى الهلاك المحتم ! ثم استأنف حديثه مع

راكستان فقال : لقد دلّلوا على رأسك إذن ؟ فقال راكستان : نعم ويا للأسف ! وهذا ما يسدّ جميع السبل في وجهي . فقال الكونت : ستغادر إذن إيطاليا ؟ قال : لست متأكداً يا سيّدي الكونت . فقال : إنك هارب مطارد فلا يمكنك أن تتوقّف في مكان ولا أن تحيد طويلاً طريق الهلاك . فأجابه راكستان مسرعاً يقول : لا تخف عليّ ودعنا نتكلم عنك يا سيدي . فقال الكونت : عني أنا ؟ سألجأ إلى أحد الأسياد لعلّه يؤويني ويعطف على شقائي .

– ولكن لماذا لا تعود إلى مونتفورتي ؟

فنظر الكونت إلى راكستان نظرة استدرّت عطفه وشفقته وجعلته يقول : أنظر ، أو تريد أن نحلّ وضعك بقليل من الشجاعة ؟

– وضعي ! أنا الحاكم الوحيد عليه يا سيدي .

– هذا خطأ ، أنا أيضاً حاكم عليه .

– أنت ؟ ولماذا إذن ؟ إني لا أعرفك .

– لأنني أنقذت ما هو أعزّ من حياتك ، أبي فمرفك ، عندما منعتك عن الخيانة .

– حذار أيها السيد !

– ليست كلمة الخيانة أكثر هولاً من الخيانة ذاتها ! هذا صحيح أنني لا أعرفك إلا منذ وقت قصير ، ولكنّ القليل الذي سمعته منك ينبئني بما حدث ، كما أن حديث أسطور وكاركونيو جعلني أعرف ما تبقّى ، فلقد تركت مدينتك وولايتك في الوقت الذي يريد فيه قيصر بورجيا مهاجمتها ، ولا شك أن هذا يدعى خيانة كما أعتقد . فبهت لون الكونت وقال : وماذا بعد يا سيدي ؟ فقال

راكستان : وحكم عليّ القدر بأن أصادفك فأخبرتك بأن آل بورجيا القساة العتاة إنما يعدّون لك ، كعادتهم في خيانة مواعيدهم وعهودهم ، زنزانة عميقة . فإذا بك تكره الطريق التي سرت فيها ، وإذا بك تشعر بأن هاوية سحيقة فغرت فاها بينك وبين أصحابك وجنودك وعائلتك .

وكان راكستان يتكلم بتأثّر يسري فعله على الكونت ، لا سيما وأن صدقه وإخلاصه كانا يشعّان في عينيه ، إلا أن قوة تأثيره على الكونت آلما قد بلغت ذروتها عندما قال : وما رأيك إذا ساعدتك على اجتياز هذه الهوة ؟

– هذا مستحيل !

لقد ارعوى الكونت آلما ورضخ للجدال ، فهتف راكستان قائلاً : لا شيء مستحيل لأن من يريد شيئاً فهو لا محالة بالغ مشيئته .

– ولكن يا سيدي ما بالي أراك مهتماً بماذا سأعمل وبكيف سأصير ؟

لم يكن راكستان ليستدرك مثل هذا السؤال ، وهو في الواقع لا يستطيع أن يجيب الكونت آلما بقوله مثلاً : « أردت أن أعيدك إلى الصواب وأن أمنعك عن الخيانة لأنني أحب ابنتك » . إلا أنه استعاد بديهته وقال على الفور : إني مهتمّ بك اهتمامي بجميع الذين أساء إليهم آل بورجيا وقد تألمت بسببهم . لذلك فإنني أعطف على جميع من نالوا على يدهم الألم .

– وهل تعتقد بوجود وسيلة شريفة تخرجني من هذا المأزق ؟

– إني متأكد من إيجاد الوسيلة ولكنها تتعلق بك .

– أفصح عن قصدك يا سيدي ، وإنني أقسم لك عرفان الجميل لمساعدتك إياي .

– هذا الكلام يا سيدي الكونت قد أعيده على ذاكرتك يوماً في المستقبل .

– لسوف أرحّب بك في كل وقت ، ولكن تكلم !

– إذا سمحت لي أن أتكلم بصراحتي الفظة ، فإنني أقول لك بأن موقفك حرج رهيب ، وإنني أعتقد أن الموت وحده هو الوسيلة للخروج منه .

– أتنصحني إذن بالانتحار ؟

– كلا ! ولكنني أريد أن أشير عليك بألا ترهب الموت في مثل هذه الظروف معتبراً إياه أنه منقذ كريم .

– أنا لا أخشى الموت يا سيدي أكثر من سواه ، ولكنني أكره فقط تعقيدات الظروف .

– اذا كان الموت لا يرهبك فما عليك أن ترهب قيادة رجالك البسلاء الذين ينتظرونك ويثقون بك ، فإما أن تموت في ساحة القتال دفاعاً عن رزقك وعن نفسك وإما أن تعيش سيداً على ما تملك.

– كل هذا صحيح ، إلا أن المسألة الرئيسية لم تحلّ ، ذلك أنني غادرت مونتفورتي لأسباب كنت أظنها جيدة ، وها أنذا الآن لا أستطيع متابعة الطريق إلى روما كما أنني لا أستطيع العودة إلى مونتفورتي حيث لا شك أنهم أصدروا حكمهم عليّ .

– أجل ، لا شك أنهم حكموا عليك حكماً صارماً . ولكن ألا يمكنك أن تجعل من غيابك عن مونتفورتي حيلة مدبّرة

ضدّ روما ؟

– ولعلّهم رأوا رسولَي البابا ؟

– في هذه الحال عليك أن تقول ما يلي : لقد نصب لك هذان الرجلان كميناً ثم اصطحباك معهما بالقوة ، فصادفتك معهما وساعدتك على النجاة فعدت إلى مونتفورتي سعيداً بأن تضع اسمك وإخلاصك في خدمة الذين اعتبروك خائناً لقضيتهم .

– حنانيك يا سيدي ، إنك تعيد إليّ عزيمتي المفقودة !

وإذا شك بك أحد فها أنذا هنا لكي أؤيد روايتك من ألفها إلى يائها .

– أوَ توافقني إلى مونتفورتي ؟

– إنني أرافقك ولا أطلب خيراً من أن أعيش بينكم لكي أساعدكم قليلاً على دحر قيصر بورجيا .

– مرحى مرحى أيها الفارس ! لقد أنقذت حياتي وشرفي ، ألا أرجوك أن تمنحني يدك .

فمدّ راكستان يده إلى الكونت الذي صافحها بعاطفة وحرارة. ولقد سُرّ راكستان بذلك لأن جلّ مأربه كان الدخول إلى مونتفورتي ، وها هي الفرصة قد سنحت فلن يتركها تفلت من يده . ولقد اتفق الرجلان على السير إلى مونتفورتي بأقصى سرعة ممكنة . لذلك فبعد أن قضيا الليل في نزل ريفي نهضا عند الفجر ثم استأنفا السير طيلة النهار ، وعند المساء أعلن الكونت أنهما أصبحا قريبين من مونتفورتي فلا يفصلها عنها إلا بضع ساعات ، ولقد أضاف قائلاً : إذا أسرعت خيلنا فسنصل بعد ساعة واحدة من

منتصف الليل . ففهم راكستان فكرته وقال : أوتريد الوصول أثناء الليل ؟ فقال الكونت :

– إن وصولي أثناء الليل يسمح لي بالدخول إلى القصر بطريقة خفيّة .

– بل يجب أن تصل في وضح النهار داخلاً إلى قصرك كما يدخل البارون عادة وهو معفّر بغبار السفر ، وإن دخولنا تحت أشعّة الشمس سيكون ذا أثر فعّال .

– إنك على صواب أيها الفارس .

عندئذ تركوا الخيل ترتاح طوال الليل، وفي اليوم التالي استأنفوا السفر نحو الساعة الثامنة صباحاً . وكانت الدرب صاعدة بين حاجزين من صخور الغرانيت، وفجأة إذا بها تطلّ على تلّ مرتفع، عندئذ مدّ الكونت آلما ذراعه نحو كومة من البيوت البيضاء تبتعد قرابة فرسخ عن موضعها وقال : تلك هي مونتفورتي !

عند رؤية مونتفورتي شحُبَ وجه راكستان الذي لم يكن يفكر قبل ثانية واحدة بشيء . ولقد فهم راكستان عندما وجد وجهاً لوجه أمام مونتفورتي وعندما فكر أنه سيشاهد بعد قليل بريفيرا ، لقد فهم في هذه اللحظة بالذات أيّة مكانة عظيمة تحتل الفتاة في مخيّلته ، فإذا به يرتجف لفكرة وقوفه أمامها وإذا به يقول في نفسه : اليوم سيتقرر مصير وجودي فإمّا أن تبعث في نظرتها الأولى فجراً من الأمل لا يحدّه عقلي الآن ، وإما أن تلفظ عليّ حكماً بالإعدام يفوق جميع ما أنزله بي آل بورجيا . إلا أنه سرعان ما هدّأ من اضطراب نفسه واستطاع أن يجيب بصوت طبيعي عندما بدا له أن الكونت يلقي عليه نظرات مستفهمة ، قائلاً : هذه هي عاصمتك ، إنها مدينة جميلة !

– وما قولك بتحصيناتها ؟

– أقول إنه بمثل هذه الأسوار يمكن الصمود في وجه عشرين ألف مقاتل .

– ولكن هناك نقطة ضعف .

– لقد رأيتها : فهذه الطريق الجوفاء بين حواجز الصخور قد تمكّن العدوّ من الاقتراب واستخدام المفاجأة في هجومه .

– وهذا ما فعله قيصر عندما حاول الهجوم علينا .

– ولكنه قد صُدّ مرغماً على التراجع ؟

– أجل ، ولكن بصعوبة ... هيّا الآن لنخيّل مسرعين لكي ندخل إلى مونتفورتي .

– حيث سيستقبلك الناس بالهتاف !

فهزّ الكونت آلما رأسه ثم انطلق بحصانه فتبعه راكستان مسجّلاً في رأسه المعابر الصعبة من هذه الطريق الجوفاء التي تتناكب حولها من اليمين واليسار أسنام الصخور الضخمة . ولم يكد الرجلان يقتربان من المدينة المحصّنة حتى أخذا يسمعان جلبة صاخبة وطنين

أجراس وضجيج أبواق تدقّ . فغمغم الكونت قائلًا : ما معنى هذه الأشياء ؟

ـ سوف نرى ، دع عنك الخوف وادخل إلى المدينة كقائد جيش يعود من إحدى الغزات .

فسقطت هذه الكلمات العنيفة على طبيعة الكونت المتراخية كضربة سوط فزجر قائلًا : تالله ، إنك على حق ! وبعد دقيقة واحدة كان الكونت عند باب المدينة فنظر إليه جنود الحرس بذهول ، حتى أنّ رئيس الحرس نفسه تسمّر مندهشاً في مكانه فوثب راكستان نحوه قائلًا : ماذا ؟ هل فقدت رشدك ؟ هوذا سيدك عائد من رحلة استكشاف كادت تودي بحياته فما بالك تحجم عن استقباله بتحيّة الشرف ؟

لقد فعلت هذه الكلمات التي برّرت غياب الكونت فعلاً ساحراً في نفس الضابط الذي كان قد فاجأه رجوع الكونت بصحبة الفارس ، وكانت شروح راكستان كافية لكي تثيب إليه رشده بسرعة ، لذلك فقد شرع يقول متلعثماً : المعذرة ، إنه الفرح ... لقد كنا جدّ قلقين على غيابه . ثم أسرع يصفّ رجاله لكي يقوموا بالتحية الرسمية . عندئذ همس راكستان في أذن الكونت قائلًا : ألقِ عليهم كلمة ! فتطلع الكونت إلى الضابط وقال : إني أغفر لك سهوك بسبب الأخبار السارّة التي أتيت بها . أيها الجنود ، لقد استطعت معرفة قوّات العدوّ فعليكم بالشجاعة والثقة لأننا سننتصر . فهتف الجنود صارخين بصوت واحد: ليعش الكونت !

وهكذا مرّت الصعوبة الأولى بسلام ، فاستعاد الكونت أمله وثقته بنفسه أمام حلّ الأشياء بمثل هذه البساطة والسهولة ثم أومأ إلى راكستان الذي قال للضابط : هلاّ رافقت يا سيدي سموّ الكونت مع جندك إلى القصر !

فنظر الضابط نظرة تساؤل واستغراب إلى هذا الرجل الغريب الذي يُصدر إليه الأوامر ، إلا أن الكونت أضاف قائلًا : أطع قائد معسكري !

فأدّى الضابط تحيته العسكرية . عندئذ مال راكستان إليه وقال : أطع أيها الصديق أوامري كما يجب وإنني أعدك بالتقدّم والثروة . فتراءى للضابط أن شيئاً غريباً يحدث الآن وأنه لقاء طاعته العمياء واصل لا محالة إلى الثروة، لذلك فقد شهر سيفه وأمر جنوده بالسير صارخاً :

ـ ليعش صاحب السموّ ! المجد للكونت آلما !

وراحت الفصيلة الصغيرة تتقدّم نحو القصر وقد أخذ ينضمّ إليها عدد من الجنود ومن الرجال المرتدين ثياب العيد وهم يهتفون جميعاً « ليعش الكونت » هكذا دون أن يعلموا لأي سبب يهتفون .

ومهما كان عرض هذه الحوادث قد جرى سريعاً فقد انتشر خبر عودة الكونت آلما انتشار البرق ، وراح الناس يتناقلون من فم لآخر الكلمات التي تلفّظ بها عند باب المدينة ، فمن قائل إن الكونت قد اكتشف قوّة العدوّ ومن مروّج أن الكونت كاد يفدي القوم بحياته حتى نزل سكان مونتفورتي بأجمعهم إلى الشوارع هاتفين ومصفّقين للكونت الذي كان في صبيحة اليوم نفسه مؤهلًا

المشنق . وعندما شاهد راكستان مظاهر هذه الحال مال إلى الكونت وتمتم قائلاً : ألم أقل لك بأن زمام الانتصار رهن يدك ؟

ـ بلى ، لقد كنت على حقّ أيها الفارس ، ولكن ماذا تعني تلك الموسيقى البعيدة وثياب العيد هذه التي يرتديها الناس ؟

في هذه اللحظة أخذت طلائع موكب الكونت آلما تصل إلى ساحة القصر الكبيرة ، وفي الوقت نفسه كان موكب آخر أكثر أبهة وضجيجاً يدخل إلى ساحة القصر نفسها من شارع آخر . وبينما كانت الهتافات تصعد من الموكب الأول قائلة «المجد للكونت آلما» كان يصعد من الموكب الثاني هذا الهتاف المجلجل الطويل : ليعش قائدنا الأمير مانفريدّي ! المجد للأميرة مانفريدّي !

فوقف راكستان على ركابَي فرسه وتطلّع نحو الموكب الصاخب ، فبدا له على بُعد خمسين خطوة منه وجه أبيض في عربة : إنها بريفيرا ! وإذا به يراها بوضوح أكثر وقد جلس إلى جانبها الأمير مانفريدي الذي كان سعيداً مبتسماً يحيّي الجمهور المحتشد حوله . ففهم راكستان أن الأميرة مانفريدّي التي يحييها الناس ويهتفون باسمها هي ابنة الكونت آلما . فشعر بغمامة تغلّف عينيه لأن كل شيء قد انهار بالنسبة إليه ولأن كل ما فعله قد أصبح لاجدياً في نظره . لقد كان يشعر حتى هذه اللحظة أنه كان يرتفع كل يوم درجة إلى أعلى ، أما الآن فها إنه يهبط إلى الحضيض دفعة واحدة. فرأى نفسه ضعيفاً وأحسّ ببرد جليديّ يدخل إلى قلبه .

وبعد قليل حصل ما كان لا بدّ منه ، فالتقى الموكبان عند درج القصر ، وكان الأمير مانفريدي قد لاحظ الذهول والاستياء

اللذين ارتسما على وجوه جميع الأسياد المحيطين به ، لذلك فقد قفز من عربته عندما رأى الكونت ينزل عن صهوة جواده وصرخ قائلاً : الحادث خطير ولا يمكنكم الجدل فيه علناً أمام الجماهير ، لذلك فإنني أدعو مجلس الأركان إلى الإنعقاد فوراً ! ثم اتجه نحو الكونت آلما وقال له : لقد دعوت المجلس إلى الانعقاد أيها الكونت . فأجاب الكونت بأنفة : وها أنذا أتبعك إليه .

*

وانعقد مجلس الأركان في قاعة المفاوضات بينما كانت الجماهير تنتظر في الخارج صامتة . ولقد جلس في قاعة المفاوضات حول طاولة فسيحة الأمير مانفريدي بيزّته الاحتفالية الفخمة، والكونت آلما مجلبباً بغبار السفر ، ثم فالانتان ريكاردو ، وتريفولشه دي بيومبينو ، وجان مالاتيستا ، وجيوليو أورسيني ، ورودريكو ديمّولا . وعندما أراد الكونت آلما الدخول إلى القاعة همّ راكستان أن يتركه وينسحب، إلا أن الكونت أشار إليه بالبقاء قائلاً : أما سمعت كيف دعوتك منذ حين قائد معسكري؟ فأجاب راكستان بفتور حزين : بلى ، سمعت ! فقال الكونت: فلقادة المعسكرات الحقّ بحضور مجلس الأركان ، لذلك فإنني أرجوك أن تتبعني .

فدخل راكستان بصحبة الكونت وإذا به يقف عند العتبة مذهولاً لأنه شاهد بريفيرا تتقدم من أبيها وهي شاحبة اللون قائلة بصوت منكسر : يا أبي، إنك لتراني سعيدة فوق حدود الوصف. فقال الكونت مازحاً : بياتريكس ، يا إبنتي ، لقد علمت بزواجك من كلام الناس : وأعتقد أن هذا عمل شاذّ من إبنة تجاه أبيها .

قالت : لسوف تعذرني يا أبي عندما تعرف الحقيقة . قال: ولكنه زواج يخلع الشرف على بيتي وهو مطابق لأعز رغبة في قلبي ، ألا أيها الأمير مانفريدي أعطني يدك لكي أصافحها .

كانت مناورة الكونت هذه جريئة وبارعة في آن واحد حتى أن الأمير مانفريدي بعد أن رأى موافقة الأب على ما كان يعتبره جوهر الغاية من هذا الاجتماع فتر وبردت حماسته . وكانت بريفيرا قد رمقت راكستان بنظرة طويلة ووقفت أمامه منتظرة أن يتكلم معها وكان يبدو أن عينيها تهمسان هذه الكلمات : كنت واثقة من أنك ستعود وعالمة أن مصيرينا سيلتقيان من جديد ، ولكن تُرى ماذا سينتج الآن عن هذا اللقاء ؟ إن كلمة منك ستقرر مصيري .

غير أن راكستان كان قد انحنى بخشوع عميق فلم يرَ نظرة بريفيرا إليه ولم يسمع تنهيدتها الحارة التي خرجت من فمها ، وعندما رفع قامته انتقل إلى مكان آخر شاعراً بأن الجليد يرزح على صدره. وكان جان مالاتيستا قد اندفع مقدّماً يده للأميرة الشابة لكي يقودها إلى أريكتها بعد أن لاحظ وسجّل بانتباه نظرتها إلى راكستان . عندئذ قال الكونت آلما : الآن أيها السادة ، بعد أن أصبح بإمكاننا التحدث بصراحة تامة ، ها إنني منتظر أن تشرحوا لي ما يجري في عاصمتي ، وبالرغم من الشرف الذي أولاني إيّاه زواج ابنتي من الأمير مانفريدي فها أنذا منتظر أن تخبروني عن هذا التصرف الخطير كيف بُحث فيه ونفذ في غيابي .

يا للخطة الضعيفة من متهم بدأ يكيل لغيره التهم . ولكنّ

جان مالاتيستا وقف يجيبه قائلاً : لا شكّ أن الكونت آلما يجهل بعض الأشياء ، فهذا الزواج هو أحد حادثين خطيرين جريا في غيابه ، وجمعيّة القادة العمومية هي التي قررته كما أنها قررت أيضاً شيئاً آخر . فسأله الكونت قائلاً : وما هو هذا القرار الآخر ؟

– إنه حكم نُفذ البارحة .

– حكم ؟ لعلك نسيتَ إلى من تتكلم !

– إن كلمة حكم هي الكلمة الوحيدة اللائقة، ذلك أن الكونت آلما قد جُرّد البارحة من لقبه وحقوقه وامتيازاته ، وأُعلنت ابنته وريثة مباشرة تحت وصاية مجلس الأركان . كما أن الكونت آلما قد أُعلن منذ البارحة خائناً ومخاتلاً ، لذلك لا يحقّ للكونت آلما أن يطرح أسئلة على المجلس بل عليه فقط أن يجيب .

لقد خلّف هذا الهجوم العنيف الفظ استياء شديداً بين أعضاء المجلس ، فوقف الكونت آلما ليجيب ولكنه سرعانَ ما تهافت على مقعده وقد استولى عليه الخوف الشديد . عندئذ تقدمت بريفيرا قائلة : أيها السادة ، عندما كان والدي غائباً ومتهماً بما أدانته به بعض الظواهر الفظيعة ، كنت أضغط على نفسي لكي لا يعبّر وجهي عن مشاعر الحزن الجائشة في قلبي. وإن صمتي السابق ليخولني الآن الحقّ بطلب العدالة التي تحتاج إليها كلمات جان مالاتيستا .

فصرخ مالاتيستا قائلاً : وماذا تقصدين أيتها الأميرة ؟

وإذا به يصبح شاحب الوجه باهت اللون وقد خيّل إليه أنه قارىء في صوت بياتريكس وكلماتها حكماً بالإعدام عليه . وأسفاه ، لن تحبه بياتريكس أبداً ! عندئذ رأى جان مالاتيستا

عينيه تتنقلان فجأة وبالرغم منه على الفارس راكستان الذي كان مجمّداً في مكانه ينتظر نهاية هذا المشهد ، ومن ثم عادت عيناه إلى بريمفيرا التي هتفت قائلة :

ـ ماذا أقصد ؟ أقصد الحقيقة التي تنبجس من عيون الجميع وهي أن عودة الكونت آلما إلينا إنما تشهد على أن ظنوناً ظالمة حامت حوله وعلى أن خطأً فظيعاً ارتكب بحقه . فوقف الأمير مانفريديّ وقال :

ـ أجل ، إذا شرح لنا الكونت بإخلاص وصراحة أسباب غيابه فإن له حقّ الطاعة علينا . عندئذ وقف الكونت آلما وقال :

ـ أيها السادة ، إن الحقيقة بسيطة : لقد أُوقع بي في كمين ، وإذا كتم ترونني مرة ثانية فالفضل يعود إلى الفارس راكستان الذي أنقذ حياتي .

فاتجهت الأبصار نحو الفارس . وتابع الكونت كلامه قائلاً :

ـ لقد غلطتُ فاستقبلت سرّياً رسولين لاسكندر السادس وقيصر بورجيا جاءا يعرضان عليّ الخيانة ، فأخفيت استيائي وتظاهرت بقبول العروض التي أتياني بها ، وذلك أملاً مني بالحصول على معلومات ثمينة . إلا أن هذين الوغدين قد حزرا فكرتي وحيلتي فقرّ رأيهما على الاستيلاء عليّ وضربا لي موعداً خارج المدينة . ولقد ظننت أنّ لا داعي إلى الخوف منهما فخرجت وحيداً لكي لا أثير شكوكهما عليّ ، ولم أكن أحسب أن بينهما البارون أسطور الذي يشبه الوحش بقوّته الغريبة ، فإذا بالرجلين يقبضان علي ويصطحباني معهما موثقاً على ظهر فرس . وبعد سير حثيث

ظنّ هذان الجلادان أنهما ابتعدا كثيراً عن مونتفورتي وأصبح بإمكانهما التوقّف في أحد الفنادق ، ولكن صدفة سعيدة أرادت أن يكون الفارس راكستان في ذلك النزل ، ففهم حقيقة الأمر وهجم على البارون أسطور فصعقه بسيفه أرضاً ، ثم أقبل نحو الرجل الثاني وهو راهب يدعى كاركونيو فرماه هو الآخر . وبعد أن أنقذني الفارس أراد أن يرافقني إلى مونتفورتي . أجل ، هذا يا سادتي ما حدث .

روى الكونت قصته بصوت هادىء حتى بدا للجميع أنها الحقيقة بعينها . فقام الأمير مانفريديّ يعبّر عن شعور الحاضرين العام عندما انحنى أمام الكونت وقال : لقد أذنبنا بحقك يا صاحب السمو . فهتف الكونت قائلاً : كلا لم تذنبوا . ولكنها الظواهر التي جنت عليّ . وإذا كنتم يا سادتي تريدون إرضائي فأرجوكم أن تتركوا الحديث عن هذه المغامرة الشنيعة .

ـ ولكن أيها الكونت هناك قرارات أُخذت في غيابك كتعيين بعض القادة . فقاطع الكونت قائلاً بفرح : ليحافظ كل على المركز الذي أُسند إليه . فقال عندئذ الأمير مانفريديّ : لم يبقَ إذن إلا أن نعلن في المدينة بواسطة المنادين عن رجوع السلطة إلى سموّ الكونت آلما الذي اتّهم تهمة خاطئة .

إلا أن صوت جان مالاتيستا ارتفع مرة ثانية : إنني أعتبر صحيحاً ما رواه سموّ الكونت لأن جميع الوقائع أتت مطابقة لدعم صحة هذه الرواية ، غير أنه يوجد نقطة أريد أن ألفت انتباهكم إليها ، وهي مرافقة راكستان للكونت آلما .

ولقد ضغط مالاتيستا بنوع خاص على كلمة « مرافقة » حتى خيّل أنه يعني بها معنىً مقصوداً واضحاً جعل الكونت يرتجف وجعل راكستان يحدج المتكلم بنظرة طويلة . إلا أن جان مالاتيستا تابع كلامه قائلاً وهو يسمّر عينيه على بريفيرا : إننا للمرة الثانية أيها السادة نلتقي بالفارس راكستان ، وكانت المرة الأولى في دياميس روما ، وقد أعلن الفارس يومئذ أنه يخصّ قيصر بورجيا . أليس من الغريب أن نرى الكونت آلما الذي خرج من مونتفورتي للقاء جسوسي آل بورجيا عائداً الآن إلى مونتفورتي برفقة جاسوس آخر لآل بورجيا أنفسهم ؟

فاصفرّت بريفيرا لهذه الكلمات اصفراراً مرعباً، وهمّ الكونت بالتخلي عن راكستان فتمتم قائلاً : أقسم أيها السادة بأنني أجهل هذا الأمر .

أما راكستان فقد صعقته هذه الإهانة الماكرة فتكوّم على نفسه كأنه يريد أن يثب على جان مالاتيستا، إلا أنه ثاب فجأة إلى رشده فارتسمت على شفتيه ابتسامة ازدراء وأجاب بلهجة جارحة: لا شك أن السيد جان مالاتيستا يريد أن يربح ثلاثة آلاف دينار ذهبيّ من دنانير اسكندر بورجيا .

فغلى صدر مالاتيستا من الحنق وزمجر بصوت أجش وهو يضع يده على خنجره قائلاً : إشرح ماذا تعني أو والله لتموتنّ سريعاً ! فقال راكستان : لقد أخطأت القسم لأنني لا أخاف تهديدك ووعيدك ! أما معنى كلامي فسأشرحه لأنني أريد أن أشرحه ، لا لأنك أنت طالبه . أيها السادة ، لقد دلّل اسكندر بورجيا

بالاتفاق مع ابنه قيصر على رأسي لأنني رفضت الاشتراك بمؤامرة كانا يعدّانها ضدّ مدينتكم مونتفورتي ، ولقد ثمّنا رأسي بثلاثة آلاف دينار ذهبيّ ، فأنا إذن أيها السادة عندما رافقت الكونت آلما إلى مونتفورتي المدينة الحرّة التي رفضت المساهمة بإخضاعها وفرض العبودية عليها إنما كنت أرجو الهرب من جنود آل بورجيا الذين جدّوا في مطاردتي . أما السيد جان مالاتيستا فإنه يريد بالإهانة التي يوجهها إليّ أن يكرهني على مغادرة مدينتكم مونتفورتي رافضاً في وجهي حق الضيافة التي كان أي شريف إيطاليّ يجد من واجبه أن يمنحها لمطارد محكوم مثلي . لذلك فإنني أقول إن جان مالاتيستا يريد تسليمي إلى آل بورجيا وهو يستحق إذن جائزة الثلاثة آلاف دينار التي ثُمّن بها رأسي ، وهكذا يكون قد جنى ربحاً باهظاً .

كان خطاب راكستان القصير هذا منطوياً على براعة عجيبة فهو أولاً يُنبيء بريفيرا عن حقيقة وضعه ، ويربح عطف الحضور عليه ثم يجيب على إهانة مالاتيستا بإهانة أعنف وقعاً . عندئذ أحسّت بريفيرا بلهيب من الخيلاء يلوّن وجهها بلون الأرجوان ، إلا أن راكستان لم يشاهد ذلك بل شاهده جان مالاتيستا الذي وثب نحو الفارس شاهراً خنجره في قبضته . غير أن راكستان قبل أن تهوي عليه هذه القبضة أمسك معصم مالاتيستا وفتله وكاد يعجنه عجناً ثم انحنى عليه بقوة هائلة جعلته يجمد في مكانه دون حراك وقال بصوت مجلجل مرعب : متى تريد أن أقتلك ؟ فجأر مالاتيستا يقول: بل قل إنك خائف من الموت ولولا

اتهمت الفارس راكستان تهمة باطلة ، وإن لدينا البيّنة الكافية على أن ظنونك ليست مدعومة بشيء ، وها إن حبيبنا الكونت قد استعاد ألقابه وإنه يريد أن يترك لنا مراكز القيادة التي رقّتنا إليها الجمعية العمومية . فقال مالاتيستا: إنني سعيد سعادة لا توصف بأن يكون الكونت أهلاً لطاعتنا. فقال جيوليو: أما الفارس راكستان، فيجب أن تعترف أمامه بخطئك لأنك رجل شريف مطبوع على النبالة والشهامة . فقال مالاتيستا : ولكن قبل أن أجيبك أيها الأمير فإنني أريد أن أقول كلمتين خصوصيتين لحضرة الفارس . فدهش الأمير من طلبه وقال له : ليكن لك ما تريد .

فتنحّى جان مالاتيستا نحو فرجة شباك حيث تبعه راكستان مباشرة ، ولقد تنحّت بريفيرا هي الأخرى إلى فرجة شباك آخر وكأنها لا تدري ما تفعل. فقال جان مالاتيستا: يا سيدي الفارس، منذ اللحظة الأولى التي شاهدتك فيها في دياميس روما أعجبت من كلّ قلبي بموقفك وشجاعتك ولم يتغير رأيي بك عندما رأيتك توافق الكونت آلما لأنني مقتنع بأنك أنقذت شرفه الذي كان سيبيعه بأبخس ثمن .

– ولكنني أؤكد لك يا سيدي أن ...

– أريد أن أبرهن لك فقط بأن الإهانة التي كانت على شفتيّ منذ حين كانت بعيدة عن قلبي ، وفي اللحظة ذاتها التي كنت أفتش فيها عن كلمات مسمومة أنثرها في وجهك ، في هذه اللحظة بالذات، كنت معجباً بك بل لقد كنت ويا للأسف أغار منك !

فتمهل راكستان مما سمع وحدّث نفسه قائلاً : ترى ، ما الذي

يحدث في ذهن هذا الشاب الشجاع ؟ ثم استطرد جان مالاتيستا قائلاً : أريد أيها الفارس أن أعتذر لك علناً لأنني أهنتك بنذالة فيما كنت أعلم أنك لا تستحق الإهانة . فقال راكستان : كلا ! أنا لا أسمح بأن يذلّ نبيل شريف مثلك أمام الآخرين ، وإن ما قلته الآن كاف لمحو الإهانة ، وما كنت أبداً لأطلب أكثر من هذا .

– شكراً أيها الفارس ، ولكن دعني أكمل حديثي فأنا سأقدم لك اعتذاري وسأصرف النظر عن مبارزة هذا المساء ولكن سوف ينازل أحدنا الآخر !

– لا أفهم ماذا تقصد . فقال جان : قلت إنه من الضروريّ أن ينازل أحدنا الآخر لأن أحدنا يجب أن يموت! قال راكستان: فليكن ما تريد ، وإنني أقبل بمنازلتك رغم أن موقفك يبدو لي .. فقاطعه جان قائلاً : موقفاً جنونياً ، قل هذا أيها الفارس . فقال الفارس : متى تريد أن نتبارز ؟ قال : غداً عند قدوم الليل . قال: والمكان ؟ فقال : عند الرأس الصخري . فسأله راكستان قائلاً : وأين يكون هذا الرأس الصخري ؟ قال : خارج الأسوار ، في الطريق الجوفاء التي قدمت منها كما روي لي ، فهناك يوجد صخرتان ضخمتان تشبه إحداهما ، وهي ذات اليمين ، رأس رجل ، ولذلك فإنها تدعى بالرأس الصخري . فقال راكستان : حسناً ، فغداً عند هبوط الليل سنلتقي عند الرأس الصخري . فقال مالاتيستا عندئذ مضطرباً : شكراً أيها الفارس ! فقال الفارس : ولكن اسمح لي بسؤال واحد : إن رجلاً شريفاً مثلي لا يمكنه أن يعرّض نفسه ليُقتل على يد نبيل شريف مثلك أو ليكون هو القاتل دون أن

ذلك لفهمت أنني ظامئ صديان لدمك .

فترك راكستان معصمه وقال: أين تريد يا سيدي أن أنتظرك؟

ـ في الساحة العامة .

ـ ومتى ؟

ـ هذا المساء .

عندئذ خرج جان مالاتيستا من القاعة شاحباً مترنحاً من الحنق ، أما القادة من الحضور فلم يتحرك أحد منهم للتدخل بما دار بين مالاتيستا وراكستان . وعندما خرج مالاتيستا استدار راكستان نحوهم وقال بلهجة الواثق من نفسه : أيها السادة ، بما أنكم لا تثيرون عليّ أية شبهة فها إنني أقدّم لكم شرحاً ضافياً عن حقيقة أمري لا سيّما وأنني عرفتكم جميعاً في الدياميس يوم رفضت أن أنضم إليكم ضد آل بورجيا . وإنه ليترتب عليّ أن أخبركم لماذا وكيف جئت إلى هنا .

فقاطعه جيوليو أورسيني قائلاً : أريد أن أعلن لكم أيها السادة أن تهمة جان مالاتيستا هي باطلة من أساسها ، وإنه ليمكنني أن أشهد أيها الفارس بأن آل بورجيا يعتبرونك من ألدّ أعدائهم ، فقد كنت متخفياً في روما يوم فرارك من السجن . ولقد قرأت المناشير التي تدلل على رأسك كما أنني استطعت أن أعرف أي خوف يخافه منك آل بورجيا وأي حقد يحملونه لك سرّاً وجهراً . ولقد تمنيت أن أعرفك منذ ذلك الحين ، وها إنني سعيد بالظروف التي تسمح لي بأن أمدّ إليك يداً صديقة .

فصافح راكستان يد أورسيني بغبطة كبيرة ثم شرع يقصّ

حكايته منذ دخوله إلى إيطاليا ، ولم يكن هناك شيء أروع من الهدوء الذي كان يسيطر عليه وهو يقصّ كيف كبّل قيصر بالسلاسل وكيف اعتقل بورجيا العجوز وأوثقه بالحبال حتى أنه خيّل للحاضرين أنهم يستمعون إلى ملحمة من الأساطير. أما بريفيرا فقد أصغت إليه بانتباه عميق حتى أنها عندما توقّف الفارس عن الكلام شعرت برعشة قوية تهزّها .

عندئذ قام الكونت آلما فثبّت من جديد جميع المراسيم التي صدرت في غيابه وقد ترجّى الأمير مانفريديّ أن يحتفظ بالقيادة العامة ، كما أنه أراد أن يثبّت لقب راكستان كقائد لمعسكره غير أن راكستان رفض رفضاً قاطعاً ، وعندما ألحّ الكونت عليه قال : أفضّل العمل كمتطوّع حرّ .

ـ إنك تفكر إذن بتركنا ؟

ـ لقد عشت يا سيدي الكونت حتى الآن حياة منطلقة سُداها الصدفة ولحمتها المغامرة ، ولهذه الحياة نشوة لديّ لا تعادلها أية نشوة أخرى وإنني أعترف أنه ليس بإمكاني التخلّي عنها ، لذلك فإنه من المستحيل عليّ أن أقول أين أكون غداً . ومن ثم فإن هذا يتعلق بنتيجة المبارزة مع السيد مالاتيستا ... فقال الكونت بلهجة صارمة : لن تحدث هذه المبارزة أبداً ! فأضاف الأمير مانفريديّ قائلاً : يجب ألا يهدر نبيلان شريفان دمهما هدراً ، لذلك فليؤتَ بجان مالاتيستا فوراً .

فاندفع جيوليو أورسيني إلى خارج القاعة ثم عاد إليها وبرفقته مالاتيستا فقال الأمير : أيها الصديق العزيز جان مالاتيستا ، لقد

يعرف ما هو السبب .

ـ أتريد أن تعرف سبب منازلتي إياك ؟ بل هل تريد أن تعرف لماذا أنا الذي أعتذر لك الآن مصرّاً على قتلك أو على الموت على يدك ؟

ـ طبعاً ، إنه من حقي أن أعرف .

ـ حسناً ! ذلك أنني أحبّ بياتريكس ! ألا افهمني جيداً ، إنني أحبها حتى الجنون ، وإنني لأفضل الموت على التأكد من أنها لا تحبّني .

فشحب وجه راكستان وتمتم قائلاً: ولكن ما شأني أنا؟ فأمسك مالاتيستا ذراعه وقاطعه قائلاً: إنني أحبها، وإذا كان من الضروري أن يموت أحدنا فذلك لأنها تحبّك أنت . فظلّ راكستان صامتاً وقد حاول أن يفعل إشارة لإيقاف مالاتيستا إلا أن مالاتيستا كان قد تقدّم نحو وسط القاعة وفي طريقه مسّ بريفيرا مساً خفيفاً ورآها بل لقد سمعها تتمتم قائلة : آه ! كم أنا بائسة !

عندئذ قال جان مالاتيستا بصوت قويّ : أيها السادة ، أيها الأعيان ، إنني أقدّم اعتذاري أمامكم ، أنتم الذين سمعتم الإهانة ، إلى الفارس راكستان .

فامتدّت حينئذ جميع الأيدي إلى مالاتيستا لتصافحه ولقد خرج مالاتيستا من القاعة مع الآخرين وهو يتحدث ويضحك كأن شيئاً لم يحدث . فهمّ راكستان أن يتبعه إلا أن يداً قبضت على ذراعه : إنها بريفيرا التي همست في أذنه : أريد هذا المساء أن أكلمك في حديقة القصر . فانحنى راكستان أمامها بخشوع عميق

وهو منقبض الصدر مرنّح الساقين . وعندما رفع قامته شاهد الأميرة مانفريديّ خارجة من القاعة وهي آخذة بيد الكونت ألما، حينئذ قال في نفسه حالماً : يقول مالاتيستا إنها تحبني ولكنها الآن زوجة الأمير مانفريديّ التي فقدتها إلى الأبد . إذن لقد أخطأ مالاتيستا فهي لا تحبّني ! باطل الأباطيل وكل شيء باطل! لقد قال أيضاً جان مالاتيستا إنّ على أحدنا أن يموت وها إني عارف منذ الآن من الذي سيموت .

لوكريس دوقة بيزاقلية

*

نعود الآن خمسة عشر يوماً إلى الوراء داخلين إلى القصر الضاحك في إحدى السهرات الرائعة حيث نرى لوكريس بورجيا تحلم وهي ممدّدة في ردهة التماثيل على أكداس من السجاد ورأسها مرتاح على مساند حريرية وعيناها نصف مغمضتين وهي تستمع بأذنين طائشتين إلى موسيقى قيثارات ونايات . وكان إلى جانبها خادمة تحرّك مروحة كبيرة تبعث بواسطتها حول لوكريس ابتراداً يمتزج برطوبة الماء المنحبس في بركة من البرفير فتزداد حواشيه رقة وعذوبة .

أجل ، هذه هي لوكريس في هذه الردهة تحلم وتحلم ... في جوّ من الملل الرتيب . ترى بأية جريمة يجبل ضميرها ؟

ها إن أطياعاً بعيدة غامضة تمرّ كالضباب ثم تتضح قليلاً فقليلاً

على شاشة مخيّلتها الملتهبة فتسأل نفسها ماذا تكون هي في روما ؟ فإذا بالجواب يتردّد في خاطرها أصداء تقول : لا شيء ! لا شيء!

إنها لا ترى حولها إلا أعياداً متصلا بعضها ببعض ، ولكن لمن هذه الأعياد ؟ بل ها هي لا ترى حولها غير أسياد يتوافدون على قصرها وفنانين من العباقرة الذين يستخدمون روائع فنّهم لتسلية الناس وإثارة إعجابهم لكي تقتنع طبقة النبلاء في روما بعظمة آل بورجيا . أجل ، هذه حياتها التي جعلتها الأعياد نهباً للملل ومضغة في فم الضجر !

وهذه هي لوكريس نفسها تثور الآن ضدّ هذه العبودية المذهبة وضدّ هذا الاستسلام الذي يضيّق الخناق على إرادتها . ترى ، ألن تكون إذن غير أداة خاضعة بين يدي اسكندر السادس وابنه قيصر ؟ آه ، لكم تشتهي نفسها الحكم والسيطرة كأنها ملكة في مملكة تخلقها لنفسها ! ولكن هذا الحلم الخياليّ إنما يحتاج إلى رجل ! بل إلى رجل عنيد تفوق جرأته وحيلته قدرة آل بورجيا مجتمعين . أما هذا الرجل فإنها تعرفه وتعلم أنه موجود ، ولقد كادت تستولي عليه ولكنه أفلت من يدها . غير أنها لن تندحر أمامه ولسوف تعثر عليه من جديد فتغمره بقبلاتها وعندما يصبح في قبضتها فإنها ستطلق يده على إيطاليا قائلة له:ها إني أنصبك ملكاً فاجعلني أنا الملكة !

آه ، كم تحب هذا الرجل وكم هي معجبة به ! إنها تراه سيد مصيرها رغم أنه هزّأها واحتقرها بل إن احتقاره لها هو الذي يزيد من إعجابها به ومن حبها له . ولكن هناك عقبة تصدم خطوتها

الأولى لتحقيق حلمها ! إنها عقبة مضحكة منفّرة : اسم فقط ... حياة رجل بحدّ من حرّيتها ... إذ أنها تدعى دوقة بيزاقلية . ولكن هل يجب أن يعترض سبيلها وأن يجعلها تتراجع عن عزمها رجل هناك في روما تحمل اسمه ؟ كلا ، لن تقف في وجه لوكريس حياة أيّ رجل حتى وإن كان زوجها .

وهكذا في اليوم الثاني وأمام القصر الضاحك نفسه قتل دوق بيزاقلية بطعنة خنجر أورده إيّاها بين كتفيه قيصر بورجيا الذي دسّت لوكريس في أذنه بأن زوجها قد ذمّه في غيابه . عندئذ ارتدت لوكريس ثياب الحداد وجرى لدوق بيزاقلية جنّاز احتفالي رائع لم يرَ الرومانيون أجمل منه منذ جناز دوق غانديه . وعندما أصبحت لوكريس أرملة أحست بظهر غريب إذ أن أكثرية الأسياد الطامعين في الزواج والذين كانوا يتهافتون عليها هجروا الآن قصرها وبانوا لا يعودون إليه إلا في مناسبات خاصة لكي يردّوا عنهم انتقام آل بورجيا ، إلا أنها لم تهتمّ لهذا الفراغ الذي أخذ يسود حولها لأنها باتت الآن تفضّل الوحدة .

ولم يمرّ وقت طويل على تصريف زوج لوكريس حتى صرحت لقيصر بأنها عازمة على اللحاق به إلى مونتفورتي ، فقال قيصر : ألم نتفق على بقائك في روما لمراقبتها أثناء غيابي؟فقالت : بلى، ولكنني أريد رؤية الحرب عن كثب لا سيما وأن كل شيء هادىء هنا .

وكان قيصر يعلم علم اليقين بأن ما تقرّره لوكريس تسعى إلى تنفيذه رغم جميع العقبات، لذلك فلم يلحّ في معارضته لها ، وعندما سارت الجيوش نحو مونتفورتي سارت لوكريس هي أيضاً برفقة

أخبها ولقد نقلتها عربة خاصة إلى تيفولي حيث قصّت لوكريس موت زوجها لأبيها البابا الذي اكتفى بقوله لها : لا تبكي يا ابنتي فقد كان هذا الرجل المسكين معدماً .

ومن ثم راح الأب والولدان يتكلمان بأشياء أكثر طلاوة ، ولقد علما في طليعة هذه الأشياء بخطف راكستان لروزيتا وقد شرع بورجيا العجوز يروي لها بطريقة موحة وبنكات كثيرة كيفية وقوعها في الشرك واعتقاده بأن روزيتا كانت ميتة ثم كيف وجد النعش فارغاً . عندئذ استنتج قيصر قائلاً : لقد غلبنا إذن هذا الرجل نحن الثلاثة الواحد بعد الآخر . فقالت لوكريس وهي تبتسم ابتسامة خفيفة مراوغة : هذا صحيح يا أبي ، ولقد هزّأنا وتلاعب بنا كما يشاء ، ولسوف يلقى ميتته على يدي ! فقال البابا : سيموت إذا أمكنك أن تجديه ، ولكن من يدري أين هو الآن ؟

في هذه اللحظة دخل خادم من الخدم فسأله قيصر قائلاً : ماذا بك ؟ فقال : لقد وصل البارون أسطور ودون كاركونيو وهما يطلبان الدخول إلى مجلس قداسة البابا . فصرخ قداسته قائلاً : هيّا أدخلهما بسرعة !

فدخل البارون والراهب مسرعين ، وعندما أبصرهما البابا صاح وهو شاحب من الغضب قائلاً : إنهما وحيدان ! فأضاف قيصر يقول : وجريحان أيضاً !

وكان البارون معصّب الذراع والراهب مضمّداً في كتفه ولقد سكع هذا الأخير أمام البابا قائلاً : يشهد الله أيها الأب الأقدس بأننا حاولنا المستحيل للاتيان بالكونت آلما ... فقاطعه

البابا صارخاً : ولكنه رفض ! كان عليكما الإتيان به بالقوة أيها الشقيّان ! فماذا تفيد إذن قوّتك الجبّارة أيها البارون ؟ وماذا يفيد أن تكون محتالاً كالشيطان يا كاركونيو ؟ أو تتوبان بالفشل ؟ حسناً ، سيكلفكما هذا غالياً !

فقال الراهب وهو يموت رغباً : أيها الأب الأقدس ، لم يرفض الكونت آلما مرافقتنا .

ـ فما جرى إذن أيها الشيطان ؟

ـ لقد كنا بعيدين عن مونتفورتي وبرفقتنا الكونت آلما ، وكان كل شيء يجري بجراه الحسن لو لم نقع في شباك الشيطان ذاته الذي ارتمى علينا ونزع الكونت من بين أيدينا عائداً به ولا شك إلى مونتفورتي .

ـ لا شك أنك جننت أيها الراهب ، فمن هو هذا الشيطان الذي تتكلم عنه ؟

هنا انفجرت لوكريس ضاحكة وهتفت قائلة: إنه راكستان! راكستان دائماً وأبداً ! فقال الراهب : كيف عرفت السنيورا أنه راكستان ؟ فقالت : لقد عرفت ، إنه راكستان أليس كذلك ؟

ـ أجل ويا للأسف ! هو بعينه .

ثم راح دون كاركونيو يروي حادثة النزل وتدخّل راكستان المفاجيء وكيف طعنه بالخنجر طعنة رهيبة ، والمعركة التي جرت بين راكستان والبارون أسطور ، ثم استرجاع الكونت . ولم يكد الراهب كاركونيو ينتهي من روايته حتى كان البابا قد ابيضّ لون وجهه من الحنق وحتى دخل قيصر في سورة من

الغضب الشديد جعلته يزأر وقد احمرّت عيناه قائلاً: أيها النذلان !
ثم همّ بالهجوم على الراهب ليكمّل ما ابتدأه سبادا كاب فيقضي عليه بطعنة واحدة مجنونة ، إلا أن بورجيا العجوز قد صدّه قائلاً: ألا ترى الحقد الذي يشعلها ضدّ راكستان ؟ صدّقني أنها سيعملان للثأر لنا أكثر منّا نحن .
فحدّ هذا المنطق من غضب قيصر ، فقال البابا عندئذ : امضيا الآن واستريحا ، إني أعفو عنكما ! لا شك أنكما لم تنجحا ولكن لم ينته أمامنا كل شيء !

مجد آل بورجيا

*

لم تقل لوكريس شيئاً طوال هذا المشهد ولكنها كانت تبتسم ابتسامة مستترة . أما بورجيا العجوز فقد ظهر بعد انفجار غضبه حزيناً متعباً لأن خطته قد فشلت ولأنه أصبح يعتقد بأن الكونت آلما بعد عودته إلى مونتفورتي إنما أصبح صعب المنال . لذلك فقد شرع يتمتم بضنك شديد قائلاً : إن الفشل حليفي دائماً منذ حين ! آه ، يا ولديّ ، إنني أشعر بدنوّ الأجل لأن كل شيء ينحلّ ويتهشّم ويتبدّد .
– ولكننا هنا لإكمال عملك .
– قيصر ، قيصر ! أسرع قبل أن أموت فإذا لم تصبح ملكاً

هذه السنه فإن سلطان آل بورجيا سيكون مهدّداً بالزوال وسيتلاشى بموتي كل شيء . ألا أسرع يا قيصر !
فشحب وجه قيصر ولوكريس لأنها للمرّة الأولى يسمعان والدهما متحدّثاً بصراحة عن مشاريعه ومطامعه . فعلم اسكندر السادس كان إذن إقامة مُلك آل بورجيا ووضع إيطاليا تحت صولجان ابنه قبل موته . فإذا بالمسرحية التي كانت تمثّل على مسرح الفاتيكان منذ سنوات عديدة تظهر لهما الآن جميلة غاوية رغم قبحها وقذارتها ، وإذا بها يفهمان الآن ما كان يفوتهما فتتضح أمام أعينهما الحياة المظلمة في حياة البابا اسكندر السادس .
وبلمحة عين سريعة استعرض قيصر من بقي واقفاً على رجليه في إيطاليا فوجد نفسه وحيداً مقدّماً على سواه ومهيّأ وحده للتاج أو للاغتيال . وسرعان ما فهم أن والده قد خلق الفراغ حوله وقضى على ابنه فرنسوا نفسه لكي يبقى ، هو قيصر ، وحيداً ولكي يصبح ملكاً . ولقد فهمت لوكريس الشيء نفسه ، فإذا بها تغمغم في سرّها وهي حالمة مقطّبة الوجه ، تقول : « سوف نرى من الذي سيكون ملكاً ! » ذلك لأنها كانت هي أيضاً تطمع بالملك وتريده لها وحدها دون سواها ، ولأنها كانت تريد خلق مملكة من العدم لتنصّب عليها رجلاً تنتشله من الفقر ، ولتجعل من نفسها ملكة وحيدة تسيطر على إيطاليا بعد أن تقضي على من نصّبته ملكاً على العرش .
أما قيصر فقد تضرّج وجهه بلهيب من الكبرياء فصاح يقول وهو مضطرم ممتلئ بالعظمة المطلقة التي هو مهيّأ لها : فما العمل إذن

يا أبي ؟ تكلم ومُرْ ما تشاء ! فقال بورجيا العجوز : يجب أن تنتصر أولاً .

ـ لسوف أنتصر !

ـ أي يجب أن تستولي على مونتفورتي .

ـ سوف أستولي عليها !

ـ أجل ، يجب أن تمحوَ هذه القلعة القديمة مهدّماً ولاية آل آلما وحارقاً قراهم ومتلفاً حقولهم ومسمّراً رأس الكونت على صليب ترفعه على أنقاض عاصمته ، ومن ثمّ تعود إلى إيطاليا بأجمعها فتضرب لها مثلاً رائعاً ينشر الرعب في أرجائها حتى إذا ما نصبتك ملكاً عليها لا يتجرّأ الشعب المكبّل بالخوف أن يرفع عينيه إلى الحدث المرتقب : وهو استيلاء آل بورجيا على العرش وعلى الحكم الذي يرثه من بعدهم أبناؤهم دون سواهم، مع مهمّة توسيع الميراث الذي أتركه لهم إلى اليوم الذي يصبح فيه العالم بأسره مملكةً لآل بورجيا !

عندئذ صاح قيصر وقد سحرته هذه الرؤى العظيمة ، قال : سأضرب هذا المثل الذي تريد وسأبذر القمح في الخريف القادم على أنقاض مدينة مونتفورتي ، ولن أوفّر أحداً من جميع الذين اجتمعوا واتّحدوا لقتالنا . أما رأس الخائن آلما فلن أرفع له صليباً واحداً بل مائة صليب وألف صليب ! فاطمئن يا أبي لأنني سأقوم بأعمال مرعبة !

هنا ارتفع صوت لوكريس فقاطعت أخاها قائلة بلهجة ساخرة: وماذا ستفعل بيياتريكس الحسناء اللطيفة ؟ فتقلّص وجه قيصر

تحت تأثير موجة من الحقد وزمجر قائلا : هذه ؟ إنها هي التي تثير إيطاليا ضدّنا فالويل لها !

ـ ألا تحبها إذن يا أخي ؟

ـ إنني أحبها أكثر من أي وقت مضى ، وإن حبّها ليؤرّقني في الليل ويعكّر صفو ذهني الذي كان يسمح لي بمفاجأة العدو مفاجأة سريعة، ولكن حقدي عليها يعادل حبي لها.ولسوف يشفي انتقامي منها غليلَ هذا الهوى الجهنمي الذي لا أستطيع السيطرة عليه . وغداً بعد أن أقضي على حُماتها ، وبعد صلب أبيها وجعل مدينتها نهباً للدمار والدم ، سأقبض عليها بيد من حديد !

ـ أحسنتَ أحسنتَ يا أخي ! ولكن يجب أن تحترس لنفسك لأن عاصمة آل آلما ستكون محصّنة قوية بمن سيدافعون عنها .

ـ ليزدد عدد جنودها عشرة أضعاف ، ولترتفع أسوارها مائة مرّة أكثر ، ولتكن أبوابها من الحديد، فإنني سأقضي على آل آلما حتى ينقطع نسلهم !

لفظ قيصر هذه الكلمات بشراسة عنيفة حتى خيّل لبورجيا العجوز أنه العبقرية الهدامة التي اختارها لكي يتمّ بواسطتها سحق إيطاليا والسيطرة عليها بقبضة من فولاذ . إلا أن لوكريس عادت تقول : إن آل آلما يملكون خيراً من كل هذا يا أخي .

ـ ولكن أتراهم يملكون إلى جانبهم من لا أستطيع أن أصعقه صعقاً ؟ يا لدم المسيح ! أرى أنك تقصدين ...

ـ نعم ، إنني أقصد ذلك الذي غلبنا نحن الثلاثة الواحد بعد الآخر ، أي راكستان .

ـ لقد غلبنا هذا الرجل باستخدامه المفاجأة والحيلة ، أما في معركتنا القادمة فإنني سأجعله من طرائدي ، وسأبدأ عملي المدمّر به لكي يعوّض عن الأذى الذي ألحقه بنا ، ومن ثمّ لكي تتألم « هي » بسببه . فقال البابا : إنني يا قيصر أطلب منك هذا الرجل حيّاً .

فنظر قيصر إلى أبيه وفهم أن الانتقام الذي يعدّه البابا لراكستان إنما يفوق خياله، فقال عندئذ باعتداد : لسوف أسلّمك إياه صاغراً .

ـ ومتى ستسير إلى مونتفورتي ؟

ـ منذ نهار الغد !

ليلة الزفاف

*

كان قصر آل آلما محاطاً بحدائق فسيحة تكسبه روعة وأناقة . وفيما كان الدرج الرخاميّ الفخم من واجهة القصر ينتهي إلى الساحة الكبيرة العامّة المظللة بأشجار الزان المعمّرة ، كان درج آخر ذو شعبتين مستديرتين يؤدي إلى حديقة رائعة تنبسط عند مؤخرة القصر . وكانت بريفيرا في هذا المساء قد نزلت متهادية بيطء إلى هذه الحديقة بعد أن أمرت وصيفاتها أن يتركنها وحيدة . وهناك جلست على مقعد من الغرانيت الأملس ترتفع فوقه كتلة من

الرخام تمثّل الإله هرقل راكعاً عند قدمي حوريّة فاتنة الجسد في ظلّ صفصافة خضراء وارفة الأغصان .

وكانت بريفيرا تحبّ هذا المكان الظليل اللطيف الذي يكوّن لجمالها إطاراً ساحراً ، ذلك أنها على هذا البنك لعبت وهي طفلة إلى جانب أمّها ، كما أنها كانت وهي شابّة تحلم عليه في أماسي الصيف الحارّة يوم كان الأفق يبدو بهيّاً عجيباً موشّىً بالأرجوان والذهب ... تحلم بالأمير الجميل المضطرم بشجاعة الفكر والروح والذي سيستولي يوماً ما على قلبها الملتهب . أما هذا الأمير الجميل فبإمكانه الآن أن يحضر إليها ، ولكنها لم تعد تملك زمام أمرها ولم يعد باستطاعتها أن تقول له : « لقد كنتُ أنتظركَ وها إني لك الآن ! » .

وراحت بريفيرا تفكر بصباها الغضّ الذي أبى القدر إلا أن يرميه بين ذراعَي شيخ تخطى السبعين من العمر ، فإذا بظل يرتسم أمامها ... وإذا بصوت يجعلها تقشعرّ وهو يقول : « ها أنذا قد أتيت طوعاً لأوامرك ! » .

ولم تكن بريفيرا بحاجة إلى رفع عينيها لمعرفة راكستان الواقف على بعد خطوتين من مقعدها . ولقد شعرت أنّ صوته لم يكن منطوياً على التأنيب أو البرودة المصطنعة بل على احترام شديد يُخفي وراءه حزناً كان راكستان يظن أنه دفين في أعماق قلبه . أما هذا الحزن الصامت الذي شعرت به بريفيرا فقد أوقعها في اضطراب شديد وجعل وجنتيها تحمرّان قليلاً ، إلا أن كبرياءها قد منعتها عن البوح بالأفكار التي تخفق في صدرها ،

فرفعت نحو راكستان عينيها الصافيتين وقالت : أردت يا سيدي أن أشكرك فدعوتك إلى هذا المكان لأني ما كنت لأستطيع شكرك كفاية أمام الحضور .

فانحنى راكستان أمامها صامتاً ، فتابعت قائلة : أردت أن أشكرك منفردة لأنني أستطيع في هذا المكان أن أفهم مقدار التضحية التي قمت بها . فأجابها راكستان قائلاً : وأيّ تضحية في الأمر يا سيدتي ؟ قالت : أتعتقد أنني لم أفهم كل شيء منذ تلك الليلة التي دعوتك فيها إلى دياميس روما والتي جعلتني أفهم ما كنت أجهله تماماً : أي أنك كنت فقيراً فقرّبك ابن الباما إليه عارضاً عليك وعوده المغرية . وإنني لأعرف كثيراً من نبلاء روما من الذين لهم صيتٌ عريض يعتبرون الوصول إلى المركز الذي وصلت إليه منذ اللحظة الأولى ، نصراً وثروة لهم لو استطاعوا الوصول إليه . ولكنك أيها الفارس رفضت الثروة ومظاهر التكريم وأثرت عليك حقد آل بورجيا القاتل الرهيب وعرّضتَ نفسك للهلاك المخيف ، وذلك لكي لا تكون عدوّاً لي ! وها إنني أفتش عبثاً عن الكلمات المعبّرة عن عرفاني للجميل . فقال راكستان :

— لقد فعلتُ يا سيدتي ما أملاه عليّ الشرف ، فإذا كنتِ تعتبرين هذا تضحية فإن كلماتك هذه هي أكبر مكافأة لي . فتابعت بريفيرا قائلة :

— ولقد أنقذتَ أيضاً والدي الكونت آلما الذي كان مزمعاً على خيانة فويه ، وبهذا تكون قد جنّبتَ الإسم الذي أحمله عاراً لا يُمحى ... فقاطعها راكستان قائلاً بتأثر مستتر : الإسم الذي

تحملينه يا سيدتي ؟ ففهمت بريفيرا قصد راكستان فإذا هي تتمتم شاحبة اللون : الاسم الذي كنت أحمله . إلا أن كبرياءها تغلّبت على عاطفتها فتابعت تقول بلهجة واثقة : ولكنّ الإسمين يا سيدي اسم واحد لأن آل مانفريدّي وآل آلما يكوّنان عائلة واحدة كان غياب الكونت سيجرحها في فرعيها جرحاً عميقاً ، ولقد خاطرتَ بحياتك لكي توفّر على العائلتين العار والألم .

ثم صمتت بريفيرا كأنّ فيضاً من العاطفة قد أطبق على صدرها عاقلاً لسانها ، فقال عندئذ راكستان : عندما تركتُ يا سيدتي الخدمة في كنف آل بورجيا ، وعندما أعدت سمو الكونت آلما إلى عاصمته ، كنت أفي بعهدٍ قطعته لك . فقالت : ماذا تقصد أيها الفارس ؟ قال : أتذكرين اليوم الذي أولاني شرف مصادفتك في كرم الزيتون قرب الساقية الصغيرة ؟ لا شك أنك قد نسيت مثل هذا الحادث الصغير ... فقاطعته بياتريكس قائلة وهي مطبقة عينيها : كلا ، لم أنسه أبداً ! فقال : إذن فإنك تذكرين قولي لك يومئذ بأنني أضع حياتي في خدمتك ، ومنذ ذلك الحين لم يعد باستطاعتي أن أفعل غير ما فعلت .

تكلّم راكستان على غير عادته بحرارة تكتنفها كآبة عميقة نفذت إلى قلب بريفيرا كأنها صدى وترٍ نحاسيّ ، فإذا بها تشعر بارتفاع صدرها وهبوطه ، وإذا بعينيها تمتلآن دموعاً دون أن تدري سرّ هذا التأثر السريع . وكان بينها دقيقة من الصمت امتلأت بشجو غريب بالنسبة إليها وبالمرارة بالنسبة إليه ، ذلك أنه كان يحس في ذاته قائلاً بيأس : أتراها كانت تخاطبني بمثل هذه

البرودة لو أنها تحبني كما ادّعى جان مالاتيستا ؟ إنها ترتضي تضحية حياتي في سبيلها وتعتقد أنها بشكرها لي إنما تعمل الكثير من أجلي !

وكانت بريفيرا في هذه الأثناء قد استعادت روعها فاستطردت قائلة : لا أريد أن أشكرك فقط أيها الفارس ولكنني أريد أن أسألك عمّا تنوي عمله ، لقد عيّنك أبي قائداً لمعسكره ولكنك رفضت هذه الوظيفة . فقال : نعم يا سيدتي . قالت : لا شك أنك أعلى منها رتبة . فقال: كلا، لم أقصد هذا الشيء، فالوظيفة مشرّفة وهي تفوق ما كنت أحلم به . قالت: فلماذا رفضتها إذن ؟ أتوسّل إليك يا سيدي ألا تعتقد أني ناكرة الجميل إلى درجة أنني أرتضي لك بمثل هذه الوظيفة ، ولكن قبولك لها سيعطيني دليلاً على أنك تريد البقاء إلى قربنا لأننا سنبقى دائماً ... صديقين !

ولقد لفظت بريفيرا هذه الكلمات الأخيرة بصوت منخفض ومرتجف إلى درجة أن راكستان لم يسمعها بل فهمها فهماً ، فإذا به يشعر بدوار عنيف ، ولكنّ فكرةً حزينة قاسية لمعت في ذهنه فقال : إطمئني يا سيدتي ، فإن سيفي سيبقى في خدمتك وسنظلّ صديقين وفقاً للكلمة التي شرّفتني بقولها .

فلم تفقه بريفيرا دافع الأنانيّة المتوارية خلف جواب الفارس ولكنها صاحت قائلة : فلماذا إذن ترفض ما يقدّمه لك الكونت آلما ؟ فأجابها راكستان بلهجة باردة : إنني يا سيدتي جندي يهوى المغامرة ، وإن هذا المركز اللامع كقائد معسكر ينطوي على قيود تخيفني ، ذلك أنني عشت دائماً اليوم الذي أنا فيه لا أقبل

لي ولا أرتضي غير البدية بديلاً . لذلك أرجو أن تمنحني ذا لم أخضع لتوسّلاتك المغرية .

وهل ستبقى في مونتفورتي ؟

إنني أجهل هذا يا سيدتي . ولكن على كل حال إذا رأيت ماتي تستطيع أن تعود عليك بالنفع فإنني سأبقى إلى يوم ن يكون قريباً وهو يوم اندحار قيصر وصدّه على أعقابه ن يربطني شيء بإيطاليا .

هّدت بريفيرا قائلة : لا شيء ؟! فقال : أجل ، لا شيء ! إذن إفعل ما تأمرك به إرادتك يا سيدي .

نحنى راكستان وهمّ أن ينسحب بقلب يملأه الحب والغضب، بريفيرا أوقفته قائلة بصوت ضعيف : أعذرني ! كنت أريد ادثتك عن حادث جرى اليوم . فقال : تكلمي يا سيدتي .

أي عن الحديث الذي جرى بينك وبين مالاتيستا .

تعش راكستان رعشة عنيفة وراح يقول في نفسه وهو شفتيه عضاً شديداً : هذه هي الحقيقة إذن : إنها تحب ستا ولقد دعتني لتطلب إليّ ألا أنازله لأنها خائفة عليه .

انتظر صامتاً لعلّ بريفيرا تشرح فكرتها ، فقالت بصوت اهره من التأثر : أوتريد مبارزة جان مالاتيستا ؟ قال : ذر جان مالاتيستا ولم يبقَ أيّ سبب لمبارزته . قالت: إنني ذا ، ولكن سينازل أحدكما الآخر . لماذا أراك تخفي عني ؟ فلقد سمعت ما قاله لك جان مالاتيستا حين اختلى بك افذة في قاعة المحاضرات . فلمع في ذهن راكستان برق أمل

وصاح قائلا : أو سمعت كل شيء ؟

فتضرّج فجأة وجه بريفيرا ، إلا أن الليل كان قد أقبل فلم يشاهد راكستان حمرة وجهها لذلك فقد نفذ إلى قلبه اليأس عندما سمع الأميرة الشابة تقول: سمعت فقط جان مالاتيستا يعيّن مكان لقائكما مساء غد عند الرأس الصخريّ وما أردت أن أسمع أكثر من هذا لأنني فهمت ... فقال : هذا صحيح ، لقد دعاني مالاتيستا إلى المبارزة غداً .

فحاولت بريفيرا تهدئة دقّات قلبها الخافق وقالت : وإذا طلبت منك شيئاً ؟ فقال راكستان بصوت بارد : ماذا تريدين أن تطلبي مني يا سيدتي؟ فأجابت بريفيرا لاهثة : أن تمتنع عن المبارزة! فانا أعرف مالاتيستا وأعرف طبعه الذي يفور بسرعة ، ولكنه مطبوع على روح الفروسية فإذا جعلته يفهم أنه لا يحق لكما في هذا الوقت سفك دم أحدكما لعاد فوراً عن رأيه. فانفجر راكستان قائلا : إيه يا سيدتي ، إن عواطفك هي التي تدفعك إلى مثل هذا الطلب، أو تسألينني أن أتراجع وأن أذل ؟ كلا، هذا لن يكون! ثم أضاف وهو يزفر قائلا : ولكن اطمئني لأن الميت في هذه المبارزة لن يكون مالاتيستا ... الوداع يا سيدتي !

وهكذا مضى راكستان مشرّداً يكاد يمسّه صارع من الجنون لما وُلد في نفسه من عوامل الألم والغيرة . أما بريفيرا فقد بقيت محطّمة في مكانها بعد أن فهمت بوضوح فكرة الفارس ، غير أنها سرعان ما انتصبت واقفة وهي تجهل ما تعمل فتمدّ ذراعيها وتصيح منادية : راكستان !

غير أن الفارس كان قد ابتعد فلم يسمع صوتها فتهاوت بريفيرا على مقعدها وهي تجهش باكية . وإذا بأنوار تشعّ فجأة في الحديقة وإذا بأصوات تناديها باسمها . وبعد لحظات ظهر الأمير مانفريدي أمامها فصاح بها قائلا: أنت هنا ؟ لقد أمضّني القلق ! هيّا بنا، أريد أن أعود بك إلى القصر . فأجابته بياتريكس قائلة : بعد قليل أيها الأمير لأنني أريد أن أستنشق نداوة هذا الليل الجميل .

عندئذ استدار الأمير نحو حاملي مشاعله فأمرهم بالعودة ثم جلس إلى جانب امرأته قائلا : إنك على حق، ما أجمل الدقائق التي يقضيها المرء في وحدة الصمت والأحلام بعيداً عن المتطفلين وما أجمل هذا الليل ! وما أبعدنا الآن عن جلبة الناس ! أتشعرين بسعادتي يا بياتريكس ؟

ثم أخذ يدها فجعلته يفعل ، إلا أنها ردّتها قليلا عنه دون أن يشعر ، بينما راح يتابع قائلا : إنها سعادة مفاجئة وغير منتظرة ، فمن كان يدري أنك لن تختاري أحداً من الشبان النبلاء الذين يفتنهم جمالك فيقع اختيارك عليّ أنا ؟ فقالت : دعك من هذا أيها الأمير! فقال : كلا يا بياتريكس العزيزة ، دعيني أعبّر لك عن الكبرياء التي منحني إياها هذا الاختيار .

ثم انحنى الأمير وطبع قبلة على يد بياتريكس ، فشهقت وسحبت يدها بعنف . فسألها الأمير العجوز قائلا : ما بك يا بياتريكس ؟

ما بها ؟

إن بياتريكس عندما صعقها اقتراح مالاتيستا في غياب أبيها

حضرتها هذه الفكرة المفاجئة باختيار مانفريدّي العجوز زوجاً لها بالاسم فقط ، ولم تكن تفكر بأن الصبابة ستعود إليه . لقد كان شأنها شأن الغزالة التي يطاردها القنّاصون والتي لا تحلم إلا بالهرب من الخطر المداهم. والخطر بالنسبة لبياتريكس هو أن تصبح زوجة مالاتيستا أو أحد أولئك الشبان الذين يطمعون بحبها ، لذلك فقد التجأت إلى ذراع مانفريدّي العجوز الذي كانت تعتبره كجدّ لها . ولكن سرعان ما بدا لها أن الأمير مانفريدّي قد غدا مغرماً بها وعازماً على المطالبة بحقوقه كزوج لها. ولقد بدت لها منذ اللحظة الأولى فظاظة غلطتها وها هي الآن تلعن نفسها لأنها لم تعارض بقوة تقييد حريتها .

أما الأمير مانفريدّي فقد ظلّ صامتاً ثم قال : تعالي يا بياتريكس العزيزة لكي نعود . وهمّ أن يأخذ يدها مرّة ثانية إلا أنها أبعدتها عنه بخوف ظاهر حتى أنه اصفرّ من شدة استيائه وكرّر سؤاله قائلاً : ما دهاك يا بياتريكس ؟ فقالت : لا شيء . فقال : ولكنني أراك تخشينني وتهربين مني ! كلا يا بياتريكس ، لا أريد أن ألوم لجوءك إلى هذه الحديقة في ليلة زفافنا بينما أنا أبحث عنك ، ولا أريد أن أظهر غرابة موقفك هذا، لذلك فهيّا نعود إلى القصر !

فهزت بريمفيرا رأسها دلالة على الرفض لأن انقباضها وألمها منعاها عن الكلام. فسألها مانفريدّي باضطراب قائلاً: ألا تريدين العودة؟ فقالت : دعني هنا قليلاً من الوقت ، ألا تريد ؟ فوقف الأمير مانفريدّي وقال بوقار: إن فكرة مستترة تعذّبك يا بياتريكس، أفلا تحكينها لي؟ فصاحت بريمفيرا قائلة: بلى، إنك أيها الأمير مثال

الصراحة الرائعة ، ولا أريد أن أخفي عنك شيئاً . فقال : حسناً ، إذن تكلمي دون خوف ! فقالت : كنت أريد ... آه لا أدري إذا كنت ستفهم الفكرة التي تقلقني .

– بياتريكس ، ماذا يفيدك هذا الكتمان ؟ إنني أرى وأفهم أنك لا تحبّينني أبداً. ولكن ألا يمكنني أن أطمع بقليل من المودة المخلصة بدل الحب الذي بتّ أنا الشيخ المسنّ ولا أمل لي فيه ؟ فقالت : بلى ، إنّ لك مودّتي العميقة الحقيقية . فاستطرد الأمير قائلاً : والطاعة الزوجية؟ إذن بتّ أشك بوقوع غلطة ما أو بخدعة كنت ضحيّتها . إنني أقسم بهذه النجوم التي تحدّق فينا على أنني لن أرتضي الخديعة ! إن عمري الآن اثنتان وسبعون سنة ولم يجرؤ أحد في العالم أن يسخر مني دون أن يعاقب من آل مانفريدّي. تكلمي إذن يا بياتريكس !

فضمّت بريمفيرا يديها متألمة مضطربة خائفة ، فتابع الأمير بغضب متزايد يقول : أو تصمتين ؟ فالأفكار التي تدور في خلدي هي إذن صحيحة ! ولقد خدعتني إذن ؟ وإلا لماذا اخترتني أنا دون سواي ألكي تسومينني العذاب والهوان ؟

فندّ عن بريمفيرا صرخة احتجاج وقالت بصوت مرتجف : أصغ إليّ أيها الأمير فإنني سأبوح لك بكوامن صدري، وبعدئذ يمكنك أن تفعل ما توحيه شهامتك إليك .

فاستولت الشفقة على قلب الأمير مانفريدّي الذي هدأ غضبه وقال : إطمئني وتكلمي بهذه الصراحة التي نعهدها فيك والتي تجعلك زهرة الصدق التي طالما استأثرت بإعجابنا ، ولا تخشي شيئاً

من الأمير مانفريدي .

– إليك الحقيقة إذن : عندما تقدّم جان مالاتيستا باقتراحه في الجمعية العمومية ظهر لي أن عدداً من أتباعنا الهاجسين خوفاً من المعركة التي سنخوضها سوف يتعلقون بموقفي كحجة للانشقاق عنا. فقال الأمير : هذا صحيح ويا للأسف ! فقالت : ولقد فهمت أن نجاح حركتنا إنما يتعلق بالكلمة التي سألفظها ، ولم يكن عليّ فقط تعيين قائد للحرب بل أيضاً اختيار زوج لي ، لذلك فقد قرّرت التضحية بنفسي . فقال : إنها كلمة قاسية بالنسبة لي يا سيدتي . أما هي فتابعت تقول : أما الموقف الحرج الذي وقفتُ فيه فقد كان أقسى عليّ لأن مالاتيستا يحبّني وأنا لا أحبّه ولا يمكنني أن أتحمّل فكرة أن أكون له امرأة. وهذا ما أقوله بالنسبة للأسياد الآخرين الذين طالما أظهروا لي عواطفهم التي لا أشاطرهم إيّاها .

– ولم يكن إذن بين الذين حضروا الجمعية العامة واحد تحبينه؟

– كلا ، وإني أقسم لك بذلك . ألم يكن باستطاعتي أن أختار كزوج لي من يميل إليه فؤادي من الحاضرين لو كان بينهم واحد فقط يوحي إليّ بغير عاطفة الاحترام والمودّة ؟

– إنني أصدّقك فاعذريني يا بياتريكس ، لا سيّما وأن اختيارك لي قد أثر عليّ فجعلني أفكر بعقل شاب يخشى على السعادة أن تضيع من يديه . أوّاه يا ليتني كنت شاباً ! ولكن أكملي .

– عندئذ فكرتُ بك أنتَ الذي كنت تدعوني ابنتك ، لأنه قد تراءى لي أنني سألقى الأمان في كنف اسمك كأنني

بين ذراعي والدي .

فخنق الأمير مانفريدّي آهة في حلقه وقال بمرارة: فهمت الآن أنكِ تزوجت الاسم فقط ، أما الرجل فينفركِ بلحيته البيضاء .

– كلا أيها الأمير إنكَ مخطىء، لأنني شعرت في اللحظة الأولى بالسعادة أن أكون امرأتك ولكن سرعان ما تبدّد الخوف من الخطر فوجدت نفسي وجهاً لوجه أمام الفعل الذي تم دون إرادتي. فكر أيها الأمير فقط أي خوف طبيعي يجب أن يستولي على فتاة لم تكن لتفكر بالزواج ، ثم إذا بها تجد نفسها مزوجة دون أن تمر على الأقل في مرحلة الخطوبة .

فهمّ الأمير أن يتكلم ولكنها قاطعته قائلة : دعني أكمل أيها الأمير لأنني لن أعود إلى هذا الحديث مرة ثانية، وإن قلبي لينفطر حيال الألم الذي أسببه لك فيما أنت لا تستحقه . ولكن أرجوك أن تعتبرني خطيبتك لكي أعتاد شيئاً فشيئاً على فكرة الزواج ، وإني لأرجوك أن تمنحني ثلاثة أشهر فقط . ولا تعتقد أيها الأمير أنني أتوخّى جرحك بهذا الطلب . والله إنّ قلبي لا يحمل لك فكرة واحدة من الضغينة أو الكره . ثم ألا تعتقد أن مثل هذه الخطوبة هي ترضية يجب أن تمنحها لوالدي ؟ فاقتنع الأمير بهذه الفكرة وقال : بلى ، إنكِ على حق . فتابعت بريفيرا قائلة : لقد وافق والدي على زواجنا ، ولكن ألا تعني موافقته الإذعان لأمر جرى في غيابه؟ فصاح مانفريدّي العجوز قائلاً: كفى يا بياتريكس، لا تمعني في الكلام عن هذا الموضوع لأن إصرارك عليه هو اتّهام لي بأنني لا أفهمك . أمّا الآن فإليك يدي يا بنيّتي ويا خطيبتي

العزيزة لأنني أريد أن أقودكِ إلى غرفتك . فقالت : كلا أيها الأمير ، لأنّ المأزق الذي مررت فيه يجعلني بحاجة إلى البقاء هنا وحيدة مع أفكاري . فقال : ولكن ألا تخافين ؟ قالت : ومم الخوف ؟ لقد حصل لي أنني كنت أقضي ساعات طويلة بصحبة الليل . قال : لكن لكِ ما تشائين !

ثم ابتعد الأمير بخطىً بطيئة . وعندما غاب عن عيني بريفيرا عادت إلى الجلوس على المقعد الرخامي ، ولقد تراءى لها أنها مولودة إلى الحياة ولادة جديدة .

اسطورة معبر الرأس الصخري

*

كانت هذه الليلة رهيبة بالنسبة لراكستان لأنه قضاها وهو يدور حول القصر مراقباً الأنوار لعلّه يعرف أيها ينير غرفة الليلة الأولى من زواج بريفيرا والأمير مانفريدي ، حتى أن الفجر قد فاجأه شاحباً ناصل اللون . غير أنه قد انتشل نفسه أخيراً من حالة الغيرة والألم ومضى قائلاً : لأذهب ! فقد انتهى كل شيء بالنسبة لي .

ثم قفل عائداً إلى قصر أورسيني ، ذلك أن أورسيني هذا الذي دافع عنه في مجلس الأركان كان قد استضافه في قصره بأريحية كبيرة . وعندما وصل إلى القصر أيقظ سباداكاب الذي كان ينام

نوماً ثقيلاً فأمره أن يسرج له حصانه ، فسأله هذا المشرّد القديم قائلاً : ألن أرافقك ؟ فقال : كلا ، انتظرني هنا ولا تقلق فقد أعود متأخراً .

وعندما أسرج كابيتان عاد راكستان فأضاف فجأة يقول : قد أغيب عدّة أيام وقد لا أعود أبداً . فقال سباداكاب : يا للقدّيسة مريم ! أوَيتركني سيدي الفارس !

فسحب راكستان خنجره ونزع برأسه الحجارة الثمينة التي كانت تزيّن مقبض سيفه الذي انتزعه من قيصر بورجيا ، ثم رماها لخادمه قائلاً : خذ هذه فإنها تعزّيك عن فراقنا . إلا أن سباداكاب تراجع إلى الوراء هازاً رأسه ، فقال راكستان : ولكن ما الذي ألمّ بك ؟ فأجاب سباداكاب قائلا : إن ما تمنحني إياه يا سيدي ثروة كبيرة . ولكن إذا كنت ستتركني فأنا لست بحاجة إلى شيء وأفضّل أن أعود إلى مهنتي القديمة كسائفٍ يُصلح السيوف . فتأثر راكستان لهذه الكلمات البسيطة ولتضحية الرجل الساذجة وقال : ألا تريد إذن الانفصال عني ؟ فقال سباداكاب مؤكداً : إن فكرة تركك إيّاي تملأ وحدها جبيني بالعرق . فقال راكستان : إذن تعال اتبعني ... ولكن أحذّرك بأنني قد أغادر إيطاليا . فقال : ليكن ما تشاء ! قال : ماذا ! أوَتغادر بلادك الجميلة ؟ فقال سباداكاب : أوَليست جميع البلاد جميلة يا سيدي عندما يستطيع المرء أن يعيش حراً فيها ؟

عندئذ أومأ راكستان لسباداكاب أن يتبعه ولكن بعد أن أرغمه على قبول الحجارة الكريمة قائلاً : من يدري ، قد يحدث ما

ليس في الحسبان ! فوثب سبادا كاب بفرح إلى صهوة فرسه ثم صاح وهو يجري قائلاً : وحياة العذراء لقد أخفتني خوفاً شديداً .

أما راكستان فلم يجب . وبعد ربع ساعة كانا خارج المدينة . ولم يكن راكستان في الحقيقة يعلم أي مصير ينتظره ولكنه كان يزداد اقتناعاً بأنه لن يدافع عن نفسه عند منازلة مالاتيستا له . غير أنه كان يشعر في أعماق قلبه بضياء أمل خافت . أما الآن فها هوذا لا يشعر إلا بحاجة واحدة هي أن يقضي نهاره بعيداً عن مونتفورتي لأنه لم يكن يستطيع البقاء وجهاً لوجه أمام بريفيرا والأمير مانفريدي . لذلك فقد راح يهيم على وجهه طيلة النهار حول المدينة ملاحظاً ومسجلاً بعناية نقاط الهجوم والدفاع .

وعند الساعة الرابعة من الظهيرة إذا به على التلّ المشرف على المعبر الضيق الذي جاء منه إلى مونتفورتي برفقة الكونت آلما . في هذه اللحظة دنا سبادا كاب منه ومدّ ذراعه نحو بناء حقير وقال: هوذا نزل . فقال : ها ، ها ! يظهر أنك جائع ؟ فقال سبادا كاب: وعطشان أيضاً ، لأننا لم نذق طعاماً منذ الصباح. فقال راكستان: أجل ، لقد جعلتني أتذكر فأنا أيضاً أحسّ بجوع شديد .

ثم لمز حصانه نحو النزل المشار إليه . وفي طريقه إلى هذا النزل كان راكستان يتفحص الصخور المشرئبّة على جانبيه فإذا به يلاحظ أن إحدى تلك الصخور إنما تشبه تماماً هامة رجل ضخمة . ولم يلبث راكستان وسبادا كاب أن نزلا عن صهوتي جواديهما أمام النزل الذي كان يُدعى « نزل الرأس الصخري » ، فإذا بهما يشاهدان سكان هذا النزل ، أي صاحبه وامرأته وولديهما مع الخادمة ،

منهمكين بتحميل أثاثهم الفقير على عربة ، فقال راكستان: أخشى أننا سنبقى صائمين ! فشارع سبادا كاب إلى الجواب قائلاً : أنا أقوم بإعداد الطعام . أنظر إلى ذلك القن الذي يحتوي على دجاج وبيض: فإنني لن أحتاج إلى أكثر من عشرين دقيقة لكي أتيك بلحم محمر وعجة شهية .

غير أن راكستان نادى صاحب النزل قائلاً: أو يمكننا العشاء ؟ فقال : ولماذا لا يا سيّدي الخيّال ؟ قال : إنني أراكم تهجرون هذا البيت . فقال صاحب النزل: هذا لا يحول دون إعداد الطعام لكما.

عندئذ نظر راكستان حوله فشاهد حوضاً صغيراً نبتت فيه بعض الخضار وأبصر فوق الصخرة التي بني فوقها النزل طاولتين أو ثلاث طاولات فقال في نفسه : إنه مكان جميل لمبارزتنا !

في هذه الأثناء أقبلت الخادمة تضع غطاءً على طاولة اختارها راكستان في الظلّ وجلس عليها تعباً منهوكاً يستعدّ للعشاء . وبعد قليل كان هذا الرجل الذي صمّم في نفسه أن يموت على يد مالاتيستا يأكل بنهم دجاجة محمّرة أعدّها سبادا كاب بيده . أما صاحب النزل وهو رجل في الأربعين من سنيه ويبدو عليه أنه كثير الثرثرة ، فقد أخذ على عاتقه دون سواه مهمّة خدمة هذا الزبون الجديد الذي نزل عليه من السماء . لذلك فقد اهتمّ به اهتماماً زائداً وراح يسكب في قدحه أجود ما يملكه من النبيذ محاولاً أن يسايره بشتى الأحاديث . قال الرجل : أرى من بزتك يا سيّدي الخيّال أنكّ رجل حرب . فقال راكستان: أجل يا صاح . فتنهّد صاحب النزل وقال : أفّ من الحرب ! لقد كنت أعيش مطمئناً

في هذا المكان وها أنذا الآن مرغم على الهرب . وسألجأ إلى مونتفورتي راجياً متابعة تجارتي ببيع المشروب إلى الجنود . فقال راكستان : هذه فكرة رائعة لا سيّما وأن أعمالك كما يبدو لي ليست مزدهرة في مثل هذا المكان . ترى ، من ذا يطلب الملجأ والمأكل والمشرب في هذه القفار الخالية وفي مثل هذا التل الذي لا ترقى إلا الصقور إليه ؟

– أوه لا تعتقد أن أحوالي سيئة إلى هذا الحدّ يا سيدي، لأن المكان مقصود كما ترى ، ولا يمرّ مسافر غريب في هذه الناحية دون أن يأتي لرؤيتي .

– إذن أنت رجل مشهور ؟ فأجاب صاحب النزل بلهجة متواضعة: نعم يا سيدي. قال: ومن أين تأتيك معالم هذه الشهرة ؟ قال : لأنني أستطيع وحدي في هذه الناحية أن أحكي قصة الرأس الصغريّ ، وهي قصة ورثتها عن أبي الذي ورثها عن أبيه ... فقال راكستان ، وهل هي قصة مشوّقة ؟ قال : إنها قصة رهيبة يا سيدي وحقيقية . قال الفارس : كنت أتمنّى أن أعرفها . فقال صاحب النزل : الأمر سهل يا سيدي . إنني أرويها لك مقابل دينار صغير هو ربحي الوحيد الذي أجنيه من هذا المكان .

فرمى راكستان بدينار إلى صاحب النزل فالتقطه هذا متهللاً وصاح قائلاً : آه يا مولاي ! فقال راكستان : أخبرنا روايتك . فصاح صاحب النزل : لسوف تعرف كل شيء ! بل سأريك في قعر الكهف ثقباً هو الدليل الحقيقيّ على صدق هذه الحكاية .

وكانت الشمس في هذه اللحظة قد غابت وراء الأفق فقال

صاحب النزل : هوذا الليل آخذ بالاقتراب وبعد قليل سيلفّ ظلامه الدامس كل شيء ، ويجب أن أقصّ الحكاية بسرعة لأنني لا أريد بأيّ شكل أن أفوه بهذه الأشياء أثناء الليل الداكن الظلام .

– ولماذا الحذر ؟

– لأن التلفّظ باسم الشيطان أثناء الليل هو استدعاء له فيكون حضوره دائماً نذيراً بشؤم كموت رجل مثلاً .

فارتعش راكستان، وبعد أن أفرغ كأسه دفعة واحدة قال: تكلم إذن ! فابتدأ صاحب النزل حكايته قائلاً : ترجع حوادث هذه القصة إلى زمن غابر إذ أنها تجري في عهد فيليب الثالث وهو الكونت الثالث من سلالة آل آلما . وكان هذا الرجل كما تروي الأسطورة التي انتقلت إلينا ، بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من عمره ، قويّ البنية يحبه الناس لطيبته ويعجبون بشجاعته. وفي أحد الأيام زحفت على الريف عصابات رهيبة أخذت تعيث فيه سلباً ونهباً حتى أنه لم يبقَ سيّد مهما كان الجيش الذي يحميه قوياً ، إلا ودفع جزية لهؤلاء الأنجاس .

وأخذ الكونت فيليب على عاتقه القضاء على هذه العصابات ، ولقد نجح فأبادها جميعاً ما عدا واحدة أفلتت من يده كان يرئسها جاك الملقّب بالأحمر . وكان هذا الرجل يدعى بهذا الإسم لا لأنه يحمل فقط لحية شقراء وشعراً أصهب ، بل أيضاً لأن يديه كانتا ملطختين بدماء عدد كبير من الناس الذين فتك بهم . ولقد ذهبت سدىً جميع محاولات فيليب الباسل ضدّ هذه العصابة

في هذا المكان وها أنذا الآن مرغم على الهرب . وسألجأ إلى مونتفورتي راجياً متابعة تجارتي ببيع المشروب إلى الجنود . فقال راكستان : هذه فكرة رائعة لا سيّما وأن أعمالك كما يبدو لي ليست مزدهرة في مثل هذا المكان . ترى ، من ذا يطلب الملجأ والمأكل والمشرب في هذه القفار الخالية وفي مثل هذا التل الذي لا ترقى إلا الصقور إليه ؟

ـ أوه لا تعتقد أن أحوالي سيئة إلى هذا الحدّ يا سيدي، لأن المكان مقصود كما ترى ، ولا يمرّ مسافر غريب في هذه الناحية دون أن يأتي لرؤيتي .

ـ إذن أنت رجل مشهور ؟ فأجاب صاحب النزل بلهجة متواضعة: نعم يا سيدي. قال: ومن أين تأتيك معالم هذه الشهرة ؟ قال : لأنني أستطيع وحدي في هذه الناحية أن أحكي قصة الرأس الصخريّ ، وهي قصة ورثتها عن أبي الذي ورثها عن أبيه ... فقال راكستان ، وهل هي قصة مشوّقة ؟ قال : إنها قصة رهيبة يا سيدي وحقيقية . قال الفارس : كنت أتمنّى أن أعرفها . فقال صاحب النزل : الأمر سهل يا سيدي . إنني أرويها لك مقابل دينار صغير هو ربحي الوحيد الذي أجنيه من هذا المكان .

فرمى راكستان بدينار إلى صاحب النزل فالتقطه هذا متهللاً وصاح قائلاً : آه يا مولاي ! فقال راكستان : أخبرنا روايتك . فصاح صاحب النزل : لسوف تعرف كل شيء ! بل سأريك في قعر الكهف ثقباً هو الدليل الحقيقيّ على صدق هذه الحكاية .

وكانت الشمس في هذه اللحظة قد غابت وراء الأفق فقال

صاحب النزل : هوذا الليل آخذ بالاقتراب وبعد قليل سيلفّ ظلامه الدامس كل شيء ، ويجب أن أقصّ الحكاية بسرعة لأنني لا أريد بأيّ شكل أن أفوه بهذه الأشياء أثناء الليل الداكن الظلام .

ـ ولماذا الحذر ؟

ـ لأن التلفّظ باسم الشيطان أثناء الليل هو استدعاء له فيكون حضوره دائماً نذيراً بشؤم كموت رجل مثلاً .

فارتعش راكستان، وبعد أن أفرغ كأسه دفعة واحدة قال: تكلم إذن ! فابتدأ صاحب النزل حكايته قائلاً : ترجع حوادث هذه القصة إلى زمن غابر إذ أنها تجري في عهد فيليب الثالث وهو الكونت الثالث من سلالة آل آلما . وكان هذا الرجل كما تروي الأسطورة التي انتقلت إلينا ، بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من عمره ، قويّ البنية يحبه الناس لطيبته ويعجبون بشجاعته. وفي أحد الأيام زحفت على الريف عصابات رهيبة أخذت تعيث فيه سلباً ونهباً حتى أنه لم يبقَ سيّد مهما كان الجيش الذي يحميه قوياً ، إلا ودفع جزية لهؤلاء الأنجاس .

وأخذ الكونت فيليب على عاتقه القضاء على هذه العصابات ، ولقد نجح فأبادها جميعاً ما عدا واحدة أفلتت من يده كان يرئسها جاك الملقّب بالأحمر . وكان هذا الرجل يدعى بهذا الإسم لا لأنه يحمل فقط لحية شقراء وشعراً أصهب ، بل أيضاً لأن يديه كانتا ملطختين بدماء عدد كبير من الناس الذين فتك بهم . ولقد ذهبت سدىً جميع محاولات فيليب الباسل ضدّ هذه العصابة

وراحت جسارة جاك الأحمر تزداد يوماً بعد يوم .

وفي هذه الأثناء تزوّج الكونت فيليب بابنة بارون مشهور تدعى بياتريكس وكان جمالها ذائع الصيت . عندئذ دُعي جميع سكان مونتفورتي إلى وليمة أقيمت في الهواء الطلق ، فراحوا يأكلون ويشربون مرحين . وفي أواخر الوليمة قامت الكونتيسة الحسناء تمرّ أمام الطاولات فيصفّق لها الجميع ويهتفون بحياتها ، وعندما وصلت إلى الطاولة الأخيرة شاهدت رجلاً مجهولاً لا يعرفه أحد ينتصب أمامها فجأة ، فسألته الكونتيسة قائلة : ماذا تريد ؟ فقال الرجل : أريد أن أعلن لكِ أنني مأخوذ بجمالك الفاتن ، وإذا لم تقبلي بأن تكوني لي فلسوف أهدم مدينة مونتفورتي ! فصرخت الكونتيسة بياتريكس من الرعب وهمّ زوجها والأسياد المحيطون بها بالانقضاض على هذا المتجرّىء الوقح ، إلا أن ما يقارب الخمسين من القرويّين برزوا فجأة من الطاولات المجاورة فأحاطوا بالرجل مهيئين له الهرب ثم هربوا بدورهم صارخين : ليحيَ جاك الأحمر !

فأثّر هذا الحادث على الكونتيسة تأثيراً شديداً . ولم تكد تستردّ رشدها حتى سُمع صوت بوق آتياً من بعيد . لقد كان صاحب البوق هذا نذيراً أرسله على جناح السرعة البارونات المجاورون . عندئذ أنزل الجسر المتحرّك فدخل الرجل وأخبر الكونت فيليب بأن عصائب من البرابرة يشبهون القوطيين القدماء قد غزوا إيطاليا العليا ، وأنه يترتب على كل بارون وكل كونت أن يجمع كل ما لديه من القاذفات . فأجاب الكونت فيليب الرسول

قائلاً : أخذنا علماً بالأمر ، عد إلى من أرسلك وأخبرهم بأنني سأسير غداً عند الفجر مع خمسين قاذفة .

وفي اليوم التالي سار الكونت على رأس جيشه الذي يحتوي عدا عن الخمسين قاذفة ، مائة من حملة السيوف العريضة ذات الشفارين وألفاً من الجنود والسائسين والأتباع .

وانقضت سنة بكاملها كان الكونت فيليب يحارب خلالها على ضفاف نهر البو ونهر الأديج . وعندما صُدّ البرابرة إلى الجبال عاد الكونت إلى مونتفورتي بجيش فقد الكثير من أفراده ولكنه منتصر . وكان الكونت خلال هذه السنة من الغياب عن قصره يفكر دائماً بامرأته الصبية وبتهديد جاك الأحمر لها . ولكنه لم يكن شديد القلق عليها لأن مونتفورتي في ذلك الزمن كانت منيعة على من يصبو إليها لأنها محاطة من كل صوب بصخور كأداء لا يمكن اجتيازها ، كما أن هذا المعبر الضيق الذي يوصل إليها اليوم لم يكن موجوداً من قبل .

ولكن لم يكد الكونت يقترب من مونتفورتي حتى شعر بخيبة ظنه ، ذلك أن عصابة جاك الأحمر كانت قد استولت على المدينة منذ ثلاثة أشهر وأقامت فيها ! أما الكونتيسة فقد التجأت إلى أحد الأبراج يحيط بها عدد من الحراس الذين كتب لهم الموت أو الاستسلام إلا إذا أتتهم نجدة سريعة . فيئس الكونت فيليب يأساً عظيماً لا سيما وأن طبيعة مونتفورتي الدفاعية قد انقلبت الآن ضده، ذلك أنه كان لا يوجد غير طريقين أو ثلاث من الطرق الضيقة تؤدي إلى هذه المدينة وكان يتعذّر المرور في هذه الشعاب

وحده فاضيه

لأكثر من أربعة رجال . وعندما رأى الكونت المنكود الحظ نفسه ضعيفاً ، أقام في هذا المكان ناصباً خيمته في موضع هذا النذل بالذات . وفي اليوم التالي حاول هجوماً على مونتفورتي إلا أن جنوده كادوا يتساقطون الواحد تلو الآخر دون أن يجتازوا الأسوار الطبيعية المنيعة . عندئذ أقبل الفرسان إلى الكونت وأخبروه أن كل هجوم على المدينة لن يفيد شيئاً وأنهم سينفضّون عنه في مدة ثلاثة أيام ملتجئين إلى بلد آخر . وكان الكونت فيليب يعبد بياتريكس ، لذلك فقد قرّر أن ينتحر .

هنا توقّف صاحب النزل عن الحديث فقال له راكستان : هيّا أكمل حكايتك ، إنك تروي بشكل مثير . فتابع الرجل قائلاً : لقد فضّل الكونت إذن الانتحار على ترك امرأته . ولم يعتم أن أقبل ليل بارد جليديّ فقام أحد الخدم وأشعل النار في خيمة الكونت . وكان الليل قاتماً عميق الظلام فإذا بالكونت يشاهد رجلاً جالساً إلى جانبه . وكان هذا الرجل بالرغم من القرّ يرتدي ثياباً حريرية خفيفة وينظر إلى الكونت مبتسماً ، فسأله الكونت قائلاً : من أنت ؟

فأجاب الرجل بكلمات ساخرة ثم وضع قدميه الاثنتين في الموقد في اللهيب المشتعل دون أن تتأثرا بالنار المضطرمة حولهما . ولقد لاحظ الكونت أن هاتين القدمين إنما هما ظلفان مشقوقان في وسطهما ، فعرف حالاً من هو جليسه ورسم على صدره إشارة الصليب . فقال الروح الشرير مرتجفاً : لقد عرفتني ، ولكنني أحذّرك بأنك إذا كرّرت رسم هذه الإشارة مرة ثانية فسأضطر

إلى مغادرتك وإلى جعل بياتريكس الجميلة غنيمة باردة لجاك الأحمر .

فقال الكونت وهو يصرّ بأسنانه : صه أيها الشرير !

فقهقه الشيطان ضاحكاً ثم قال : أوتريد الدخول إلى مونتفورتي ؟ أوتريد تحطيم جاك الأحمر ؟ أوتريد أن ترى بياتريكس ؟ فصاح الكونت لاهثاً : تكلّم ! ماذا تريد مني ؟ فقال الشيطان : لا شيء ، أو شيئاً طفيفاً . ويمكنني أن أمنحك الوسيلة لشقّ معبر عريض بين الصخور يتسع لمرور جيشك ويساعدك على اقتحام مونتفورتي لإنقاذ امرأتك بياتريكس . فقال فيليب : وماذا تطلب مقابل ذلك ؟ قال : أن توقع على هذا العقد . فأنا سأمنحك هذا الخاتم الذهبي الذي تضعه في إصبعك والذي سيساعدك مساعدة فعّالة على شقّ المعبر المذكور بين الصخور الضخمة . ويتحتم عليك أن تعود إلى هنا بعد عشر سنين لكي تعيد إليّ هذا الخاتم . وإذا لم تفعل فسوف تكون نفس امرأتك بياتريكس ملكاً لي .

— وإذا أعدته إليك ؟

— عندئذ أستعيد خاتمي وتصبح نفسك منذ هذه اللحظة ملكاً لي . فهل تقبل ؟

— أجل أقبل أن أوقع على هذه الوثيقة .

فتفحّص الشيطان التوقيع ثم طوى الوثيقة وأخفاها ومنح الكونت خاتماً ذهبياً وهو يقول : لا تنسَ أن تعدّ عشر سنين ليلة بعد ليلة ، فإذا انقضت ولم تقم بتعهدك فلسوف أستولي على نفس امرأتك بياتريكس !

ولم يكد ينتهي الشيطان من هذه الكلمات حتى دخل في جوف

الأرض. أما صاحب النزل فعندما انتهى من قصته هزّ رأسه وقال للفارس : يبقى عليّ أن أدلّك على الثقب الذي خلّفه الشيطان عندما دخل في جوف الأرض . فقال راكستان : إني أرغب والله في رؤية هذا الثقب .

ثم مشى وراء صاحب النزل الذي أنار قنديلًا وأخذ ينزل على درج منحوت في الصخر . فصاح راكستان قائلًا : أهذا هو القبو الذي ذكرته ؟ قال : أجل إنني أستخدم هذا النفق بمثابة قبو . هيا اتبعني !

وتابع صاحب النزل انحداره حتى وصل إلى مكان عميق يشبه البئر . وكان قعر هذه البئر مثقوباً بثقب ضيّق لا شك أنه نتيجة تسرّب المياه ، وكان قطره يبلغ طول عصا مذراةٍ أو مكنسة . وعندما أصبح صاحب النزل على مقربة من هذا الثقب مدّ يده وقال باعتزاز : أنظر ، هذا هو الدليل القاطع على اختراق الشيطان لهذه الأرض . فأخذ راكستان يتفحص الثقب وقال : بلى ، إنك على حق. ثم مضى راكستان يتفحّص بانتباه دقيق ما تبقى من البئر وهو يزداد تفكيراً بشيء غامض ، وعندما انتهى قال : هذا شيء رائع ! فانتفخ صدر صاحب النزل وقال موافقاً : أجل ، إنه شيء رائع !

عندئذ أخذ الرجلان يصعدان وعندما وصلا إلى النزل رأى راكستان أربعة خيّالة غائرين وعلى رأسهم جان مالاتيستا . وبعد بضع دقائق وصل الخيّالة ونزلوا عن صهوات جيادهم فحيّا جان مالاتيستا راكستان قائلًا : أخشى أن أكون قد جعلتك تنتظر

كثيراً . فقال راكستان: كلا ، ما شعرت بالانتظار لأنني لم أضع وقتي سدىً بل قد علمت قصة معبر الشيطان والرأس الصخريّ . فأشار مالاتيستا إلى الخيّالة الذي يرافقونه وقال : هؤلاء السادة سيكونون شهوداً على مبارزتنا . فقال راكستان: أهلًا وسهلًا بهم! فقال مالاتيستا : وهل يعجبك هذا المكان ؟ قال : إنه رائع . فقال: إذن لا يبقى أمامنا إلا مقارعة السيفين! فلم يجب راكستان ولكنه تأهّب فجأة للنزال .

معسكر قيصر

*

بعد مقابلة البابا في تيفولي بقليل، أعطى قيصر إشارة الإنطلاق وكان مدججاً بالفولاذ ومحاطاً بحرسه السويسراني ويرافقه أركان حربه الذين يبلغ عددهم العشرين تقريباً . وكان جيشه يؤلف بين معابر الجبال أفعى كبيرة متموّجة ذات جلد مصفح بالحديد ، وفي مقدّمته فيلقان من السرديّين بقاماتهم القصيرة الممتلئة ولحاهم الشائكة وعيونهم الشرسة . وبعدهم كانت تسير المدافع والقاذفات التي تجرّها بغال تلهب ظهورها سياط الكلابريّين القادمين من جنوب إيطاليا . وكان يسير إلى جانب قطع المدفعيّة هذه جماعة الملقّمين وهم ألمانٌ ضخام الجثث .

وبعد هؤلاء مباشرة كان يسير حاملو الرماح وهم نوعٌ من الطيطان كان قيصر قد عبّأهم من الفلاندريين على شواطىء بحر

الشمال . وكان هؤلاء الرجال يسيرون متجهّمين لا مبالين وهم يجهلون في سبيل من سيقتلون ، ولقد كان يتبعهم حملة البنادق الرومانيون بقاماتهم الضخمة . وبعدهم كان يسير طابور السويسرانيين بخطى متثاقلة وهم يغنّون على وتيرة واحدة نشيداً من أناشيد الرعاة .

وفي الوسط كان قيصر يسير على حصانه ومن خلفه فرق الجنود الغرباء ، ثم فرق الخيالة المصفّحة بالفولاذ اللامع ، ثم العربات التي تختم هذا الموكب وهي محمّلة بصناديق الذخيرة والخيام والمؤن ، ترافقها كتائب الخيّالة الخفيفة من الرومانيين الممتطين أحصنة صغيرة والمسلّحين بدروع وسواطير ذات حدّين .

وكان لهيب مضطرم يلمع في عيني قيصر الذي أحسّ أنه في الجوّ الذي تعشقه نفسه ، ولكنه كان كئيباً بالرغم من لذّة السير إلى المعركة وبالرغم من ثقته الكاملة بالانتصار الذي سوف يجعله ملكاً . وكان اسمان يعودان بإلحاح إلى ذهنه فيتمتمها بحقد وغضب : وهما اسما راكستان وبريفيرا .

أما خلفه فقد كان رجال الحاشية يتحدّثون بغبطة وفرح عن هذه الحملة ، فيسمع قيصر أحاديثهم التي تدور حول النهب والسلب اللذين أعدّوا لهما العدّة . وكان قيصر يقطع بين المتخاصمين بكلمة واحدة موزّعاً بينهم الأسلاب والغنائم المنتظرة ، فينفجر الجميع ضاحكين لفكرة الحصص الغنية التي تنتظرهم .

وكان قيصر من وقت لآخر يتصل بلوكريس بورجيا التي كانت تجلس مرتاحة في مركبة يرافقها الحرس ، والتي كانت تقضي جلّ

وقتها وهي تقرأ أو تحلم . وكان الراهب كاركونيو يسير قريباً من باب مركبتها وهو ما يزال شاحب اللون بسبب جرحه ، فما جعلت لوكريس تتحدث إليه بصوت منخفض فلا يسمعها أحد ولا يعرف ماذا يقولان .

وراح الجيش يتقدم مراحل طبيعية منتظمة . وبعد أيام عديدة من السير البطيء توقف عند المساء في حقل فسيح حيث نصبت الخيام بترتيب ملحوظ . وكان هذا الحقل يفضي بطرفه إلى المعابر المحاطة بالصخور والموصّلة إلى مونتفورتي . وعندما دلّ قيصر جنوده السويسرانيين على هذه المعابر شرعوا يحتفون مصفّقين له .

وفي مساء اليوم الثاني أراد قيصر أن يرى أخته ، ولكنه لم يجدها في خيمتها . وعندما افتقدها في اليوم اللاحق ظهر له أن لوكريس قد اختفت ، فظنّ أنها خافت وفضلت العودة ، وأمر أن يُحضر إليه كاركونيو ليسأله عن شقيقته فمضى الجنود يفتشون عن الكاهن ولكن محاولتهم ذهبت سدىً لأنه هو أيضاً كان قد اختفى فلم يُعثر له على أثر .

المبارزة

*

عندما كان راكستان في طريقه إلى الموعد مع جان مالاتيستا كان يشعر حقيقة باليأس ، وكان مستعدّاً لتسليم نفسه لسيف خصمه

لأنه قرّر أن يضع حداً لحياته التي بدت له تافهة بعد أن أفلتت بريفيرا من يده. وكان راكستان يقرّر هذه الأشياء في نفسه دون أن يحسب حساباً لغريزة الحياة ودون أن يعير انتباهاً لمزاجه الخاص. لذلك فها نحن نراه عند بدء المبارزة يسلّم صدره لخصمه، ولكنه لم يكد يشعر بأول ضربة محكمة تقع على سيفه حتى تحفّز مستجمعاً قواه.

ولم تستيقظ في نفسه غريزة الحياة وحدها بل أيضاً فضوله كسيّاف، ذلك أن جان مالاتيستا كان خصماً لائقاً به فقد استثار إعجابه بالطريقة التي نزل فيها إلى الحلبة وبتحريكه الرائع للسيف، حتى أن راكستان الذي كان من الممكن أن يرتضي الموت على يد سيّاف أخرق، شعر الآن بكامل حميّته تعود إليه بعد أن رأى أنه مهدّد بالموت حتى في حال مدافعته عن نفسه. لذلك فها نحن نراه وقد اندمج في جوّ هذه المبارزة متحمساً لفن خصمه: وهذا ما أنقذه فراح يتلاعب بسيفه بهدوء عجيب وبخفة فائقة كمبارز رهيب، وكان مالاتيستا يقارعه ضربة تلو أخرى، ولكنّ راكستان كان قد قرّر ألا يجرح هذا الشاب، بل يكتفي بالدفاع عن نفسه وبأن يصدّ عن ذاته الضربات. ولقد مرّ شوط أول راح الخصمان يتبادلان فيه ضرباتهما الرشيقة التي استثارت إعجاب الشهود. غير أن هؤلاء لم يلبثوا أن فهموا خطة راكستان فازداد إعجابهم به، ذلك أنه تهيّأ للفارس مرتين أو ثلاث الفرصة السانحة لجرح خصمه حتى الموت، ولكنه كان يأبى أن يفعل مكتفياً بالقيام ببعض الحركات الفنيّة.

ومرّت ثلاث محاولات، وفي الرابعة أرسل راكستان رشقاً من الضربات المزدوجة فعقل سيف مالاتيستا وأطاح به من يده. وكان مسموحاً في ذلك الزمن المنصرم قتل الخصم المجرّد من سيفه، لذلك فقد رأينا مالاتيستا يقف مكتوف اليدين ويقول بمرارة يائسة: إنك تنتصر يا سيدي في جميع الحقول، فهيّا اقتلني!

عندئذ اعتبر الشهود مالاتيستا رجلاً ميتاً، إلا أن راكستان تراكض إلى سيف الشاب فالتقطه ثم عاد إلى مالاتيستا وقدّمه له من مقبضه. وعندما شاهد الحيّالة الحاضرون هذه البادرة الطيبة النبيلة لم يستطيعوا أن يمتنعوا عن التصفيق. أما مالاتيستا فقد شعر بانقلاب حقيقيّ يحدث في نفسه، فإذا به يسمّر في مكانه طيلة بضع ثوانٍ وهو مذهول متردد، ولكنه لم يلبث أن فتح ذراعيه لراكستان الذي انتصر عليه بأريحيته وشممه، فوثب راكستان وألقى بنفسه بين ذراعي خصمه الذي راح يردّد قائلاً: أحبيها! أحبب بريفيرا لأنك أهل لها. فأجابه راكستان قائلاً: رويدك يا صديقي، إنني أفضّل الجحيم على أن ألحق سوءاً برجل مثلك كامل الصفات. ولشدّ ما أنت مخطىء أن تظنّ أنني أسعد منك حالاً بالنسبة لحبها.

لقد تبادل الاثنان هذه الكلمات بصوت منخفض، فهزّ مالاتيستا رأسه ثم أمسك بيد راكستان وقال: إليكم أخي أيها السادة. ولشدّ ما كانت هذه الكلمة على فم المغلوب تضاهي بجمالها حركة راكستان التي دلّت على الشهامة. وكان من الصعب في هذه اللحظة الحكم على من هو أروع بين الاثنين، إلا أن جيوليو

أورسيني اختصر مشاعر جميع الحضور بقوله : الآن أصبح الفارس أخاً لنا جميعاً لأنه سيحارب بيننا ومعنا ولأجلنا

وكان لهذه الكلمة البسيطة وقعها في نفس راكستان وأثرها البالغ في تقرير مصيره. فقد كان في اللحظة السابقة يكرّر في نفسه بأنه سيهجر إيطاليا بعد المبارزة لأن زواج بريفيرا كان قد تركه ولا رابط يربطه بهذه الأرض . غير أن كلمات أورسيني أوثقته برباط جديد، لأنه بات يشعر أن الذهاب إنما يعني التراجع والهرب، وكان راكستان يقبل كل شيء ما عدا أن يُقال لقد هرب . لذلك فقد اتّجه إلى الحاضرين وقال دونما تردّد : أيها السادة ، إنه لمجدٌ وشرف عظيم لي أن أنتصر أو أن أموت برفقتكم الغالية !

الصفصافة الباكية

*

في مساء اليوم الثاني رُسّخت المصالحة بين راكستان وجان مالاتيستا على عشاء أقيم في قصر أورسيني . وفي الصباح مضى راكستان برفقة أصدقائه الجدد لمقابلة الكونت آلما حيث أطلعه على قراره بالبقاء والمحاربة جنباً إلى جنب مع الحلفاء ، فسرّ الكونت وعرض على الفارس عروضاً كبيرة غير أن راكستان ظلّ مصرّاً على قبول الخدمة كمتطوع فقط ، ولكن الكونت ألحّ عليه لكي يقبل منصباً يريد أن يمنحه إيّاه ، عندئذ قال

راكستان : ما دام سموّ الكونت يريد أن يشرّفني بلقب ومركز أختاره فأنا أعلم أن في مونتفورتي عدداً من قطع المدفعية وإنني أطلب أن توضع تحت إشرافي .

وهكذا قضى راكستان النهار مع أصدقائه فزاروا معاً جميع القلاع المحصنة واتفقوا على خطة للدفاع سيعرضونها على الأمير مانفريدي في حالة محاصرة المدينة . وفي المساء بعد العشاء قام راكستان إلى مقرّه الذي وضعه أورسيني تحت تصرفه فوجد بانتظاره سباداكاب الذي استقبله قائلاً: ألن نترك إيطاليا يا سيدي؟ فقال : كلا ، ليس اليوم على الأقل . فقال سباداكاب: وهل كفّ سيدي عن فكرة الاستسلام للقتل ؟ فأجابه راكستان قائلاً : ومن أخبرك بأنني عزمت مثل هذا العزم المضحك ؟ قال : هكذا خيّل إليّ . على كل حال ما دمتَ حياً ترزق وما دمتَ لن تتركني فدونك الجواهر ، إنها في المدخنة . فقال راكستان : أهذا هو قصدك ؟ لقد أصبحت شريفاً أكثر من اللزوم ويجب أن تحترس لأن هذا قد يسيء إليك .

عندئذ أخذ راكستان يربّت على كتف سباداكاب متأثراً من عزّة نفسه ، وعندما أراد هذا أن ينسحب أوقفه راكستان وجرى بينهما حديث انتهى بهذه الكلمات التي فاه بها سباداكاب : حسناً يا سيدي ، سأبدأ منذ هذه الليلة...

*

وانقضت عدة أيام كان راكستان خلالها يأتي إلى القصر كل صباح مع جماعة القوّاد، وإذا حصل له أن يلتقي بالأميرة مانفريدي

فقد كان ينحني أمامها دون أن يتبادلا كلمة واحدة. وكان الفارس كل مساء ينهمك بعمل غريب إذ يرافق سبادا كاب الذي يخرج من مونتفورتي بعربة مغطّاة بقماش سميك ، ولم يكن أحد يلاحظ خروج الفارس من المدينة كل يوم خروجاً مستمراً . وكان جيش الحلفاء محصوراً في سهل كبير يقع أمام معبر الشيطان ويدعى سهل « بيانوزا » . وفي هذا السهل بالذات كان قيصر يجمع هو الآخر عساكره ، حتى أن المعسكرين كان يقابل أحدهما الآخر مفصولين فقط بفرسخ من الأرض .

وبينما كان راكستان عائداً إلى مونتفورتي في مساء أحد الأيام على أثر جولة من جولاته الغامضة الغريبة، شاهد شبح امرأة تراءى له أنه يعرفها ، فدفع حصانه باتجاهها ، ولكن زحمة من الناس اعترضت طريقه عند زاوية الشارع حيث شاهد الشبح السائر في الطريق ، فحاد عن الناس لكي يتابع مطاردة المرأة ولكنها كانت قد اختفت . فأخذ راكستان يقطع الشارع ذهاباً وإياباً ويدخل في الشوارع الصغيرة المتفرّعة عنها ولكن سدى دون أن يعثر على شيء . عندئذ تابع طريقه وهو يهمهم في نفسه قائلاً : هل هي مجرّد رؤيا ؟ كلا ، هذا مستحيل !

ثم مرّ يومان أو ثلاثة ، وفي مساء اليوم الرابع أعلن الأمير مانفريدّي والكونت آلما عن عزمهما على الهجوم في اليوم التالي على جيش قيصر . ثم حُدّد موعد اللقاء لجميع الأسياد وقد ذكر أن الكونت آلما والأمير مانفريدّي سيكونان عند الفجر في ساحة الشرف. أما هذه القرارات فقد أخذت في اجتماع حضره راكستان

وحضرته أيضاً بياتريكس .

وبعد الاجتماع قام راكستان إلى عدّة فرسه فتفحّصها وإلى سلاحه فتأكد منه ، ثم تعشّى بشهيّة كبيرة . وبعد العشاء أراد أن ينام ولكنه شعر بأن النوم بعيد عن جفونه ، ذلك أن فكرة بريفيرا قد استولت عليه . فراح يفكر بأنه قد يموت في هذه الحرب التي ستعلن بعد ساعات ، وها هوذا يتمنى أن يرى بريفيرا نظرة أخيرة ليخبرها كم تألم من أجلها. ولم يستطع أن يتحمّل أكثر من هذا فخرج حالاً وتوجّه بشكل آليّ نحو قصر الكونت. وكان القصر مغلقاً فراح يمشي قريباً من سياج الحديقة . ثم توقف بعد لحظة وحاول أن يخترق ببصره حجب الظلام الكثيف الذي يغلف جميع الأجسام والأشجار القائمة ، ولكنه لم يبصر شيئاً في أرجاء الحديقة الواسعة حيث يخيم السكون والهدوء والصمت . وفجأة شرع راكستان يتسلّق السياج . ولكن إلى أين يا ترى؟ هو نفسه يكاد لا يعلم وجهة سيره والنهاية التي سيقف عندها . وإذا به واجد نفسه أمام مقعد الكرانيت حيث رأى سابقاً الأميرة مانفريدّي . وإذا بالأميرة جالسة هناك !

وقف راكستان في ظل شجرة ملتفة الأغصان وأمامه حوض من العشب أنارته أشعة القمر ، وفي الجهة الثانية من هذا الحوض تحت الصفصافة الكبيرة تراءى له شكل الأميرة الجالسة وحيدة هناك . فلم يفكر راكستان بشيء إلا بوجودها أمامه ، لذلك فقد تقدّم نحوها مباشرة . وسرعان ما عرفته بريفيرا التي سمعته يقول : اغفري لي يا سيّدتي جرأتي على الوقوف أمامك في مثل هذه الساعة.

فأجابت بريفيرا تقول: إنني غافرة لك بطيبة خاطر ، ولكن كيف استطعتَ الدخول إلى هذه الحديقة؟ فقال راكستان ببساطة: لقد تسلقت سياجها . فندّت حركة عن الأميرة ، فأضاف راكستان قائلاً : أرجوك يا سيدتي ألا تفسّري سلوكي تفسيراً سيئاً ، لأن قلبي مليء بالاحترام لك . فقالت بريفيرا مبتسمة : ولكنه احترام يدفعك إلى المجازفة . فقال : إذا أمرتِ فإنني أنسحب . قالت : كلا ... أريدك أن تبقى . فأنا لست بمؤاخذةٍ عملكَ هذا ، ولا شك أن لديك أشياء هامّة ستقولها لي ؟ قال : أريد أن أقول لك فقط بأن القتال سيبدأ غداً ولسوف أكون في الصف الأول من المعركة ، وإنه لمن المرجح كثيراً أن تكون هذه الليلة آخر مرة ترينني فيها . وإنني أجد من واجبي أن أخبرك بأنني إذا متّ غداً فسأكون سعيداً بأن أعطيك حياتي التي أضحّي بها في سبيلك وفي سبيلك وحدك . وإنّ فكرتي الأخيرة ستكون لك كما كانت لك جميع أفكاري منذ الساعة المباركة التي التقيت بك فيها . وأخيراً أريد أن أقول لك يا سيّدتي بأنني أحبك .

فلم يصدر عن بريفيرا أيّة حركة احتجاج على هذا التصريح ، فتابع راكستان بصوت منخفض يكاد يختنق وقال : هذا ما كنت سأقوله لك يا سيدتي، فاغفري لي صراحتي القاسية إذ أنني لا أعرف تزويق عواطفي المختنقة كما يفرضه عليّ احترام الأميرة مانفريدي . وإنه لمن القسوة بمكان أن تُمنع عني السعادة المرّة بأن أبوح لك بشقائي .

– شقائك أنت ؟ فتابع راكستان بصوت يرتجف قليلاً ،

وقال : إنه لشقاء كبير ! ذلك أنه كان بإمكاني أنا الفقير أن أحب فتاة فقيرة مثلي ، وكان بإمكاني ألا أعشق غير حرّيتي واستقلالي ، ولكن كلا ! فقد جعلني القدر ألتقي بك ، ومنذ ذلك الحين انتهى كل شيء بالنسبة لي . ولكن أية وسيلة كان عليّ أن أفعل لأردم الحفرة التي بيننا ؟ وسرعان ما تملّكني اليأس . اليأس الذي كنت فيه محقّاً لأنك أنت نفسك قدّمت لي البرهان الساطع على جنوني بزواجك من الأمير مانفريدّي .

فمدّت ذراعها تريد أن تستوقفه وقد ظهر لها صراع عنيف في داخلها ، ثم انعقدت عيناها بعيني راكستان ولفظت بلهجة واثقة قائلة : الأمير مانفريدّي ليس زوجي. فألمّ دوار برأس راكستان، وخشي أن يكون لم يفهم كلامها ، فسألها متلعثماً : ماذا تقصدين يا سيدتي ؟ فقالت : أكرر لك أيها الفارس بأن الأمير مانفريدّي بشهامته ورفعته قد رضي أن يعتبرني خطيبته فقط . فأحسّ راكستان بأن السماء تنفتح أمام عينيه . أما بريفيرا فقد تابعت قائلة : لقد اخترت الأمير زوجاً لأنني رفضت أن أتزوج أحد الأسياد الذين لمّحوا لي بعواطفهم . وها أنذا الآن خطيبة الأمير مانفريديّ لثلاثة أشهر ، فإذا كان الزوج بعد هذه المدة سيتغلب على عاطفة الأبوّة التي كان الأمير يحملها لي فسوف ...

هنا توقفت بريفيرا متأثرة بالاعتراف الذي يتلجلج على شفتيها . فتمتم راكستان ممتلأ من الفرح : هيّا أكملي ! فتابعت بريفيرا قولها : : فسوف يجمع الموت أيها الفارس بين من فرّقتهم الحياة .

عندئذ همهم راكستان بصوت خافت ثم ركع على ركبتيه

وراح يملأ بدموعه وقبله اليد الممدودة إليه . هنا قالت بريفيرا : الآن امضِ أيها الفارس ، واعلم إذا سقطت غداً في المعركة أو في معركة أخرى بأن فكرتك وفكرتي هما شيء واحد . فنهض راكستان وقال بصوت ملتهب : سأذهب الآن ، ولكنني لكي أحصل عليك سأقلب عالماً بأجمعه .

وفي الوقت نفسه كان ذراعاه قد [redacted]
وكان [redacted]
في شبه إغماءة من [redacted]
بينما راح راكستان يهرب من الحديقة مشرد العقل والقلب .

وبعد ساعة عادت بريفيرا إلى غرفتها . وكنّا قد رأينا أن مقعد الغرانيت متصل بكتلة من الرخام يقوم فوقها تمثال رائع وإلى يساره ، خلف المقعد ، جذع صفصافة معمّرة باكية تتدلّى أغصانها اللدنة من كل ناحية مغطية بظلها المقعد والتمثال ، وكان جذع هذه الصفصافة العتيقة مثقوباً ومجوّفاً . وبعد ذهاب بريفيرا بدقائق ظهر ظلّ ذلك الجذع مزدوجاً ... أو أن ظلاً صامتاً قد انفصل عنه : إنه ظل امرأة !

لقد رافقت هذه المرأة بنظرها شبح بريفيرا المبتعدة في ظلمة الليل ، ثم إذا بها تقول ساخرة : يا للعشيقين السعيدين ! ولكنهما لا يفكران بالمأساة المظلمة التي تنتظرهما !

ثم اتجهت هذه المرأة مسرعة نحو قصر الحديقة حيث كان هناك باب ينتظر بالقرب منه رجل من خدّام القصر . وعندما اقتربت المرأة من الرجل مدّت إليه كيساً من النقود فتلقّفه وقال وهو

يفتح لها الباب لتمرّ : هل أنتظر غداً أيضاً حضرة السنيورا ؟ فقالت : أجل ، غداً وفي كل مساء ، كما انتظرتني البارحة واليوم .

ثم سرعان ما اختفت المرأة في الشوارع المظلمة .

بعد المعركة

*

وفي صبيحة اليوم التالي في سهل «بيانوزّا» ، وقع الاصطدام بين جيش بورجيا والقوات الحليفة . وكانت نتائج المعركة غير واضحة فقد كان همّ قيصر الدخول في المعبر المؤدي إلى أبواب مونتفورتي والذي يُعتبر الطريق الوحيدة السالكة التي تصلح لعبور الجيش . وقد انحصر همّ الحلفاء في الدفاع عن جانبي هذا المعبر الذي أطلق عليه اسم معبر الشيطان أو معبر الجحيم .

وإذا كان قيصر لم يستطع في هذا الاحتكاك الأول الاستيلاء على المواقع التي تجعل المعبر في قبضته فقد كان من الواضح أنه سيحصل على هذه النتيجة بعد وقت قصير ، لأنه كان يملك عشرين ألفاً من الرجال مقابل اثني عشر ألفاً يقدّمها الحلفاء . وبالإضافة إلى هذا العدد فقد كان قيصر ينتظر إمدادات جديدة .

وعند بزوغ الفجر عندما أعطى الأمير مانفريدّي إشارة الهجوم شوهدت امرأة ترتدي ثياباً بيضاء تقطع جبهة الحلفاء على صهوة حصان هائج ! هذه المرأة هي بريفيرا التي راحت بطرف

سوطها تشير إلى جيش قيصر الذي أخذ ينتشر في خطوط طويلة متموّجة وفي صفوف كأنها البنيان المرصوص ثم شرع يسير إلى الأمام .

عندئذ كنت لا تسمع في رحاب السهل الواسع سوى وقع أقدام الطوابير السائرة وجلبة أصوات القادة المتكررة ألف مرة . وبعد قليل التحم الجيشان . فجرى القتال بادىء الأمر بنظام ، إلا أن جيش قيصر استمرّ لا يتقدم ولا يتأخر حتى الساعة الرابعة . عندئذ أخذ النظام ينفقد قليلًا فقليلًا فإذا المعركة الواحدة تتجزّأ إلى عشر فإلى عشرين من المعارك الصغيرة المنفصلة .

وكانت الساعة قد أشرفت على الرابعة عندما قرّر قيصر أن يوجّه ضربته الفاصلة . وكان قيصر هذا منذ الصباح يجتاز حقل المعركة ذهاباً وإياباً على حصان أسود ملطخ بالدم حتى صدره ، شاهراً سيفه المخضّب بالدم حتى مقبضه . لذلك فقد جمع حوله فيلق السويسرانيّين وفيلقي السرديّين ، وبعث غمامة من الخيالة ليكنسوا أمامه الحقل ، ثم سار مباشرة نحو المعبر . فوقف الأمير مانفريدي في وجهه وبرفقته فيلقان أو ثلاثة فيالق فقد أكثر جنودها . وبعد إشارة من قيصر اشتعلت المعركة بعنف : ضرباتٌ تغور وتصطكّ وتنتزع الزفرات ، وشتائم تترى تمزّق الأفق ، وصراخ من الرعب والحنق يرتفع في كل مكان .

وفجأة ارتفع ضجيج رهيب غطى على كل شيء ، بينما كانت فرق مانفريدي تتراجع ، وبينما كان الأمير المدرع بالفولاذ يصرخ صراخاً يائساً وهو مكشوف الرأس لأن خوذته كانت قد تدحرجت

على الأرض . وكان الامير يعاني آخر محاولاته ، وقد تراءى له أن مرور قيصر إنما معناه سقوط مونتفورتي . في هذه اللحظة بالذات سمع قيصر دويّ رعد هائل وشاهد مائة من الخيّالة يشقون عباب فيالقه وعلى رأسهم فارس يجري كالبرق فيتقدمهم مسافة عدد من الرماح ، ولم يكن هذا الرجل يرتدي غير درع جلدي ولم يكن يحمل غير سيفه : إنه راكستان !

وعندما اقترب راكستان من السويسرانيين المحيطين بقيصر أخذ يلمز بمهازه حصانه كابيتان لمزاً مضاعفاً ، فإذا بكابيتان يهيج هياجاً عظيماً ويقف على رجليه ويثب ويلبط الأرض لبطاً مخيفاً حتى شقّت أمام راكستان طريق عريضة ، فهجم عندئذ راكستان على قيصر دون أن يتوقّف أو يتلكأ لأنه فهم أن مصير المعركة متعلق بهذه اللحظة . أما السويسرانيون فقد شرعوا يدرأون عن أنفسهم بصعوبة فائقة ضربات كتيبة راكستان التي راحت تصعقهم صعقاً . وعندما دنا راكستان من قيصر صاح به قائلا: إليك يا غبطة مولاي ! فجأر قيصر قائلا : أيها الخائن ! لسوف تموت .

ثم رفع سيفه ليهوي به على راكستان الذي يتحدّاه ، فكشفت هذه الحركة عن كتفه قليلًا ، فإذا بسيف راكستان يخترق كتف قيصر فيترك لجام حصانه ويهوي على الأرض . عندئذ أخذت حشود السويسرانيين تتفرّق شذر مذر وقد زأر راكستان فيهم زأرة الانتصار . غير أن راكستان شاهد في هذه اللحظة خيّالاً ضخماً يجيل بيده رمحاً ثقيلًا ويهجم نحوه ، فرمق بنظرة عين سريعة جماعة السويسرانيين فرآهم هاربين وهم يجرون معهم قيصر بورجيا وقد

اندفع في أتون خيالته الأشداء . فاستدار عندئذ نحو الرجل الضخم وقد أصبحا الآن وحيدين في مساحة واسعة خضّبتها الدماء وتكدّست فيها جثث المنازعين والقتلى . وسرعان ما انحرف راكستان الذي لا يرتدي درعاً يُثقل كاهله عن طعنة مهاجمه الذي ظلّ مندفعاً إلى الأمام بتأثير سرعته وثقله ، فهجم راكستان عليه في هذه اللحظة بالذات ووصل اليه ببعض قفزات . ولم يكد هذا المصارع الضخم يحاول الرجوع إلى خلف حتى صرخ صرخة مرعبة لأن سيف راكستان كان قد اخترق عنقه . وسرعان ما تدحرج الرجل إلى الأرض ففرّ حصانه شارداً وانفصلت خوذته عن رأسه فعرفه راكستان وقال : يا للمسكين ، إنه أسطور ! فأجابه أسطور يائساً : أجل ، لقد جئت كما ترى أفتّش عن الضربة الثامنة من سيفك. فقال راكستان متأثراً : إنني آسف أيها البارون. فتمتم أسطور لاقفاً أنفاسه : ولكنها الضربة الأخيرة .

ثم تقلّص جسمه والتصق بالأرض وجحظت عيناه وبقي دون حراك إلى الابد . عندئذ تمتم راكستان قائلا : يا للشيطان البائس ! ثم عاد صامتاً مفكراً نحو جبهة القوات الحليفة فإذا به يسمع هتافات عنيفة تستقبله . فتعجّب ونظر حوله فعلم عندئذ أن الهتاف يستهدفه . ولم يكد ينزل عن صهوة حصانه واضعاً قدميه على الأرض حتى شاهد الأمير مانفريدّي يتقدم منه فاتحاً ذراعيه ثم يعانقه قائلا : لقد أنقذتنا !

ثم تعاقب على معانقته الكونت آلما وجيوليو أورسيني ومالاتيستا الجريح وعشرون آخرون . وكانت بريفيرا على أكمة

قريبة تنظر إلى هذا المشهد وهي ممتطية حصانها . إلا أن امرأة ثانية كانت تراقب جميع مراحل المعركة عن صخرة عالية بعيدة، وعندما شاهدت هذه الامرأة انتهاء القتال قفلت راجعة إلى مونتفورتي : هذه المرأة هي نفسها تلك التي رأيناها مختبئة في جذع الصفصافة الباكية المعمّرة ، مستمعة إلى اعترافات بريفيرا وراكستان .

*

كان جيش الحلفاء قد قاسى آلاماً مبرّحة وخسائر في الأرواح جسيمة ، إلا أن الخطر قد أبعد موقتاً إذ أن بعض الجواسيس قد أخبروا القوم أن جرح قيصر كان كبيراً وأنه لن يستطيع مباشرة أي شيء جديد قبل أيام عديدة . لذلك فقد عاد الكونت آلما والأمير مانفريدّي وبعض الأسياد إلى مونتفورتي لإعداد المقاومة التي كان من الواجب الاهتمام بها ، وبقي الآخرون حيث هم لأن الاقتناع كان سائداً بأن قيصر سينتهي باجتياز معبر الجحيم . وكان راكستان من الذين انتُخبوا للعودة إلى مونتفورتي .

*

في مونتفورتي كان الليل قد أرخى سدوله ، فتناول راكستان طعام العشاء برفقة جيوليو أورسيني ثم دخل ليستريح في غرفته ، فإذا سبادا كاب يدخل عليه قائلا : يا سيدي ، في الباب امرأة تريد أن تكلّمك . فقال امرأة ؟ قال : نعم ، وهي محجبة . فقال : دعها تدخل .

فدخلت المرأة ، وبهدوء تامّ نزعت الحجاب عن وجهها ، فصاح راكستان مذهولاً : لوكريس بورجيا ؟ ! قالت نعم : هل هذا

بغير عجبك ؟ أما زلت حاقداً عليّ بعد أن تخاصمنا في القصر الضاحك ؟ فكرّر راكستان قائلاً : دوقة بيزاقلية ؟! فقالت لوكريس ضاحكة : كلا يا عزيزي إنك مخطىء ، لأنني لم أعد دوقة بيزاقلية. الدوق المسكين أصيب بحادث وقد أصبحت أرملة! فقال : ولكن يا سيدتي إغفري لي تعجبي ، بأية جرأة دخلت إلى مونتفورتي ؟ فقالت لوكريس : أجل ، إني أوافقك على أن الأمر غريب ، فبينما يحاصر الأخ مونتفورتي تدخل الأخت إليها لزيارة غالب قيصر . فصاح راكستان حانقاً يقول : وهل فكّرت بالعواقب لو شاهدك أحد هنا ؟ فقالت : فكّرت بها جيداً أيها الفارس ، وإني أفكر أيضاً بأنك تحتاج إلى صرخة واحدة لكي يُقبض عليّ ، فهيّا أيها الفارس ، هيّا اصرخنْ ! ويا حبذا لو تفعل ! فأجابها راكستان بإباء قائلاً : أنت هنا يا سيدتي في أمان كأنك في القصر الضاحك ، ولكنني لا أعتقد أنك جئت إلى هنا فقط لإهانتي فهل يمكنك أن تشرحي لي الهدف من زيارتك الغريبة هذه ؟

— ما جئت لإهانتك أيها الفارس . ثم ابتسمت قائلة : أنا أعلم أن إهانتك تكلّف غالياً . فقط أردت أن أهنئك أنا أيضاً على الانتصار ، ألا ترى هذا طبيعياً ؟

— أرجوك يا سيدتي أن تكفّي عن مثل هذه المداعبة . فهتفت لوكريس بصوت حزين تقول : أو تعتقد أنني أمزح؟وهل في الأمر عجب بأن أهنئك لأنك جرحت أخي ؟ إذن اعرف لوكريس معرفة كاملة : لشدّ ما كانت تهانئي لك أكثر حرارة لو

أنك قتلته !

— ماذا تقولين أيتها السيدة ؟

— أصغِ لي جيداً ! أو تريد أن تعرف لماذا جئت إلى هنا ؟ جئت أكرر عليك للمرّة الأخيرة ما قلته لك في القصر الضاحك ، إنك لترى كم أنا قوية ... إيه راكستان لقد عرفت فيك الرجل الذي يستطيع أن يكون سيدي في الوقت الذي أريد فيه أن أكون سيدة إيطاليا . وها أنذا جئتك قائلة : لقد حلمت لوكريس بورجيا حلماً كبيراً ، ولقد هيأت لوكريس بورجيا كل شيء ، ولسوف تصبح لوكريس بورجيا ملكة ، فهل تريد أن تكون الملك ؟ وهل تريد أن تحكم في آن واحد على لوكريس وعلى إيطاليا؟ جئت أعرض نفسي عليكَ مقدّمة لك التاج كمهر فهل تريد القبض عليه ؟ وجئتك بحبّ امرأة احتقرت كثيراً من الملوك فهلاّ قبلتَ هذا الحب ؟ لا تظنّ أن ما أعرضه عليك هو من وساوس خيال امرأة ، ويمكنك أن تتأكد أن معظم قادة قيصر يخضعون لأمري فقل كلمة واحدة لكي يكملوا كل شيء : فيقضي على قيصر وتستلم أنت قيادة الجيش ثم تنقض على هذه القلعة الحقيرة مونتفورتي وتقلبها ، فنتوجه عندئذ نحو روما حيث يتوّجك البابا ، وإنني لأعرف الوسائل التي ترغمه على طاعة أمري . ومن ثم نُخضع بالقوة بعض الأمراء الصغار وبعض الكونتات والبارونات الذين يجزؤون إيطاليا فتصبح إيطاليا كلها لنا ، وتصبح روما عاصمة مملكة أنت فيها الملك وأنا الملكة . عندئذ يمكننا إحياء هذه المدينة المتماوتة ، وإننا لنمثّل مجتمعين العظمة والقوة والجمال .. هذا ما جئت

أعرضه عليك فهل تقبل ؟

فقال راكستان بلهجة فاصلة: كلا ! أعتقد أيتها السيدة أننا لن نتفق أبداً . وثقي أنني معجب بصلابتك وبالأحلام التي يرقى إليها طموحك . فاحمرّت لوكريس من الغضب ظناً منها أن راكستان يريد أن يعارضها بيريفيرا وقالت : فما الذي يقف في وجهك ؟

غير أن الفارس كان أعزّ من أن يُثير هذه الجرمة الواقفة أمامه ، فقد كان يرجو إبعادها وهي هادئة ، إلا أنه كان لا يعرف لوكريس معرفة جيّدة . على كل حال فقد قال لها بلهجة عذبة : الذي يقف في وجهي هو أنني بالحقيقة لست أهلاً لهذه المطامح العالية . وأرجو أن تصدّقي أيتها السيدة أنك لن تجدي في هذا المكان الرجل الذي يستطيع مساعدتك على تحقيق أحلامك .

– لقد نسيت أيها الفارس أن تذكر عقبتين رئيسيّتين لقبولك .

فأحسّ راكستان بدنوّ العاصفة وقال : وما هما ؟

– العقبة الأولى هي أنك لا تحبّني لأنني أستثير نفورك ، ولأنك تراني غولاً أو عاهرة كما قلت لي من قبل .

– ماذا ؟ أتتذكرين كلمات قلتها في ساعة نزق وغضب ؟

– أما العقبة الثانية فهي أدهى أيضاً وهي في الواقع العقبة الحقيقية ، إذ أنك تحب ابنة الكونت آلما ! فها أنذا أطرح عليك السؤال مرّة أخيرة : هل أنت من جانبي ؟

– إنني يائس من قصوري عن تتميم رغبتك .

– حسناً إذن ، دعك من هذا الكلام . ولكنني أريد أن

احذّرك من أنك أهنتني إهانة خطيرة ، وإن من يُهينني لسوف يندم .

فمكث راكستان صامتاً ولم يجب ، فنظرت لوكريس إليه وهي شاحبة الوجه مرتجفة الشفتين وأضافت قائلة : أما انتقامي فسيكون هذه المرّة كاملاً لأنه سيقع عليكما معاً .

هنا وثب راكستان نحوها وقال بصوت منخفض لا يُفهم تقريباً : إسمعي : يمكنك أن تحاولي ما تشائين ضدّي : السمّ والخنجر والجريمة وإنني أقبل منك كل شيء . أما هي فإنني أحذّرك بدوري من أنه إذا أصابها شرّ فلسوف تموتين ! إذهبي الآن، لم يبق لدينا ما نتحدث به . فقالت لوكريس بابتسامة غامضة: سأذهب ! وسأترك مدينة مونتفوني التي دخلتها والأمل في قلبي ، ولن يلبث أن يقع انتقامي عليك ! عليك وحدك لأنها « هي » بريئة ! ثم أعادت لوكريس الحجاب على وجهها وخرجت ، وراح راكستان يسأل نفسه إذا لم يكن حلم ، إلا أن ظهور سبادا كاب أكد له حقيقة هذه الزيارة عندما قال له : المرأة التي خرجت من هنا يا سيدي ...

– ماذا بها ؟

– إنها كريهة ... أنظر !

ثم فتح سبادا كاب يده المليئة بالدنانير .

وحده فاضيه

*

في صبيحة اليوم الثاني دُعي راكستان لمقابلة الأمير مانفريدّي في قصر آلما ، وكان الكونت آلما حاضراً . فقال مانفريدّي : إقترب أيها الفارس لنهنئك أكثر مما استطعنا البارحة . فأضاف الكونت آلما قائلاً : أجل ، لقد أنقذتنا . فقال راكستان : لقد حاربت فقط كجنديّ يقوم بواجبه . فصاح الأمير مانفريدي بحرارة يقول : كلا، لقد حاربت كقائد ذي خبرة إذ رأيتَ وحدك نقطة الضعف ، ولولاك لكان جيش قيصر على أبواب المدينة .

فانحنى راكستان انحناءة احترام فيما تابع الكونت قائلاً : فكّرنا أن نقدم لك مكافأة تليق بعملك الباهر . فأغمض راكستان عينيه برهة مفكراً بأن مكافأته الكبرى كانت رؤية بريفيرا له أثناء الهجوم وبعده ، ثم قال : مولاي ، إن الكلمات المغرية التي سمعتها هي مكافأة كافية لي .

إلا أن الأمير مانفريدّي كان قد أشار بيده ، ففتح أحد الخدم باباً كبيراً ذا درفتين ، فدخل منه ما يقارب الثلاثين من الأسياد هم قواد الجيش الحليف ، ولقد اصطفّوا خلف الكونت آلما والأمير مانفريدّي. وكان راكستان ينظر بدهشة إلى هذه الاستعدادات ، فإذا بالأمير مانفريدي يتقدم منه خطوتين ويسحب عقداً كان يحمله . وكان هذا العقد مؤلفاً من عدة أوسمة ذهبية يجمع بينها سلاسل طبّعت بماس برّاق ، وكان منتهياً بشبه سبحة من الياقوت

الأحمر . هذا العقد هو شعار الفرسان الأشاوس وضعه آل آلما القدماء منذ قرون ليمنحوه في حالات البسالة الرائعة . وكان من المقرر ألا يربو عدد الفرسان الأشاوس على الستين ، لذلك فلم يكن في كونتيّة مونتفورتي من يحمل هذا الشعار غير الكونت آلما والأمير مانفريدّي وبعض ذوي الامتياز .

ولقد قدّم الأمير مانفريدي العقد لراكستان قائلاً بتهيب : هيا اركع لكي أقلدك إياه. فقال راكستان متلجلجاً : أيها الأمير، هل أنا أهل لهذا التقدير ؟ فكرر مانفريدي بلهجة رقيقة قائلاً : هيّا أيها الفارس .

فطوى راكستان ركبتيه وانحنى الأمير مانفريدي فوقه ووضع العقد في عنقه ، ثم سحب سيفه ولمسه بصفحته على كتفه قائلاً له : كن شجاعاً وكن أميناً وكن عفيفاً وكن أهلاً لرتبة الأشاوس التي أنت أحد فرسانها منذ اليوم . عندئذ علا التصفيق ، فيما كان الأمير مانفريدي والكونت آلما يعانقان راكستان لأنهما الوحيدان اللذان يملكان هذه الشارة . ثم شرع راكستان يتقبل تهانيء جميع الأسياد الحاضرين. ولقد استطاع أن يلاحظ في العيون المحدقة به صفاء الأخوة التي لا يشوبها شعاعٌ واحد من الغيرة أو الحسد . عندئذ وقف مفكراً يعيد في نفسه هذه الكلمات الاحتفالية : كن شجاعاً ، كن أميناً ، كن عفيفاً !

*

في مساء هذا اليوم وقد أقبل الليل كان الأمير مانفريدّي يتنزّه في الحديقة برفقة الأميرة بياتريكس ، وكان الأمير بارّاً

بوعده فلم يفه بكلمة واحدة تذكّر باتريكس بأنه زوجها . وعندما أحسّ برطوبة الجو حوله سأل رفيقه قائلًا : ألا تدخلين يا بنيّتي ؟ فقالت : لم يحن الوقت أيها الأمير ، فأنت تعلم أن لي هوىً خاصاً بالبقاء أثناء الليل في هذا البستان وحيدة مع أفكاري وأحلامي . ولا شك أنني ورثت هذه العادة عن أمي المسكينة .

فقال الأمير : لقد كانت امرأة نبيلة ، طاهرة وأمينة . امرأة من عهود البطولة . وإنه لمن النادر أن تقدّم الأجيال الحديثة أمثلة من الحكمة والفضيلة كالتي قدّمتها الكونتيسة أونوراتا .

فارتعشت بريفيرا إذ تذكرت الاعتراف الرهيب الذي سمعته من أمها ساعة نزاعها الأخير ، ثم إذا بفكرتها تنتقل إلى أختها التي طلبت إليها والدتها الكونتيسة أونوراتا أن تبحث عنها وتحبها . عندئذ قال الأمير بلهجة رزينة : يا بنيّتي المسكينة ، لا شك أنك تفكرين بتذكارات صعبة ، ولكن تأكدي أننا سنفعل ما في وسعنا لنثأر من قاتليها . فقالت أجل ، إن أفكاري لتنتقل هذه الليلة إلى أمي الغائبة ، وإن قلبي ليحدثني بشرّ مستطير . فصاح مانفريديّ يقول : دعي عنك هذه الأفكار الحزينة ! وهيّا ، إنك بحاجة إلى راحة .

— كلا أيها الأمير ، إن النزهة في هذه الأماكن التي كانت تحبها تسرّي عن قلبي ، كأنني أحاول أن أجدها ، بل إنه يخيّل إليّ أنني سألتقي بها هنا في هذا المكان .

في هذه اللحظة بالذات ظهر شبح ثم اختفى عند منعطف كانت بريفيرا تشير بيدها إليه . ولكن أحداً لم يره ، لا هي ولا الأمير

مانفريديّ . لذلك فقد تابعت قائلة : ولكن أنت أيها الأمير ... أنت خاصة بحاجة إلى راحة . ففهم الأمير أنها تطلب الوحدة فهمّ بالانصراف قائلًا : ساتركك إذن، ولكن أرجو أن تطردي عنك هذا الحزن الذي يطغى عليك . هيّا ، سعدت مساء يا ولدي !

فقدّمت بريفيرا له جبينها كما أصبحت تفعل كل مساء ، فطبع عليه الشيخ قبلة أبوية وانسحب . عندئذ عاد الأمير مانفريديّ إلى القصر مارّاً بالدروب التي كان قد تبعها مع بياتريكس . ولكن إذا بصوت يهمس في أذنه فجأة ، يقول : مرحباً أيها الأمير مانفريديّ .

ولم يلبث أن شاهد امرأة مقنّعة تكرر قائلة : مساء الخير أيها الشيخ الطيب ! فقال الأمير : من أنت ؟ وماذا تفعلين في هذه الحديقة ؟ فقالت الإمرأة: كنت أفتّش عنك أيها الأمير . فقال: فمن أنت أيتها السيدة ؟ قالت : ماذا يهمّك من أكون ؟ إنني امرأة مقنعة . أنت لا ترى وجهي ولكنك ستعرف فكرتي . أوتسأل من أنا ؟ إنني شبح من الأشباح بل إنني الحقيقة في متناول يدك أيها الشيخ الصبور الواثق !

هنا انفجر الشبح ضاحكاً فاصفرّ وجه الأمير مانفريديّ لأن نبرات المرأة المحجّبة بدا له حاملًا إنذارات مخيفة . لذلك فقد أمسك برعونة ذراع المرأة وقال : تكلمي أو أنزع عن وجهك القناع . فقالت المرأة عندئذ برزانة فجائية : أيها الأمير ، لن تعرف اسمي لأنه لا يفيدك شيئاً . ولن ترى وجهي لأنه يستحيل على أمير من آل مانفريديّ أن يعتدي بالقوة على امرأة . والآن

إذا أردت أن يمسح العار اسمك فما عليك إلا أن ترفض الاستماع إليّ. فتمتم الأمير مذعوراً : العار؟! فتابعت المرأة الغريبة تقول: أتريد تجنّبه ؟ أتريد أن تصدّ عنك سخرية الآخرين بك وهزأهم منك ؟ إن زمام الأمر ما زال في يدك !

– تكلمي وحق السماء، ما الذي ستقولين؟ فقال الشبح بهدوء: لن أقول شيئاً لأنك لن تصدقني ، ولكنني أفضل العمل على القول. تعال وسترى بنفسك الخيانة وستستمع إلى الخائن ! تعال اتبعني .

فمرّر الأمير يديه على جبينه الراشح بالعرق ثم تبع المرأة التي راحت تتقدم في منعطفات الحديقة . وإذا بها تقف فجأة هناك في ظلّ شجرة ملتفة كثيفة وتدلّ الأمير على امرأة جالسة أمامها على مقعد ، وقد ركع أمامها رجل راح يقبّل يديها . فعرفها الأمير مانفريدي حالاً : إنها بريفيرا ... وراكستان .

أما السيدة المقنّعة فقد مدّت ذراعيها تدله عليهما ، وبعد أن انتهت مهمتها تراجعت ببطء ثم اختفت دون ضجة ، تاركة الأمير مانفريدي شارد اللب مذهولاً يائساً .

*

ولنتبع الآن لوكريس بورجيا التي لا شك أن القراء قد عرفوها ، فعندما أصبحت على وشك الخروج من الحديقة سألها الخادم التي أغرته بالدنانير الذهبية إذا كان عليه أن ينتظرها في المساء المقبل ، فأجابته قائلة : كلا ، انتهى الآن كل شيء .

وبعد أن ساروت في الشوارع المظلمة دخلت إلى بيت فقير المظهر يقع قرب البوّابة الكبيرة التي رأينا الكونت آلما والفارس

راكستان يدخلان منها إلى المدينة ، ثم صعدت إلى الطابق الأول ودخلت إلى غرفة تنيرها شمعة واحدة حيث كان بانتظارها رجلٌ متلبّس بزيّ خيّال . هنا قالت لوكريس : أريد يا كارکونيو أن أعود إلى المعسكر .

– وأنا يا مولاتي ؟

– تبقى هنا لمراقبته . وعليك أن تخبرني بجميع حركاته وسكناته .

– كما تشائين يا مولاتي ، يمكنك أن تعتمدي عليّ .

– إنني واثقة من هذا يا كارکونيو لأنك رجل تعمل لحسابك الخاص ولمصلحتك. ولكن يجب أن تحذر، لا سيما بعدما سيحدث!

وفي صبيحة اليوم الثاني ، ساعة فتحت بوابة المدينة ، امتطت لوكريس حصانها واقتربت من البوابة تريد اجتيازها بعد أن أخفت نصف وجهها بشال خفيف . أما قائد الحرس فلم يبدر منه أي اعتراض لها لأنه رأى امرأة تخرج وحيدة .

وبعد ثلاث ساعات اجتازت لوكريس معبر الجحيم ، وبعد أن تجنبت معسكر الحلفاء بتعريجة صغيرة كانت نحو الظهر تضع قدمها أمام خيمة قيصر . وكان قيصر في هذه اللحظة ممدداً على سرير صغير من سيور الجلد يتحدث مع اثنين أو ثلاثة من مشاهير قواده، وكان جرحه رغم خطورته الضئيلة يورثه ألماً مبرحاً . ولم تكد لوكريس تدخل عليه حتى صاحت قائلة : ماذا، إنك جريح؟ فصاح قيصر متعجباً : أختي لوكريس ؟! ثم أبعد عنه مستشاريه المحيطين به وقال : نعم إنني جريح ! وقد جرحني راكستان اللعين الذي ما

زال يهدم كل شيء حولنا منذ تلك الساعة الشريرة التي التقيناه بها .
ولكن أنتِ ، من أين تعودين ؟ فأجابت لوكريس بهدوء : من مونتفورتي . فصاح قيصر متعجباً : من مونتفورتي ! هذا رائع ، وماذا فعلتِ هناك ؟

— فعلت ما يساعدكَ على الانتقام، ولسوف يكون راكستان رهن قبضتنا . فصرخ قيصر بفرح شديد وقال : إشرحي لي يا لوكريس فإذا كان كلامك حقيقياً فسوف أكافئك مكافأة عظيمة وعندئذ يمكنك أن تطلبي ما تشائين . فابتسمت لوكريس وقالت : سنفكر بهذا في المستقبل ، أما الآن فأجب عن أسئلتي : أما زلت مصراً على احتلال مونتفورتي ؟ فقال : نعم ولكن ما شأن هذا السؤال ، هل جننتِ ؟ قالت : وهل تمانع في إيقاف الزحف على المدينة ؟ قال : أجل أمانع ! وحياة الجحيم لسوف أمحو هذه المدينة عن بكرة أبيها وسوف أزرع القمح كما قلت مكان أبراجها وتحصيناتها وأضرب بها مثلاً رهيباً ! فقالت : ثم عندك هدف آخر ، إعترف به . قال : بلى ، فهمتُ ماذا تقصدين : إنني أريد الاستيلاء على ابنة آلما . قالت : ولكن يجب أن تسرع لأنك قد تصل بعد فوات الأوان . قال : يا لقرون الشيطان ! ماذا تقصدين ؟ قالت أريد أن أقول إنّ راكستان في المدينة وبياتريكس تنظر إليه نظرة رضى ومودة .

فبهت وجه قيصر وظل يفكر طيلة دقيقة ثم قال : أو تشيرين عليّ بصرف النظر عن تهديم مونتفورتي بغية إخضاع راكستان لسلطتي ؟ قالت : أو أن تتظاهر بصرف النظر عن تهديم المدينة .

قال : حسناً حسناً ، أعتقد أننا قريبان إلى التفاهم .

عندئذ انحنت لوكريس على أخيها وكلمته طويلاً بصوت منخفض بينما كان يستمع إليها بانتباه شديد هاتفاً من وقت لآخر هتاف غيظ أو فرح . وعندما انتهى الحديث بينهما نادى قيصر الضابط الذي يقف دائماً أمام باب خيمته وقال له : أرسل لي قائد معسكري مع المنادين . فقال سمعاً وطاعة يا مولاي !

وبعد نصف ساعة انتشر الخبر في أنحاء المعسكر بأن قيصر سيرسل إلى مونتفورتي وفداً من المفاوضين المكلفين بالموافقة على عروض نافعة . أما البعض فقد وافقوا على هذا الإجراء ، وأما البعض الآخر فقد اعتبروه مشيناً فراحوا يغمغمون بأن قيصر تراجع أمام خصومه ، ولكن أحداً لم يفكر بالحقيقة !

كن شجاعاً وأميناً وعفيفاً

*

طيلة النهار الذي قلّد فيه راكستان جوقة الفرسان الأشاوس استمرّ يفكر بحادثة الصباح. إنه لا شك حادث مجيد ولكنه يرميه في حيرة قاسية. ولشدّ ما أعاد في نفسه هذه الكلمات: كن شجاعاً، كن أميناً ، كن عفيفاً !

ولكنه كان يشعر في أعماق نفسه بتأنيب غامض ، ذلك أن هذا الرجل ، هذا الشيخ الذي طالب له بأعلى الرتب والذي قلّده

جوقة الشرف كان هو نفسه زوج بريفيرا. لذلك فقد عانى راكستان طيلة النهار من تأنيب ضميره ، ليس لأنه يحبّ بريفيرا ولكن بما كان سيفعله في مساء ذلك اليوم . وهكذا فقد كرّر مراراً في نفسه هذا القول : « كلا ، لن أزورها في هذا المساء ! »

ولكن لم يكد يأتي المساء حتى دخل إلى غرفته بفارغ صبر ، ثم خرج منها متجهاً بسرعة نحو المكان الذي كان قد تسلّق منه سياج الحديقة . هناك انتظر أن يسود الصمت في جوانب القصر ، وعندما افترض أن بريفيرا قد نزلت إلى خلوتها المعهودة لتجلس على المقعد الرخامي ، اجتاز السياج واندفع متقدّماً في الحديقة حتى شاهد حبيبته جالسة هناك منتظرة قدومه . فدنا منها ودار بين الحبيبين ما نترك تصوّره لخيال قرّائنا ، لأن من المشاهد في الحياة ما يفوق كل وصف .

وما كان أجملها في هذه اللحظات من حبّها المتألق الذي يفوق رقة وروعة تألق النجوم المرتجفة فوقها ، لا سيما وأنها تحسبان نفسيهما بعيدين عن العالم .

ولكن سرعان ما أقبلت لحظة الفراق فودّع أحدهما الآخر ثمّ ابتعدت بريفيرا ببطء نحو القصر . أما راكستان فقد مكث في مكانه لا يروم حراكاً تحت تأثير سعادته ، وكانت بريفيرا قد غابت عن بصره منذ وقت طويل عندما همّ بمغادرة المكان ، ولكنه شعر بأن أحداً يسير خلفه فاستدار بسرعة ، فشاهد شخصاً مقبلاً نحوه . ولم يكن يبدو على هذا الشخص أنه يريد أن يختبىء ، بل ظلّ مندفعاً نحو راكستان بقامته العالية المتهادية في الظلمة . عندئذ

انحرف راكستان عن طريقه واختبأ خلف شجرة منتظراً مرور الرجل . إلا أن الرجل لم يعبر عنه بل وقف أمام الشجرة ثم دار حولها حتى وقف بالقرب من راكستان الذي همهم في نفسه قائلا : إنه الأمير مانفريدّي !

وإذا بالشيخ ينظر إليه بعينين ملتهبتين وهو مكتوف اليدين ، ففهم راكستان أنه دارٍ بأمرهما . عندئذ حاول راكستان أن يتكلم فقال : أيها الأمير ... فقاطعه مانفريدّي العجوز بصوت متغيّر قائلا : لا تفه بكلمة واحدة ! لقد رأيت كل شيء وسمعت كل شيء . وما عليك إلا أن تشكر السماء لأنني حيال هذه الداهية التي تصفعني ما زلت محافظاً على هدوئي وإلا لقتلتك في مكانك . امضِ الآن ، وغداً إني منتظرك في مقري الرئيسي .. فعاد الهدوء إلى روع راكستان وقال : غداً أكون عندك أيها الأمير . فقال الأمير : آمل أنك ستأتي إذا ما بقي لديك ذرّة من الشرف .

فكرّر راكستان بلهجة متسامية : غداً أكون لديك !

ثم حيّا الأمير تحية فضفاضة ، ومشى نحو السياج فاجتازه منطلقاً بسرعة إلى غرفته حيث ظهرت له بوضوح ، خلال الصمت والوحدة ، فظاعة موقفه من الأمير . ولم يعثر على مخرج لهذا الموقف : أتراه يبارز الأمير مانفريدّي ؟ ولكن هل يستطيع مبارزة شيخ له من العمر اثنان وسبعون سنة ؟ ومن ثم مبارزة الأمير سيكون معناها التخلي عن بياتريكس إلى الأبد .

ما العمل إذن ؟ لم يبق هناك غير حلّ واحد ظهر رهيباً أمام عينيه لقد كان يحقّ للأمير مانفريدّي أن يقتله ولا شكّ أنه

سيقتله ، وهو الآن يريد أن يعيش لأنه بات يحب الحياة قريباً من بريفيرا .

وكان الليل رهيباً بالنسبة له ، فقد قضاه يعدّ ترتيبات سرعان ما كانت تنهار الواحدة تلو الأخرى . وجاء النهار دون أن يتوصّل إلى حلّ موافق ، إلا أنه قرّر أن يخبر الأميرة بياتريكس حقيقة الأمر . لذلك فقد شرع عند وصوله إلى قصر آلما يقطع الردهات والقاعات حيث كان من عادته مصادفة بريفيرا ، ولكنه لم يقع لها على أثر . فدبّ القلق إلى نفسه وأرسل للأمير مانفريدّي يقول له إنه في القصر رهن تصرفه وبانتظار إرادته ، إلا أن الأمير مانفريدّي كان يرئس مجلساً سرّياً فاضطر راكستان للانتظار ، وعندما أقبلت الساعة على الظهيرة أعلن أن الأمير لن يجري أية مقابلة بل لقد انتشر الخبر بأنه مريض مرضاً شديداً . عندئذ أقبل أحد خدّام الأمير وقال لراكستان : يرجوك سيدي أن تأتي لمقابلته عند المساء . فقال راكستان : حسناً .

ثم غادر القصر وقد ازداد اضطراباً وراح يسأل نفسه قائلاً : ترى ، ماذا يجري في القصر ؟ يا لهذا الغموض كم هو رهيب ! ترى لماذا لم تظهر بياتريكس ؟ ولماذا لم يستقبلني الأمير ؟

وهكذا انتظر راكستان بقلق متزايد ساعة حضوره من جديد إلى مقرّ الأمير مانفريدي . ولم يكن الأمير مانفريدي قد ترأس مجلساً سرياً كما شيّع عنه ، ولكنه اكتفى عند الصباح برجاء الكونت آلما أن يُبقي ابنته إلى جانبه طيلة النهار لبعض الاعتبارات الخاصة . وكان الأمير قد قضى ليلة يأس قاسية ، ثم إذا بالغضب

يحلّ رويداً رويداً محلّ اليأس في قلب هذا الشيخ الذي رأيناه يتلقى الصدمة الأولى من المصيبة بهدوء قويّ متوحش . وأخذ الغضب يزداد في نفسه ويضطرم حتى الحدود الأخيرة التي تسلب الرجل قوّة التفكير وتجعله على قاب قوسين من الجريمة . وفي هذه اللحظة بالذات أخبروه بحضور راكستان إلى القصر ، فلم يُلف الشيخ نفسه إلا والخنجر في يده متربصاً بالشاب ينتظر دخوله لكي يطرحه ميتاً عند قدميه .

إلا أنه شعر فجأة بكره شديد للجريمة التي حاكها دماغه الملتهب ، فإذا به ينقسم على نفسه في شبه مأساة . إلا أنه قرر أخيراً تأجيل ساعة المقابلة لعله يربح بعض الوقت للسيطرة على نفسه . وعندما قيل له عند الساعة الخامسة إن الفارس في الباب ، ظن أنه عاد إلى هدوئه فأمر بإدخال راكستان ، وبعد برهة من الزمن كان الرجلان وجهاً لوجه لا يبعد أحدهما عن الآخر غير خطوة واحدة .

ومكث راكستان هادئاً بارداً ينتظر . أما الأمير مانفريدّي فقد شعر في هذه اللحظة بغليان غضبه الذي قد يحيله إلى قاتل ، لا سيّما وأنه شاهد راكستان لا يفكر بالدفاع عن نفسه . ولقد مرّت عشر دقائق مخيفة كان راكستان خلالها كأنه مخدّر أمام هذا الشيخ الكبير ، ولقد خيّل إليه أنه قارىء مصيره في عينيه المقزّزتين . وانتظر راكستان أن ينهمر عليه سيل من اللوم والتثريب وقد أمضّه هذا القناع الباهت اللون الذي لا شك أنه يخفي خلفه عاصفة هوجاء . فشعر بالخوف ... هو الذي لم يكن ليرتجف أمام أي خنجر . أما الأمير فقد كان يبحث في نفسه عن

بعض الكلمات الدامية وعن شتيمة رهيبة بعد أن أحسّ بالغضب يثور في نفسه ويسيطر عليه من جديد . وإذا بيده المرتجفة تتحسس مقبض خنجره أمام بصر راكستان الذي انتبه للحركة ولكنه لم يتراجع ولم يتأهب للدفاع عن نفسه .

في هذه اللحظة فُتح الباب الكبير على مصراعيه وإذا بأحد رجال التشريف يعلن بصوت مرتفع قائلاً : ضبّاط مفاوضون من قبل مولاي قيصر بورجيا دوق فالانتينوا ودوق غانديه ، أتوا يقدّمون لمولاي الأمير مانفريدي باسم سيدهم النبيل عروضه السلميّة !

ولم يتحرّك راكستان من مكانه إلا أنه شاهد يد الأمير مانفريدي تنزل عن مقبض خنجره ، كما أنه شاهد عيناً يشتعل فيها الغضب ، وشعر بأن الباب قد فتح على مصراعيه ! وكان ممشى القصر الكبير قد امتلأ بالضباط المسلّحين وبالأسياد ، وإذا بثلاثة جنود من نافخي الأبواق ينفخون على أبواقهم ، ثم دخل إلى الردهة ثلاثة ضباط من جيش قيصر . أما راكستان فقد مرّ عليه هذا المشهد كأنه حلم من الأحلام .

في هذه الاثناء كان نافخو الأبواق قد اصطفوا على مقربة من الباب ، وكان الضباط المفاوضون الذين تركوا تابعيهم في الممشى العريض قد دنوا من الامير مانفريدي وانحنوا أمامه انحناءة كبيرة . فسألهم الامير دون أن يغادر بصره راكستان، قائلاً : ماذا تريدون أيها السادة ؟ فقال أحد المفاوضين : نحن يا مولاي ضباط جيش مولانا وسيدنا دوق فالانتينوا وغانديه ، ولقد جئنا من قبله بنوايا

سليمة لكي نعرض عليك اقتراحاً سلمياً .

فاكتفى الأمير مانفريدي الشاحب اللون بهزّ رأسه فتابع المفاوض قائلاً : هذا هو الإقتراح الذي سوف تقدّره حقّ قدره بما تعرفه عنك إيطاليا بأجمعها من روح العدالة والانصاف : يرى مولاي قيصر بورجيا أنه أريق دمٌ كثير حتى الآن ، وأن ساعة انتهاء الخصومات التي تمزّق إيطاليا قد دنت . لذلك فإنه يتخلى عن كل مطمع بكونتيّة مونتفورتي ، ويتعهد بسحب جيشه إلى روما وبأنه لن يحمل السلاح فيما بعد ضدّ مونتفورتي ، كما أنه يتعهّد بإعادة بعض الإمارات المحلولة ، وخصوصاً إمارتك أنت يا مولاي مع جميع الحقوق والامتيازات العائدة إليها منذ القديم .

وكان الأمير مانفريدي يصغي إليهم بذهول . أما الضابط فقد تابع كلامه قائلاً : يطلب مولاي الدوق لقاء هذه المنافع تسريح جيشك فقط . وللدلالة على حسن نواياه فإنه يقدّم اثنتي عشرة رهينة من صحابته، كما أن له الحق أن يطلب كدليل على حسن نوايا الحلفاء رهينة واحدة تسلّم إليه، وهو يكتفي بهذه الرهينة . ولقد كلّفنا بتعيينها لك . فقال الأمير بلهجة مختصرة : هيّا عيّن هذه الرهينة . فقال رسول قيصر بورجيا :

— لكي يعطي سيّدنا الدليل الكامل على استعداداته السلمية فإنه لم يرد اختيار شخص من الأسياد الذين تحبونهم ، وإنه ليكتفي بأحد ضبّاطكم الغريبين عن هذه البلاد : وهو الذي يُدعى الفارس راكستان .

فارتعش الأمير ونظر إلى راكستان الذي وقف مكتوف

اليدين وعيناه تتنقلان من الأمير مانفريدي إلى الضبّاط المفاوضين. وإذا بفرح عظيم يهزّ الأمير العجوز لأنه شعر أن طريقة الانتقام هي رهن يديه ولأنه فهم أن تسليم راكستان كرهينة لقيصر بورجيا معناه هلاك خصمه هلاكاً عاجلاً. هنا تابع ضابط بورجيا قائلاً: نحن بانتظار الجواب أيها الأمير!

فمشى راكستان خطوة نحو مانفريدّي بذراعيه المكتوفتين وعينيه اللتين تحدقان في عيني الأمير ثم قال له بصوت منخفض وبلهجة تدل على الازدراء والكبرياء: ألا سلّمني؟ ماذا تنتظر؟

فوقعت هذه الكلمات على سمع الأمير وقوع الصاعقة فأصبح وجهه أكثر شحوباً وأحسّ برجفة شديدة تقلّص لها جسمه. وإذا به يشعر بنفس راكستان على وجهه، هذا النفس الذي يحمله في عاصفة من الحقد.

وأخيراً مدّ ذراعه. فاتّجه راكستان نحو المفاوضين كأنه منذ الآن أسير لهم. عندئذ قال الأمير: إليكم جوابي أيها السادة.

وكان صوته هادئاً هدوءاً غريباً، وقد انتشرت على وجهه موجة من الوقار العظيم. وقال: جوابي إليكم هو جواب كل رجل شريف: إن تسليم الفارس راكستان هو أذلّ من أن يوصف بالجبن.

فتحرّك وفد المفاوضين، وتابع الأمير قائلاً: إنتظروا. إن أحداً منكم لا يجهل حقد قيصر بورجيا الشخصيّ على الفارس راكستان، وإن طلبكم إليّ أنا الفارس الحاصل على رتبة الأشاوس أن أسلّم عدوّاً لعدوّه هو إهانة لي. وإنني لأعتقد أن قبولكم

مثل هذه المهمّة الوضيعة يجعلكم غير أهل لحمل السيف... فقاطعه الضابط بلهجة متعالية قائلاً: أيها الأمير! فقال مانفريدّي محافظاً على وقاره: لم ينتهِ كلامي بعد. لا شك أنكم لم تفهموا السبب الذي قدّمته لكم، لأنكم مع سيدكم قاصرون عن فهم معنى الوفاء. لذلك فإنني أريد أن أقدّم لكم سبباً آخر بسيطاً يتعلق بالذوق.

فابيضّ وجه الضباط المفاوضين من الحنق، فتابع مانفريدّي يقول: الفارس راكستان هو الوحيد الذي لا أستطيع تسليمه، لأنني أرشّحه لاستلام قيادة جيشنا في حال سقوطي عن هذا المركز. فصاح راكستان متأثراً وقال: أرجوك أيها الأمير!

إلا أن مانفزيدّي أشار إليه أن يصمت، ثم توجّه إلى مبعوثي قيصر فقال: إذهبوا أيها السادة، لم يبقَ لدينا ما نقوله!

فحيّا الضباط الثلاثة، وفتح الباب الكبير، وبعد أن نفخ الجنود في أبواقهم لحناً قصيراً اجتاز الأسياد المفاوضون ممشى القصر تتبعهم حاشيتهم. وفي طريقهم كان أسياد الحلفاء يحيونهم التحيّة الواجبة.

عندئذ مكث الأمير وراكستان وحيدين، وقد أحسّ راكستان أن خصمه تغلّب عليه بشهامته فراح يحدّق في هذا الشيخ تحديقة احترام وإكبار. وعندما همّ أن يقوم بحركة ما رفع الشيخ رأسه المثقل بالأفكار وقال: كلا أيها الفارس، لست ملزماً بعرفان الجميل لأن الذي فعلته إنما فعلته لنفسي أولاً، ذلك أنني أردت طاعة الشعار الذي أحمله والرتبة التي أنتسب إليها والتي

تلزمني بالشجاعة والأمانة والعفة . فقال راكستان : قد يلزمك هذا الشعار بعدم تسليمي ولكن هل يُلزمك أيضاً بتعييني خلفاً لك ؟

فخطا الأمير عندئذ نحو راكستان وقال : لم تفهمني أيها الشاب وإنني سأشرح لك ما أنتظره منك .

– تكلم ! فأنا سلفاً أخضع لرغبتك .

– أجل ، يمكن الاعتماد على كلامك ، فاقسم لي إذن أنك ستحترم إرادتي .

– أقسم لك باسمي وبرمز الشرف والفروسية الذي طوّقت به عنقي .

عندئذ قال الشيخ مانفريدي باقتناع حزين : أطلب إليك أولاً ألا تبوح « لها » بشيء مما جرى بيننا .

– أقسم لك أنني لن أبوح بشيء .

– هذا في حال وجودك أمامها صدفة ، ولكنني أطلب إليك الآن ألا تحاول رؤيتها طوال ما أنا حيّ .

فتردّد راكستان قليلاً ثم قال : أقسم لك أيضاً أنني لن أراها. ولكن الحقوق التي ربحتها عليّ استعملتها بقسوة يا سيدي !

– كلا، لقد استعملتها برأفة. ذلك أنني في الموقف المشين الذي رميتني به لم يكن باستطاعتي اللجوء إلى مبارزة لن تقبلها أنت، لأن شبابك وقوّتك ومهارتك ستمنعك من مبارزة شيخ في الثانية والسبعين من عمره . لذلك فقد فكرت بقتلك إلا أنني وفّرت على نفسي عار القتل إذ أنني استطعت السيطرة على نفسي في الوقت

المناسب ، ولن أقول لك بأية إرادة عجيبة . ولكن حياتك ما زالت تخصّني .

– أجل إنها لك. ولقد رأيتك منذ لحظات تلمس مقبض خنجرك دون أن أقوم بحركة واحدة .

– إني أعرف هذا .

ثم نظر كل من الرجلين إلى رفيقه باعجاب ، دون أن تخون فكرتها أية كلمة يتفوّهان بها أو أية علامة من علامات وجهيهما . هنا تابع الأمير ببرودة جليدية قائلاً : إذا كانت حياتك تخصني فلي الحق إذن أن أتصرف بها وفقاً لرغبتي .

– نعم يا سيدي .

– إليك إذن ماذا قررت: عند اصطدامنا القادم بقيصر بورجيا عليك أن تقتل نفسك .

فشعر راكستان بتمرّد غريزي ، إلا أنه شاهد الابتسامة المرة على شفتي مانفريدي فأبى أن يتراجع عن عهده وقال بصوت منخفض : سأستسلم إلى القتل .

– هذا عهد عليك !

فهزّ راكستان رأسه علامة على الإيجاب . عندئذ تابع الأمير كلامه مادّاً يده وقال : إمضِ ، إنك أهل لاحترامي يا سيّدي . والآن لست بقائل لك : كن شجاعاً وأميناً وعفيفاً ، ولكنني أقول : إنك شجاع وأمين وعفيف . .

هنا حيّا راكستان الأمير العجوز وخرج متباطئاً .

*

عندما عاد مبعوثو قيصر حاملين إليه جواب الأمير مانفريدي غضب غضباً عظيماً والتفت إلى لوكريس وقال : أرأيت إلى أيّ شيء تعرّضيني !

أما لوكريس فقد كانت تفكر حالة، محاولة أن تستنتج حقيقة ما جرى لوفد المفاوضين . وبعد صمت طويل قالت : هؤلاء رجال أشداء ، وكان عليّ أن أشكّ بما سيحدث . لقد اقترفت بالحقيقة غلطة كبيرة ولكن لم ينته كل شيء. فقال قيصر: وماذا تقصدين؟ قالت : دعني أعمل ، ولسوف أعود إلى مونتفورتي . قال: ولكنهم قد يعتقلونكِ أخيراً. قالت: أعطني فقط أربعة رجال أمناء وأشداء.

فدعا قيصر إليه أحد الضباط وعيّن له أربعة من حرسه الخاص ثمّ أمره بأن يضعهم تحت أوامر لوكريس التي قالت : أريد أن ألعب الشوط الأخير ، وفي حالة الانتصار سيجني كلانا النفع الذي يريد .

– تكلمي بوضوح أكثر .

– سترى بنفسك . ولكن متى ستشنّ هجومك المقبل ؟

– بعد ثلاثة أو أربعة أيام حالما يسمح لي جرحي بامتطاء الحصان.

– حسناً ، هذا ما يكفيني .

ورفضت لوكريس أن تصرّح أكثر عن فكرتها الجديدة .

*

أما راكستان فقد كان يحبس على نفسه في غرفته بعد المشهد الأخير الذي جرى له مع الأمير مانفريدي ، لأنه لم يكن يجد غير هذه الطريقة للابتعاد عن عيني بياتريكس . وفي مساء أحد الأيام أخبره سبادا كاب أن القتال سيبدأ صباح اليوم التالي وأن تحركات شوهدت في معسكر قيصر بورجيا ، مما يدل على استئناف الهجوم . عندئذ تنهّد الفارس تنهيدة مؤلمة وقال : لتفعل المقادير ما تشاء ! فسأله سبادا كاب قائلاً : ماذا بك يا سيدي الفارس ؟ فقد انقطعتَ عن الأكل وعن النوم ودبّ الهزال إلى جسمك . تُرى هل أصابتك عينٌ شريرة ؟ فقال : أوتعتقد بهذا ؟ قال : كيف أشرح إذن هذا التغيّر الكبير الذي طرأ عليك ؟ فقال راكستان: قد تكون على حق ، إمض الآن وأصقل أسلحتي . قال : ستذهب إذن إلى القتال رغم العين الشريرة ؟ فقال الفارس : وما شأن هذا واشتراكي بالقتال ؟ قال سبادا كاب : أي ... إذا أصبت بعين شريرة فسيكون هلاكك محتماً .

فاقشعرّ راكستان . ولكنه ابتسم ابتسامة غريبة وقال : تتعدّد الأسباب والنهاية واحدة .

فلم يفهم سبادا كاب كلام راكستان وظلّ مشدوهاً يفكر به .

*

ولكن ماذا ألمّ ببياتريكس خلال هذه الفترة من الزمن ؟ لقد كانت الأميرة الشابّة فريسة قلق بميت ، ذلك أنها في مساء اليوم التالي للقائها الأخير براكستان كانت قد نزلت كعادتها إلى الحديقة

لتجلس على مقعدها المفضّل ، ولقد جاء الأمير مانفريدي كعادته أيضاً فجالسها طيلة ساعة دون أن يصدر عن حركاته أو كلماته ما يعبّر عن هواجس نفسه،بل بالعكس فقد بدا أكثر مودّة وأكثر أبوّة من ذي قبل . ولقد حاولت بريفيرا من جهتها أن تسبغ على كلماتها مزيداً من الحنان ، بل لقد أخذت توبّخ نفسها على حبّها لراكستان : حبّ بريء ولا شك ولكنها تسرقه من الأمير . أما الأمير فقد راح يتساءل في نفسه عن شرعية هذا الحب الذي أشعلته في قلبه ابنة الكونت آلما . ثم لم يلبث أن انسحب ، أو تظاهر بالانسحاب لأنه ظلّ من بعيد يراقب بياتريكس.ولكن راكستان لم يأت كعادته . ففكر الأمير عندئذ في نفسه قائلاً : هذا الرجل هو حقيقة أهل لها .

أما بريفيرا فقد طرحت على نفسها ألف مرّة هذا السؤال الأليم : ترى ، لماذا لم يأت راكستان ؟

وتكرر هذا المشهد في مساء الغد والأيام التالية فيما راحت الأميرة الشابّة تزداد قلقاً دون أن تجرؤ على سؤال أحد . وفي مساء أحد الأيام بينما كانت وحيدة في الحديقة ، شاهدت الأمير مانفريدي والكونت آلما يتقدمان منها ، ولما اقتربا قال لها الأمير في صوت متأثر: نحن ماضيان إلى الجبهة . ثم أضاف الكونت آلما: لقد أخبرنا حرّاس المقدّمة منذ لحظات بأن تحركات كبيرة تجري الآن في معسكر قيصر،وإنه لمن المؤكد أن يستأنف قيصر هجومه علينا غداً صباحاً ، لذلك يجب أن نكون في معسكرنا منذ هذه الليلة ، ولسوف نصدّ قيصر مرّة ثانية ! فإلى اللقاء يا ولدي .

ثم تقدّم الكونت فطوّق بذراعيه ابنته بريفيرا التي غدت شاحبة اللون لأنّ سؤالاً محرقاً أخذ يتلجلج على شفتيها ويختنق في حنجرتها التي ضغط عليها الألم والقلق . ولكنها أخيراً قررت أن تعرف شيئاً عن مصير راكستان وأن تزيح أخيراً عن ذهنها نقاب التردد المخيف ، فقالت بصوت مخنوق : أفترض أن جميع محاربينا هم الآن في مراكزهم ؟ فأجابها مانفريدّي قائلاً: جميعهم ! ريكاردو وتريفولسه ومالاتيستا وأورسيني وجميع الآخرين .

– والفارس راكستان ؟

ولم تكد تلفظ هذا الإسم حتى تضرّج وجهها بنار مشتعلة ثم إذا به يأخذ لون الرصاص . فتساءل الكونت قائلاً : الفارس راكستان ؟ إلا أن الأمير مانفريدّي ضغط على يدها بعنف تحت ستار الظلام وقال بصوت يبدو عليه الهدوء : الفارس مبعوث في مهمة منذ عدة أيام . فقالت : وهل هي مهمة خطرة ؟ فأجاب الأمير بقسوة : نعم ! مهمة خطرة لا شك أنها ستكلفه حياته .

ثم ابتعد بسرعة يتبعه الكونت آلما ، ولكنه كاد يختنق لأن لهيب الغيرة كان يمزّقه . أما بريفيرا فقد تراجعت إلى الوراء مترنّحة ثم سقطت على المقعد وهي تجهش بالبكاء . وبعد لحظات إذا بها تشعر أن حواسّها تخونها فانقلبت إلى خلف مغمياً عليها . وعندما عادت إلى وعيها شاهدت وجهاً غريباً ينحني عليها ، وجه امرأة ترتدي ثياب القرويّات الرخيّات من جوار مونتفورتي . وسرعان ما هتفت الإمرأة الغريبة قائلة : أوَعدتِ الآن إلى رشدك ؟ فقالت بريفيرا : ومن أنت ؟

– قروية من القرى المجاورة يا سنيورا .

– وماذا تريدين ؟

– إنني أبحث عن السنيورا بياتريكس المعروفة باسم بريفيرا. سألت عنها في القصر فرأيت سكانه قد انشغلوا بذهاب القوّاد إلى القتال ، ولكنهم أكدوا لي أن الكونتيسة الصبية في الحديقة ، فهل صادفتها عرضاً ؟ لديّ مهمة مستعجلة يجب أن أبلّغها إياها .

– أنا بياتريكس ، تكلمي !

– أنت السنيورا بياتريكس ؟ آه كم أنا سعيدة ! يعتقدون في قريتنا أن الخطيبات مثلي يأتيهن السعد عندما يلمسن فستانك.

وقبل أن تتحرك بياتريكس كانت القروية قد أخذت طرف ردائها وقبّلته . ثم قالت بسذاجة : الآن سوف أكون سعيدة في البيت .

فلم تستطع بياتريكس أن تمنع نفسها عن الابتسام إلا أنها سرعان ما قالت : قلت إن لديك مهمة لي ؟ فقالت القروية : نعم يا سنيورا ، ولك وحدك . فلقد أوصيت أن أكلمك في مكان لا يسمعنا فيه أحد . فاضطربت بريفيرا إذ حدّثها قلبها بشر وقالت: نحن هنا في خلوة تامة بعيدين عن كل أذن . تكلمي، من أرسلك؟ فقالت القروية : شاب جميل ذو خيلاء وشجاعة ، ولكنه يحمل اسماً غريباً لا أستطيع أن أتذكره . فهتفت بريفيرا تقول : الفارس راكستان ؟

– أجل هو بعينه .

– تكلمي إذن ، تكلمي بسرعة ! أين هو ؟ ولماذا يرسلك ؟

أرجو ألا يكون جويحاً على الأقل ؟ فقالت القروية بلهجة حزينة : أي أنه ... فصرخت بريفيرا في يأس تقول : أي أنه جريح ؟

– مع الأسف ... هذه هي الحقيقة .

فأصاب بريفيرا نوع من الذهول، إلا أنها قالت بهدوء وتصميم: أخبريني كل شيء !

– إليك القصة إذن يا سنيورا: ألا تعرفين مزرعتنا ؟ إنها تبعد عن مونتفورتي ساعتين تقريباً . عند العشية مع غياب الشمس كنت أساعد أمي العجوز في ترتيب منزلنا ، وكان إخوتي ما يزالون في الحقول البعيدة ، وفجأة رأينا خيّالاً يدخل إلى ساحة الدار ، فتقدمت نحوه ، فإذا به يخطو بعض خطوات مترنحاً ثم يسقط على عتبة بابنا ... فتمتمت بريفيرا هاتفة : الويل لي كم أنا شقية ! وتابعت القروية قائلة : فحملناه أنا وأمي ووضعناه على سريري ، ثم أبصرنا أنه مصاب بجرح عميق في الجهة اليمنى من صدره . عندئذ كشفنا عن الجرح ورطبناه بالمياه الباردة وعصّبناه . وأخيراً فتح الشاب عينيه .

فأمسكت بريفيرا يد القروية وسألتها قائلة: أخبريني ما اسمك؟ فأجابت القروية متعجبة : اسمي بيانكا .

– أنت مخطوبة يا عزيزتي بيانكا أليس كذلك ؟ حسناً ، فما عليك أن تهتمي بمهرك ، لأنني سأقدّم لك مهراً يحسدونك عليه على بُعد عشرة فراسخ حولك .

– آه يا سنيورا لقد أخبروني أن التقرّب منك يجلب السعادة !

– ولكن أكملي ما جرى بعد ذلك وأسرعي !

ـ بعد أن فتح الشاب عينيه أشار بأنه يريد أن يتكلم فاقتربت منه ، فسألني بصوت ضعيف إذا كان يوجد رجل في المزرعة. فأجبته بالنفي ، ولكنني في حالة الضرورة قوية البنية وأستطيع أن أقوم مقام رجل . عندئذ قال لي : إذا أردت ألاّ أموت يائساً اذهبي إلى مونتفورتي وادخلي إلى القصر وقابلي الأميرة بياتريكس وحدثيها دونما شهود وقولي لها إن الفارس راكستان يبارككِ في ساعة موته إذا ما تنازلت وقصدته حاملة إليه تعزية أخيرة . هذه هي كلماته نفسها يا سنيورا . ولم يكد الشاب ينتهي من حديثه حتى عاد فأغمي عليه ، فقمتُ أنا وكدنت عربة وأتيت مسرعة دون أن أضيّع ثانية واحدة .

فنهضت بريفيرا عن مقعدها وقالت بصوت محموم : هيّا بنا نمضي معاً إليه . فارتعشت القروية طويلاً من الفرح ثم هتفت قائلة : آه يا سنيورا كم سيكون هذا الشاب البائس سعيداً ! ولكن ألا تستطيع سيدتي أن تتدبر أمرها لكي لا يراها أحد خارجة من القصر ؟ إنني آخذ على عاتقي أن أعيدها إلى هنا قبل طلوع النهار ، وبهذه الطريقة لن يدري بها أحد .

ـ بلى ، إنك على حق . ثم أضافت ببرارة تقول : يجب ألا يظنّ أحد بالأميرة مانفريدّي ! تعالي سنخرج من باب الحديقة الخلفي .

ثم أخذت تسير بخطىً مسرعة وصدرها مرتفع وحنجرتها شبه مختنقة . أما القروية فكانت تسير خلفها على بعد خطوتين ، لذلك لم تلاحظ بياتريكس أن القروية قامت بإشارة غريبة عند أحد

المنعطفات لظل مختبىء في جبّ كثيف . كما أنها لم تلاحظ أيضاً عند وصولها إلى باب الحديقة الخلفي أنه مفتوح . وعندما اجتازت المرأتان الباب اقتربت القروية عندئذ من بياتريكس التي سألتها قائلة : أين عربتك يا سيدتي ؟

ـ لقد تركتها خارج الأسوار لأن مونتفورتي مضطربة كثيراً ، ولقد ربطت الحصان إلى سياج . فقالت بياتريكس : فلنسرع إذن .

وبعد ربع ساعة وصلت المرأتان إلى البوابة الكبيرة التي كانت مغلقة ، وعندما رآهما الحارس قال : انتهى المرور ! فتردّدت بياتريكس طيلة ثانية ثم قرّرت فدخلت بسرعة إلى المركز حيث قابلت ضابط الحرس وأمرته قائلة : أعطِ أمرك بفتح الباب يا سيّدي !

ففعل الضابط. وكانت القروية قد بقيت واقفة في الخارج مخبئة وجهها بطيّات شالها . ولم تمض دقيقة واحدة حتى كانت الاثنتان خارج الأسوار . عندئذ قبضت القروية على يد بريفيرا قائلة : تعالي يا سيدتي العزيزة .

أما بريفيرا فقد شعرت عند لمس المرأة لها بارتعاشة عصبيّة لأنه خيّل إليها أن شدّ القروية على يدها إنما يحمل شيئاً من الإنذار . ولكن سرعان ما تبدّد هذا الشعور عندما أعادت بيانكا قائلة : تعالي فالعربة على بُعد مائتي خطوة من هنا . آه كم سيكون هذا الشاب سعيداً !

فحثّت بريفيرا خطاها ، ولم تلبث أن شاهدت عربةً ذات

مقاعد وربط حصانها إلى سياج الطريق الدائرة حول الأسوار ، فوثبت دونما تردّد إلى العربة بينما تصدّرت القروية في مكانها وطفقت تجلد بسوطها الحصان ضربات عنيفة . ولقد استمرّ هذا السير الليليّ قرابة ساعتين تحت جناح الصمت وبريفيرا منطوية على نفسها ولكن دون أن يتسرّب اليأس إليها. وكانت طوال الدرب تكرر في نفسها قائلة : لسوف أنقذه !

أخيراً أشارت بيانكا إلى كتلة في الليل وقالت: هذه مزرعتنا.

وكان رجفان غريبٌ في صوتها إلا أن بريفيرا لم تنتبه له ، بل كانت تنظر بحرارة إلى ذلك البيت القروي الذي شرعت تقترب منه . وعندما أبصرت نوراً مرتجفاً في إحدى نوافذ الطابق الأرضي سألت مرافقتها قائلة : إنه هنا ، أليس كذلك ؟ فأجابتها القروية قائلة : أجل ، إنه هنا .

وبعد دقيقة دخلت العربة إلى ساحة المزرعة ووقفت ، فقفزت بيانكا إلى الأرض ومدّت يدها لبياتريكس التي قفزت بدورها وشرعت تسير مع القروية التي كانت تجرّها بيدها ، وكان قلبها يخفق خفقاناً شديداً . وفجأة وجدت نفسها في قاعةٍ تشبه قاعة مزرعة عامة ، فنظرت حولها وسألت بصوت منخفض تقول : أين راكستان ؟

فانفجرت القروية عندئذ ضاحكة ، فاستولى على بياتريكس شعور عنيف بشرّ مستطير جعلها ترتجف من قمّة رأسها حتى أخمص قدميها . عندئذ قطّبت حاجبيها وقالت: ماذا ؟ أما سمعت سؤالي يا بيانكا ؟ فقالت القروية : لست أدعى بيانكا . فقالت

بريفيرا: ولكن أين الفارس؟ تكلمي أيتها الشقية! قالت القروية: الفارس راكستان في مونتفورتي .

فصرخت بريفيرا صرخة رعب وركضت نحو الباب ولكنها سمعت صرير مفتاح في غاله ، فوقفت تقول متمتمة : آه من هذا العمل الفظيع ! لستِ تدعين بيانكا فمن أنتِ إذن ؟

فأجابت القروية بهدوء مخيف : إنني لوكريس بورجيا !

فتراجعت بريفيرا إلى الوراء وشدّدت من عزيمتها ثم قالت برأس شامخ وشفةٍ مزدرية : لوكريس بورجيا هنا ! من تُرى سيكون ضحيتها اليوم ؟ فقالت لوكريس : إطمئني بالاً يا سيّدتي !

– أطمئنّ بالاً ! إنني لا أخشى الموت .

– لا أريد أن أقتلك الآن ...

– ماذا تريدين مني إذن ؟

– أريد فقط أن أنتزعكِ من يدي راكستان .

– ولأيّ سبب ؟

– لسبب نِسَوِيّ يا سيدتي. إنك تحبّين الفارس ولكنني أحبّه أنا أيضاً !

وساد الصمت بعد كلمات لوكريس الأخيرة التي نفذت إلى قلب بريفيرا ، وراحت هذه الأخيرة تستجمع قواها لهذه المبارزة حيث كانت ابنة البابا المزيف تحاول أن تقتلها بضرباتها الشرّيرة قبل أن تقتلها بضربات خنجرها . وبعد قليل قالت بريفيرا : خذي حذرك يا لوكريس بورجيا ! فالفارس راكستان لا يغفر الإهانة أبداً ، وإنّ حبّك له سيكون أدمى الإهانات .

فبهتَ لون لوكريس وشعرت بأنها كُويت بحديد محمّ وبأنها قد فقدت بداهة ذهنها ، فقالت صارّة بأسنانها : أجل ، أعلم أن راكستان سيزدري عروضي عليه ، ولكن لن يؤثر هذا عليّ لأنني سأنفّذ ما أريد منتزعة أحدكما من الآخر فلا تشاهدان بعضكما بعد الآن إلى الأبد ، إلى الأبد السحيق ، هل فهمتِ ؟ !

وتوقفت قليلاً وهي تلهث بأنفاسها أمام ابتسامة بريفيرا الساحقة ، ثم مشت نحوها قائلة : لن تريه أبداً ، هل سمعتِ ؟ ولسوف تموتين أولاً فأمضي إليه عندئذ وأخبره أنني قبل أن أقتلك جعلتك تمارسين الدعارة ! فانفجرت بياتريكس فيها صارخة : أيتها الشقيّة ! فتابعت لوكريس في شبه هذيان من الغضب قائلة : ذلك أن هناك رجلاً يشتهيك ويريدك له ولسوف يدنّس جسدك بقبلاته . أما هذا الرجل فإنك تكرهينه وهو أخي قيصر الذي سأسلمك إليه !

فصرخت بريفيرا وقد طار صوابها ، تقول : لن تنتقلي بي من هنا لأنك ستموتين أيتها البائسة .

وفي ذات الوقت أخرجت من صدرها خنجراً قصيراً حادّاً كان من عادتها ألا تتخلى عنه أبداً ، إلا أن لوكريس كانت قد وثبت إلى الوراء ، وقبل أن تستطيع بريفيرا أن تنطلق نحوها مزّقت الهواة ضربة سوط وفتح الباب ، ثم هجم على الأميرة أربعة رجال فمدّدوها بعد لحظة في مكانها . عندئذ أمرتهم لوكريس قائلة بصوت أجش : عليكم بنقلها ! فأحسّت بريفيرا بأيدي الرجال الأربعة تنقلها بقسوة إلى عربة مسدودة النوافذ . أما لوكريس فقد خلعت ثيابها الفروية واستبدلتها بزيّ خيال ، ثم وثبت على صهوة جواد واندفعت

خلف العربة التي كانت قد انطلقت مسرعة . وانقضى الليل على هذه الحال من السير الجنونيّ على منحدرات الجبال الوعرة ، وعند هلهلة الفجر كانت العربة قد ابتعدت كثيراً عن معسكر الحلفاء آخذة في السهل طريقاً تتجه مباشرة نحو البحر .

ولقد دام السير في هذه الطريق ثلاثة أيام لم تتصل خلالها لوكريس بسجينتها أبداً ، إلا أن أحد الرجال كان كل صباح وكل مساء يفتح باب العربة ويدسّ سلة من الطعام ثم يقفل الباب بسرعة . وكانت بريفيرا قد استعادت هدوءها التام فتحسّست أولاً خنجرها الصغير واطمأنت إلى أنه ما زال في موضعه من صدرها ، ثم أخذت تحسب الوسائل الممكنة التي تساعدها على الخلاص من العار المخيف الذي هدّدتها به لوكريس . ولقد فكرت أن باستطاعتها الخلاص عن طريق الموت : عندئذ أخذت يدها الناعمة تداعب مقبض خنجرها الذهبي بينما انتقل فكرها إلى مونتفورتي ، وتوقّف عند أبيها والأمير وراكستان الذي فكّرت به طويلاً . ولكنها عندما فكرت بالألم الذي سيعانيه الفارس بعد غيابها شعرت بخوَر قواها .

وفي أواخر اليوم الثالث توقّفت العربة ليلاً ، وكانت قد وصلت إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط حيث كان مركب صغير قد رسا في عرض المياه . هناك أنارت لوكريس مصباحاً وصنعت به علامة خاصة ، فأجابها قنديل من المركب بعلامة مماثلة . عندئذ كتبت لوكريس بقلم رصاص بطاقتين قصيرتين ومدّت الأولى إلى أحد الخيالة قائلة : أنقلها إلى تيفولي ! ومدّت الثانية

إلى خيّال آخر وقالت : إحملها للأمير قيصر بورجيا !

وغاب الرجلان مفاجأة في الليل . ومرّت بعض دقائق فإذا بزورق يقترب ويقف بجؤجؤه على الرمل ، عندئذ استدارت لوكريس نحو الخيّالين الباقين وقالت لهما : عودوا بالعربة إلى روما !

في هذه الأثناء قفز ثلاثة أو أربعة بحارة ومن بينهم قبطان المركب إلى الأرض ، وتقدّموا يحيّون لوكريس التي فتحت باب العربة قائلة لبياتريكس : إنزلي ، واعلمي أن كل مقاومة لا تجديك شيئاً ! فنزلت الأميرة الحسناء من العربة وألقت حولها نظرة سريعة جعلتها تفهم أنه في الواقع لا فائدة من المقاومة أو الهرب . هنا قال القبطان بأدب جمّ وقبعته في يده : أيروق لسيدتي أن تصعد إلى الزورق ؟ ثم قدّم لها قبضته لكي تتمسّك بها ، ولكن بريفيرا لم تأبه له بل صعدت إلى الزورق وجلست كأنها لا تهتمّ بشيء . عندئذ صعدت لوكريس بدورها فانطلق الزورق جارياً على صفحة المياه . وبعد عشر دقائق كان إلى جانب المركب . وعندما صعدت بريفيرا إلى متن هذه السفينة شعرت بموجة من اليأس تصعد إلى رأسها . ترى إلى أين يقودها حقد لوكريس بورجيا ؟ وشعرت برغبة شديدة لمعرفة مصيرها فسألت لوكريس قائلة : إلى أين تنقلينني ؟ فأجابتها لوكريس قائلة : إلى قصري في جزيرة كبريا .

فارتعشت بريفيرا من الخوف وتمتمت قائلة : إيه راكستان ! أين أنت الآن ؟

سقوط بيت آلما

*

رأينا أن الفارس راكستان قد وفى بالنصف الأول من قسَمه الذي قدّمه للأمير مانفريديّ فامتنع عن مشاهدة الأميرة الشابة ، ولكي لا يقع في التجربة كان يسجن نفسه داخل غرفته . وبقي عليه أن يفي بالنصف الآخر من هذا القسَم الرهيب ، وهو أن يقتل نفسه في اللقاء القادم مع جيش قيصر ، وها هي الفرصة تحين الآن . وبعد أن وقف متردّداً طوال عشر دقائق عزم عزمه الأخير ، فنزل الدرج راكضاً حتى وصل إلى الشارع . وهنا ظهر له عدد من المشاعل وجماعة من الخيالة قادمين نحوه وعلى رأسهم الكونت آلما والأمير مانفريديّ . فجمد راكستان في مكانه دون أن يأتي بحركة واحدة ، وبعد قليل توقّف الخيّالة بالقرب منه وقال له الأمير الذي كان أول من رآه : أيها السيد راكستان جئنا لنأخذك ، لأن سمو الكونت يريد أن يراك في المجلس الذي سينعقد في المعسكر .

فصعق راكستان إلا أن طبيعته التي لا تُقهر جعلته يتماسك ويتغلب على ذاته فإذا به يهمهم في نفسه مبتسماً : الوداع يا بريفيرا ! والوداع الوداع أيها الربيع ، أيتها الحياة ، أيها الحب ! ثم صرخ بصوت كأنه الرعد : إليّ بحصاني وأسلحتي !

ولم يكد ينتهي من كلامه حتى كان سبادا كاب إلى جانبه آخذاً بلجام كابيتان ، فمال إليه راكستان وهمس في أذنيه بعض كلمات

أجاب عنها سبادا كاب بإشارة من رأسه . ثم وثب الفارس إلى صهوة فرسه فمضى جماعة الحيّالة مبتعدين في شوارع مونتفورتي بين هتافات الناس التي كانت ترتفع على طريقهم . وكانت الساعة قد بلغت نصف الليل . وفي اللحظة التي اجتاز فيها هؤلاء الحيّالة السائرون وراء الكونت آلما والأمير مانفريدّي بوابة مدينة مونتفورتي ، جاء فارس وانضمّ فجأة إلى هذا الرهط ولكنه ظلّ يسير وراء الجميع . وبعد قليل أخذ يتأخر عنهم رويداً رويداً حتى بقي وحيداً دون أن يشعر به أحد . عندئذ نزل هذا الرجل عن صهوة حصانه وراح يتسلّق الصخور طيلة ساعتين حتى وصل إلى التلّ المشرف على معبر الجحيم . هناك اتّكأ الرجل على صخرة ونام : هذا الرجل هو دون كار كونيو .

*

لقد رأينا راكستان يميل إلى سبادا كاب ويهمس في أذنيه بعض كلمات ، لذلك فلم يتبع سبادا كاب الفارس ولكنه خرج من مونتفورتي وحيداً بعد أن قدّم نفسه لمركز الحرس بأنه سائس الفارس راكستان ، ثم شرع يسير على فرسه في الطريق التي كان قد تبعها مع الفارس يوم أتى هذا إلى ساحة الرأس الصخري للمبارزة مع مالاتيستا . وعند وصوله إلى التلّ أخذ سبادا كاب يجري باتجاه النزل الكائن في أسفل الرأس الصخري ، هذا النزل الذي أصبح الآن فارغاً مهجوراً . وكان سبادا كاب يحمل على مؤخرة فرسه رزمة كبيرة الحجم تشبه رزمة حبال بشكل ملفّ . ولا شك أننا لم ننسَ كيف أخذ راكستان وصاحبه عند وصولهما

إلى مونتفورتي بخرجان ليلياً للقيام بعمل خاص ، إذ كان سبادا كاب يقود عربة صغيرة برفقة راكستان .

في هذه الليلة وصل سبادا كاب إذن إلى نزل الرأس الصخريّ الفارغ من سكانه الذين التجأوا إلى مونتفورتي ، ثم نزل تواً إلى الأقبية المحفورة تحت الصخرة ذاتها والتي يقود إليها درج ينزل في الغرانيت على عمق طابقين . ونزل سبادا كاب إلى الطابق الأسفل حيث كان يوجد ثلاث غرف : الغرفة الأولى مغلقة بباب عادي ، أما الغرفتان الثانية والثالثة فهما مغلقتان بشعريتين حديديتين متينتين . وفي الغرفة الثالثة كان يوجد الثقب المشهور الذي حفره الشيطان بمذراته ... وفقاً لما ذكره صاحب النزل في روايته .

وعندما وصل سبادا كاب إلى القبو الثالث ركع قرب الثقب الذي كان صاحب النزل قد دلّ راكستان عليه ، وكان قد أنزل معه الرزمة الغريبة الشبيهة برزمة الحبال . وسرعان ما اقتطع ذراعين من هذا الحبل وأدخل طرفها في الثقب . وعندما انتهى عمله هذا خرج من الكهف حاملاً معه ما تبقّى من رزمة الحبال ، وأخذ يسير باتجاه مونتفورتي متتبعاً خطّ الصخور الجاثمة على حافة معبر الجحيم . وعلى بعد مائة خطوة من النزل توقّف سبادا كاب طيلة عشر دقائق أمام إحدى الصخور ، ثم أعاد الكرّة عند صخرة ثانية فثالثة وهكذا دواليك . وعندما عاد سبادا كاب إلى النزل كان قد استخدم في عمله هذا الغامض رزمة الحبال كلها التي جلبها معه من مونتفورتي .

أما الأمير مانفريدّي والكونت آلما فقد وصلا إلى المعسكر

عند الساعة الثانية والنصف صباحاً بعد أن اجتازا على سرعة أو بطء معبر الجحيم . عندئذ انعقد المجلس الحربي في خيمة الكونت آلما . وكان جيش قيصر قد انتهى من تحركاته ورابط أمام معسكراته مجتمعاً في كتلة متراصة . وكان من المؤكد أن هجوماً عنيفاً سيبدأ عند مطلع النهار .

وعندما انعقد المجلس في خيمة الكونت آلما أخذ كل من الأركان يقدّم رأيه . وكانت الساعة قد شارفت على الرابعة عندما انتهى المجلس وعندما بزغت الشمس بعساكر أشعتها الأولى . عندئذ أصدر مانفريدّي أوامره فدقّت الأبواق وتحركت القوات نحو معسكر قيصر وهي تزداد انتشاراً كلما ازدادت تقدماً . وكان الكونت والأمير وراكستان في وسط هذه المروحة التي شرعت تنفرج ببطء. وبعد قليل اندفع جيش الحلفاء واشتعلت المعركة في آن واحد على الخطّ بطوله .

أما قيصر فقد ترك جيش الحلفاء يطوّق جيشه ، ثم دفع قواته المتراصة مستهيناً بقوات الحلفاء التي تهاجمه عن جانبيه ومخترقاً صفّهم المتوسط كأنه إسفين ضخم من الحديد والفولاذ . إلا أن الحلفاء صمدوا في وجهه طيلة ساعة كان راكستان خلالها مع حفنة من الخيّالة يغير على أعدائه كرّة بعد كرّة كأنه ينشد الموت والموت ينفر منه .

ومرّة ، إثر عودة راكستان من إحدى كرّاته التي أوقفت تقدّم قيصر وجمّدته ، شاهد الكونت آلما والأمير مانفريدّي محاصرين بجماعة من السويسرانيين ، فكرّ عليهم يتبعه عشرون من الخيالة . في هذه اللحظة سقط الكونت آلما وقد فتح بلعومه

بضربة رمح ، سقط ميتاً مشنّجاً وذراعاه بشكل صليب .

وعندما شاهد راكستان الأمير مانفريدّي محاصراً من كل جانب مع الخمسين من المحاربين الملتفّين حوله ، أحسّ بنوع من الذهول وحدّث نفسه قائلاً : ها قد أتت ساعة الموت . ثم كرّ على الأعداء ، وبعد ثانية وصل إلى الفرقة المحيطة بالأمير . هنا ابتسم له الشيخ المدمّى ، فرأى راكستان هذه الابتسامة وصرخ قائلاً : ها أنذا آتي بوعدي !

أما هجومه فقد كان أقرب إلى المعجزة والجنون إذ أنه رمى سيفه واندفع بحصانه على الرماح المشرّعة في وجهه . وبعد عدة دقائق من الكرّ والفرّ الصاعقين الرهيبين وجد نفسه حياً في ساحة عريضة فارغة أمام جنود يهربون مذعورين . في هذه اللحظة هدر صوت بندقية على عشر خطوات أمامه ، ولقد سمع راكستان أزيز الرصاصة يصفر في أذنيه . إلا أن صوتاً غمغم وراءه فجأة ، فاستدار إليه فشاهد الأمير مانفريدّي يتدحرج عن حصانه ويقع ليس بعيداً عن جثة الكونت آلما . فقفز راكستان إلى الأرض وركض نحو الأمير العجوز الذي أصابه الرصاص في رأسه. إلا أنه كان ما يزال حياً ، ولكنه أخذ يبذل مجهوداً يفوق الطبيعة لكي ينهض قليلاً . وعندما شاهد راكستان منحنياً عليه هدأ روعه وسكن فقال له راكستان : رأيت يا سيدي أنني حاولت ما في وسعي للوفاء بعهدي . فأجاب الأمير هازّاً برأسه أن نعم . فتابع راكستان قائلاً : لم أنجح ، ولكن المعركة لم تنتهِ . ويمكنك أن تموت مطمئناً يا سيدي لأنني سأتبعك بعد قليل . فتلفّظ الأمير

العجوز بصعوبة فائقة قائلاً : كلا !

– ولماذا ؟

– لا ، لا ... أريد ! فزأر راكستان قائلاً : ألا تريد أن أموت ؟

– لا ... لا أريد !

– ولماذا ؟ قل ، لماذا ؟

– عش ... من أجلها !

فركع راكستان على ركبتيه وقد سالت دموعه على خدّيه ، وأراد الأمير أن يتكلم أكثر من هذا ، ولكن رأسه سقط ثقيلاً ، فشهق شهقة أخيرة ثم انتهى كل شيء . عندئذ انحنى راكستان ورفع هذا الرأس الأبيض المحمرّ وطبع قبلة في الموضع المصاب بالرصاصة . وعندما نهض كان وجهه شاحباً وفمه ملطخاً بالدم ولقد أضفى عليه هذا المشهد كل قناع مخيف .

في هذه اللحظة التي فارق بها مانفريدي الحياة، تطلّع راكستان حوله فرأى كابيتان الذي كان قد تبعه، فالتقط عندئذ سيف الأمير الغليظ وقفز إلى صهوة حصانه ثم مكث برهة يتفحّص الموقف . أما الأحياء من قادة الحلفاء فقد تجمّعوا حوله، وكانت الهزيمة آخذة بالتحوّل إلى كارثة رهيبة إذ أن قوات الحلفاء كانت تتراكض مندفعة نحو معبر الشيطان . وإذا بصوت يصيح قائلاً : لقد قضي علينا لأن قيصر سيسير إلى مونتفورتي ! فاستدار راكستان وشاهد جيوليو أورسيني ، فقال : يجب أن نتركه يسير إليها .

ثم مال على أورسيني وقال له بصوت منخفض: حاول يا صديقي

العزيز أن تجمع حولك ما تستطيع جمعه من الرجال متراجعاً بهم في المعبر أمام جيش قيصر الذي يجب أن تترك له فرصة الإندفاع وراءك حتى مونتفورتي .

– لا أفهم ماذا تعني أيها الفارس .

– ألا تثق بي ؟

– بلى ، ثقة لا حدود لها .

– إفعل إذن ما أقوله لك لأنني أريد أن أعدّ لغبطة قيصر بورجيا مفاجأة صغيرة على طريقتي الخاصّة .

– ليأخذ الله بيدك فنحن لم يبقَ لنا من نعتمد عليه سواك .

ثم راح راكستان يعدو في رحاب السهل بينما كان جيوليو أورسيني يدقّ نفير الانسحاب مندفعاً في معبر الجحيم مع من تبقى من جيش الحلفاء . وبعد نصف ساعة شرع راكستان يتسلّق سفوح التلّ الكأداء حتى أنه اضطر بعد حين إلى النزول عن ظهر حصانه وإلى السير على قدميه ومن خلفه كابيتان . وبعد ساعة وصل إلى التلّ فإذا به يرى مؤخرة جيش قيصر تندفع في الشعاب الموصلة إلى مونتفورتي . وكان التلّ على مدّ النظر يبدو خالياً من كل شيء كصحراء خاوية ، فامتطى عندئذ راكستان صهوة حصانه وراح يعدو كالإعصار باتجاه الرأس الصخري .

*

كان الراهب كاركونيو قد قضى ليلة ناعمة على سرير من العشب في الهواء الطلق، ولكن ندى الصباح جعله يستفيق. ولم يكد يجلس حتى طوّف أنظاره حواليه وشرع يقول بصوت مرتفع : قيصر

وجيشه المؤلّف من عشرين ألفاً ... يا لهزيمة الحلفاء ! إيه أيها الفارس راكستان ... اليوم يوم العدل !

ثم اختار الراهب مكاناً موجّهاً ليشهد هزيمة الحلفاء ولكي يرى إذا كان راكستان بين الأحياء ، وكان هذا المكان يبعد قليلاً عن نزل الرأس الصخري وهو يرتفع عنه ويشرف على كل ما يدور في معبر الجحيم . وفي هذه اللحظة كانت المعركة دائرة هناك بعيداً ، فقام كاركونيو إلى مؤونة معه وشرع يأكل وهو لا يكفّ عن مراقبة المعبر من جهة حقل المعركة .

وفجأة سمع ضجيجاً يقترب منه فانحنى متطلعاً فإذا برجال وجنود يتراكضون وهم من جيش الحلفاء الهاربين الذين اندفعوا في المعبر للاتجاه إلى مونتفورتي. وبعد لحظات إذا بقوّات أخرى تمرّ مسرعة، ثم إذا بحشد مبدّد مختلط من جنود لا يحملون سلاحاً ومن جرحى يجرّون أنفسهم جراً ، ومن خيّالة يزاحمون على السير جموع المشاة على الأقدام . فجأر كاركونيو عندئذ هاذياً من الفرح قال : هذا ما تبتّاتُ به ! ولكنني لا أرى راكستان اللعين !

وكان جيش قيصر ما يزال يتقدم حتى أصبح بأجمعه تحت عيني الراهب الذي كان الآن منحنياً إلى الأمام متشبثاً بصخرة يترنّح من الفرح ويزأر مزمجراً . وفي هذه اللحظة دوّى انفجار مرعب راح يرعد باتجاه مونتفورتي ، فإذا بالراهب كاركونيو يشاهد في هذه الجهة بالذات عموداً من الدخان يتصاعد في الفضاء ممزوجاً بالحجارة والصخور الضخمة. وبعد انقشاع ذلك سمع الراهب زجرة وأبصر تراجعاً مذعوراً في جيش قيصر ، إذ أن مطر الصخور قد

تساقط على الجيش ساحقاً طوابير برمّتها . فاصفرّت سحنته وتمتم قائلاً : ماذا أرى ؟!

ثم سُمع انفجار آخر ولكنه أقرب من الأول ، فإذا بالعمود نفسه يرتفع مرة ثانية وإذا بطر الحجارة ينهمر من جديد ، فترتفع الزجرة ذاتها والولولات المنفجرة . وأراد جيش قيصر أن ينسحب من المعبر غير أن مؤخرة الجيش كانت تتابع تقدّمها مما أدّى إلى بلبلة لا توصف. فاندفع الراهب عندئذ متراكضاً نحو النزل، ولكنه شاهد على بعد خمس مائة خطوة منه رجلاً ينحني ويشعل فتيلاً ، فتصاعد انفجار ثالث يهز الصخور هزّاً عنيفاً ويرتفع في المعبر ضجيج مخيف .

هذا الرجل وحده كان يفتك بجيش كامل، ولقد عرف الراهب كاركونيو أنه راكستان ، فرفع قبضته في الفضاء وزأر مطلقاً لعنة قذرة . وكان راكستان ما يزال يقفز باتجاه النزل وينحني ليشعل ناراً فيهدر انفجار آخر يفتّت الجبل ويرمي به على جيش قيصر لكي يسحقه سحقاً .

وانحنى راكستان أيضاً فتصاعد انفجار خامس انهارت له كتل جديدة من الصخور الضخمة . وكان الراهب ينظر إلى راكستان مسمّراً في مكانه كأنه في حلم مزعج ، ولقد رآه أخيراً ينطلق مسرعاً إلى النزل ، فركض هو أيضاً إلى النزل واندفع إلى الداخل في الباب الذي دخل منه راكستان ، فوجد نفسه أمام درج ينحدر في الأرض ، فصرّ على أسنانه مغمغماً يقول : إنه الشيطان ! الشيطان المخيف !

ثم اندفع إلى الدرج بسحنة شاحبة وأخذ ينزل وينزل حتى وصل إلى القبو الثالث حيث شاهد راكستان يشعل فتيلّ بارود طويل . وعندما اشتعل الفتيل نهض راكستان وخرج من القبو الأخير مغلقاً خلفه الباب الحديديّ بحركة آليّة . ثم اتجه نحو الباب الحديديّ الآخر ، فإذا به يسمع فجأة ضحكة حادة تنفجر ، وإذا بالباب الحديديّ الذي اتجه الفارس نحوه ينغلق بعنف ، فيبقى راكستان سجيناً في القبو الثاني بين بابين مشبوكين بالحديد . أما خلفه في القبو الأخير فقد كانت النار ملتهبة في الفتيل المتصل بكمية كبيرة من البارود ولم يعد باستطاعته أن يطفىء هذه النار . ونظر راكستان أمامه إلى القبو الأول من خلال الباب الحديديّ الذي أغلق عليه فرأى شكلاً أسود عرفَ أنه دون كاركونيو الذي انفجر ضاحكاً ثم زمجر قائلاً :

– الموت لك أيها اللعين فقد وقعت في الفخّ !

فهزّ راكستان كتفيه وأدار له ظهره ، فزأر الراهب عندئذ قائلاً : مت هكذا ! مت يائساً !

ثم اندفع نحو الخارج بينما راح راكستان يحاول عبثاً أن يفتح باب الحديد الذي يفصل بينه وبين الفتيل ، غير أنّ هذا الباب كان مقفلاً بكلاّب حديديّ يتكمش على الصخر ويستحيل فتحه إلا بمفتاح . أما الفتيل فقد رآه راكستان يحترق ببطء . وفجأة حدث على الدرج هبوط عنيف ثم ظهر رجل يحمل في يده مطرقة ، ولم يكد راكستان يراه حتى وثب منفجراً يقول :

– سبادا كاب !

أما سبادا كاب فلم يجب بل شرع يهوي بمطرقته على قفل الباب، وبعد الضربة الثالثة طار القفل فاندفع راكستان صاعداً على الدرج، عندئذ أخذ راكستان بين يديه شكلاً أسود كان مطروحاً على الأرض ... إنه الراهب كاركونيو الذي كان موثوق اليدين والرجلين . وبعد أن جرّه سبادا كاب إلى القبو الذي يشتعل خلفه الفتيل صعد راكستان على الدرج، وبعد بضع وثبات لحق براكستان ثم ابتعد الاثنان مسرعين. ولم يبتعدا مائة خطوة حتى دوّى انفجار أقوى من الانفجارات السابقة فترنّحت الصخور وجرى انهيار رهيب ، وتعالت الحجارة الضخمة في الهواء ، ولقد استطاع راكستان أن يلمح بينها جثة مهشمة سوداء ، ثم إذا بكل هذا الركام يتساقط على المعبر محدثاً قرقعة مخيفة .

وعندما تبدّد الدخان والغبار كان النزل قد اختفى من الوجود، وكان الرأس الصخريّ قد انهار هو الآخر فلم يبق مكانه سوى ثغرة مفتوحة أخذت ألوف الأفاعي تهرب منها مرتعبة . عندئذ وبينما كانت بقايا جيش قيصر تفرّ طلباً للنجاة مشرّدة من الرعب وقف راكستان على قمة صخرة وانحنى فوق المعبر ، فإذا به يشاهد بعيداً بين الهاربين قيصر بورجيا وقد عرفه من حصانه الأسود ومن كومة الريش التي تعلو خوذته، فانفجر راكستان في ضحك عصبيّ عنيف. في هذه اللحظة رفع قيصر رأسه وكأنه قد سمع ضحكة راكستان بالرغم من الجلبة المتعالية حوله ، فصرخ به راكستان صراخاً خرج من أعماقه وقال :

– إلى اللقاء يا غبطة مولاي !

ولكن قيصر كان قد غاب وراء لفتة إحدى الطرقات وقد دفعته موجة من موجات الجنود الهاربين، فاستدار عندئذ راكستان نحو سباداكاب وقال له مادّاً إليه يده : إني أشكرك ! فقال سباداكاب : آه يا سيدي من كار كونيو ، هذه البهيمة المخيفة !

– أجل ، لولاك كنت سأطير بدلاً منه . ولكن كيف رأيته؟

– هكذا صدفة ، فعندما قلتَ لي إنك ستضع بمفردك النار في هذه الألغام التي نصبناها معاً انحرفتُ جانباً على مسافة من النزل لأشاهد مفعولها . وعندما بدأت الانفجارات تدوّي في الفضاء شاهدت كتلة سوداء تتحرك وإذا بالراهب يندفع كالمجنون نحو النزل ، فاندفعتُ في إثره ووصلت عندما سمعته ينفجر ضاحكاً . عندئذ التقطتُ مطرقة من مطبخ النزل وتزحلقت على الدرج حتى وصلت إليه، وإنك تعرف بقيّة ما حصل. فقال راكستان: شكراً أيها الصديق الشجاع ، فأنا مدين لك بالحياة مرّتين. قال: وأنا مدين لك بشيء آخر ! ولكن أين كابيتان؟ قال: لقد ربطته هناك بتلك الشجيرات التي تراها. قال: حسناً، عليك أن تعود به إلى مونتفورتي. فقال سباداكاب مستفسراً : وأنت يا سيدي ؟ قال : أنا أريد أن أعود بطريق المعبر !

ثم اتجه راكستان إلى طرف التل على مقربة من اللغم الأول وأخذ ينزل نحو جيش الحلفاء الذي توقف هناك . وعندما وصل إلى أسفل امتدّ ألف ذراع نحوه وجميعها تصافحه وتعانقه حتى كاد يختنق. وعندما هدأت سورة الفرح قليلاً سار الجميع نحو مونتفورتي وكان راكستان الذي امتطى صهوة أحد الأحصنة يسير في المقدمة كقائد جيش منتصر متجهاً نحو قصر الكونت آلما . وبعد قليل

وصل إلى أسفل الدرج الرخامي الفخم فرفع عينيه منتظراً أن يشاهد بريفيرا . ولكنها لم تظهر ، فقال في نفسه : لا شك أنها علمت بموت أبيها وبموت الأمير مانفريدّي .

ثم نزل عن ظهر حصانه فاجتمع القادة حوله وتقدّم منه جيوليو أورسيني فخاطبه قائلاً : تعال أيها الفارس ، فإليك وحدك سيعود شرف رواية أحداث المعركة للسيدة بياتريكس التي هي الآن الأميرة المطلقة على هذه المدينة .

فشرع راكستان يتسلّق الدرج الكبير يحيط به حشد غفير من المحاربين والأسياد ، بينما كانت الجماهير تتوافد إلى الساحة الفسيحة . ولشدّ ما كان قلبه يخفق خفقاناً شديداً لأن ساعة مصيره كانت ستدقّ دقتها الأخيرة . وبعد قليل دخل الجميع إلى ممشى القصر العريض فإذا بامرأة مسنّة هي وصيفة الشرف لدى الأميرة تتقدّم نحو راكستان ومرافقيه القوّاد قائلة : أيها الأسياد ، لديّ خبر مخيف سأعلنه لكم . فصاح راكستان وقد بهت لونه وقال : عن الأميرة ؟

– الأميرة مانفريدّي قد اختفت أيها الأسياد !

قيصر بورجيا

*

مرّت الأيام على الأحداث التي رويناها ، وكان قيصر بعد أن

بعث رسولاً إلى تيفولي لكي يقصّ على أبيه فاجعة معبر الجحيم قد سار بفلول جيشه مسيرة يومين عن مونتفورتي . وكان عدد القتلى من الجنود يبلغ الألف ولكن الجرحى كانوا ثلاثة أضعاف هذا العدد . وما كان فقدان هذا العدد ليؤثّر في سير المعركة لو لم يشع الرعب في قوات قيصر فيجعل فرقاً بكاملها تتبدّد وتهجر الجندية . لذلك فعندما توقّف قيصر أثناء انسحابه شاهد أنه لم يعد يملك أكثر من ثلاثة آلاف رجل .

فيا للهزيمة الفادحة ! ويا لنهاية كبرياء كقائد لا يُقهر ! ويا لأحلامه التي انهارت بأجمعها ! وبالإضافة إلى هذا كله فقد علم بعد ثمانية أيام من الحيرة والتردد أن البابا هرب إلى جانب لوكريس ، إلى جزيرة كبريرا بعد أن تنبّأ بثورة شعبية عامة عليه وعلى سلطانه.

وقبل يومين من ذلك التاريخ كان قيصر قد رأى أحد الرجلين اللذين أرسلهما مع لوكريس يصل إلى خيمته ويضع بين يديه بطاقة قرأ فيها هذه الكلمات : « عند استيلائك على مونتفورتي الحقني إلى كبريرا حيث أعددت لك مفاجأة سارة » . وعندما قرأ قيصر هذه البطاقة جأر قائلاً : « عند استيلائي على مونتفورتي ؟ هذه المجنونة لا تفكر أبداً فيما حصل لنا ، كما أنها لا تفكر أيضاً بالمصائب التي تنتظرنا ! »

وفي الواقع كانت الأخبار التي يستلمها من روما أخباراً لا تدعو إلى الاطمئنان لأن الشعب أخذ يتحرّك . وفي إحدى الليالي أعلن له الضابط الذي يسهر أمام خيمته قدوم المركيز دي روكاسانتا الذي كان قائد البوليس الأعلى في روما . وكان المركيز هذا مثال

الرجال الذين نشأوا وتربّوا في البلاط أي أنه يملك حاسّة شمّ قوية للكوارث التي تُعد والثروات التي يمكن الإفادة منها وفقاً لاستغلال الظروف . ولقد علم قيصر أن حضور المركيز إنما هو نذير بسوء ، فأصدر أمره بإدخاله عليه . وعندما دخل روكاسانتا إلى خيمة قيصر قال : دعني أولاً يا غبطة مولاي أن أهنئك بسلامتك ، فلقد علمنا في روما بجرحك فقلق بالنا عليك . فغمغم قيصر قائلاً : لا أهمية لهذا الجرح لأنني وحقّ الأبالسة أملك جلداً قاسياً . ولكنه يتراءى لي أنك لم تقم بسفرك هذا لكي تطمئنّ فقط إلى صحتي مهما كانت غالية عليك . فأجابه روكاسانتا قائلاً :

— إنني أحمل لك في الواقع يا مولاي أخباراً خطيرة ، فشعب روما قد أعلن تمرّده والريف قد أخذ يشتعل والعصابات تتألف في كل مكان .

فضرب قيصر بقبضته ضربة هائلة على الطاولة ، إلا أن المركيز لم يتحرك من مكانه بل تابع قائلاً : ولكن هؤلاء الأشقياء لم يجرؤوا على مهاجمة الفاتيكان أو قصر سانت آنج لأنهم حتى الآن لا يملكون قادة ، ولكن في غضون ثمانية أيام أو عشرة سيسيطر المتمرّدون على قصر سانت آنج .

— ومن الذي دفع هؤلاء الرعاع إلى التمرد والثورة ؟

— من يا مولاي ؟ لا أحد . قلت لك إنهم لا يملكون قادة يحرّكونهم ، وهذا ما يجعل الفرصة في أيدينا يا مولاي . ولقد استخدمت الوسيلة الوحيدة التي نملكها : الاعتقالات بالجملة وتنفيذ أحكام الإعدام السريعة . ولكن ، ويا للأسف ، بلا جدوى !

وبالإضافة إلى ذلك كله فقد رأى قداسته أن الفرصة مؤاتية للقيام بسفرة صغيرة إلى جزيرة كبريرا . وحاشا أن أحكم على أفعال الأب الأقدس حفظه الله ، ولكن ...

– ولكنّ أبي خاف ، أليس كذلك ؟

– إليك إذن رأيي الصريح : لم يبقَ غير سلطة واحدة باستطاعتها فرض نفسها على المتمرّدين ، هي السلطة الدينية ، لأن الأبّهة البابوية ما زالت قادرة على إخناء الرؤوس . لذلك يا مولاي يجب إيجاد بابا يدخل إلى روما باحتفال مهيب ، محاطاً بألوف من الكهنة والكرادلة والأحبار ! كذلك يجب ألا يكون شيخاً مسناً بل شاباً قوياً هماماً جريئاً يحمل تحت ثوبه الأرجواني خنجراً مشحوذاً ليطعن به حالاً أوّل من يتمتم كلمة واحدة .

وكان روكاسانتا يرمق بنظرةٍ حادّة قيصر الذي شحب لونه وقال : أجل ، إنها فكرة عظيمة وجريئة .

– وإذا كان البابا الشاب الذي أتحدّث عنه قائداً مظفراً لم يُمسّ صيته بهزيمة بسيطة ، وإذا استطاع أن يسيّر خلف العرش البابوي جيشاً منظّماً ، فلا شك أن التمرّد سينحلّ من ذاته ، وأن السلطان البابوي سيرسخ على دعائم متينة إلى وقت مديد ، أو على الأقلّ إلى أمدٍ ضروري لسحق الثورة سحقاً لا قيامة لها من بعده .

فقال قيصر مضطرباً : كفى يا روكاسانتا ، كفى ! ثم غرّق عينيه في عيني المركيز وقال : أتريد أن ألبس التاج البابوي ؟ فقال المركيز : نعم يا مولاي . وهذه هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ

الموقف . فقال قيصر : ولكن لانتخابي بابا يجب أن يُقال أبي ... فقاطعه روكاسانتا بلهجة قاطعة قائلاً : أو أن يموت ! يشهد الله أنني أقدّم حياتي لكي يطول عمر البابا ، ولكن ... إنه عجوز ، والبحر صعب على شواطىء سردينيا قريباً من جزيرة كابريرا ، وقد يحصل له ما يودي بحياته .

ولم يعد قيصر يستمع إليه ولكنه غرق في تأمّل قاتم . فلكم مرّة عاودته فكرة قتل أبيه عندما كان في لياليه المكتظّة بالمطامح المؤرّقة يحلم بأن يصبح بين ليلة وضحاها قريناً للملوك بل ملكاً هو نفسه . أما روكاسانتا فقد مكث الآن صامتاً ينتظر ، فرفع قيصر أخيراً رأسه وتمتم قائلاً : نحتاج إلى رجل أمين لإرساله إلى كابريرا .

ففهم المركيز روكاسانتا فكرة قيصر : إنها نهاية اسكندر السادس ! عندئذ قال بصوت رتيب : إذا كان لديك مهمة دقيقة في كبريرا فباستطاعتي أن أدلّك على رجل .

– من هو ؟

– إنه الشاب الذي سمحت لي وظيفتي بأن أختبره وأدرسه وأحكم عليه : أي قارىء قداسته . فقال قيصر بازدراء : الراهب آنجيلو ؟

– هو بعينه يا مولاي . ولا تظنّنّ به سوءاً لأنه يملك صفتين ثمينتين هما : الطمع والطموح . والرجل الطامع يا مولاي هو الأداة الطيّعة التي يجب أن نبحث عنها .

الراهب أنجيلو

*

بعد أن عهد قيصر بورجيا بقيادة جيشه لأحد الدهاة المسنّين من القوّاد المحيطين به ، سافر إلى تيفولي بصحبة خفر قليل . ولقد جدّ في سفره حتى بلغها في مساء اليوم التالي . ولم يكد يدخل إلى الردهة التي كان يشغلها البابا حتى دعا إليه الراهب آنجيلو ، ثم أخذ يتفحّصه بفضول كبير .

وكان الراهب آنجيلو يبلغ من العمر أربعاً وعشرين سنة أو خمسة وعشرين ، ولكنه كان يبدو في العشرين . وكان يظهر عليه أنه مثال كامل للراهب الذي يعيش في البلاط : بتودّده للنساء وسرعته في خدمتهن ثم بتزيّنه على أحسن طراز . وكان يملك نقاباً من البراءة من شأنه أن يوحي بالثقة لكل من يراه ، ولكن نظرات تثير القلق كانت تشعّ أحياناً من عينيه الرماديتين . وبعد قليل قال له قيصر : ما رأيك في الموقف الراهن ؟

فارتعش آنجيلو لأنه لم يستمع مرة لقيصر يحدّثه عن أشياء رصينة ، بل لقد كان يحضر مرات كثيرة اجتماعات آل بورجيا العائلية دون أن يتمّ أحد بوجوده . غير أنه قال : أرى يا مولاي أن الموقف بائس ، هذا إذا لم يطرأ عليه حادث جليل غير منتظر . وإن أخطر ما في الموقف ليس اندحار جيشك هذا الاندحار الذي لا يستحقه ، ولكن حالة قداسته المضطربة التي جعلته يعتقد أن الوقت قد حان لجعل البحر فاصلاً بينه وبين روما .

ـ أتعلم أنك شديد الذكاء يا هذا الراهب ؟ إن أقوالك صحيحة ، ويجب ألا تبقى في مركزك هذا البسيط ، لأن جميع أحبارنا مسنّون ونحن بحاجة إلى رجال مثلك يا آنجيلو ، ولشدّ ما يوافق التاج الأسقفي رأسك الذكي !

فشحب وجه آنجيلو . أما قيصر فبعد أن صمت قليلاً عاد يقول: ذكرت أن حادثاً جليلاً يستطيع وحده تغيير الموقف ، فما هي طبيعة هذا الحادث حسب تقديرك ؟

فرفع الراهب إصبعه إلى السماء وكأنه يشير إلى أن هذا الحادث المجهول إنما هو سرّ من أسرار الله . فنهض قيصر واقترب من الراهب سائلاً : ما رأيك بوالدي ؟ فقال : رأيي أن البابا رجل مسنّ . فقال قيصر : تكلم دون خوف وأوضح فكرتك . فقال: ما قلته يا مولاي يحتوي فكرتي بكاملها . فالبابا رجل مسنّ مرهق. ولقد كان عهده بجيداً ولكن هذا العهد قد استنفد جميع قواه . فقال قيصر : وهل تعتقد أنه من الواجب إيجاد بابا أحدث سناً ؟ قال : أعتقد أنه من الواجب مجابهة التمرد بقوة لا تقهر . قال قيصر : وأية خدمة تقدّم للذي يعيّنك أسقفاً ؟

فانحنى الراهب بإجلال وقال: إني منتظر أوامرك « أيها الأب الأقدس ! »

ـ حسناً ، لقد علمت الآن أن من حدّثني عنك لم يخدعني .

ثم شرع قيصر يكتب شيئاً ، وعندما انتهى قدّم للراهب قرطاساً كان قد مهره بإمضائه وقال : إقرأ ، فلم يعد بيننا الآن سرّ من الأسرار . ومن ثم فإن قراءة هذه الرسالة ستعيّن لك

ما أنا منتظر منك .

فشرع الراهب يقرأ بانتباه كبير ما يلي :

« أختي العزيزة لوكريس ، سيقول لك الراهب آنجيلو ، الذي سينقل لك هذه الرسالة والذي أمنحه كل ثقتي ، لماذا لا أستطيع اللحاق بك إلى جزيرة كبريرا . وإني لأرجو أن أحضر إليك بعد أيام . وإنني أفكر بأن والدنا ينعم بصحة جيدة ، ولكنني لا أجرؤ على التوقف طويلاً عند هذا الأمل لأنه بدا لي في آخر مرة شاهدته فيها أنه سيء الحال ، وإني لأخشى عليه من نهاية مشؤومة. أما إذا وقع مثل هذا الحادث المفجع فليأتِ الراهب آنجيلو لكي يطلعني على الأمر . والراهب آنجيلو نفسه سيساعدكِ على العناية به عناية تقتضيها حالته، ولكنني أخشى ألا تفيد الأدوية التي يحملها الراهب في شفاء مرض قداسته . أما أنا فإنني سائر الآن إلى روما حيث سأنتظر منك أخباراً بفارغ صبر .

أخوكِ قيصر ، دوق فالنتينوا » .

وعندما انتهى الراهب آنجيلو من قراءة الرسالة نظر إليه قيصر بورجيا ثم قال له بهدوء : ماذا أيها الراهب ؟ هل أنت من رأيي فيما يتعلق بصحة والدي ؟ لا تُخفِ عني الحقيقة مهما كانت محزنة. فقال آنجيلو : لقد جاورت الأب الأقدس طويلاً ورأيي مماثل لرأيك تماماً ويا للأسف !

— « وكم يوماً ترى أنه سيعيش ؟ »

فأخذ الراهب آنجيلو يحسب طيلة دقيقة ثم قال دونما تردد : « ثمانية أيام على الأكثر » .

أما سؤال ابن البابا المخيف والجواب المشؤوم عليه ، فقد لفظا بصوتٍ منخفض .

لقاء في الليل

*

من الضروري الآن أن نعود القهقرى لنتتبّع بسرعة أعمال وحركات شخص تركناه في الظلام ، أي أننا نريد التكلم عن روزا فانوزّو ، أو الماغا. ولعل القارىء يذكر أنها انفصلت عن رافائيل سانزيو وروزيتّا وما كيافيللي بينما كان هؤلاء متوجّهين إلى فلورنسا. وكانت روزا قد عادت إلى تيفولي قاصدة كهف وادي نهر « الآنيو » . ولقد مرّت منذ ذلك الحين أيام عديدة فكيف تُرى عاشت والدة قيصر ولوكريس طيلة هذه المدّة ؟ وما هي الأفكار التي حاكتها والاستعدادات التي شغلت نفسها بها ؟

من المرجّح أن تكون قد قضت هذا الوقت في اكتساب بعض الأنصار لها في فيللا البابا ، وكنا قد رأينا أن الماغا عند هربها من روما جلبت معها كثيراً من الجارة الكريمة والقطع الذهبيّة التي تكوّن ثروة وافرة . ولا شك أنها وزّعت من هذه الثروة على خادم أو أكثر لتحصل على وسيلة تسمح لها بالدخول إلى الفيللا .

وحدث في أحد الأيام ، بينما كان قيصر يستعدّ لاجتياز معبر الجحيم ، أن خرج البابا من قصره الريفي مع عدّة أشخاص من

حاشيته للتنزه في بعض الأماكن المجاورة للقصر . وعندما همّ البابا بالعودة من نزهته كان الليل قد أرخى سدوله. وكان الراهب آنجيلو برفقة سيّده إلا أنه تخلّف قليلاً إلى الوراء عن موكب قداسته ، ذلك أنه كان من هواة جامعي الأشياء الغريبة ، وكان قد توقّف ليلتقط بين الأعشاب بعض الحُباحب اللامعة . ولم يكد ينهض حتى شاهد ظلاً خلف صخرة ، فحدّق فيه جيداً وعرف أنه شبح امرأة . وعندما عبر البابا مبتعداً في الظلام رأى آنجيلو المرأة تمرّ بيدها على جبينها وتتنهد تنهداً عميقاً ثم تتلفّظ بصوت جليّ مسموع قائلة : إمض يا رودريك ، إمض مطمئناً هادئاً بينما أنا أتألم، ولكن ها هي الساعة تقترب لتكفّر عن جرائم يديك .

فأوقف آنجيلو أنفاسه حتى ابتعدت المرأة فراح يتبعها بين الصخور وإذا به يراها تدخل إلى مغارة « الآنيو » . وبعد تلك الليلة كان الراهب يقوم على مراقبتها كل يوم ، فيسمعها أحياناً تخاطب نفسها بصوت عالٍ حتى عرف مجمل أفكارها والغاية التي تكمن وراء بقائها في هذا الكهف . وفي إحدى الليالي بعد هذا الحادث بقليل مكث الراهب آنجيلو مستيقظاً بعد أن همهم في نفسه قائلاً : إنني متأكد من أن الماغا ستأتي في هذه الليلة !

ولم يكد ينهي كلماته هذه حتى ارتعش جسمه لأنه أبصر في الطرف الآخر من الممشى شيئاً أسود يزحف نحوه . فوقف خلف بابه المشقوق دون أن يتحرك وكان الضوء في غرفته منطفئاً . وظل الشيء الأسود يزحف حتى دنا منه ، عندئذ مدّ آنجيلو ذراعه فوقعت يده على يدٍ فجذبها نحوه ودخل إلى غرفته مغلقاً خلفه

الباب . ولقد جرى كل هذا المشهد بصمت تام لأن الراهب كان قد تمتم قائلاً : أصمت وإلا صرخت وفضحتك !

عندئذ أضاء آنجيلو شمعة فظهرت الماغا في نورها وراحت تحدق بهذا الشخص الذي حال بينها وبين البابا . أما الراهب آنجيلو فظلّ ممسكاً بيدها ثم قال هامساً : إجلسي ، أعرف أنك آتية لقتل البابا وباستطاعتي أن أوقفك بكلمة واحدة ، ولكنني لن أقول هذه الكلمة . فقالت روزا فانوزّو بهدوء غريب : إذن أنت أيضاً تريد قتل رودريك بورجيا ! فقال الراهب : كلا ، لا أتمنى موته إذا كان لا يجديني نفعاً الآن . ولكن من المؤكد أن موت البابا سيفيدني يوماً من الأيام . فقالت : فماذا تطلب مني إذن ؟ قال : أن تتريّثي قليلاً . قالت : وإن لم أفعل ؟ قال : أصرخ عندئذ فيقبض عليك وتموتين دون أن تحققي انتقامك . قالت : أجل ، فهمت . لقد عشت في جوّ آل بورجيا المسمّم فتسرّب السمّ إلى نفسك. ولكنك قوّة ضاربة لا شك أنها تعادل قوّتي . فقال : أقررتِ إذن الانتظار ؟ قالت : لقد صبرت سنوات عديدة ويمكنني أن أصبر بضعة أيام. ولكن متى ستأتي الساعة؟ قال: سأخبرك بالساعة عندما نحين .

فأخذت روزا فانوزّو تفكر تفكيراً عميقاً ثم قالت : فليكن إذن ! وإنك تعرف المكان الذي تجدني فيه .

وبعد هذا اللقاء اجتمع الراهب بالماغا عدة مرات في المغارة ، وفي اليوم الذي سافر فيه البابا أسرع آنجيلو إلى الساحرة وقال : لقد غادر البابا تيفولي . فأجابت روزا فانوزّو باطمئنان قائلة :

علمت بالأمر . قال : ولقد التجأ البابا إلى جزيرة كابريرا عند ابنته لوكريس لأن جيش قيصر لاقى هزيمة منكرة ، ولأن ثورات شعبية أخذت تتحرك في روما وفي كل مكان تقريباً .

وكانت الماغا العجوز تصغي إليه بهدوء ، وعندما أنهى حديثه تمتمت قائلة : إنه العقاب الرهيب ! لقد منعني القدر عن قتله في تلك الليلة ، فليكن القدر مباركاً لأن رودريك سيشاهد بنفسه انهيار سلطانه ! أما الآن فعليك أيها الشاب أن تسرع.

وبصوت منخفض حدّثت نفسها وهي ترتعش ، قالت : هرب إلى كبريرا ! حسناً سنرى ...

اسكندر بورجيا وابنته لوكريس

*

بعد ساعة من عودة قيصر إلى معسكره كما يذكر القرّاء ، انطلق الراهب آنجيلو إلى مغارة وادي الآنيو . وعندما أبصرت روزا حالته العصبية وعيناه اللامعتين فهمت حقيقة أمره فقالت له بلهجة باردة : هل دقّت الساعة ؟ قال : نعم ، وها إنني مزمع على السفر . قالت : تقصد أننا مسافران معاً ؟

فصمت آنجيلو طيلة دقيقة ، فقالت الماغا : ماذا بك ؟ فقال الراهب : أنصتي ، صحيح أن الساعة الأخيرة قد دنت ، وإنني لأقسم لك بأن رودريك سيموت قبل ثمانية أيام ، ولكن ما

الفائدة من ذهابك إلى كبريرا ؟ فوجودك قد يخرّب كل شيء بينما أنا وحدي سأكون أكيداً من النجاح . ومن ثم ماذا تريدين أنت؟ أن يموت ؟ كِلي الأمر إليّ فإنه سيموت ، وأعطيني السائل القاتل الذي تجيدين تركيبه لكي أمضي في سبيلي .

فرفعت الماغا كتفيها وقالت : إنك طفل ولا تعرف ما هو الانتقام . فأنا لا أريد أن يموت البابا ولكنني أريد أن أقتله ! لقد أنقذته يوماً عندما كان مريضاً ، ووفرت له الوسائل للقضاء على أعدائه الذين كانوا يريدون موته،ولقد فعلت هذا «أيها الطفل» لكي أحتفظ به لنفسي . لذلك يجب أن يراني الآن وأن يخاطبني في دقيقته الأخيرة ، لأن لديّ أشياء سأقولها له . وهل تعتقد أنني انتظرت طيلة حياتي هذه اللحظة السانحة لكي أكِلَ إليك ببلاهة أمر الانتقام منه ؟ إسمع ، أنا سأصبّ له السم بيدي . أنا ، لا شخص آخر !

وكان الراهب يستمع صامتاً وينظر بخوف إلى هذه المرأة التي هي الآن تجسيد للانتقام. ولكنه وسوس آخر الأمر قائلاً: سأفعل ما تشائين. فقالت: وهل ستطيعني إلى النهاية ؟ قال: نعم سأطيع.

وبعد ساعتين كانت عربة مغلقة تغادر تيفولي متجهة نحو « أوستي » ، وهو مرفأ صغير يقع قريباً من روما عند مصبّ نهر التيبر .

وإنه لمن الواضح أن بورجيا العجوز قد التجأ إلى جزيرة كبريرا بعد أن علم بكارثة معبر الجحيم التي ألمّت بجيش ابنه قيصر والتي وقعت منه موقعاً شديداً لأنها كانت غير منتظرة. فاسكندر العجوز

الذي كان لا يخاف من شيء في العالم أصبح يرتجف سرّاً أمام قيصر الذي لا يتورّع عن قتل أبيه في سبيل مطامعه ، لذلك فقد كان بورجيا العجوز يزجّ ابنه في حروب جديدة لكي يلهيه عنه فيأمن شرّه. ولكن الهزيمة الأخيرة قد أودت بأحلام قيصر وجعلت اسكندر السادس يرتجف خوفاً على حياته. لذلك عندما جاءه رسول لوكريس ليخبره أنها ذهبت إلى كبريرا فقد قرّ رأيه على السفر . ولم يطلّ اليوم الثاني حتى سافر بورجيا بطريقة سرية مخبراً أخصّاءه فقط بأنه ملتحق بابنته لبضعة أيام .

وعندما نزل البابا من سفينته الخاصة في جزيرة كبريرا استقبلته لوكريس بمظاهر الفرح البنويّ الغامر ، غير أن وصول أبيها كان يسبّب لها قلقاً غامضاً وغيظاً مستتراً، لأن كل شيء في أوضاع البابا كان ينذرها بكوارث قريبة ، فقد بدا كثير الهواجس والظنون ، ومنذ وصوله طلب أن يزور قصر ابنته . وكان هذا القصر واقعاً على شاطىء البحر ، على الضفة المواجهة لإيطاليا . من هذه الجهة كان القصر منيعاً لأن سيف البحر كان مكتظاً بنواتىء الصخور . أما من جهة الأرض فقد كان هناك خندق عريض مليء بالماء يكوّن نهراً لا يمكن عبوره إلى القصر . وعندما رأى البابا جميع ذلك قال بغبطة وارتياح : ما أمهرك يا ابنتي ، إنك مهندس عسكريّ رائع ! لأن هذا القصر قلعة منيعة على كل طامع .

وكانت لوكريس منذ سنوات عديدة قد حصلت من أبيها على ملكية جزيرة كبريرا الصغيرة التي تفصلها عن سردينيا قناة ضيّقة . وكان لها سفينة ذات أشرعة مجهّزة بعشرة رجال تنتظرها دائماً في

مرفأ « أوستي » الذي يبعد عدة فراسخ فقط عن روما . وكان لها أيضاً سفينة ثانية أصغر من الأولى ولكنها تعادلها سرعة ، وهي ترسو دائماً على الشاطىء الغربي من الجزيرة بمواجهة سردينيا . وهكذا تكون لوكريس قد أمّنت هربها من الناحيتين في ساعات الطوارىء المشؤومة .

أما القصر فقد كان مؤلفاً من عدّة أقسام أهمّها بناية فسيحة مربّعة . وكان يعيش في هذا القصر أربعون من الخدم ما عدا وصيفات لوكريس ، وكان من أمر هؤلاء الخدم أنهم ينقلبون حالاً إلى جنود مسلحين يضحّون حياتهم في سبيل سيدتهم .

وعندما انتهت زيارة البابا للقصر أُنزل في جناح فخم كانت لوكريس قد نقلت إليه الرياش الأنيقة الرقيقة التي كانت تحيط بها نفسها في روما ، وكان هذا الجناح مؤلفاً من عشر غرف لم يدخلها بورجيا إلا بعد أن تفحّص بعناية كاملة جميع أبوابها وأقفالها .

وهكذا ظل البابا وحيداً في هذا القصر مع لوكريس التي أخذ قلقها يزداد شيئاً فشيئاً ، والتي فكرت بأن البابا سيشرح لها سبب زيارته إلى كبريرا . ولكنه عوضاً عن أن يشرح لها سبب زيارته سألها فجأة قال : ماذا جئتِ تفعلين هنا يا ابنتي ؟ قالت : ولكنك تعلم أنني أقصد هذا المكان من وقت لآخر . قال : إذن لم يكن لديك سبب خاص يجعلك تلتجئين إلى جزيرة كبريرا ؟ قالت : كلا يا أبي ، لا يوجد أي سبب . قال : إنكِ جاهلة إذن لما يجري ؟ فصاحت لوكريس قائلة: وهل يجري ما لا أعرفه ؟ قال: لقد هُزم قيصر وأخذت روما تنتفض ولربما كان مجلس الكرادلة مجتمعاً الآن

ليقرّر إقالتي .

فمكثت لوكريس مذهولة مذعورة ثم قالت : فالذي أتى بك إلى كبريرا هو إذن ... فقاطعها قائلاً : الخوف يا ابنتي ! فقالت : الخوف ؟ آه يا أبي لم تستعمل في حياتك هذه الكلمة مهما كانت الظروف ، فهل ساء الوضع إلى درجة اليأس ؟

فهزّ البابا رأسه مشيراً بالإيجاب ثم تابع قائلاً :

– لقد ارتكبت في أحد الأيام غلطة ستبكيني دموعاً من الدم ، ولست أدري أيّ شيطان أوحى لي بالفكرة المشؤومة التي هي السبب الأول في مصائبنا . فقالت لوكريس: لا أفهم ما تقصد يا أبي . قال : في أحد الأيام رفض رجل العروض التي قدّمتها له في الفاتيكان ، فهجم قيصر عليه ليطعنه بخنجره ، ولكنني منعته . فهرب الرجل بعدئذ ومضى إلى مونتفورتي فكان من جرّاء ذلك أنه فتك بجيش قيصر . فصاحت لوكريس بحنق متزايد قائلة : إنه راكستان ! وتابع بورجيا العجوز قائلا : وكان يوم واحد كافياً لكي يجعل هذا الشعب الذي كان يرتجف أمامي، يرفع رأسه عندما وصله نبأ الكارثة . وهذه روما أخذت تفلت من قبضتي . وفي تيفولي نفسها أخذوا ينظرون إليّ شزراً ، وإنني خائف ، خائف كما قلت لك . لوكريس ، لوكريس ! لم يبق لي ثقة إلا بك . أنت تعلمين كم أحببتك وكيف فضّلتك على إخوتك وعلى قيصر نفسه ! وإنك لتعرفين أفكاري عنك . لوكريس ، سوف تحمين والدك العجوز ، أليس كذلك ؟

– آه يا أبي ، أوتشك بهذا ؟ أنت هنا بأمان كامل فلا تخشَ

شيئاً . ولكنني أعتقد يا أبي بأن مخاوفك متطرّفة لأن قيصر وإن كان مغلوباً فلسوف يعبّىء جيشاً جديداً ، إذ أن هزيمة واحدة لا تكفي لمحو ما جمعنا من انتصارات . أما فيما يتعلق براكستان اللعين فإن الانتقام منه بين يديّ ولسوف يموت ميتة مرعبة من اليأس .

– ماذا تقولين ؟ آه ، ليتَ هذا كان صحيحاً !

– لا تشكّن في أنه صحيح يا أبي، ولسوف أبعث منذ الآن رسولاً لقيصر لكي يحضر إلى هنا . فرفع البابا قامته وقال بحنق ممزوج بالذعر : قيصر ؟ كلا ، كلا ! يجب أن تعرفي فكرتي كلها والحقيقة كلها . فبين جميع الكرادلة الذين يترصّدون التاج البابويّ ويتآمرون بالموت عليّ ، هناك قيصر الذي يفوقهم حرارة بتمنّي الموت لي . أجل ، قيصر أخوك وابني ! لا تتعجبي ، فقد فاجأت في عينيه نظرات غريبة كانت تلمع فيها فكرة اغتيالي. فقيصر يريد أن يحلّ محلّي ، وإذا جاء إلى هنا فلكي يقتلني فقط .

– أقسم لك يا أبي أنك مخطىء لأنني أنا أيضاً سبرت غور نفس قيصر . فصاح البابا برعب ظاهر وقال : لوكريس ، لوكريس ! أقسمي لي بأنك لن تحضري قيصر إلى هنا ! قالت : إذا كان هذا يحمل إليك الاطمئنان فإنني أقسم . قال : حسناً يا ابنتي ، كنت أعرف أنك ستحمين والدك . تعالي كي أقبّلك .

فقدّمت لوكريس جبينها لقبلة بورجيا العجوز الذي ما لبث أن قال : امضِ الآن لأنني بحاجة إلى راحة. وغداً سوف تكلمينني عن هذا الانتقام الذي تفكرين به. فانسحبت لوكريس. ولم تكد

تصل إلى غرفتها حتى فقد وجهها قناع الشفقة البنويّة الذي تقنّعت به أمام أبيها . وبعد ساعة كان رسول في طريقه إلى إيطاليا لكي ينقل لقيصر هذه الكلمة الوجيزة : « من الضروري أن تأتي إلى كبريرا ، دع كل شيء وتعال على جناح السرعة. وإني بانتظارك !»

على طريق الصدف

*

في هذه الأثناء كان راكستان ينطوي على نفسه لحزنه العميق على اختفاء بياتريكس . ولكن طبيعته الواقعية كانت تدفعه إلى العمل . لذلك فبعد أن تاب إلى رشده من الذهول القصير الذي ألمّ به أتى إلى قصر آلما وانتحى جانباً الوصيفة التي فاجأتهم بالمصيبة واستجوبها طويلاً . إلا أن المرأة الطيّبة لم تفده شيئاً أكثر من تثبيت الخبر . ثم أخذ يستجوب جميع خدّام القصر ولكن دون جدوى وأخيراً طرح على الضابط الذي كان في دور الحراسة عند خروج بياتريكس أسئلة كثيرة ، ولكن هذا أيضاً لم يعطه أيّ إيضاح .

وبعد أن هدّه التعب طيلة ذلك النهار عاد إلى غرفته يائساً ولكن النعاس غلبه فنام . وفي صباح اليوم الثاني جاء إلى غرفته جيوليو أورسيني وبعد أن حيّاه قال : سينعقد أيها الصديق العزيز مجلس القادة في القصر لأنه من الواجب الآن إعداد الوسائل للافادة

من النصر ، فقيصر الآن في أسوأ حالات الهزيمة ، وجيشه يتفكك يوماً بعد يوم . ولقد قرّرنا أن نسير على ولاية « ريميني » ثم على « بولونيا » لكي نحرّر إيطاليا بأجمعها ، وهذا تحت قيادتك لأننا فكّرنا بأن تسلمك قيادة قواتنا الحليفة . أما مجلسنا اليوم فإنه سينعقد من أجل هذا الغرض. فأجاب راكستان قائلاً : لن أجيء إلى المجلس . فصاح أورسيني متعجباً: ماذا تقول؟ قال راكستان : أقول إنني أرفض اللقب المجيد الذي ستمنحونني إيّاه ، أنت وأصدقاؤك ، لأنني سأغادر مونتفورتي هذا الصباح . لقد اختفت الكونتيسّة الشابّة ولسوف أعثر عليها أو سأقضي في سبيل هذه الغاية .

فمدّ أورسيني يده بحنان إلى صديقه وقال : سامحني أيها الصديق، فلقد نسيت ونسينا جميعاً في غمرة فرحنا حبّك للكونتيسة وحزنك عليها . ولن أحاول أن أثنيك عن عزمك بل إننا جميعنا مستعدّون للتخلي عن كل شيء من أجل مساعدتك. فهز راكستان رأسه وقال : أفضّل أن أبقى وحيداً ، وإذا احتجت إليك فليس لي صديق أعزّ منك أعتمد عليه . فقال جيوليو أورسيني : يمكنك التصرف بحياتي كما تشاء ، بل بحياتنا جميعاً . فقال راكستان : سأتذكر دائماً هذه الكلمة ، ولكنني الآن لست ذاهباً إلى المعركة بل سأقوم فقط ببعض التحرّيات ، وهذا يقتضي أن أعمل وحيداً .

— على كل حال لا تنس أننا سنترك في مونتفورتي حامية من ثلاثة آلاف رجل ، وهذا الجيش الصغير سوف يكون تحت تصرفك بل رهن إشارتك . أما المال الذي قد تحتاج إليه فإن

خزائني مفتوحة أمامك لتغترف منها ما تشاء، ولسوف يأتي وكيل صندوقي ليتلقى أوامره منك . ولكن ، ألن تأتي لتوديع أصدقائك ؟

– إني أعتمد عليك للقيام بهذا الموضوع نيابة عني .

– إمضي إذن وليرافقك النجاح .

ثم انسحب أورسيني هازّاً رأسه ، فقد كان مقتنعاً مع جميع القادة بأن الأميرة قد هلكت كضحية لتهوّرها . أما راكستان فقد كانت ثقته أكثر رسوخاً: لا شك أن بريفيرا اختفت ،ولكنها لم تمت ! ومن ثمّ فقد أخذت ظنونه تنحصر بلوكريس بورجيا . ولقد تذكّر قدوم لوكريس إلى مونتفورتي وتهديدها له بالإنتقام بعد أن رفض عروضها عليه . ولكن يا تُرى، ماذا فعلت بريفيرا ؟

ولم يلبث أن استدعى سباداكاب وأملى عليه أوامره بشأن سفر طويل. وفي هذه اللحظة بالذات ظهر خازن جيوليو أورسيني واضعاً نفسه تحت تصرفه، فطلب راكستان إليه أن يملأ خرجاً من الدنانير لكي يضعه سباداكاب على فرسه ظناً منه أن امتناعه عن أخذ الدراهم من خزائن أورسيني إنما يكون طعناً لصداقته .

عندئذ سار راكستان ممتطياً حصانه ومن خلفه سباداكاب . ولم يكد يجتاز بوّابة قصر أورسيني الذي كان يسكنه حتى رأى حاجزاً من الجنود يقدّمون له تحيّة الشرف ، فراح يتقدّم بين هتافات الجنود والجمع الغفير . وعندما وصل إلى باب المدينة وجد القوّاد مجتمعين ينتظرونه ، ثم إذا بهم يحيّونه هاتفين بحياته . فتأثر

راكستان ولم يرد أن يقف بل اكتفى بقوله لهم صارخاً : إلى اللقاء .

ثم لمز حصانه الذي جرى مسرعاً يسابق الريح . عندئذ سأله سباداكاب قائلاً : إلى أين نحن ذاهبون ؟ فأجاب راكستان، قال: إلى حيث تقودنا الصدف ! وقد كانت هذه الكلمة صحيحة تقريباً لأن راكستان لم يكن يملك غير علامة واحدة عن مصير الأميرة بياتريكس ، إذ أن ضابط الحرس كان قد أجاب عند استجوابه بأنه رأى الأميرة الصبيّة تتّجه عند خروجها من مونتفورتي في الطريق التي تدور حول أسوار المدينة طوال ربع فرسخ قبل أن تشرع في اختراق الريف . لا شك أنه جواب غامض ، ولكن راكستان اندفع في هذه الطريق التي عُيّنت له .

وبعد ساعة من الجَبّ المتّصل وجد راكستان نفسه أمام مزرعة منفردة ، ولم يكن قبل ذلك قد صادف مسكناً واحداً . فنزل عن صهوة حصانه ودخل إلى القاعة الكبيرة من المزرعة حيث شاهد عجوزاً تغزل على دولاب صغير وإلى جانبها صبيّ في الثانية عشرة يصنع سلّة من القصب . فألقى راكستان عليها التحيّة قائلاً : عليك السلام أيتها الشيخة الطيبة ! فأجابته العجوز قائلة : وعليك السلام والعافية ! إذهب يا أندريا واجلب إبريقاً من الشراب البارد للرجل الغريب . فقال راكستان : كلا أيتها المرأة الكريمة، لست بحاجة إلى شيء ... ما عدا بعض المعلومات .

وكان أندريا قد نهض لينفّذ أمر جدّته ولكنه عاد ليصنع سلّته القصبيّة فاتحاً عينين واسعتين فضوليّتين . أما القرويّة فقد

قالت : تكلم أيها السيد فلعلّي أستطيع تلبية رغبتك. فقال: هل رأيتِ عند منتصف الليل امرأة تمرّ من هنا راكبة على فرس ؟ فارتعشت المرأة ورسمت على وجهها إشارة الصليب قائلة : كلا ، لم أرَ أحداً !

غير أن راكستان سجّل ارتعاشتها ، كما أنه سجّل علامة الصليب التي ترافق أحياناً الكذب عندما يستغفر صاحبه الله. وكان راكستان من المطّلعين على هذا النوع من الديبلوماسية التي يتقنها ضمير القرويّين ، لذلك فقد اقتنع بأن العجوز قد رأت شيئاً ولا محالة ، فتابع عندئذ بلهجة صارمة ، قال : إذن من المؤكد أنك لم تري أحداً يمرّ في هذه الطريق عند منتصف الليل أو في الصباح ؟ فقالت : من المؤكد أنني لم أرَ أحداً يا سيدي !

قالت العجوز هذا وهي ترسم إشارة الصليب في حرارة أشدّ ! إلا أن الصبيّ صاح في هذه اللحظة قائلاً: كيف يا جدتي؟ هل نسيت السيدة الجميلة التي جاءت إلى هنا ؟

ـ أصمت يا أندريا ! لا يعرف هذا الصبيّ ماذا يقول .

فاستدار راكستان نحو القرويّة العجوز وقال : بالرغم من الاحترام الذي يوحيه إليّ عمرك فإنني سأضطر إلى استخدام العنف معك إذا لم تفوهي بالحقيقة . إعرفي أن جريمة كبيرة وقعت، وكل الدلائل تشير إلى أن القاتلة التي هي امرأة قد مرّت من هنا . وتعلمين أنك خاضعة للقضاء في مونتفورتي ، فإذا لم تقولي الحقيقة كاملة فلسوف يجري توقيفك في هذا المساء مع جميع ساكني هذه المزرعة .

ـ الرأفة الرأفة أيها السيد المسيح ! فلقد هدّدتنا بالموت إذا باح أحدنا بكلمة واحدة .

ـ أقسم لك أنه لن يصيبك أيّ شرّ إذا قلت الحقيقة ، لأن قوّة الكونت آلما ستحميك ، أما غضبه فسيكلفك غالياً . فقالت العجوز : بلى ، بلى ! لقد أتت سيّدة منذ بضعة أيام . فقال على عجل : ومن هي هذه السيدة ؟ قالت : نجهل جميعنا من هي ! ولكنها طلبت المأوى لعربة وأربعة جنود مقابل أجر باهظ ، فقبلنا . ولقد طلبت أيضاً أن نخلّي لها الليلة واحدة الغرفة الكبيرة من المزرعة بعد أن جعلتنا نقسم ألا نحاول معرفة ما يجري فيها ، دافعة لنا من أجل هذا الغرض دراهم كثيرة. فقال راكستان: لقد أتت في الليلة السابقة لليلة البارحة، أليس كذلك ؟ فأجابت تقول: نعم ! فقال : وهل أتت وحيدة ؟ قالت : كلا ، لقد أتت مع سيدة ثانية .

فخنق راكستان صرخة في حلقه إذ تراءت له الحقيقة وقال باهت اللون : تابعي كلامك ، ماذا جرى بعدئذ ؟

ـ سمعنا ضجيج مشاجرة . ثم لم يلبث الجنود أن أمسكوا بالسيدة .

ـ يا للأنذال !

ـ عندئذ وضعوا السيدة في العربة ومضوا جميعاً . فسأل راكستان القروية العجوز قائلاً : وبأيّ اتجاه ساروا ؟ قالت: نحو حضيض الجبل .

فاندفع راكستان إلى الخارج ووثب إلى صهوة حصانه ثم انطلق

يعدو كالسهم في الاتجاه المقصود وهو يغمغم في نفسه قائلاً : إنها لوكريس الجهنمية ! لقد غفرت لها مرتين ، أما الآن فويلٌ لها إذا وقعت في يدي !

جياكومو خازن الأميرة

*

لقد استطاع راكستان بسهولة أن يستقصي آثار لوكريس حتى أسفل الجبل الذي ذكرته القروية ، لأنه لم يكن هناك غير طريق واحدة للعربات وهي التي تبعها . وكان راكستان من فترة لأخرى يصادف نزلاً أو مزرعة فيدخل إليها ليحصل على المعلومات اللازمة ثم يستأنف السير . ولكنه عند وصوله إلى السهل فَقَدَ كل علامة واضحة لأن عدة طرق هناك أخذت تتشعّب . تُرى ، في أي منها عليه أن يسير ؟ وعندما لم يجد جواباً عن هذا السؤال شعر بالتعب فتوقف عن السير وجلس في الظل مردداً في نفسه يقول : تُرى ، إلى أيّ وجارٍ نقلت بريفيرا ؟

وهنا أحسّ راكستان بشقاء أليم فأخبر سبادا كاب عن مغامرته المحزنة ، فراح هذا يصغي إليه باهتمام شديد كان يتخلله آهات عنيفة . وعندما انتهى الفارس من روايته صاح سبادا كاب قائلاً : هذه المرأة إذن مفترسة مجنونة يسكنها الشيطان ! فقال راكستان : ولكن ألا يمكنك أن تفترض شيئاً ، أو أن تستشفّ أثراً من

آثارها ؟ قال : كلا يا سيدي ، ولكن إذا أردنا أن نعرف شيئاً جديداً فذلك في روما . فغمغم راكستان يقول : في روما ؟ فقال سبادا كاب : أعرف أن روما خطرة عليك . أما أنا فلا خطر فيها عليّ ، لأنني أعرف هناك شخصاً يدعى المركيز روكاسانتا طالما تخاصمت معه لأشياء تافهة . إلا أنني أؤكد لك أنه بوليس ماهر .

– هيّا إذن إلى روما ، فالنصيحة رائعة !

– إنتظر لحظة يا سيدي ، فإن رأسك مطلوب في روما ويمكنني أن أقودك إلى بيت من بيوت الضاحية حيث يمكنك أن تمكث بأمان . ثم أدخل أنا إلى المدينة لأستقصي ما هو ضروري .

عندئذ أخذ راكستان يجري باتجاه المدينة الخالدة وسبادا كاب يتبعه متأثراً حزيناً لأنه رأى معلمه في حالة يأس شديد. ولقد وصلا إلى أبواب المدينة في مساء اليوم الرابع ، فلاحظ راكستان حركة غريبة ، إذ أن جوار روما لم يكن كئيباً كعادته بل حافلاً بحركة الناس الذين بدا على تنقّلاتهم مظاهر حربية .

وأخيراً دخل راكستان إلى روما ومرّ أمام القصر الضاحك وهو صامت قاتم الوجه . إلا أن مظهراً غريباً استثار دهشته : فقد كان زجاج النوافذ مكسّراً ، وتماثيل الباحة مقلوبة عن قواعدها . ولقد خيّل إليه أن يد النهب امتدّت إلى القصر . على كل حال، المدينة بأجمعها كان لها مظهر غريب: ففي كل ناحية منها جماعات من البرجوازيّين يجتازون الشوارع مسلّحين بالرماح والسيوف وبعضهم بالبنادق . وراح راكستان يخترق هذه الجماعات التي كان يزداد عددها كلما تقدم نحو وسط المدينة . وعندما رأى

راكستان ذلك سأل سبادا كاب قائلا : ما رأيك بكل هذا ؟
فقال : رأيي يا سيدي الفارس أن الرومانيين البسلاء قد اكتفوا بما فُرض عليهم من العبودية . .

إلا أن راكستان لم يجب ، فقد شرع يفكر من جديد بأن بريفيرا هي الآن أسيرة لوكريس بورجيا ، وبأنه مهما كلّف الأمر يجب اكتشاف الجُحْر الذي تختبىء فيه لوكريس . وبعد لفتة صغيرة وصل راكستان إلى نزله القديم ، نزل « جانوس الجميل » . ولم يكد « بارتولومايو » صاحب النزل يُبصر خيّالاً يدخل إلى الباحة حتى أقبل نحوه متراكضاً . إلا أنه لم يكد يقترب منه حتى وقف مذهولاً يتمتم قائلاً : الفارس راكستان ؟

— أنا هو يا سيد بارتولومايو ، فهل يفاجئك حضوري ؟

— كلا يا سيدي . ولكنني أفكر كيف استطاع آل بورجيا الأرذال أن يحكموا عليك . لقد كنتَ في الواقع عدوّهم اللدود. آه ، يا للشرف العظيم أن تحلّ في نزلي ! ليعش الفارس راكستان عدوّ قيصر بورجيا !

وكان صاحب النزل متأهباً لمتابعة حماسته بمثل هذه الجلبة لو لم يمسك راكستان له أذنه قائلاً له : إذا تابعت يا معلم بارتولومايو الصياح باسمي فسأقطع أذنكَ التي في يدي . فصمت صاحب النزل في الحال . عندئذ تابع راكستان قائلاً : وبالإضافة إلى هذا ، إذا أخبرت أحداً عن حضوري فسأقطع أذنيك الاثنتين . فقال بارتولومايو : كلا ، لن أخبر أحداً . فقال راكستان: في هذه الحال سنبقى صديقين حميمين . هيّا الآن وسر بي إلى تلك الغرفة الصغيرة

التي تشرف على التيبر . فأجابه بارتولومايو قائلاً : كلا ! أريد أن أقدّم لسيدي الفارس أحسن غرفة في النزل وهي غرفة الأمراء .

ولكن راكستان أصرّ على العودة إلى الغرفة المتواضعة التي نزلها يوم قدومه الأول إلى روما ، لأنها كانت مليئة بذكرياته ، ولأنه يريد أن يدفع الآن ثمن اللذة الكئيبة التي يشعر بها الانسان عندما يعيش ماضيه . ومن جهة ثانية فقد حدث مرّة أن كان نهر التيبر طريقه إلى الحرية ، وهو يحسب الآن أنه قد يتبع الطريق ذاتها مرّة ثانية في حال الخطر المداهم .

ومنذ الليلة الأولى بدأ راكستان تحرّياته بمساعدة سبادا كاب ، إلا أن أتعابه كلها مضت أدراج الرياح . وكان اليوم الثامن قد انصرم دون أن يكتشف أثر لوكريس ، فإذا باليأس يستحوذ عليه لا سيما وأنه قضى هذه الأيام الثمانية في حمّى محرقة وغمّ متزايد . وفي أثناء هذه المدّة كانت الثورة الشعبية تتابع مجراها الطبيعي ، وكان الشعب يحاصر قصر « سانت آنج » . وفي اليوم التاسع مرّ راكستان أمام أنقاض القصر الضاحك ، ولم يكد يصل إلى الساحة العامة حتى شاهد رجلاً صغير القامة يرتدي ثياباً سوداء ، وعندما أبصر الرجل الفارس صاح قائلاً : أيها الفارس راكستان ! فاندفع راكستان بحصانه نحو الرجل المجهول وسأله قائلاً: من أنت ؟ قال: ألم تعرفني ؟ سأقول لك من أنا ولكن في غير هذا المكان .

ثم أضاف الرجل الصغير وهو ينظر حوله بقلق وخوف، قائلاً: يجب أن أكلمك ، فقد جئت إلى روما من مونتفورتي لأجل هذا الغرض. فصاح راكستان وقد شعر ببدء أمل غامض ، قائلاً : من

مونتفورتي ؟ تعالَ ، تعال بسرعة !

ثم عاد إلى نزل « جانوس الجميل : الذي دخل الغريب في بابه وهو يُخفي وجهه . وعندما جلسا في الغرفة الصغيرة الواقعة على شاطىء التيبر همس الرجل الصغير في أذن راكستان قائلًا: أنا الذي جلبت لك ، إلى هنا ، كيساً من النقود . أنا جياكومو . فصاح راكستان متعجباً يقول: خازن لوكريس بورجيا؟ فقال جياكومو بتجلٍّ وانشراح غريبين : نعم يا سيدي ، وإنني مغتبط بلقياك .

غير أن راكستان كان قد قبض على ذراعه قائلًا: أين سيدتك؟ تكلم ، أو أنك والله لن تخرج من هنا حياً . فابتسم جياكومو وقال : إنني صديق لك ، ولقد أسرعتُ مفتشاً عنك لأخبرك ما كنتَ ستبحث عنه بلا جدوى . إلا أن راكستان ظنّ أن في الأمر فخاً يُنصب له فصاح بمحدثه قائلًا : أأنت صديقي ؟ أنت خادم لوكريس ... فقال جياكومو : أجل إنني خادمها ، أو بالأحرى كنت كذلك . ولكنني أكره هذه الامرأة لأسباب قد يطول شرحها الآن . إنني أكرهها . ولقد عشت بقربها وأنا أمقتها وأمقت أخاها .

ونظر راكستان إلى سحنة هذا الرجل فإذا بها تتأثر بالكلمات التي يتلفظ بها جاهرة بالحقد الشديد. فعرف عندئذ أنه يقول الحقيقة فقال له : تكلم إذن ، يمكننا أن نتفق لأن أحقادنا واحدة . فقال جياكومو: لقد ذهبت يا سيدي إلى مونتفورتي في طلبك، ولكنني أخبرت بذهابك، وافترضت أنك قادم إلى روما. فقال راكستان: ولكن من أين أتيت ؟ ولماذا بحثت عني ؟ قال: أتيت من معسكر

قيصر حيث كنت قد تبعت السنيورا لوكريس . وإنني أبحث عنك لأحذّرك من أنها تدبّر لك انتقاماً رهيباً لأنني فاجأت بعض أحاديث جرت بينها وبين أخيها . فقال راكستان : أما الإنتقام فقد تمّ ! فقال جياكومو متعجبا : ماذا ؟ ماذا تقول ؟ فصمت راكستان متأسفاً . ولكنه قال أخيراً : إنني أشكرك ، ولكن تحذيرك كان متأخراً على كل حال فقد كنت أعرف أن لوكريس بورجيا كانت تعدّ طريقة الانتقام . إلا أنك تستطيع مساعدتي للتعويض عن الشر الذي اقترفتُه، إذا لم يفت الأوان بعد. فقال جياكومو:ها إنني أضع نفسي في خدمتك يا سيدي.فقال راكستان بعد تردد قليل : أوتستطيع إذن أن تخبرني شيئاً عن مكان لوكريس في هذه الساعة ؟

ثم انتظر مرتجفاً جواب جياكومو الذي ما لبث أن قال : هذا سهل جداً : إنها في جزيرة كبريرا . قال : وهل أنت متأكد من هذا ؟ قال : غاية التأكد ، لأنه مفروض عليّ أن أتبعها إلى هذه الجزيرة . فقال راكستان : وسنذهب معاً . فصاح جياكومو قائلًا : أوتريد الذهاب إلى كبريرا ؟ قال : بل يجب أن نسير إليها منذ هذا المساء . قال جياكومو: آه يا سيدي، إنك لا تعرف إذن ما هي جزيرة كبريرا ! كما أنك لا تعرف أن لوكريس كانت تقود إلى هناك جميع الذين كانت تريد التخلص منهم بطريقة سرية .

هنا اقشعرّ راكستان مفكراً بيريفيرا وإذا به ينشج قائلًا : لا تعلم إذن أن لوكريس استولت على المرأة التي أحبّها ! والتي قد تكون الآن هدفاً لانتقامها .

ولم يستطع راكستان أن يتكلم أكثر من هذا ، إذ أن ردّ الفعل قد ظهر مخيفاً على وجهه وهو الرجل الذي كان يعرف أن يتحمّل دون تذمّر أسوأ الآلام . لذلك فقد ارتمى على سريره وأغرق رأسه في مخدّته وأخذ يشهق باكياً كطفل صغير . فاقتاد سبادا كاب جياكومو إلى خارج الغرفة قائلاً له : لندعنّ الفارس يبكي فهو بحاجة إلى البكاء .

ثم شرع سبادا كاب يستجوب خازن لوكريس عن أسرع وسائل الانتقال إلى كبريرا ، كما أنه أعدّ كل شيء للسفر مفكراً بأن الفارس سيشرع في السير حالاً . وفي الواقع لم يمضِ نصف ساعة حتى ناداه راكستان وطلب إليه أن يستعدّ للسفر ، فأجابه سبادا كاب قائلاً : كل شيء مُعدّ يا سيدي .

– إذن فلنمتط الأحصنة في الحال إلى كبريرا !

إلى مرفأ أوستي

*

في الوقت الذي اعتلى فيه راكستان صهوة جواده ودّعه جياكومو ثم أضاف قائلاً : كل ما أستطيع قوله لك ليثنيك عن هذا السفر سيكون بلا جدوى . لذلك فإنني أتركك الآن ثم أذهب أنا في دوري إلى كبريرا لكي أستعيد عملي لدى لوكريس التي لم أنتهِ منها بعد .

– ولماذا لا نترافق معاً في الطريق ؟

– لأن السنيورا ستعلم بذلك لا محالة ، بما قد يكون كافياً لحملك على الفشل في مشروعك ، كما أن هذا وحده سيكون كافياً لقتلي . فاذهب أنت من جهة وسأمضي أنا من جهة ثانية . وعندما تصل إلى الجهة الشمالية للقصر سر على شاطىء البحر قرابة ربع فرسخ حيث ستجد بعض الأكواخ. هناك أدخل في الكوخ الثالث وقل إنك قادم من قبل جياكومو فيستقبلوك بترحاب. وفي ما عدا هذا المكان ستعرّض الوشاية بحياتك .

فمضى راكستان قاطعاً بسرعة المسافة القصيرة التي لا تزيد عن بضعة فراسخ ما بين روما وأوستي . ولقد وصل إلى هذا المرفأ أثناء الليل . فكان من الواجب إذن قضاء الليل في أوستي . وهناك راح راكستان يبحث بعينيه عن نزل يحلّ فيه ، ولكن جميع الأنوار كانت منطفئة وجميع الأبواب مغلقة. عندئذ التفت إلى سبادا كاب وقال له : سنقضي إذن ليلتنا تحت النجوم ؟ على كل حال ليست هذه هي المرة الأولى ... فقال سبادا كاب : إذا أردت أن تتبعني يا سيدي فإنني آخذ على عاتقي مهمّة إيجاد مأوى لك . فقال: أنت تعرف أوستي إذن ؟ قال : نعم يا سيدي . ففي مهنتي القديمة كان يجب التفكير سلفاً بكل ما قد أحتاج إليه ، كمحاولة الهرب مثلاً بطريق البحر ، وكغيرها . لذلك فقد كانت لنا صلات ببحارة الشاطىء ، وأعتقد أننا سنلجأ إلى بعضهم لتدبير سفرنا إلى كبريرا .

وبعد بضع دقائق توقّف سبادا كاب أمام بيت منخفض حقير

المظهر ، ثم نزل مع راكستان عن صهوتي فرسيهما أمام الباب . فأخذ سباداكاب يصفّر بطريقة خاصة ، ففتح الباب في الحال وظهر رجل بدا عليه الذعر والريبة عندما أبصر خيّالين ظهرا كأنهما من رجال الحرب. إلا أن سباداكاب تلفّظ بصوت منخفض ببعض كلمات كانت ولا شك بمثابة علامة للتعارف بينهما ، إذ أن الرجل قد اطمأن ودعا إليه خادماً وقال له : خذ الحصانين إلى الإسطبل . وليتفضّل السيدان بالدخول .

ثم غاب عن الباب ، فدخل الرجلان إلى غرفة منخفضة وزعت في أرجائها بعض الطاولات والمقاعد الخشبية . وكان على الطاولات أباريق وأكواب للخمر . وعلى المقاعد بنات وبحّارة. وعند دخول راكستان وسباداكاب سادت لحظة من الصمت المليء بالحذر . ولكن صاحب الحانة رسم بيده بعض إشارات غريبة جعلت روّاد هذا الماخور يستأنفون الأحاديث .

عندئذ جلس راكستان وسباداكاب إلى إحدى الطاولات ، فجاءهما صاحب الماخور بإبريق نبيذ وبكوبين . غير أن راكستان لم يلبث أن قال لصاحبه : كنتَ قد أخبرتني بأننا سنجد هنا بحارة ينقلوننا إلى جزيرة كبريرا . فقال سباداكاب : تريّث قليلاً واعلم أنك لن تجد صاحب مركب ينقلك إذا قلت إنك ذاهب إلى كبريرا . فقال راكستان متعجباً : ولماذا ؟ قال : لأن السنيورا لوكريس تمقت الفضوليين . إنها امرأة حذرة ، ويعرف جميع البحارة ما سيكلّفهم نقل الغرباء إلى مسافة قريبة من قصرها . فقال : ما العمل إذن ؟ فأجابه سباداكاب قائلاً : تذكر يا سيدي

أن صاحب هذه الحانة قد استقبلنا لأنني جعلته يعتقد عندما حدّثته منذ لحظة أننا هاربان أو ذاهبان على الأقل إلى سردينيا . وهذا ما سيعرفه بعد دقائق جميع البحارة في هذا المكان ، ولن يكون عندئذ لنا الخيار . قال : علينا أن ننتظر إذن ؟

وبعد بضع دقائق اقترب من الرجلين بحار مسنّ ذو لحية وخطها الشيب ثم جلس دون أن يدعوه أحد إلى جانب راكستان . وبعد أن ملأ لنفسه كوباً من النبيذ وجرعه جرعة واحدة غمز بعينه وقال : أنا صاحب السفينة « ستيللا » التي تسابق الريح وكأنها سنونوة البحر ، وإنني أدعى جوزيبّو .

فهزّ راكستان رأسه بوقار موافقاً على حديثه . وتابع البحار قائلاً : وإنه ليبدو لي أن أرض البرّ محرقة لقدميكما . فقال راكستان : تماماً كما تقول يا سيد جوزيبّو . فقال : ولن يزعجكما الذهاب إلى سردينيا ؟ قال راكستان : كلا ، بل هذا ما نريده . قال : إذا أردتما فإنني سأنقلكما على سفينتي التي سترفع مراسيها عند الساعة الرابعة . وسيكلف السفر كلا منكما دينارين: ديناراً يدفع عند الإقلاع ، والدينار الآخر عند النزول من السفينة . فقال راكستان : هذا السعر يوافقني . قال البحّار : حسناً إذن ، فلا تنسيا الموعد عند الساعة الرابعة . قال : كلا ، سنحترس بانتباه شديد .

فخرج عندئذ صاحب السفينة من الماخور يتبعه عدد من الرجال وهم ولا شك نوتيّته .

السفينة المثلثة القلوع

*

بعد ساعتين توجّه راكستان وسبادا كاب نحو المرفأ وكان هذا الأخير يجرّ بيده الحصانين . ولم يلبثا أن شاهدا السفينة « ستيللا » راسية على الشاطىء وقد مُدّ إليها جسر خشبيّ . هناك أصعد الحصانان إلى السفينة ، وفي الساعة الرابعة صباحاً رفع جوزيبّو مراسيه فأقلعت السفينة . إلا أن جوزيبّو هذا كان يبدو مرتبكاً وكان لديه شيئاً يريد أن يقوله ، ولكنه صمّم أخيراً أن يبوح به فقال : نسيت هذه الليلة أن أخبركم شيئاً : نحن مسافرون إلى سردينيا ، ولكن هل يزعجكم أن أتوقّف في الطريق ؟ فقال راكستان : أن تتوقّف ؟ ولكن أين ؟ قال : أوه ! مهلة قصيرة أمام جزيرة كبريرا التي نقاربها قليلاً ثم نستأنف المسيرة حالاً . فصاح راكستان قائلاً : ستقارب جزيرة كبريرا ؟ فقال البحّار بصوت منخفض : أجل ، ولكن لأضع فقط مسافرين على الشاطىء .

فشحب وجه راكستان . ولقد لاحظ جوزيبّو هذا الشحوب فغمز بعينه وأضاف قائلاً : لا تخف ! هذان المسافران غير مؤذيين : إنهما شابّ وامرأة عجوز . قال : وهما ذاهبان إلى كبريرا ؟ قال : نعم ، ولقد قضيا الليل على متن السفينة لأنه قد يكون من صالحهما الاختفاء والتكتم أكثر منكما أيضاً . فسأله راكستان قائلاً : وأين هما الآن ؟ قال البحّار : في حجرتيهما اللتين أعددتهما لهما مسبقاً . إنه لا يزعجكما إذن أن ألمس قليلاً جزيرة كبريرا ؟ فقال راكستان :

كلا ! بالعكس ، هذا لا يزعجنا مطلقاً .

فأخذ جوزيبّو يحدّق في راكستان متعجباً ، لأنه لم يفهم كلامه . أما راكستان فقد كان طائش الذهن ، ولقد سأل أخيراً يقول : وأين حجرتي أنا ؟ قال البحّار : هنا ، انزلا من هذه الكوّة فتجدا أرجوحتين جيّدتين مريحتين . فقال راكستان : إنني شديد الحاجة إلى الراحة ، ولكنني أوصيك بأنه لا جدوى للمسافرين من أن يعرفا بأمر وجودي على متن سفينتك . فغمز البحّار بعينيه وقال : مفهوم !

فأومأ راكستان إلى سبادا كاب أن يتبعه منحدراً في الكوّة على سلّم صغير ، ومقتنعاً بأن صاحب ستيللا سيحفظ سرّ وجوده على متن سفينته . وعندما وصل إلى حجرته قال لسبادا كاب : يوجد مسافران على ظهر السفينة . قال سبادا كاب : أعرف هذا يا سيدي ، فقد سمعت الحديث . قال : وهذان المسافران سينزلان في كبريرا ! قال : نعم ، وهي فرصة لنا لكي ننزل نحن أيضاً إلى الجزيرة . قال راكستان : يجب يا سبادا كاب مهما كلف الأمر أن نعرف من هما هذان المسافران وماذا سيعملان في كبريرا . قال : هذا ما كنت أفكر به يا سيدي .

وبينما كانا يتحدثان كان سبادا كاب يفتش في هذا المكان الضيق الذي دعاه صاحب السفينة « حجرة » وهو في الحقيقة ليس إلا مجرّد نفق توضع فيه الأشياء الزائدة التي يراد التخلص منها . ولقد وجد سبادا كاب أخيراً في إحدى الزوايا قبعة قديمة حمراء وقميصاً مع حزام أحمر ، فإذا به يتمتم قائلاً : هذا ما كنت أطلبه !

وفي عشر دقائق كان عاري الساقين مكشوف الصدر مرتدياً القبعة على رأسه كأنه نوتيّ من نوتيّة السفينة ستيللا . عندئذ قال لراكستان : سيّدي ، إيّاك أن تتحرّك من هنا ، ولسوف آتيك بالمعلومات الدقيقة قبل ساعة .

ثم اندفع صاعداً على الدرج الصغير حتى وصل إلى سطح السفينة حيث كان جوزيبّو يتنزّه ذهاباً وإياباً ، فاقترب منه سائلاً : أين هما المسافران ؟ فقال البحّار : في مقدّمة المركب . هل يقلقك وجودهما ؟ قال : كلا ، ولكن الحذر مفيد !

فاتجه سبادا كاب نحو مقدمة السفينة حيث فتحت كوّة تشبه كوّة المؤخرة . وكان يوجد قرب هذه الكوّة لفافة من الحبال ، فتمدد سبادا كاب إلى جانبها كأنه يريد أن ينام ، ثم أخذ يتحرك حتى أصبح رأسه على حافة الكوّة . ولكنه لم يرَ شيئاً في أوّل الأمر ، ثم أخذت عيناه تعتادان ظلمة النفق حيث كانتا تغرقان ، فإذا به يبصر امرأة عجوزاً لم يرها في حياته ، وإلى جانبها شاب عرفه حالاً لأنه كان قد شاهده من بعيد في مواكب البابا . إنه الراهب آنجيلو .

فظل سبادا كاب ينصت طويلاً ، ولكنه لم يسمع كلمة واحدة يمكنها أن تفصح عن نوايا المسافرين . فعاد عندئذ نحو راكستان الذي سأله قائلاً : ماذا عرفت ؟ قال لا شيء يخيف . لقد عرفت الرجل : إنه الراهب آنجيلو الذي هو فرد من بيت البابا .

فلم يعنِ هذا الإسم شيئاً بالنسبة لراكستان. وتابع سبادا كاب قائلاً : أمّا المرأة فإني لا أعرفها ، ولكنني أعتقد أنها خادمة من

خادمات السنيورا لوكريس ، وإنه لمن الواضح أن كلا الاثنين منتقلان إلى قصر كبريرا . فقال راكستان : ولم يتحدّثا بشيء ؟ قال : كلا .

وعند الساعة السادسة كانت السفينة المثلثة الأشرعة تجاه كبريرا. فصعد راكستان إلى سطح السفينة واختبأ لأنه كان يريد أن يلقي نظرة عاجلة على الراهب ورفيقته العجوز . وكانت كبريرا ظاهرة مع صخورها الناتئة التي يشرف عليها قصر لوكريس . فأخذ راكستان يتأمل هذا البناء الفسيح المصوّن بأسوار سميكة ، وقد ضغط على قلبه شعور مفاجيء. إلا أنه لم يلبث أن شغل عن أفكاره بحركة أثارها المركب بأمر من قائده ، فإذا بالسفينة تبتعد عن الشاطيء . عندئذ دعا راكستان جوزيبّو إليه وسأله قائلاً : ألن ترسو على الشاطيء ؟ فقال البحار : ليس الآن ، وها إني أسير قريباً منه كي لا أبتعد كثيراً عنه . قال راكستان: ومتى سترسو إذن ؟ قال : في الليل . قال راكستان : في الليل؟ ثم أخذ يفكر متسائلاً في نفسه : ترى ، لماذا يتخفى هذان المسافران ؟ وإذا كانا ذاهبين إلى القصر فلماذا يخشيان إرساء السفينة نهاراً ؟

ولكن سرعان ما غابت الشمس ، فظلت السفينة ذات القلوع المثلثة تتحرك قليلاً قليلاً أمام كبريرا طيلة ساعتين أخريين . عندئذ كان الليل قد أقبل بظلمته القاتمة ، فمضت السفينة تتجه مباشرة نحو الصخور . وبعد ساعة تقريباً جمعت قلوعها ولكن دون أن تلقي مرساتها. وكان يسير خلف السفينة زورق صغير ما لبث أن اقترب من حافة السفينة التي نزل منها درج من الحبال . عندئذ شاهد

راكستان المسافرين الغامضين اللذين سينتقلان إلى كبريرا، ولكنه لم يستطع أن يتفحصها لأن الزورق انطلق بها مبتعداً يقوده بحّاران . فاقترب جوزيبّو من راكستان وقال له : أرأيت أن الأمر لن يكلفنا وقتاً طويلاً ؟ بعد نصف ساعة سيعود الزورق وسنبحر عندئذ إلى سردينيا . فسأله راكستان قائلاً : أين القصر الآن ؟ قال : لقد تركناه على بعد فرسخ من جهة اليمين .

وبعد نصف ساعة سمعت همهمة مجاذيف ، فتنفّس جوزيبّو الصعداء لأنه لا يكون مطمئناً كل الاطمئنان ما دامت سفينته في مياه كبريرا . وعندما تأكّد من وصول الزورق إلى الجزيرة قال لراكستان : سنستأنف السير بعد قليل، ففي أية نقطة من سردينيا تريد أن أضعك ؟ فقال راكستان : لا أريد الذهاب إلى سردينيا. قال البحّار : يا للشيطان ! وأين تريد أن تنزل إذن ؟ قال : أريد أن تضعني هنا بواسطة الزورق .

ولا شك أن صاحب السفينة «ستيللا» قد استغرب هذا التغيير المفاجىء ولكنه لم يفصح عن استغرابه بل قال ببساطة : كما تشاء، ذاك هو الزورق عند حافة السفينة فما عليك إلا أن تنزل إليه . فقال راكستان : نعم ، ولكن قبل أن أتركك أريد أن أقول لك بعض كلمات بطريقة لا يسمعنا فيها أحد . فقال البحّار : اتبعني إذن !

ثم مضى جوزيبّو وراكستان إلى غرفة صاحب السفينة، حيث سأله راكستان قائلاً : أتريد أن تربح ثروة صغيرة دفعة واحدة ؟

— تكلم ، ماذا يجب أن أفعل ؟

— أنا نازل إلى كبريرا ، وسأمكث فيها بضعة أيام لا أدري عددها بالضبط . وإنني بحاجة إلى مركب للعودة ، فهل تريد أن تقف مقابل الشاطىء حتى أشير لك إشارة فترسل لي الزورق الذي سينقلني ؟ فقال جوزيبّو : نعم ، ولكن مقابل عشرة دنانير ذهبية في النهار . قال : سيكون لك ما تريد بالإضافة إلى خمسين ديناراً سأدفعها لك يوم وصولي إلى إيطاليا . فارتعش صاحب السفينة وقال : إنني خادمك ، فعندما تحتاج إلى الزورق نهاراً أطلق ثلاث طلقات من بندقيتك من أعلى الصخرة التي سيقف أمامها الزورق ، وإذا كانت حاجتك إليّ ليلاً فأشعل ثلاث نيران على الصخرة . عندئذ صعد راكستان إلى ظهر السفينة ، فسأله جوزيبّو قائلاً : والحصانان ، ماذا ستفعلان بهما ؟

— دعهما في السفينة لأنهما لن يفيدانا شيئاً .

ثم نزل راكستان وسبادا كاب إلى الزورق الذي لامس بعد قليل رمال شاطىء ضيّق . ولم تكد أقدامها تطأ الأرض حتى أخذا يتسلقان كتلة صخرية أوصلتهما إلى طريق بجانب البحر ، فسارا مسرعين في هذه الطريق حتى وصلا إلى ضاحية صيادين تتألف من اثني عشر كوخاً تقريباً . وسرعان ما بحث راكستان عن الكوخ الذي عيّنه له جياكومو فوجده منيراً بينما كانت الأكواخ الأخرى غارقة في الظلام . وعندما قرع على الباب ظهر صياد سمك يحمل فانوساً في يده وقال بلهجة قاسية : ماذا تطلبان ؟ فأجاب راكستان يقول : إننا قادمان من قِبَل جياكومو . فقال الرجل : أدخلا ، ولسوف تجدان الشخص الآخر القادم مثلكما .

فلم يسمع راكستان جيداً أو أنه لم يفهم . فدخل يتبعه سبادا كاب إلى غرفة ضيقة . وكان في الغرفة مدفأة خالية من النار ، ولكن عجوزاً كانت جالسة إلى جانبها مادّة يديها نحو الموقد . فأمسك سبادا كاب ذراع راكستان ودلّه على المرأة متمتماً يقول : هذه هي العجوز التي كانت على متن السفينة ستيللا ! فألقى راكستان نظرة عليها ولكنه ارتعش فجأة وصاح متعجباً : الماغا !

جناح الموت

وحدة فاضية

كان اسكندر بورجيا يقضي في قصر ابنته حياةً أشبه بحياة المحكوم عليه بالموت . وسرعان ما أصيب هذا الشيخ بانحطاط في قواه إذ أن هزيمة قيصر أمام مونتفورتي قد وقعت عليه كضربة عنيفة . فكان كل مساء يُقفل أبوابه بشكل متين ، ولا ينام في غرفة ليلتين متتاليتين إلا فيما نَدَر . ومع ذلك فقد أخذ يطمئنّ قليلاً فقليلاً، لا سيما وأن لوكريس كانت تحاول جهدها لتظهر له أن القصر محروس حراسة قوية وأنه لا خوف عليه . حتى أنه بعد أيام قد تجرّأ على النزول وحيداً في الليل إلى بستانه كما كان يفعل في تيفولي لأنه كان يعشق التنزه منفرداً . وفي مساء أحد الأيام نزل البابا إلى الحديقة طلباً للنزهة والتأمل . وكان النسيم نقياً لذيذاً والعشيّة صافية ، والطبيعة هادئة جليلة ، فساعد كل ذلك على تهدئة

عواصف الذعر التي كانت تزمجر في نفس هذا الشيخ . وراح يسير ببطء في شعاب الحديقة حتى أقبل الليل فجلس على مقعد تحت كتلة من الأشجار الملتفّة وأخذ يتنشق نسائم الليل العليلة ، حتى شعر براحة كبيرة تنفذ إلى ذهنه .

ولكن إذا به يُسمّر في مكانه شارد اللب : ذلك أنه أبصر شبحاً أبيض يتقدّم نحوه . إنه شبح امرأة أخذ ذيل ردائها الأبيض ينسحب على الحصى دونما صوت . وكانت غلالة بيضاء أيضاً تغطي جبينها والقمر ينير وجهها بكامله . فغمغم الشيخ في نفسه قائلاً : أونوراتا ! أونوراتا كونتيسة آلما !

ولكنه تشنّج في مكانه لا يستطيع الحراك ، فما كان الشبح ما يزال يقترب منه بطيئاً صامتاً . غير أنه أخذ يفكر قائلاً في نفسه وهو يرتجف : آه ، إنها هي ! بلى ، لقد عرفتها ! إنها هي ! ولكن كم هي صبية الآن ! هي ، ولكنها في سحر الشباب المتألق!

وأراد أن يصرخ ولكن الصوت اختنق في حنجرته . وظلّ الشبح يتقدم حتى مرّ أمام بورجيا بل قريباً منه ، وحتى لامس الرداء الأبيض الشيخ الذي ظلّ ينظر إليه بعينيه . ولكن الشبح اختفى أخيراً، فصرخ البابا ثم انقلب على المقعد مغمى عليه. وعندما تاب إلى وعيه رأى ابنته وخدماً يحيطون به . وسرعان ما صاحت به لوكريس قائلة : ماذا أصابك يا أبي ؟ ولكنه أسرع في العودة إلى غرفته يسنده خادمان . وعندما أصبح وحيداً مع لوكريس غمغم قائلاً : لقد انتهى كل شيء يا ابنتي . فقالت : ولكن بحقّ السماء يا أبي ماذا حدث لك ؟ تشجع وقل !

ـ قلت لكِ انتهى كل شيء . لأن جناح الموت قد لمسني في هذا المساء !

*

أما الشبح الأبيض الذي لامس بردائه بورجيا العجوز المذعور فقد ابتعد داخل سُبُل الحديقة حتى وصل إلى باب في جناح القصر الأيمن، فدخل منه وصعد إلى الطابق الأول داخلاً إلى غرفة واسعة ولكنها بسيطة . عندئذ أسقط هذا الشبح ـ أو هذه المرأة ـ عن جبينها الغلالة البيضاء واتكأت إلى النافذة مرسلة نظرها الحزين إلى البحر المنبسط تحت أشعة القمر . ولو كان أحد يعرف الكونتيسة أونوراتا التي سمّمها البابا لظن أنه يراها من جديد بشخص هذه الصبيّة . أما هذه الصبية التي مرّت كشبح أمام بورجيا العجوز فإنها ابنة الكونتيسة التعسة الحظ : بياتريكس أو بريفيرا.

وكانت بريفيرا منذ اقتيدت إلى سجنها في قصر كبريرا تعيش منفصلة عن العالم . ولقد مرّت الأيام الثمانية الأولى على السجينة في تعاسة نفسية مضنية ورهيبة . وكانت جميع أفكارها وجميع الأسئلة التي تطرحها على نفسها إنما تدور حول اسم واحد: راكستان. فكانت تعيد إلى مخيّلتها صورة وجه النحيل الأنوف ملتجئة إليه كأنه الشخص الوحيد الذي تربطها به وشائج متينة .

وفي أحد الأيام لم تأت خادمتها ، فإذا بلوكريس تدخل عليها في غرفتها . فتأكدت بريفيرا من أن خنجرها الصغير ما يزال في مكانه من صدرها، لأنها انتظرت أن يدخل قيصر خلف لوكريس. ولكنّ شيئاً من هذا لم يحدث . وعندما اطمأنت من هذه الناحية

ازدرت أن تلقي على زائرتها نظرة واحدة . غير أن لوكريس أخذت تتلفظ ببطء وبجزء خفيّ مستمر هذه الكلمات قائلة : لشدّ ما تشبهين أمك الكونتيسة ، حتى أن المرء قد يظنك صورتها الأصلية ، لو لم تكن هي تعبة القسمات وبيضاء الشعر تقريباً !

كانت كل لفظة من هذه الألفاظ كطعنة خنجر . ولكنّ بريفيرا لم ترتعش بل شددت عزيمتها وظلت لامبالية . فتابعت لوكريس بعد صمت طويل قائلة : جئت أستفهم منكِ إذا كنت تريدين شيئاً . ولا شك أنك ستنصفينني إذ أنني لم أسيء التصرّف معك حتى الآن . إنني أكرهكِ وأكره الرجل الذي تحبّينه ، وإنّ ما ستتحملينه مني يجب أن يصيب قلبيكما معاً . لا شك أنه يبحث عنك الآن ، ولسوف أخبره عن مكانك في الوقت المناسب. ولكنني الآن أعلمك بزيارة أخي قيصر القريبة .

فندّت عن بريفيرا ارتعاشة واضحة جعلت لوكريس تعلم أن الضربة هذه المرة كانت قاسية. فسألتها بلهجة مضخمة ساخرة تقول: هل تضايقك هذه الزيارة ؟ يا للخسارة ! إن أخي العزيز قيصر يحبك كثيراً .

وكانت بريفيرا قد استعادت رباطة جأشها وتصلّبها . وعندما انسحبت لوكريس تنهّدت تنهداً مؤلماً لأنّ قواها كانت على وشك التلف الأخير، ثم انفجرت باكية وهي تعض غلالتها لكي لا يسمع أحد بكاءها. أما لوكريس فقد وصلت إلى غرفتها مفكرة في نفسها تقول : أجل ، إنها تشبه أمها كثيراً . من يدري ، فقد يفيدني هذا . آه ! ألا يمكن السيطرة على البابا بواسطة الخِدَع الخرافية ؟

وما دام أبي يبصر خيالات في الليل فلأظهرنّ له خيالاً من نوع جديد ، فأصبح عندئذ حاكمة مطلقة على هذا الشيخ الذي تسيطر عليه جميع أشكال الرعب ، ومن يدري فقد أفرض عندئذ عملاً كبيراً على روما !

ومضت أيام أخرى مرعبة على بريفيرا وهي سجينة في غرفتها المقفلة بالمفتاح . وكانت سلوتها الوحيدة أن تقف إلى جانب النافذة متفحّصة طيلة ساعات طويلة الأفق الأزرق. ولشدّ ما كانت تتمنى أن تتحدث إلى أحد ، إلى أي كان ، أو أن تتنزه ولو بعض دقائق في ممرّات هذه الحديقة الجميلة المنبسطة أمام ناظريها . وفي صباح أحد الأيام ، عند نهوضها من نومها ، لم تجد ثيابها ، ولكنها وجدت ثوباً طويلاً أبيض وملاءة بيضاء ، فخيّل إليها أن إبدال هذه الثياب بهذه الطريقة الغريبة إنما يخفي وراءه فخاً بغيضاً . غير أنها ارتدت الثوب الأبيض الذي ظهرت فيه رائعة الجمال . وبعد ساعة دخلت لوكريس عليها وقد رقّ تعبير وجهها ، ثم قالت لها : لا أريد أن أزعجكِ ، ولكنني أمنحك منذ اليوم حرية النزول كل مساء إلى الحديقة من أجل النزهة .

فشعرت بريفيرا بحذر كبير حيال هذه الرقّة المفاجئة . وعند المساء عندما فُتح الباب لها ، ظلت ملازمة غرفتها . وهكذا ظلت تقاوم نفسها في اليومين التاليين . ولكنها استسلمت أخيراً إلى رغبتها في التنزّه فنزلت إلى الحديقة خائفة ويدها مشنّجة على خنجرها ، ثم ازدادت جرأتها فمضت تجتاز ممرّات الحديقة ببطء وهي سعيدة حتى الدموع بأن تستطيع لمس الأزهار التي كانت

تحبها كثيراً .

كنز لوكريس

*

كانت لوكريس بورجيا قد اختبأت خلف جبّ كثيف لتشهد تمثيل هذا الفصل الذي حبكته ببراعة فائقة . وكانت قد سمعت الكلمات التي أخذ الشيخ المرتعب يغمغم بها عند رؤيته شبح الكونتيسة آلما . وعندما أغمي على البابا انطلقت نحوه صارخة تطلب النجدة . أما الآن فهي تتظاهر بتهدئة ذعر أبيها بعد أن دخل إلى غرفته، قائلة له:ولكن ماذا أبصرت يا أبي؟ أمن الممكن أن تستسلم لمثل هذه المخاوف الصبيانية ، أنت الذي لم تخف مرة من أعدائك الحقيقيين المخيفين ؟ فأجاب بورجيا العجوز الذي أخذ يستعيد رشده رويداً رويداً ، يقول : هذا صحيح ، أنت على حق يا ابنتي . فهذه المخاوف لا تليق بي . ولكن قولي لي يا لوكريس الطيّبة ، ألا تعتقدين بأن الأموات قد ينهضون من قبورهم ؟ بالله عليك كلّميني يا لوكريس ! أوه ! أشعلي هذه الشموع ، ألا ترين تلك الأشباح التي تتحرّك في الظلمة ؟

هنا كان الشيخ يتهوّس وقد استحوذت عليه من جديد نوبته الخرافية . فقامت لوكريس إلى الشموع وأنارتها ثم بقيت حتى ساعة متأخرة من الليل تسهر على أبيها الذي نام أخيراً نومة

مضطربة ، فيما راحت ابنته تتأمله بابتسامة غريبة . ولكن هذه الابتسامة أخذت تتقلص قليلاً قليلاً عن شفتيها . وبيطء أخذت لوكريس تتراجع إلى الوراء وعيناها مسمّرتان على أبيها النائم . ولو كان بورجيا العجوز قد أفاق في هذه اللحظة لأرعبته نظرتها هذه أكثر مما أرعبته الأشباح التي كان الخوف يبعثها في نفسه !

*

عندما خرجت لوكريس من غرفة أبيها نزلت على الدرج الذي يقود إلى الحديقة حيث شاهد والدها تلك الرؤيا التي أرعبته . وكان صمت عميق يسود الآن رحاب القصر الذي كان معتماً لولا نافذة واحدة مضاءة هي نافذة بريفيرا التي كانت تحترس لنفسها فتترك في غرفتها شمعة مشتعلة حتى الصباح . وعندما أبصرت لوكريس ضياء الغرفة رفعت رأسها وتمتمت قائلة : أجل ، إنك حذرة ! ولكن جميع احتياطاتك لن تفيدك شيئاً !

عندئذ أخذت تتوغّل في الحديقة . أما ما كانت تحوكه في أعماق فكرتها فهو قتل هذه الصبية البريئة العفيفة النائمة هناك في غرفتها العالية ! قتلها مع طريقة في العار مبتكرة ! بل قتلها مع تعذيبها تعذيباً كثيراً يسلبها عفتها ! وهنا انتقلت فكرة لوكريس إلى أبيها ، فأخذت تحلم بموته أيضاً أمام سحر البحر وتحت أعين الكواكب التي لا عدّ لها ولا حصر !

وظلت لوكريس تتقدّم هكذا نحو أعماق الحديقة حتى وصلت إلى أمام بناء بدا عليه أنه مهجور مهدّم ، وأنه ذو باب خشبيّ نخره السوس . وهنا أدخلت لوكريس مفتاحاً في قفل الباب ففتح ،

فظهر عندئذ الباب الحقيقيّ الذي كان من الحديد والذي فتحته لوكريس بسهولة أكثر من الباب الأول . فدخلت عندئذ من هذا الباب إلى غرفة ضيّقة لا نافذة لها . وقريباً من أحد جدران هذه الغرفة كان يجثم صندوق ضخم تعلوه طبقة سميكة من الغبار الرطب . وكان يبدو على هذه القطعة من الأثاث أنها كبيرة الحجم ثقيلة لا تستطيع قوّة ثلاثة رجال أو أربعة أن تزحزحها من مكانها.

أما لوكريس فقد انحنت وحرّكت إسفيناً حديدياً كان من شأنه تثبيت الصندوق في الأرض ، ثم دفعت قطعة الأثاث هذه فزلقت دون أن تصعّد ضجة ما . عندئذ ظهر باب جديد فتحته لوكريس بمفتاح صغير . وكان هذا الباب يطلّ على سلّم ، فنزلت لوكريس خمسين درجة تقريباً ثم دخلت في ممر طويل . وفجأة ظهر أن هذا الممرّ قد سُدّ بكتل صخرية أكل الدهر عليها وشرب . إلا أن صخرة كانت بارزة عن سواها في زاوية الممرّ اليسرى ، فتقدّمت لوكريس منها وأخذت تزيل الطين عن جوانبها ثم شدّتها إليها فانصاعت طائعة ، ذلك أنها لم تكن صخرة حقيقية بل قطعة من الخشب طليت بمادّة غرزت فيها بعض قطع صخريّة حتى لقد أصبحت تخدع النظر . يا للحيلة البارعة !

ودخلت لوكريس من الكوّة التي فتحت أمامها إلى كهف واسع هو كناية عن مغارة طبيعية محفورة تحت صخور الشاطىء العالية . وكان النسيم يدخل إليه بدفعات كبيرة ، وكان رملٌ ناعم يؤلف أرضه . وسرعان ما اتجهت لوكريس إلى إحدى زوايا الكهف ، فأثارت شمعة وأخذت تتلمّس بيدها تنوء الجدار الصخري.

وعندما ضغطت على أحد هذه النتوء سمع صرير فواصل حديدية ، فإذا بالجدار ينشقّ عن خزانة عريضة عالية وعميقة ! وإذا بالخزانة مملوءة بصناديق حديدية مختومة ، ففتحتها لوكريس ، فإذا هي تنكشف عن مشهد يبهر العيون !

كان الصندوق الأول مليئاً بالماس والعقيق والجواهر المتلألئة التي أغرقت لوكريس يديها فيها حاملة منها ما استطاعت، ثم جعلتها تنهمر في شلاّل فاتن راح يتألق تحت نور الشمعة عاكساً حوله ألف شعلة غريبة . وبعد أن قلّبت لوكريس هذه الجواهر بملء يديها انخفض بصرها نحو الصناديق الأخرى حيث كانت تتكوّم الدنانير والقطع الذهبيّة التي تمثّل نقد جميع إمارات شبه الجزيرة ، والثروات التي جمعها آل بورجيا بشباكهم التي كانوا يلقونها على إيطاليا بأجمعها . أما هذا الثراء الأسطوريّ المكدّس في زاوية هذه الصخرة ، فقد كان يؤلف كنوز لوكريس بورجيا ! وكانت لوكريس قد جمعت هذه الكنوز شيئاً فشيئاً من الغنائم التي كان يستقطرها بخلُ أبيها الذي لا يرتوي وتبذير أخيها الأبدي النّهَم .

وظلت لوكريس طيلة ساعتين ، وهي الآن مقرفصة وذقنها في يدها ، تتأمل هذه الكنوز قائلة في نفسها : هذه هي القوّة الحقيقية . ولسوف أصيرنّ ملكة !

إلا أن ضجة خفيفة قطعت عليها تأمّلها ، فوثبت من مكانها وحملت الشمعة بيدها وأخذت تدور مسرعة في الكهف . وعندما لم ترَ شيئاً قالت في نفسها : قد يكون ضبّ كبير هال قليلاً من التراب. غير أن قلقاً خفياً ظل يلازمها ، فأغلقت مسرعة الصناديق

والخزانة الحجريّة ، فعاد الجدار إلى شكله الطبيعيّ . وبالرغم من سرعتها فقد خيّل إليها أن أحداً كان داخل الكهف ، فراحت تبحث في النفق الضيّق الذي دخلت منه ، وبعد أن سدّت باب النفق عادت إلى الحجرة الأولى فأقفلت بابَيْها ثم راحت تراقب الأمكنة المجاورة لها . وعندما عادت إلى غرفتها اقترب منها الخادم الذي يسهر دائماً على الباب وقال لها : إن رجلاً قادماً من إيطاليا ينتظر السنيورا .

فارتعشت لوكريس ارتعاشة عنيفة ، إذ قد تراءى لها أن صلة غريبة توجد بين وصول هذا الرجل والحركة التي سمعتها في المغارة . لذلك فقد سألت الخادم قائلة : منذ متى وصل الرجل ؟ قال : منذ نصف ساعة تقريباً . قالت: وهو قادم من إيطاليا ؟ قال: من قِبَل غبطة مولاي قيصر .

فشهقت لوكريس من الفرح، ثم أشارت بيدها. وبعد لحظات كان الرجل أمامها . وعندما رأته صاحت متعجبة تقول : الراهب آنجيلو ! فانحنى الراهب أمامها بكل رقّته المصطنعة . ولكن لو استطاع أحد بعجيبة ما أن يراقب لوكريس بورجيا في هذه اللحظة لعرف أنها لم تخدع بمظهره بل ظنّت به شتى الظنون . إلا أنها استطاعت أن تبدّد الظنون من ذهنها وتسأله قائلة : متى وصلت أيها الراهب العزيز ؟ فقال الراهب : منذ أقل من ساعة يا مولاتي .

وسحب آنجيلو رسالة قدّمها للوكريس قائلاً : كلفني غبطة مولاي قيصر دوق فالانتينوا أن أنقل إليك هذا الكتاب الذي أراد أن يعهد به لشخص أمين . فقرأت لوكريس الرسالة التي

يعرفها قرّاؤنا ، ثم ألقت على الراهب نظرة طويلة حالمة. ثم جلست وأعادت قراءة الرسالة بتمهّل . وعندما اعتقدت أنها نفذت إلى معناها أخذت تتفحّص الراهب الشاب مفكرة في نفسها تقول : كيف استطاع قيصر أن يضع ثقته بهذا الغبي! ولكنها قالت بصوت مرتفع : أتعرف محتوى هذه البرقية ؟ قال : نعم يا سيدتي أعرف محتواها ومعناها .

هنا كان صوت الراهب قد تغيّر فأصبح صلداً ، فنظرت لوكريس إليه بتعجّب . وأكمل الراهب كلامه قائلًا : إذا كان محتوى هذه الرسالة لا يوافقك يا سيدتي فسأعود غداً صباحاً لأخبر غبطة مولاي قيصر . أما إذا كنت موافقة معنا على إسداء العناية اللازمة لقداسته فمن الواجب إعداد ما يلزم، لأنني مستعجل للعودة إلى إيطاليا لكي أضع على رأسي التاج الأسقفي الذي أراد أخوك أن يعدني به .

هنا توقّف الراهب عن الكلام، وقد كانت كلماته هذه تحتوي شرحاً كاملًا فهمته لوكريس . لذلك فقد أجابت بلهجة رصينة تقول : لم أكن أعرفك ، وعلينا أن نتحادث قليلًا . وإنك بنظري لتستحق أكثر من تاج أسقفي ! فقال آنجيلو بلهجة باردة: هذا رأيي أيضاً يا سيدتي . قالت : وفي انتظار ذلك فلنبحث في هذه المهمة الخاصة التي أتت بك إلى كبريرا . هيّا اجلس هنا إلى جانبي .

واستمرت هذه المحادثة الهامسة وقتاً طويلًا .

وعند الظهيرة دخلت لوكريس على أبيها ، وفي الوقت الذي كانت تراه فيه عادة لكي تنشر على غدائه جوّاً من المرح . أما البابا فقد ظهر قاتماً في هذا اليوم أكثر من عادته . فاستفسرته

لوكريس عن صحته متجنّبة أن تتكلم عن مخاوفه التي أبداها في الليلة الماضية . وعندما خلد البابا إلى الاطمئنان قليلًا قالت له لوكريس : لقد هيّأت لك مفاجأة سارة يا أبي . فسألها البابا في قلق ، قال : وما هي يا ابنتي ؟ قالت : رأيت أنك محرومٌ من شخص يقرأ لك ... فقاطعها قائلًا : وهل وجدت لي قارئاً جيداً ؟ آه ، ليتني اصطحبت معي آنجيلو الحِذِق ، إنه والله لشديد النفع.. فقالت : هذا ما فعلته ، فقد بعثت رسالة للراهب آنجيلو دعوته فيها لأن يحضر للالتحاق بك في هذا المكان . قال : ما أمهرك ! ومتى سيصل آنجيلو هذا الشهم ؟ قالت : لقد وصل يا أبي !

وفي الوقت ذاته قرعت لوكريس جرساً صغيراً، فظهر الراهب آنجيلو ، ثم أتى توّاً فركع أمام الشيخ .

*

كنا قد رأينا أن جوزيبّو صاحب السفينة « ستيللا » قد وضع روزا – أي الماغا – وآنجيلو على بُعد فرسخ تقريباً من قصر لوكريس. وكان الاثنان قد سارا في اتّجاه القصر مارّين بالطريق المجانبة للشاطىء . وعندما وصلا إلى أكواخ الصيّادين توقفت روزا فانوزّو أمام أحدها قائلة : إلى هنا يجب أن تأتي في طلبي في الوقت المناسب . إمضِ أنت في سبيلك ، أما أنا فسأبقى هنا .

فتفحّص الراهب، في عناية واهتمام، الكوخ الذي وقفت أمامه الماغا ، وكان الثالث من ناحية القصر ، ثم راح يتقدّم في الظلام . ولكنه عوضاً عن متابعة طريقه فقد مال إلى الشاطىء ذي الرمل الناعم وأخذ يسير سيراً بطيئاً . ولقد كان الراهب آنجيلو شاباً ،

ولطالما عامله الرجل الذي جاء لقتله الآن بعطف وودّ كبيرين ، ولكنه قبل أن يقتله ليصبح أسقفاً . غير أنه أصبح يحسّ الآن بثورة مختلطة في نفسه لتصوّره بأنه سيحذف بعد قليل حياة إنسانية من الوجود . لذلك فقد جلس على صخرة وأخذ يقتلع جبوب الأعشاب بيد طائشة . وفي إحدى اللحظات وقعت عيناه على ضياء بدا أنه منبجس من الثقوب التي خلّفها اقتلاعه للأعشاب . فنظر إلى هذا الضياء بفضول متسائلاً : ترى من أين يأتي هذا النور؟

هنا شرع الراهب آنجيلو ، الذي انشغل باله ، يزيح التراب ويقتلع أعشاباً أخرى حتى انفرج الثقب المنير . عندئذ ألصق وجهه عليه ناظراً إلى الداخل فإذا به يبصر شيئاً مذهلاً : فهناك كهف واسع طبيعي ينيره ضوء باهت ! ورويداً رويداً أخذ يبصر زوايا هذه الغرفة الغريبة . وكانت إحدى الزوايا مضاءة أكثر من سواها . ولم يلبث أن أبصر الشمعة ، وإلى جانب الشمعة امرأة ، وأمام المرأة صناديق في قعر خزانة واسعة ، وفي هذه الصناديق أشياء بعضها يتألّق وبعضها كامد اللون .

فطربت عينا الراهب ، ولم يبق في نفسه أيّ شك بأن هذه الصناديق إنما تحتوي ثراء عريضاً لا يستطيع تقديره ، ولكنه يفوق مجموع أحلامه . وإذا بحركة تبدر عنه وقد تكون هزّة فرح أو غمّ ، فانهارت بعض حُصيّات صغيرة إلى داخل الكهف ، فانتصبت المرأة ، فعرفها الراهب حالاً : إنها لوكريس بورجيا ! فتراجع في الحال . وبعد أن هزّ كتفيه خائفاً أن تكون لوكريس قد أبصرته ، عاد إلى المراقبة . ولكن لوكريس كانت قد أطفأت

شمعتها فساد الظلام في أرجاء المكان .

ومكث الراهب خمس دقائق ممدّداً في موضعه وكأنه مسحوق بالفرح الشديد الذي يتذوّقه . ولقد تساءل فيما إذا كان ما يزال يملك وعيه . ولكنه ارتعش فجأة لفكرة غريبة : لقد جاء ليقتل البابا فإذا بفكرة قتل جديدة أخذت تولد في نفسه ... فما عليه إذن إلا أن يقتل البابا وأن يقتل لوكريس لكي يستولي على الكنز !

عندئذ هب بسرعة وبحمّى عصبية وأخذ يسدّ الثقب بالتراب والحجارة ثم عيّن علامات لا يمكنها أن تخطىء المكان . وبعد أن سجل بعض إشارات على ورقة في جيبه نهض وابتعد .

وعندما وصل إلى بوابة القصر الكبير كان هادئاً ، وكانت سحنته لا تعبّر إلا عن مشاعر الانتظار بفارغ صبر لتقديم حياته واحترامه لاسكندر بورجيا ولابنته الشهيرة .

قارئة الأفكار

*

في كوخ الصيّاد الذي عينه جياكومو عرف سباداكاب المرأة العجوز التي شاهدها على ظهر السفينة ، وعرف راكستان أن هذه المرأة هي حامية روزيتّا العجيبة . وعندما دخل راكستان وسباداكاب إلى الكوخ الفقير لم ترتعش الماغا رغم معرفتها

راكستان منذ النظرة الأولى . ذلك أن هذه المرأة التعسة التي عاشت طويلاً بالحبّ أمست الآن تعيش لحقدها فقط . ولشد ما أوصلها هذا الحقد الذي تضمره لاسكندر بورجيا إلى قدرية خاصة، فأصبحت تعتقد مخلصة باضمحلال الأشياء من الوجود ، ما عدا حقدها الذي كان ينمو يوماً بعد يوم . حتى أنها أمست لا تعيش إلا لتقتل رودريك بورجيا ــ أو اسكندر بورجيا .

وإننا لنفهمها الآن لو رأيناها تقف لامبالية أمام حشد من الحوادث التي كان من شأنها أن تثير مشاعرها . كما أننا نفهم كيف أنها لم تظهر أية دهشة عند رؤيتها راكستان داخلاً . أما الصيّاد الذي أدخل الرجلين إلى كوخه فقد قال بعد أن ألقى نظرة متفحصة على راكستان : ما دمتَ قادماً من قِبَل جياكومو فهذا معناه أنك بحاجة للبقاء متستراً في الجزيرة ؟

فأجابه راكستان وعينه متعلقة بروزا فانوزو كأنه يريد أن يثير انتباهها قائلاً : تماماً كما قلت !

أما الصياد فقد تابع قائلاً : إذن هنا يمكنك أن تعيش بأمان واطمئنان فلا يجيء أحد لإقلاق راحتك . وإنني سأدلّك على غرفتك المختفية عن أنظار الباحثين في حال طلبهم لك . إنما أرجوك أن تشهد أمام جياكومو بأنني عاملتك وفقاً لإرادته . فقال راكستان : لن يفوتني هذا الأمر أيها الرجل الشهم ، كما أنه لن يتأخر موعد تنفيذه ، لأنني عندما توجهت إلى هذا المكان كان جياكومو هو الآخر يغادر روما ليبحث عن سفينة تُقلّه إلى

كبويرا .

ولدى سماعها هذه الكلمات ، رفعت روزا فانوزّو رأسها وسألت قائلة : سيأتي جياكومو إلى هنا ؟ فقال راكستان : نعم يا سيدتي . قالت : حسناً ! قال : ألم تعرفيني يا سيدتي ؟ قالت : بلى ، لقد عرفتك .

لقد لفظت هذه العبارة بصوت أقلّ صلابة من العادة . فراكستان هو الرجل الذي أنقذ روزيتا . وبعد أن تأمّلته طيلة دقيقة أضافت قائلة : أوَتتألم أنت أيضاً ؟ قال : كيف عرفت يا سيدتي ؟ فقالت : ظهر لي ذلك من الحالة التي كنت فيها هناك في مغارة وادي الآنيو . ولقد تمنيت لك يومئذ أن تكون سعيداً، ولكنني أرى أن أمنيتي لم تتحقق .

فمكث راكستان صامتاً طيلة لحظة ثم قال بصوت منخفض : كنت أتألم يومئذ ، ولكن ليس كالمي اليوم . قالت الماغا : نعم، كنت يومئذ تحب ولكنك كنت تعتقد أنها لا تستطيع هي أن تحبك . أما اليوم فأنت تعلم بحبها لك ، ولكن التي تعبدها والتي وثقت بك قد اختُطفت من يدك. فقال راكستان: كيف تعرفين كل هذه الأشياء يا سيدتي ؟ قالت : أنت قلتها لي . قال : أنا ؟ قالت : أجل أنت ! وإن لم يكن بكلماتك فبوضعك وأعمالك وحركاتك . إنك تحب بياتريكس ابنة الكونت آلما التي يسمّونها بريمفيرا . ولقد رأيتك في مغارة الآنيو شقياً تحاول إخفاء ألمك ، كأن الحب طفل يمكن إخفاؤه ! ولقد تأكدت من أنك تحب عندما رأيتك تنظر بغيرة يائسة إلى فجر السعادة الذي أشرق على

صديقك رافائيل . وعندما أبصرتك تتحرّى تحركات قيصر بعناية واهتمام فهمت أن قلبك عالق في مونتفورتي . ولقد علمت بواسطة جياكومو الذي كان يوفد لي كل يوم رسولاً من قِبله أيّ دور لعبت في مونتفورتي : فأنت الذي صددت قيصر . ولقد فعلت ذلك بعد أن عرض عليك قيصر مركزاً عالياً إلى جانبه . وهذا ما يجعلني أؤكد أنك تحب الكونتيسة الصبية .

وكانت عين الماغا العجوز تلمع بعطف ومحبة . أما راكستان فقد كان يُصغي إلى استنتاجاتها صامتاً مذهولاً . إلا أنه قال أخيراً: ماذا يفيدني يا سيدتي أن أخفي عليك هذه الحقيقة التي قرأتها في قلبي . بلى ، إنني أحب الكونتيسة بياتريكس ، وإن اختفاءها ليعذّبني عذاباً شديداً . فقالت الماغا : وهل أتيت إلى هنا بحثاً عنها ؟ قال : نعم يا سيدتي ، لم يأتِ بي إلى كبريرا إلا أمل العثور عليها . الأمل الذي إن خاب لن أعيش من بعده . فقالت: أوتخشى أن تكون لوكريس قد قتلت حبيبتك؟ فقال راكستان مرتجفاً : نعم ، هذا ما أخشاه ، ولعلّي جئت متأخراً . فقالت الماغا : اطمئنّ من هذه الناحية . فقال راكستان: ماذا تقصدين ؟ أوتعلمين شيئاً ؟ أستحلفك الله أن تتكلمي يا سيدتي . قالت : لا أعلم شيئاً ولكنني أفترض افتراضاً فقط . قل لي ، هل سبقت لك علاقات مع لوكريس ؟ قال : نعم ، يا للأسف ، وهذا سبب شقائي . قالت : لقد حرّضت لوكريس على قتل زوجها التعس دوق بيزاقلية الذي كان شخصاً لا يؤذي ولا يزعج مطامعها وشهواتها . فالحب وحده قد يكون دفعها إلى هذه الجريمة : فهل

كانت تحبك لوكريس ؟ قال : قد يكون هذا صحيحاً يا سيدتي . قالت : فهمت الآن . لا شك أن لوكريس بخيّلتها الملتهبة قد بنت مشاريع تعثرت بالصدّ من جانبك . ومن هنا انتقامها. قال: إن ما تقولينه هو الحقيقة بعينها يا سيدتي. قالت : ذلك أنني أعرف لوكريس معرفة جيدة . وصمت راكستان لحظة ثم سأل الماغا قائلاً : ولكن ماذا قلت لي يا سيدتي ؟ ألم تمسّ لوكريس حياة بياتريكس بأذى ؟ فقالت : قلت لك إنني أعرف لوكريس. فلقد حاولت أن تصيبك في قلبك ، وأرادت أن تعذّبك ، ولا شك أنها بحثت عن تعذيب مبتكر لمنافستها . فلهث راكستان مصفرّاً وقال : إنك تدخلين الرعب إلى قلبي ! أما الماغا العجوز فتابعت تقول : ليس الموت طريقة تعذيب بالنسبة للوكريس التي كفّت عن اعتبار الموت عقاباً . وهي اليوم لا تقتل إلا لتنحّي عقبة من طريقها . ولكن عندما يتعلق الأمر بالانتقام فإنها تخاف أن يأتي الموت لانتزاع الضحيّة من يديها . ولا شك أنها ستقتلها ، ولكن ببطء. فهي ستحطّم قلبها وتدنّسها بالعار ثم تلقي بها أمام عينيك، بينما تفضّل الضحية المنكودة الحظ الموت على نظرة واحدة من نظراتك . عندئذ تشبع لوكريس نهمها من يأسكما معاً .

فشهق راكستان شارد العقل والقلب وصاح يقول : يا لشراسة هذه المرأة ! إنها شيطان فاجر ! ثم أمسك بيد الماغا وهتف بها قائلاً: ولكن كيف تعرفينها هكذا ؟ وكيف استطعت تحليل شخصيتها بمثل هذا الوضوح ؟ أمن أجلها جئت أنت أيضاً ؟ وهل هي أيضاً عدوّتك اللدود الشرسة القاسية ؟ فأجابت الماغا بهدوء جعل الشاب

يرتجف طويلاً، قالت: إنها ابنتي! فصاح راكستان مذهولاً مصعوقاً قال: ابنتك؟ قالت: نعم ابنتي. أيبدو لك قبيحاً أن تتكلم أم عن ابنتها كما تكلمت عن لوكريس؟ في الواقع يجب أن أكون أمّاً مسخاً إذ أنني رميت للعالم هاتين الآفتين اللتين تسميان: لوكريس وقيصر بورجيا.

وهنا غطت الماغا وجهها بيديها وأجهشت ببكاء كاد يمزّق حنجرتها. فاستولت الشفقة على قلب راكستان الذي نسي غمّه قليلاً أمام تعاسة الماغا. وعندما استعادت هذه روعها التفتت إليه وقالت: إنك رجل طيّب القلب، فقد رأيتك تتأسّى عليّ. أما بشأن خطيبتك فلا تخشَ عليها من الموت الذي هو انتقام غير كاف بالنسبة للوكريس. فقال راكستان مغمغماً: فماذا يجب أن أخشى إذن؟ قالت: لقد كتبت لوكريس لقيصر، وقد يكون قيصر في هذه الساعة في طريقه إلى كبويرا.

هنا انسحبت الماغا تاركة راكستان محجّراً في مكانه يتمتم في غمّ وهلع الاسم الذي لفظته الماغا على مسمعه كإنذار مشؤوم:

ـ قيصر!

اطمئنان بورجيا العجوز

*

كانت عدّة أيام قد انقضت على وصول الراهب آنجيلو إلى قصر

كبويرا. وكانت لوكريس خلال هذه الأيام تنتظر بفارغ صبر وصول قيصر الذي أرسلت له أيضاً رسالة أخرى. أما البابا فقد كان محكوماً عليه بالموت في ذهن لوكريس وفي ذهن أخيها. وكان الراهب قد شرح لها خطته: يفسح في المجال لدخول الساحرة العجوز إلى القصر لكي تقوم بعملها. ولم تترك لوكريس سؤالاً عن هذه الساحرة إلا طرحته على الراهب الذي لم يجب إلا بشيء قليل. فقرّرت عندئذ أن تعهد بتنفيذ هذه الخطة إلى الراهب آنجيلو الذي كان همّه الأول أن يوحي للشيخ بأن يوليه ثقة كبيرة. وهذا ما توصل إليه فتبدّدت مخاوف البابا قليلاً فقليلاً بفضل جهود قارئه، حتى لقد توصّل إلى الخروج من القصر، وإلى النزول أحياناً عند المساء إلى الشاطىء قارئاً بتمعّن البريد الذي كان يستلمه، ومعدّاً الرسائل التي كان ينوي إرسالها إلى قيصر أو إلى المركيز دي روكاسانتا.

أما الأخبار التي كان يتبلّغها من روما المدينة الخالدة فقد تحسّنت، إذ بدا أن التمرد الذي ولد في صفوف الشعب قد اختنق في مهده. فأخذ البابا يحسب الساعة التي يستطيع فيها العودة إلى روما، وهذا ما شرحه إلى أمين أسراره الراهب آنجيلو في مساء أحد الأيام بينما كان الاثنان معاً يقومان بنزهة على الشاطىء برفقة حراس كانوا يسيرون خلفهما على مسافة معيّنة. في هذه النزهة قال البابا لمرافقه: أقسم بعذراء «بيديغروتا» أنني لم أغضب لانتقالي من قرية إلى أخرى، ففي تيفولي كنت أشعر بالملل، أما هنا فيوجد البحر الذي يعود بمنافع لا تنضب على الصحة النفسية والجسدية.

أنظر ، كيف تراني الآن ؟

ـ لم أرَ قداستك أبداً بمثل هذا الوجه الطافح بشراً وحياة !

ـ أجل يا آنجيلو ، فإنني أشعر باستعادة نشاطي منذ بضعة أيام ، والفضل الكبير في هذا مردّه لابنتي لوكريس ، فيا لها من إبنة خيّرة تثير الإعجاب ! فهي لم تحجم مرّة عن شيء في سبيل تشجيعي وإعادة قوّتي . ولكن إسمع ، ليس هذا كل شيء أريد أن أقوله لك . لقد وصلت إلى هنا حاملاً معي أفكاراً حانقة ، ولكنني لا أشعر بالمقدرة على التفكير بمعاقبة المتمرّدين ، بل أريد إصدار عفو عام ، فالعفو له سحر لا حدود له ، وهو يغمر بالهدوء والسلام النفس المعذّبة .

وأضاف في نفسه قائلاً : إذا عفوت فقد يعفى عني !

في هذه اللحظة ظهر شبح أسود على شاطىء البحر ، فأمسك الشيخ يد آنجيلو وقال له بغمّ وقلق : هل ترى ؟ فقال الراهب : نعم ، إنني أرى . ولكن فلتطرح قداستكم عنها الخوف !

واقترب الشبح منها : إنها امرأة ترتدي ثياباً سوداء . فعرف آنجيلو أن هذه المرأة هي الماغا !

حياةٌ بحياة

*

كان الراهب قد فغر فمه موشكاً أن ينادي الحرس ، ولكنه

سرعان ما أطبقه عندما عرف المرأة . أما فكرته الواضحة في هذه اللحظة فخلاصتها أن ساعة البابا الأخيرة قد دنت . لذلك فقد مال على الشيخ وتمتم في أذنه قائلاً : لا فائدة من الصراخ ، إنها امرأة فقيرة من نساء الشاطىء اللواتي لا يؤذين أحداً . ثم تراجع مسافة خطوتين إلى الوراء وقد اشتعلت عيناه ، لأنه أخذ يتصوّر هذه المأساة التي ستقع بعد قليل على رمال الشاطىء . أما روزا فانوزّو فقد ظلت تتقدم متباطئة حتى توقفت أمام البابا. وكان هذا لا يبصر وجهها المختفي حتى نصفه خلف منديل أسود ألقته العجوز على رأسها. لذلك فقد سألها بلهجة صارمة قال : ماذا تريدين ؟ فأجابت المرأة الغريبة بصوت لم يسمعه غير البابا ، قالت : أريد أن أتكلم على انفراد مع رودريك بورجيا . فهناك جريمة في الهواء تهدد حياتك بالخطر . ولكنك ستنجو بنفسك إذا أصغيت إليّ ، وإذا أبيت فإنك ستموت . فاختر إذن ما تشاء !

جعل هذا الصوت البابا يرتعش ، ترى أين سمعه قبل ذلك؟ ثم إن هذه المرأة تقول الحقيقة ! إن حياته مهدّدة بالخطر ، فظنونه السابقة لم تخدعه إذن . لذلك فقد غمغم قائلاً: قلت إنك تستطيعين إنقاذي ؟ قالت : نعم . ولا يستطيع ذلك أحد سواي . ولكن أبعد هذا الرجل من هنا .

فتردّد بورجيا العجوز طيلة دقيقة : لعلّ هذه المرأة كاذبة ، ولعلها تنصب له فخاً توقعه فيه ! ولكن لعلها تقول الحقيقة أيضاً ، ولعلها تستطيع إنقاذ حياته ! فقرّر إذن أن يُبعد الراهب ، فقال له فجأة : آنجيلو ، إنسحب من هنا يا بنيّ . أما المرأة فقد تابعت

تقول : يكفي أن يبتعد مسافة تجعله لا يسمع ، ويمكنه أن ينظر إلينا من بعيد . فقال بورجيا العجوز فرحاً : أسمعت يا آنجيلو ؟ إبتعد قليلاً دون أن تغادر الشاطىء .

فأطاع الراهب وابتعد عشرين خطوة تقريباً. عندئذ قال البابا: تكلمي أيتها المرأة الطيّبة . فأسقطت روزا فانوزّو المنديل الذي كان يغطي قسماً من وجهها وسألته قائلة: أتعرفني أيها السيد؟ فصاح البابا متعجباً: الماغا ؟! كيف تبعتني إلى هنا أيتها الساحرة العجوز؟ وكيف تجرئين على مقابلتي بعد الذي جرى في تيفولي ؟ ليست حياتي هي المهدّدة في هذه اللحظة بل حياتك أنت !

تستطيع إذا أردتَ أن تأمر بالقبض عليّ ، ولكنني أحذرك من أنك ستموت إذا لم أنقذك. ولا يستطيع إنقاذك أحد سواي.

فاستولى الرعب من جديد على بورجيا العجوز وقال مغموماً : تكلمي إذن! قالت: يجب أولاً أن تثق بي ثقة كاملة. لقد مرضتَ في أحد الأيام مرضاً شديداً فانتزعتك من براثن الموت ، أليس كذلك ؟ قال : هذا صحيح ، فقد أنقذت حياتي . قالت: وكنت محاطاً بأعداء أقوياء ، فجئتني قائلاً : « أعطني وسيلة أدافع بها عن نفسي من أعدائي » فركّبتُ لك سمّاً طفقت تستخدمه حتى أقضّ الرعب مضاجع خصومك فأمسوا لا يجرؤون على رفع أبصارهم إلى تاجك ، أليس كذلك ؟ قال : بلى ، هذا صحيح . فقد قضيت على أعدائي قضاءً مبرماً . ولكن لماذا تلاعبتِ بي في تيفولي ؟ قالت : لأنني أردت أن أجنّبك عملاً كان سيثقل كاهلك بالعار ، لأنني كنت أعرف أن روزيتا هي ابنتك . قال : بلى !

لربما خدمتني في ذلك اليوم أكثر من الماضي بأجمعه، إذ أنك أنقذتني من نفسي وجنّبتني الجريمة ، وإن كانت جريمة غير واعية .

فلمعت عين روزا وتابعت قائلة : إذن فأنا على حق بأن أطلب إليك أن تضع بي ثقة كاملة ؟ فقال بورجيا: ولكن ما الذي يضعك هكذا دائماً على طريقي في أعنف مراحل حياتي ؟ أريد أن أعرف الغاية من اهتمامك الغريب بي . لماذا أنقذتني من الموت ومن جريمة السفّاح مع ابنتي ؟ ولماذا جئت لإنقاذي مرّة ثانية ؟ تُرى من أنت ؟

وفيما كان الشيخ يتكلم كانت روزا فانوزّو تشعر برعشات عنيفة . ولكن تضحية كانت تتحقق في نفسها إذ أنها أطفأت جذوة حقدها في قلبها وضحّت بحاجتها الملحّة للانتقام ، هذا الانتقام الذي كرّست له حياتها منذ ثلاثين سنة. وبعد أن حملت نفسها على الهدوء قالت بصوت يرتجف قليلاً : إنكَ تطرح عليّ أسئلة لا أستطيع الإجابة عنها ، فليكفيك أن تعلم بأن القدر وحّد بين حياتينا . فلا تستجوبني إذن إذا أردتني أن أحافظ على قوّتي الكافية لكي أنقذك هذه المرّة أيضاً .

فأعادت هذه الكلمات الأخيرة البابا إلى الواقع وقال: لا بأس، إن لديك سرّاً ، ولن أحاول سبر غورك . وها إنني منتظر أن تقولي لي من الذي يريد الإيقاع بي في هذا المكان ؟ ولماذا وكيف أنا مهدد بالموت ؟ فقالت الماغا وقد استعادت هدوءها بكامله : هذا أيضاً لا أستطيع أن أبوح لكَ به ! فزجر البابا عندئذ قائلاً : فماذا تريدين إذن ؟ قالت : أن أعرض عليك مبادلة. هنالك حياتان

مهدّدتان بالخطر : حياتك وحياة صبيّة بائسة سأحدثك عنها ، فإذا أنقذتها سأنقذك بدوري . قال : ومن هي هذه الفتاة البائسة ؟ قالت : الكونتيسة بياتريكس ابنة الكونت آلما . قال : بياتريكس ؟ وتقولين إنني أستطيع إنقاذها ؟ قالت الماغا : أصغِ إليّ ، لقد قتلتْ الوالدة ، وعليك إنقاذ ابنتها . لقد اختُطفت بياتريكس من مونتفورتي ، أتعلم من اختطفها ؟ إنها لوكريس ! فقال متعجباً : لوكريس ؟ هذا أمرٌ غريب حقاً ! فقالت : أما بياتريكس المخطوفة فقد نُقلت إلى هذا القصر حيث هي سجينة في غرفة مقفلة . فافرض إرادتك على ابنتك لإنقاذ بياتريكس ولإعطائها حريتها . قال : وإذا رفضت هذا العمل ؟ قالت : قلت لك إنني أعرض عليك المبادلة . حياتك مقابل حياة بياتريكس ، أي حياة بحياة . فإذا نالت بياتريكس حريّتها ستربح أنت خلاص نفسك . وإلا فلا مناص لك من الموت المحتم في هذه الساعة بالذات ! فقال : بل إنني سأنقذ بياتريكس ! قالت : أوَتقسم على هذا ؟ قال : أقسم بالإنجيل والصليب . قالت : عش إذن سالماً ! وإذا كنت مؤمناً فاشكر الله الذي أنقذك !

وأراد البابا أن يطرح على الماغا أسئلة جديدة، ولكنها انسحبت متوغلة في الليل . عندئذ نادى قداسته الراهب آنجيلو الذي أقبل مسرعاً وقال له بلهجة باردة : كنت على حقّ ، إنها امرأة فقيرة لا أذى منها جاءت تطلب مني نعمة أسبغها عليها . فقال الراهب : وهل أسبغت قداستك عليها هذه النعمة ؟ قال : قلت لك إن عمل الخير والمعروف يفرّحان القلب . ولكنه أضاف فجأة وكأنه شعر

بظنّ يولد في ذهنه : أتعرف هذه المرأة ؟ قال : أنا ؟ كلا، مطلقاً ! فقال البابا : ومع ذلك فقد قلت لي ... فقاطعه آنجيلو قائلاً : لقد كان ذلك مجرّد افتراض أيها الأب الأقدس . عندئذ قال بورجيا : لنعد ، فقد تصيبني حمّى الملاريا .

ثم أسرع متجهاً نحو القصر فيما كان الراهب آنجيلو يسائل نفسه بقلق قائلاً : ماذا تراها قالت له ؟ وهل وشت بي ؟ إذا كان الأمر كذلك فقد قُضي عليّ ! هنا أخذ آنجيلو ينظر حوله . وعندما وصلا إلى باب القصر كانت لوكريس خارجة في حلقة من الحرس، فإذا بها عند رؤية أبيها تقطّب حاجبيها بسرعة ، ولعلّها كانت تحسب أنها لن تراه مرّة ثانية . ولكنها صاحت قائلة : آه يا أبي ! لشدّ ما كنت قلقة عليك . فقال البابا : إيه لوكريس الطيّبة ! تعالي يا ولدي لأننا سنتحدث بأشياء هامة .

ثم دخل البابا إلى مقرّه ومن خلفه لوكريس . أما الراهب آنجيلو فقد انسحب خلفها !

اليأس

*

عندما أخبرت روزا فانوزّو راكستان بقدوم قيصر بورجيا المحتمل ، كانت قد وجّهت إليه ضربة عنيفة ، فأصبح الفارس المسكين يعرف الآن الحقيقة القاسية ونوع الانتقام الذي تهيّئه

لوكريس لبريفيرا . غير أن الصيّاد صاحب الكوخ انتزعه من أفكاره عندما رجاه أن يتبعه ، فأطاعه راكستان بطريقة آليّة .

وكان الكوخ مؤلفاً من غرفتين وحيدتين : الغرفة الأولى التي دخل إليها راكستان وسبادا كاب كانت تستخدم في آن واحد كمطبخ وكغرفة للنوم وكغرفة للأكل ، والغرفة الثانية كانت تستخدم كمستودع مشوّش اكتظّت فيه جُرَزُ الحطب والشباك المعلّقة في أخشاب السقف .

وعندما وصل الصياد مع راكستان إلى هذه الغرفة شرع ينحّي الجرَزَ المكدّسة على أرضها ، ثم كشف عن باب تغطّيه مزقٌ من الأشرعة . وعندما رفع هذا الباب الأرضي أخذ ينزل بصحبة راكستان على درج أوصلها إلى قبو متوسط الحجم . وكان هذا القبو يحتوي أثاثاً فخماً إذا قيس بأثاث البيت : ففيه ثلاثة أسرّة حديدية وطاولة وبعض كراسي صغيرة وخزانة فيها بعض المؤونة من المأكولات . فشكر راكستان مضيفه الصموت الذي اكتفى بالقول : هنا أنت بأمان ، ولكن لا تخرج إلا في الليل .

وارتمى راكستان بثيابه على أحد الأسرّة الثلاثة بينما احتلّ سبادا كاب السرير المجاور له . عندئذ راح راكستان يفرض على نفسه البحث عن حلّ لمشكلته ، مغالباً طيلة ساعة بكاملها الحزن الذي انقضّ انقضاض الصقر على نفسه . ولكنه خرج من هذه المعركة مع كآبته يقظاً مستعدّاً للعمل . لذلك فقد قفز عن سريره منادياً سبادا كاب . إلا أن سبادا كاب كان نائماً لأنه ، هو ، لم يكن عاشقاً ! فتركه راكستان غارقاً في نومه وصعد إلى الطابق الأرضي

من الكوخ سائلاً الصياد : أين العجوز التي تحدثت إليها منذ قليل ؟ فقال : إنها في غرفة شبيهة بغرفتكَ . فقال راكستان : أتعلم إذا كانت ستقضي هنا عدّة أيام ؟ قال : ألم تأتيا إذن من أجل قضية واحدة ؟ قال : لربما كان ذلك . ولكن هل يمكنني التأكد من وجودها هنا غداً ؟ فقال الصياد : غداً وفي الأيام المقبلة أيضاً .

عندئذ خرج راكستان من الكوخ واتجه نحو القصر . وكان الليل مظلماً وراكستان لا يعرف مسالك الجزيرة ، ومع ذلك فقد أخذ يسير دونما تردد تقوده غريزته وحدها . وفجأة إذا به يبصر كتلة سوداء ترتفع وكأنها مطبوعة على الأفق : فعرف أنه القصر . وهو لم يكد يراه حتى شرع يتسلّق الصخور متفحصاً بنهم هذا المسكن الذي يحتوي لوكريس وبريفيرا . وإذا به يبصر خندقاً فيه ماء يدور حول القصر ، فتبعه . ولكنه بعد ساعة وجد نفسه في النقطة التي انطلق منها لأن القصر بأسواره وبخندق الماء المحيط به وبيوّابته الكبيرة التي مرّ راكستان أمامها كان ممتنعاً على كل من يريد الدخول إليه . فجلس راكستان عندئذ على حجر وقد صعدت زفرة إلى شفتيه ، ثم مدّ ذراعيه في الفضاء متمتماً اسم بريفيرا .

وأخذ الليل يشيب قليلاً فقليلاً ، فإذا برماد الفجر المبيضّ ينتثر في كبد السماء فيطفو القصر فوق بحر من الظلمات . فاستطاع راكستان عندئذ أن يقيس قوّة العدوّ المخيف الذي يجابهه وأن يقدّر العقبة الكأداء التي تعترض طريقه ، فزفر زفرة يائسة وقفل هارباً إلى الكوخ الذي بلغه منهوكاً من التعب . ولشدّ ما كان

نهاره مخيفاً لأنه قضاه وهو يشعر شعوراً واضحاً بعجزه .

وطيلة هذا النهار كانت الماغا مختفية . ونحو الساعة التاسعة ليلاً استأنف راكستان طريقه نحو القصر ، وكان سباداكاب هذه المرة في رفقته، فدارا معاً طيلة الليل حول قصر لوكريس. وعند عودتهما قبيل شروق الشمس إلى الكوخ كان راكستان هادئاً لأنه أخذ قراراً جازماً . أما سباداكاب فقد خمدت شجاعته وراح يسير إلى جانب الفارس متفحصاً إيّاه بنظراته الخفيّة ، ولشدّ ما أرعبته سحنة راكستان المتغيّرة فالتفت إليه وقال : لم ينته كل شيء يا سيدي . ألا ثق بأن اليأس لا يفيدك شيئاً !

فقال راكستان : من أخبرك بأنني يائس ؟ قال : أعرف من وجهك يا سيدي . قال : إنك مخطىء ، فقد كنت أفكر بخطة هجوم وها أنذا قد وجدتها وسأعرضها عليك ، إسمع ماذا قررت : سنتقدم هذا المساء من باب القصر كخيّالين قادمين من روما من قِبَل قيصر ، وإن لدينا مهمّة ضرورية لتبليغها إلى لوكريس ، فندخل ... فقال سباداكاب : إذا سُمح لنا أن ندخل ! فقال راكستان: أصمت ! قلت لك سندخل . قال: حسناً، وحينما نصبح داخل القصر ؟ قال : سيكون أحد أمرين : إما أن يقودونا إلى لوكريس فأقوم عندئذ بما يتوجّب عليّ القيام به ، وإما أن يمتنعوا عن أخذنا إليها فنرتمي على المحيطين بنا وتوقفهم في مكانهم وتصمد في وجوههم حتى تموت في موضعك . وإنني لأكتفي بخمس دقائق ، خمس دقائق فقط ... أسمعت ؟

وكان الفارس يتكلم بحماسة مفرطة، فنظر إليه سباداكاب حزيناً

وقال بلهجة بسيطة : إذا كان النجاح متعلقاً بصمودي حتى الموت يا سيدي فاعتمد عليّ ! ويمكنك أن تستبشر خيراً لأن المرء لا يموت إلا مرة واحدة .

ثم قال السائس في نفسه متنهداً : لقد قضي الأمر وانتهينا كلانا معاً !

أما راكستان فقد أثّر فيه إخلاص خادمه البسيط المطلق حتى ترقرقت الدموع في عينيه ، فأخذ عندئذ سباداكاب الأمين بين ذراعيه وعانقه . وهكذا انقضى هذا اليوم الثاني حزيناً كاليوم الأول ، ولقد قضاه راكستان ممدداً على سريره متسائلاً أحياناً إذا لم يكن من الأوفق تنفيذ خطته في الحال. إلا أنه لم يعد يتكلم عن مشروعه هذا ، بل لقد أعطى نفسه الفرصة لعلّه يجد خطة أسهل تنفيذاً .

وفي اليوم التالي كان راكستان قد نام من التعب ، ولكنه أفاق فجأة على ضجيج أصوات . وسرعان ما عرف أحد الصوتين المتحدثين : إنه صوت الماغا . ولم يلبث أن عرف الصوت الآخر : إنه صوت جياكومو . ولقد كانت الماغا تقول : إنك ستدخل إلى القصر ، فيجب أن تتدبّر الأمر لكي أدخل إليه أنا أيضاً . فأجابها جياكومو قائلاً: وهل فكرت جيداً يا سيدتي ؟ قالت : كفّ عن الكلام يا جياكومو ! لن تستطيع أية قوة إنقاذ رودريك بعد الآن ! ولكن أخبرني : قلت إن قيصر سيبحر قريباً إلى هذه الجزيرة ؟ قال : سيبحر غداً صباحاً ، فيصل إلى هنا غداً عند العشية أو عند منتصف الليل .

فقفز راكستان عن سريره، وبعد لحظة كان شارد اللب مخيف المنظر ، وإذا به يندفع إلى غرفة الماغا ويمسك جياكومو بذراعه قائلاً : ماذا تقول ؟ سيأتي قيصر بورجيا إلى هنا ؟ فصاح جياكومو مندهشاً : الفارس راكستان ! فقال راكستان : قلت لك أجب ! فقالت الماغا : نعم ، إن قيصر قادم إلى هنا ، فقد رأى جياكومو صاحب السفينة التي ستقلّه ! فتهاوى راكستان على كرسيّ كان هناك وهو فاقد القوى ، بينما راح جياكومو والماغا ينظران إليه بشفقة وهو يئنّ متمتماً يقول : أوّاه أوّاه ، ما العمل ؟

وفجأة إذا به ينهض واقفاً فسألته الماغا قائلة : إلى أين أنت ذاهب ؟ فأجابها راكستان بصوت هادىء ينبىء عن أزمة نفسية حادّة ، قال : إلى القصر . وسأقتل كل من يعترض طريقي إلى أن أموت .

فارتعشت الماغا وقد أثّر عليها يأس الشاب وقالت له: انتظر! فتوقّف راكستان وقد هزّته رجفة أمل ، وأخذ ينظر إلى الماغا بعينين ملتهبتين. فأحسّت الماغا بهذه المأساة المخيفة التي ينطوي عليها قلب الشاب ، فازداد تأثرها عليه وقالت : أتركني يا جياكومو . واتركني أنت أيضاً أيها الفارس ، وبعد ساعة يمكنك أن تعود فأقول لك إذا كان من الواجب أن تمضي لتسليم نفسك للموت .

وعندما أصبحت الماغا وحيدة قرفصت إلى الأرض قائلة في نفسها : لقد أنقذ روزيتا ، فهل هذا سبب كاف ؟ هذه الكلمات ردّدتها الماغا في أعماقها، ولقد زأر بها وجدانها زأرة رهيبة. وكانت تدور في ذهنها ضوضاء غريبة فتلمع فيه الأفكار وتضطرب . ثم

تتضح أحياناً بشكل أسئلة وتعجّبات صامتة : أجل ، لقد أنقذ روزيتا ! ولولاه لماتت روزيتا آخذة معها بقيّة الفرح التي تلمع أحياناً في جحيم نفسي. هذا صحيح حقاً ! ولكن هل أتخلّى بسببه عن ضرب رودريك؟ ماذا؟ ألم أعش إلا لأجل هذه النهاية؟ أأعيش طيلة ثلاثين سنة مغذّية في نفسي أمل الانتقام الذي كان يمنعني عن الانتحار ، ثم تأتي ثانية فتمحو ثلاثين سنة من العذاب المرير؟ أأعفو إذن عن رودريك ؟ كلا ! كلا هذا مستحيل ! فليمت هذا الشاب فهل يضرّني موته ؟

عند هذا السؤال الأخير الذي طرحته الماغا على نفسها وقفت وغطّت وجهها بيديها وأخذت تتمتم قائلة : روزيتا ! روزيتا ! لماذا أحببتكِ هكذا كثيراً ؟ ولماذا تُرى ينزف قلبي دماً عندما أفكر بأن الذي أنقذ حياتك سيموت ؟ وعندئذ نادت الماغا راكستان ليدخل إليها. وقد ذهل هذا عندما شاهد شحوب وجهها، ولكنه سمعها تقول : إبقَ هنا بسلام ، ولسوف أحاول المستحيل من أجلك . وإذا كان هناك وسيلة في العالم يمكنها إنقاذ بياتريكس فهي ما سأعمله في هذا المساء . لا تسألني شيئاً . ففي هذا المساء ستعرف إذا كان لك من أمل ترجوه .

وفي المساء راحت روزا فانوزّو تسير نحو القصر مفكرة بأنها ستدخل إليه بواسطة الراهب آنجيلو الذي سيقدّمها إلى رودريك بورجيا . ولقد رأينا كيف خدمتها الصدفة وكيف التقت برودريك على الشاطىء . وعندما انتهت مهمّتها قفلت عائدة نحو الكوخ ، ولم تكد تخطو مائتي خطوة حتى وجدت جياكومو ينتظرها هناك.

فدنت منه قائلة له: أدخل إلى القصر لتخبر رودريك بأن ابنه قيصر سيصل إلى كبريرا .

ـ سأخبره في أقلّ من ساعة يا سيدتي . هذا كل شيء ؟

ـ نعم هذا كل شيء الآن !

مجادلة عائلية

*

سنترك الآن روزا تعود إلى الكوخ لتطمئن راكستان بأنّ بياتريكس ستجد خلاصها، متتبّعين بورجيا العجوز إلى مقره حيث دخل بصحبة لوكريس بينما انسحب الراهب إلى غرفة مجاورة مقرراً ألا تفوته كلمة واحدة من الحديث الذي سيجري بين البابا وابنته. وعندما استقرّ البابا في مقعده ألقى على لوكريس نظرة مراوغة ثم تلفّظ دونما استعداد وبلهجة لامبالية قائلاً : لم تخبريني أن ابنة الكونت آلما هي سجينتك ؟

فلم ترتعش لوكريس لأنها كانت معتادة على التقنع بقناع اللامبالاة المطلق كلما وُجدت أمام أبيها ، ولكنها اكتفت بأن تقول : لم أكلمك عن هذه الفتاة يا أبي لأن لديك مشاغل كثيرة ، ثم لأنها قضية خاصة سأحلّها بيني وبينها ، ولقد كنت مصممة على الكشف لك عن مقاصدي في الوقت المناسب. فقال البابا: والآن، ألا تعتقدين بأن الوقت مناسب ؟ فقالت لوكريس : كلا يا أبي ،

لم يحن الأوان .

فأغلق البابا عينيه وقد فهم أن مقاصد لوكريس يجب أن تكون مخيفة . ولكن في هذه اللحظة قُرع الباب فتراكضت لوكريس مسرعة لتفتحه بالرغم من صيحة بورجيا العجوز الذي صاح قائلاً : : « لنتركك وحيدين ، يا للشيطان ! »

أما لوكريس فقد وجدت أمام الباب خادماً نقل إليها بأن خازنها جياكومو وصل من روما وهو يطلب أن يكلمها دونما تأخير : فقالت : قل له أن يأتي .

لفظت لوكريس هذه الكلمات بصوت منخفض وقد أغلقت الباب وراءها لكي لا يشاهد أبوها ما الذي يحدث . فأطلّ عليها جياكومو وقال : مررت ، وفقاً لأوامرك ، على القصر الضاحك لأجلب منه ما أمرتني به ، ولكنني وجدته ركاماً لأن رعاع الشعب قد أحرقوه . فلم يندّ عن لوكريس إلا آهة بسيطة ولم يفصح عن حنقها غير شحوب طفيف انتشر على وجهها . ثم سألته قائلة : ما وراءك من أخبار أخرى ؟ فقال : غبطة مولاي الدوق هو الآن في طريقه إلى كبريرا .

هنا لم تستطع لوكريس أن تمنع نفسها عن صرخة فرح قصيرة ثم شهقت قائلة : هل أنت متأكد من هذا ؟ قال : تأكداً تاماً يا مولاتي . قالت : إسمع يا جياكومو ، إنك تستحق على خبر مجيء قيصر السارّ عشرة دنانير ، فامضِ واقبضها لنفسك يا صديقي. آه، هذا الأخ العزيز ! لكم يسعدني حضوره !

وعندما سمع جياكومو بالعشرة دنانير رفع قامته مبتسماً

بغبطة ، فلاحظت لوكريس ابتسامته هذه وعادت فدخلت على أبيها . وعندما انسحب جياكومو كانت الابتسامة قد اختفت عن ثغره ، بل لقد همهم في نفسه قائلاً : أيتها الأفعى السامّة ! لقد دنت الساعة التي سنقتلع فيها أسنانك .

أما بورجيا العجوز فقد رأى ابنته داخلة وعينها لامعة ، فسألها قائلاً : لقد استلمت إذن خبراً سارّاً ؟ قالت : لربما يا أبي . ولكنني أرجو أن نستأنف محادثتنا من النقطة التي تركناها فيها. ولا يمكنك أن تتصوّر كم يؤنسني ويطربني أن أهتمّ بياتريكس هذه الصغيرة . فقال البابا العجوز متعجباً من الحقد الذي يجهر في النطق بهذه الكلمات : ماذا تراها فعلت لك ؟ قالت : هي ؟ لا شيء ! لقد قلت لك منذ برهة بأن الوقت لم يحن للافصاح لك عن مقاصدي المتعلّقة بابنة الكونت آلما ، ولقد كنت مخطئة . فالوقت قد حان للتحدّث بهذا الموضوع . ولكن من أخبرك بوجودها هنا ؟ قال : ستعرفينه بعد أن تشرحي لي سبب سجنك لها . فقالت لوكريس عندئذ بهدوء : إنك تستحقّ الإعجاب الذي كنت أكنه دائماً لسياستك ، وأنا كنت أحاول دائماً أن أنشأ على دروسك السياسية . ولقد ضربت لي أنت نفسك المثل : كانت الكونتيسة أونوراتا تزعجك ولكنك حذفتها من الوجود بمهارة ، وها هي ابنتها تزعجني وسأحذفها بدوري من الوجود ! قال : وإذا سألتك العفو عنها فماذا تقولين ؟ قالت : سأرفض هذا الطلب . قال : وإذا لم أسألك العفو عنها فقط بل أن تنال حريتها منذ نهار غد لكي تعود إلى إيطاليا ؟ قالت : أوتضحك يا أبي ؟! فقال البابا : وإذا

قلت لك بأن إنقاذ حياتي مرتبط بحريتها؟ فقالت لوكريس متعجبة: ماذا تقول يا أبي؟ قال: أصغي لي، لقد سمعت في روما عن ساحرة مسنّة بعيدة الشهرة يسمّونها الماغا . قالت : بلى ، بلغتني أخبار هذه المرأة . قال : هذه الساحرة التي كنت أحسبها فقط موهوبة ذكاء غريباً ، هذه الماغا قد تعلّقت بي – وإني أجهل لأي سبب – فأنقذت حياتي وساعدتني على مراقبة أعدائي ، ممّا جعلني أثق بها ثقة لا حدود لها . هذه الماغا هي هنا ولقد تكلّمت معي اليوم . قالت : تكلمت معك !؟ قال : أجل ، منذ قليل التقت بي على الشاطىء، وهذا يدلّ على أن حرّاسك يقصرون في القيام بواجبهم، لذلك فلن أخرج من القصر بعد الآن . ولقد كلّمتني الماغا وأنذرتني بأن حياتي مهدّدة بالخطر. فشحب وجه لوكريس وقالت: هذه أوهام خياليّة ! قال : أكرر عليك بأنني أثق بهذه المرأة ثقة راسخة ، لذلك فإنني متأكد من أن حياتي مهدّدة. ولكن أتعلمين ماذا قالت الماغا أيضاً ؟ قالت بأنني سأجد الخلاص إذا فكّت بياتريكس من أسرها .

وكانت لوكريس تصغي بانتباه لأبيها محاولة أن تستشفّ الدافع الخفيّ الذي يكمن وراء عمل الماغا . ولكنها انتهت إلى إقناع نفسها بأن الغاية من عمل الساحرة العجوز هي إيحاء ثقة أعمق للبابا بها . وإنه ليترتب عليها، هي لوكريس ، ألا تهدّم هذه الثقة المكتسبة ، لذلك فقد قالت : إنه من الممكن يا أبي أن يكون لدى المرأة بالنسبة لك الودّ الذي ذكرته. ولكنني أرى أن عاطفتها لك هي سبب انخداعها ، فاحفظ ثقتك بها ولكن اطمئنّ لأن

حياتك ليست عرضة لأيّ خطر .

إلا أن بورجيا العجوز هزّ رأسه وقال : أطلب إليك أن تفكي بياتريكس من أسرها . قلت لك إن الأمر متعلق بحياتي ، وما زلت تترددين ؟ فنهضت لوكريس عندئذ وقالت : لن أضحّي أبداً بمصالحي بسبب خيالات عجوز مجنونة مهما كان تودّدها لك واضحاً . إني أقسم لك بأن حياتك ليست معرّضة للخطر ، حتى وإن كان هناك مؤامرة عليك فسوف تتحطم هذه المؤامرة عند أسوار هذا القصر . ومن ثم فالجزيرة مكتظّة بجواسيسي ، والشواطىء مراقبة ويمكننا الحصار في هذا القصر طيلة سنة ، لأن تحصيناتنا متينة ولأن رجالنا مستعدّون للوثوب من أعلى هذه الصخور على العدوّ عند أول إشارة مني . وبالإضافة إلى ذلك فإن لدينا أسلحة كثيرة ومؤونة كافية سهرتُ سلفاً على إعدادها .

ففعلت هذه الكلمات فعلها في نفس البابا،ولاحظت لوكريس أن تغييراً أخذ يطرأ على تفكير أبيها الشيخ ، فتابعت قائلة : خذ مثلاً يا أبي، ألم يبلغ بك الأمر إلى الاعتقاد بوجود الأشباح فظننت أنك تبصر شبح الكونيسة أونوراتا عندما رأيت فقط ابنتها وهي تتنزه في الحديقة ؟ فتمتم البابا قائلاً : هذا صحيح ! قالت : إذن فلا خطر ماديّ عليك ولا خطر يفوق الطبيعة . والحقيقة هي أنه يجب أن تعود إلى روما وأنت قويّ في أوج سلطانك . ألم تفكّر مرّة بأن وجود رجل مصمّم يكفي وحده لدكّ أمبراطورية بكاملها ؟ هذا الرجل موجود الآن ، وهو وحده سبب الانهزامات التي ألمّت بنا . فقاطعها البابا قائلاً : إنه راكستان ، آه ، إنني

أكرهه كرهاً يجعلني أجازف بحياتي وبسلطتي في سبيل القبض عليه ! فارتعشت لوكريس من الفرح لأنها استعادت أباها إلى قبضتها ، ثم قالت بعزم : رغبتك هذه تحققت يا أبي . فقال : ماذا تقولين ؟ راكستان هو الآن سيّد مونتفورتي ! قالت : إنّ ما لم تستطعه أنت بسياستك وما لم يستطعه قيصر بسلاحه ، فعلته أنا ، ولكن بسياستي الخاصة وبسلاحي النسويّ . فقد ضربت راكستان في قلبه ، أو بالأحرى سأضربه بعد قليل . فصاح البابا يقول : إذا فعلت هذا يا ابنتي فإنني أغبطك لأنك بالحقيقة عبقريّة بيتنا. فقالت لوكريس بكبرياء قاتمة : بلى لقد فعلته ، وإنك ستفهم بكلمة واحدة . لقد عشق راكستان امرأة وهو يحبّها من كل نفسه . بل إنه يحبّها إلى درجة أنه سيموت في الدموع والغمّ واليأس إذا ضُرب في حبّه . أما هذه المرأة التي يحبها راكستان فهي بياتريكس ابنة الكونت آلما . فقال البابا : آه ، هذا رائع ! عظيم ! مدهش ! فقالت لوكريس : فبينما كان قيصر يهرب أمام الأعداء ، وبينما كنت أنت تستعد لمغادرة تيفولي بسرعة ، كنت أنا أفكر ، وكنت أقول في نفسي إن راكستان بالنسبة لبيتنا هو حبّة الرمل الصغيرة التي إذا وُضعت في كفّة الميزان تغيّر جهة التوازن . لذلك يجب سحقه مهما كلف الأمر .وهكذا قمت بالحرب على طريقتي الخاصة : فاعتقلت بياتريكس وجلبتها إلى هنا . هل فهمت يا أبي ؟ أما زلت تطالبني بفكّ إسارها ؟ فقال البابا : كلا ، يا الشيطان ! حتى وإن هدّد حياتي خطر حقيقي ! أن أنتقم من راكستان ، آه لن أستبدل هذه اللذة بأجمل مقاطعة في إيطاليا ! ولكن ماذا

ستفعلين بهذه الصغيرة ؟ فلسوف يبحث عنها هذا الرجل ، ولربما وجدها ؟ فقالت لوكريس بابتسامة ظافرة : لن يبحث عنها طويلاً لأنني سأبعث بها إليه . فقال: لا أفهم ماذا تقولين. قالت: سأبعث بها إليه مدنّسة ، ملطّخة بالعار !

فارتعش بورجيا العجوز من الهلع ، وتابعت لوكريس قائلة : سيكون قيصر هنا غداً . رويدك يا أبي ! أعلم أنك تضمر بعض المخاوف منه لأنه قادر على جميع الجرائم . ولكن قيصر يفكر ، ولا يجهل أنك إذا متّ سينهار سلطانه هو أيضاً . فلا خطر عليك منه إذن لا سيما في هذا الظرف بالذات حيث السلطة البابوية وحدها تستطيع إخضاع الرومانيين إلى الطاعة . فقال البابا : هذا صحيح ! فتابعت لوكريس قائلة : سيأتي قيصر غداً . وغداً ستكون ابنة الكونت آلما محظيّة قيصر الذي يشتعل اشتهاءً لها. فليأت راكستان لطلب خطيبته إلينا، فلن نعيدها إليه إلا خرقة حية. ألا تمثّل يا أبي في مخيّلتك لقاء هذين العشيقين المقبل ، فهل تتصوّر شناعة الخجل الذي سيستولي على الأولى وفظاعة اليأس الذي سينقضّ على الآخر؟ فقال البابا : كفى يا ابنتي كفى ! إنك جديرة بأن تكوني ابنتي !

هنا انسحبت لوكريس ، ولكنها لم تمرّ في الغرفة التي قابلت فيها جياكومو ، بل دارت إلى حجرة أخرى يفتح بابها الآخر على ممشى . ولقد اجتازت هذه الحجرة مسرعة لظنّها بأن أحداً كان فيها. ولكنها لم تجد أحداً . ففتحت بسرعة الباب الآخر وتطلعت إلى الممشى ، فلمعت عيناها ببريق ارتياح لأنها شاهدت عند طرفه شبحاً يختفي بسرعة. ولقد عرفت أن هذا الشبح هو الراهب آنجيلو.

وعندما وصلت إلى الردهة الصغيرة حيث كانت تدخل عادة أرسلت في طلب الراهب الذي أقبل مسرعاً ، فقالت له في الحال : يبدو لي أن عجوزك الساحرة تتأخر بتنفيذ عملها ! فقال الراهب : أنا بانتظار أوامرك . قالت : أسرع إذن ! هل أنت متأكد من أنها ستنفّذ العمل؟ قال : نعم يا مولاتي. فقالت : حسناً ! ولكن إذا أظهرت رغبة بالانتظار يوماً أو يومين فما عليك إلا أن تعيد على مسمعها المحادثة التي جرت بيني وبين أبي . فقال الراهب : أية محادثة يا سيدتي ؟ قالت : المحادثة التي سمعتها من الحجرة . إياك أن تظهر بمظهر الطفل يا عزيزي آنجيلو . وامض الآن !

القرار الحاسم

*

لم يكن الراهب آنجيلو هو الوحيد الذي فاجأ المجادلة العائلية الطريفة التي شهدناها منذ قليل ، فقد سمعها جياكومو أيضاً ، ذلك أن خازن لوكريس كان يعرف جميع زوايا القصر ومخابئه . ولما كانت مهمته مراقبة لوكريس فقد تسلل إلى مكان خفيّ وراح يسترق إليها السمع والبصر . وكان جياكومو أحد الوشاة العديدين الذين كانت لوكريس توزّعهم في أنحاء القصر ليعودوها بكل شاردة وواردة ، لذلك استطاع جياكومو بالطريقة التي ذكرناها أن يستمع إلى المحادثة التي جرت بين البابا وبينها .

وكانت الساعة قد دنت من نصف الليل عندما وصل الراهب إلى كوخ الصيّاد ، وبعد لحظات كان بحضرة روزا فانوزّو التي لم تظهر أية دهشة لمشاهدته في مثل هذه الساعة من الليل ، وذلك لاعتقادها بأنه سيحاول معرفة ما قالته لبورجيا على الشاطىء . ولكن الراهب آنجيلو كان له هو الآخر سياسته الخاصة ، لذلك فقد قال فجأة : لقد حانت ساعة العمل أيتها الماغا . فقالت : كلا ، يجب أن ننتظر يومين لأنني لست مستعدّة . فقال : أتريدين أن تري ما إذا كان بورجيا العجوز سيعمل على إطلاق سراح ابنة الكونت آلما وفقاً لقسمه لكِ ؟ قالت : ولكن كيف عرفت ذلك !؟ فلم يجب الراهب على سؤال الماغا ولكنه تابع قائلاً : لقد خدعكِ الشيخ ، وبياتريكس لن تنال حرّيتها بل ستخضع للتعذيب الذي حكم به عليها . فاكمدّ وجه الماغا لأن الراهب كان يتكلم بلهجة واثقة ، ولقد كان واضحاً أنه يعرف الحقيقة ويقولها. إذن لقد قضي على بياتريكس ! إلا أن الساحرة العجوز أعادت سؤالها قائلة : كيف عرفت ذلك ؟

فقصّ الراهب عندئذ المشهد الذي حضره خفية . وعندما انتهى من حديثه ظلت الماغا صامتة وآنجيلو ينتظر بقلق عصبيّ . إلى أن قالت أخيراً : سأنفذ العمل غداً مساء ! قال: ومتى تريدين الدخول إلى القصر ؟ قالت الماغا : منذ هذه الليلة . فهل يمكنك إخفائي طيلة نهار غد؟ فقال الراهب آنجيلو : هذا أمر سهل ، تعالي معي.قالت: كلا ، سأكون على باب القصر بعد ساعتين لأن لديّ استعدادات سأنجزها . قال : سأنتظرك هناك لمرافقتك . قالت : حسناً ،

اتركني الآن وحيدة .

فانسحب الراهب آنجيلو . وظلت روزا طائشة شاردة اللب لأن رودريك قد ادّخر لها هذه الخيانة الأخيرة بالرغم من أنها عفت عنه متنازلة عن انتقامها . وماذا طلبت منه بدلاً عن ذلك ؟ لقد طلبت حياة فتاة بريئة . ولكن بورجيا أبى إلا أن يفتك بالفتاة البريئة لكي يسدّد ضربته إلى راكستان . آهٍ ، يا للرجل اللعين ! ستموت بياتريكس ، ولكن الرجل اللعين سيهلك أولاً !

ثم عبرت الماغا إلى قبو راكستان ، فدلّها سباداً كاب على الفارس النائم الذي تسرّبت الطمأنينة إلى ذهنه بعد أن قالت له الماغا : ستنجو بياتريكس .

ورفعت الماغا يدها كأنها تريد أن تلمسه ، ولكن في هذه اللحظة بالذات حيث كانت المرأة العجوز تهمّ بإيقاظ راكستان من رقاده ، دخل شخص إلى غرفتها : إنه جياكومو الذي جاء لمقابلتها. وعندما رآها تمتم قائلاً : توجد أشياء خطيرة بالنسبة لهذا الشاب ، فقد قرّر بورجيا العجوز التضحية بالكونتيسة بياتريكس . فقالت الماغا : عرفت ذلك ، لأن الراهب أخبرني كل شيء . فقال جياكومو : يجب إنذار الفارس بالأمر . فقالت الماغا : ولكن يا للأسف ! هل تساعدني قوّتي على ذلك ؟

وكان سباداكاب يسمع هذه الكلمات ، فقام عن سريره وأوما إليهما أن يتبعاه . وعندما أصبحوا في غرفة الماغا سألها عن حقيقة الأمر ، فأخبرته الماغا بكل شيء . فكان من رأيه هو أيضاً إنذار الفارس ، لذلك فقد عاد إلى غرفته وربّت على ذراع الشاب النائم

قائلاً له: المرأة العجوز يا سيدي تريد أن تكلمك. فصاح راكستان في الحال : ويلاه ! هل وقعت المصيبة ؟ فقالت الماغا وهي داخلة يتبعها جياكومو : لم تقع المصيبة بعد ، ولم نيأس حتى الآن . فقال راكستان : هذه كلمات باطلة ، أخبريني الحقيقة . قالت: إليك ما تريد : كان بورجيا العجوز قد أقسم لي بأن يطلب من ابنته إطلاق سراح خطيبتك ، ولكنه نكث بوعده وخان قسمه . ولسوف يكون عقابه قريباً . ولكن الأمر يصيبك أنت يا صديقي التعس!

فزمجر راكستان بلعنة حانقة رافعاً قبضتيه المشنّجتين نحو السماء في نوبة مضنية . ولكن بقية من ضياء لم تبارح ذهنه ففهم أنه إذا استسلم لليأس والغضب فقدَ عقله . لذلك فقد تماسك قائلاً بصوت هادىء بالنسبة لفورته الأولى : إروي لي كل شيء . فروت الماغا باختصار مقابلتها مع بورجيا والأخبار التي جلبها الراهب آنجيلو والتي أكدها جياكومو ، إلى أن قالت : لقد عملت ما في وسعي لإنقاذكما أنت وحبيبتك ، وهذا ما لم أكن لأفعله في سبيل إنقاذ حياتي الخاصة . يا للضحيتين البائستين ! إنكما الآن في قبضة القدر ، وسيسحقكما بورجيا سحقاً !

هنا كان راكستان يبكي خافض الرأس . وكان المشهد مؤثراً، مشهد الدموع الجارية صامتة على وجه هذا الشاب الذي كان يبدو عليه أنه مخلوق للفرح والسعادة . وتابعت الماغا قائلة بتأثر شديد : ولكنني سأنتقم لكما ، سأنتقم لكما معاً ! هذا ما أقسم عليه لكما. ولكن يا للأسف هل يستطيع الإنتقام أن يعيد إليكما السعادة ؟

فرفع راكستان رأسه وقال : أشكركِ يا سيدتي على الشفقة

التي تظهر في كلماتك . إنه ليؤنسني أن أشعر بهذا العطف عليّ قبيل الساعة التي سأموت فيها . قالت : أما زلت مصمماً على تنفيذ خطتك التي سيتبعها الهلاك المحتم ؟ ألا تستطيع الانتظار إلى نهار الغد ؟ قال : سأحاول الانتظار إذا كان يفيدك شيئاً يا سيدتي، فأنا في هذه اللحظة لا أستطيع أن أخيّب لك مطلباً. ولكن سيكون هذا آخر ما تتحمّله قواي. فقالت الماغا: إنني أشكرك، فتدخّلك قد يحيط مشروعي الذي سأنتهي من تنفيذه غداً عند المساء !

ثم قالت بعد أن ترددت قليلاً : ألا تريد معانقتي يا بنيّ ؟ إني أطلب هذا منك لأنني أنا أيضاً سائرة إلى الموت .

ولم يقل راكستان كلمة واحدة بل ارتمى بين ذراعي الماغا الممدودتين . عندئذ أخذت هذه المرأة العجوز تصعد الدرج دون أن تنظر إلى الوراء ، وبعد لحظات كانت تتوغل في الليل متجهة نحو القصر المشؤوم . أما راكستان فقد استدار نحو جياكومو وقال : غداً سأحاول اقتحام بوّابة القصر فما هي الساعة الملائمة لذلك ؟ فقال الشيخ الصغير الذي كان وجهه الشيطانيّ ينبىء باضطراب غريب : إسمع ، أوتريد الحضور إلى باب القصر ؟ ولكنك سوف تموت قبل اجتيازه ! فقال راكستان : هل لديكَ طريق أخرى تقترحها عليّ ؟ قال : سأنظر في الأمر. ولكن لنتفق الآن على ساعة محدّدة . قال راكستان : كل شيء مرتبط بساعة قدوم قيصر ، والمهمّ أن أدخل إلى القصر قبل وصوله . قال جياكومو : سيصل قيصر عند منتصف الليل ، فهل توافقك الساعة العاشرة ؟ قال : لتكن الساعة العاشرة . قال جياكومو : إذن في

هذه الساعة ، بدلَ حضورك إلى بوّابة القصر ، إصعد إلى صخور الشاطىء ، في المكان الذي ينقطع فيه خندق المياه ، وحيث ينحني السور مباشرة فوق الصخرة : فإذا لم ترَ شيئاً فمعناه أنني لم أستطع عمل شيء ، عندئذ تصرّف كما ترى موافقاً ! وإلى اللقاء غداً عند الساعة العاشرة .

واختفى جياكومو . وعندما أصبح راكستان وحيداً شاهد سباداكاب يصقل بنشاط السيوف والخناجر . ففكّر أن يسرّح خادمه الأمين ، إذ كيف يجوز له أن يزجّ به في هذه المعركة التي هي انتحار مقنّع ؟ لذلك ناداه قائلًا : ماذا أراك تفعل ؟ قال : إنني يا سيدي أصقل أسلحتنا لإعدادها لمعركة الغد . قال : ولماذا تكلف نفسك هذا الجهد ؟ فأجاب سباداكاب قائلًا : ما دمنا يا سيدي سنموت غداً ، فإنني أريد أن نموت ميتة نظيفة .

مركب في عرض البحر

*

مرّ النهار التالي على راكستان وكأنه قرن بكامله لشدّة القلق والغمّ . ولقد قضى ليلته خارج غرفته دون أن يغمض له جفن ، ذلك أنه منذ مغادرة جياكومو له كان قد سار نحو الشاطىء حيث جلس على حجر منتظراً قدوم النهار . وعندما حصحص الفجر وانبلج في سماء صافية ، كان غارقاً في استعراض حياته الماضية كما

يفعل الرجال عادة قبيل ساعاتهم الأخيرة . وكانت تذكاراته تعود إلى ذهنه الواحد تلو الآخر ، ولكنها كانت جميعها تنتهي إلى رؤيا صبيّة بيضاء الرداء تقترب منه وتهتف به قائلة : رحماك يا سيدي أغثني !

وظلت الساعات تتساقط متباطئة إلى أن أقبل المساء ، وكان راكستان ما يزال جالساً في مكانه . وإذا بصوت يطرق سمعه فجأة وينتزعه بعنف من تأملاته الحالمة الأخيرة . قال الصوت : أترى الشراع الصاعد هنالك في الأفق ؟

فوثب راكستان واقفاً على رجليه متطلعاً إلى الرجل الذي طرح عليه هذا السؤال بلهجة لامبالية ، فعرف أنه الصياد الذي يضيفه في كوخه . عندئذ زجر قائلًا : ماذا تقول ؟ شراع في الأفق ؟ إنه هو !

فتراجع الصياد إلى الوراء مذهولاً ومذعوراً من سيماء الغضب الملمّ بالفارس . وقد لاحظ راكستان هذا الرعب الذي أوحاه للصياد فقال له حزيناً : أعذرني أيها الرجل الطيّب . فأنا لا أدري ما أعمل لأنني رجل شقيّ ! فقال الصياد متلعثماً : هذا لا يهمّ ! هذا لا يهمّ !

عندئذ أخذ راكستان يسير على الشاطىء جيئة وذهاباً متسائلًا في نفسه : من يستطيع أن يثبت أن هذا المركب إنما يحمل قيصر بورجيا ؟ لعلّه مركب غريب يعبر في عرض البحر ؟ إلا أن الصياد صاح قائلًا : جوّجوّ المركب متجه إلى كبريرا . إنه قادم من أوستي كما سترى .

فأدار راكستان رأسه ، إذ ما يفيده أن يرى أو أن لا يرى ؟ فالمركب قادم من أوستي ماخراً إلى كبريرا ، وهو يُقلّ قيصر ! وسيكون قيصر بعد ساعات في القصر ! وبعد ساعات سينفّذ العمل الشنيع في الضحية البريئة ! هنا عاد نحو الصياد تجذبه قوة لا تغالب ، فشاهد المركب من جديد وبصورة واضحة . فقال له الصياد : إنها سفينة ضخمة . إلا أن راكستان سأله قائلاً : كم من الوقت سيستغرق وصولها إلى الشاطىء ؟ قال الصياد : لا أدري لماذا لا يبسط هؤلاء الناس جميع قلوعهم ؟ قد تكون رغبتهم النزول إلى الجزيرة في ساعة متأخرة . وإذا تابعوا سيرهم هكذا فلن يصلوا إلى كبريرا قبل منتصف الليل . فسأله راكستان قائلاً : منتصف الليل ؟!

ـ طبعاً ! أنظرهم كيف يطوون قلوعهم متباطئين . ولكنني أراك يا سيدي مهتماً بهذا المركب ؟ فقال راكستان : نعم ، لأنني منتظر قدوم صديق .

فمسّى الصياد ضيفه وانسحب تاركاً راكستان على الشاطىء معلّق العينين بالمركب . وأقبل الليل بعد قليل فلم يعد راكستان يبصر شيئاً ، فإذا بسباداكاب يتمتم إلى جانبه قائلاً : إنها الساعة التاسعة يا سيدي .

فبدا على راكستان أنه يستفيق من حلم طويل ، والتفت إلى صاحبه وقال بلهجة مختصرة : هيّا بنا !

*

وفي الواقع فقد كان المركب المتهادي في عرض البحر يقلّ

قيصر بورجيا الذي كان مسارعاً إلى كبريرا مدفوعاً بشغفه لبياتريكس التي طالما اشتهاها وتألم بسببها ، والتي خفق قلبه من أجلها ، والتي أشعلت حنقه وانتزعت صوابه فشهر حرباً لكي يستولي عليها ولكنه اندحر في هذه الحرب . وفي الأيام التي تتالت بعد كارثة « معبر الجحيم » شعر قيصر بورجيا بشغفه يتضاعف أكثر فأكثر ، وأحس بصورة بريفيرا تستبد بأفكاره حتى غدا من المستحيل عليه أن يفكر بغير « حبه » لها .

وفي مساء أحد الأيام سمعه الحراس الواقفون دائماً أمام خيمته يحاور جثيراً حقيقياً ، ذلك أن بريداً خاصاً قد وصل إليه . وبعد خمس دقائق كان قيصر يثب إلى صهوة حصانه ويجري في طريق أوستي . وعندما صعد إلى السفينة التي استأجرها أخذ يُعيد أكثر من مائة مرة قراءة البرقية التي وصلته من شقيقته لوكريس بورجيا والتي تحتوي هذه الكلمات : « ماذا ، أوَتنتظر للقدوم إلى كبريرا فرار بياتريكس الجميلة من القصر الذي أسجنها فيه ؟ »

ولشدّ ما أخذت شهوته تضطرم الآن لتأكده من أنه يستملك الصبيّة الحسناء ، ولأن حبه كان ممزوجاً بغضب هائج حيال جميع المصائب التي نتجت عنه . لذلك فإن كل صلجة ستكون بمثابة انتقام ، وكل صلجة بمثابة عضّة ثأر ! وعندما أطلّ المركب على كبريرا أمر قيصر بتخفيف سرعته لأنه كان لا يريد النزول إلى الجزيرة إلا تحت جناح الظلام . وكانت الساعة العاشرة عندما قفز ابن البابا إلى الشاطىء معيداً الزورق الذي نقله من السفينة . ولقد كان وحيداً ، فشرع يركض نحو باب القصر دائراً حول

الأسوار . وبعد ربع ساعة كان أمام لوكريس التي صاحت قائلة : أخيراً هذا أنت !

فتفحصها قيصر بانتباه ، فرآها شاحبة بل باهتة اللون . وبعد أن ألقى حوله نظرات دامية سأل بصوت مختصر أجشّ يقول : أهي هنا ؟ قالت : ستراها بعد قليل .

وهكذا ، بين الشقيق وشقيقته لم تُلفظ كلمة ترحيب واحدة، لأنهما كانا يجتمعان على الجريمة التي فيما عداها ينتهي بينهما كل شيء . هنا قالت لوكريس : ستراها ، تعال ! فقال قيصر : ولكن لماذا ترتجفين ؟ قالت : ما عليك ، تعال !

فأمسكها بقبضتها مصمماً أن يقتلها إذا تحقق الظن الذي هجس في ذهنه . وقال : أين هي ؟

فأمسكت لوكريس يد قيصر وقادته . وعندما وصلت أمام باب وقفت لاهثة وقالت : إنها هنا . إذا قاومتك اقتلها . وإذا لم تقتلها فسأقتلها أنا ! هيّا ادخل .

كوب الذهب وكوب الفضة

*

كانت روزا فانوزّو في الليلة السابقة قد وصلت إلى قرب بوابة القصر نحو الساعة الثالثة صباحاً . وإننا لنذكر أن الراهب آنجيلو كان سينتظرها هناك . وعندما أصبحت أمام الباب خرج شبح من

جبّ كثيف واقترب منها : إنه الراهب آنجيلو الذي ألقى عليها معطفاً فضفاضاً وقال لها: تعالي، الأميرة لوكريس تريد مخاطبتك.

فتبعت روزا الراهب الذي أدخلها إلى غرفة خفيفة النور وتركها هناك . وبعد بضعة دقائق ظهرت لوكريس ، فكان نظر الوالدة إليها عميقاً جازماً. في هذه اللحظة أخذت الماغا تمتحن نفسها فوجدت أن قلبها ما زال كقطعة من جليد ، لأن كل شعور كان قد مات في نفسها فأضحت الآن ناضجة للجريمة . أما لوكريس فقد تفحصت المرأة المجهولة بفضول شديد ثم سألتها قائلة : أنت مستعدة؟ قالت: أنا مستعدّة .

قالت لوكريس : ومتى ستنفذين ؟ فقالت الماغا : يجب أن أراه أولاً وأن أتحدث إليه . لا تخافي ، إنني أعرف وسيلة التودّد إليه . قالت : لا يمكنك رؤيته إلا غداً . قالت : يجب أن أدخل عليه فجأة دون أن يعرف . قالت لوكريس: إنه ينزل إلى الحديقة كل صباح ، فيمكنك الإفادة من هذه الفرصة . قالت : إذن إلى صباح الغد. وبانتظار أن يحين ذلك اتركيني الآن. قالت لوكريس: كما تشائين . وسأعود لأخذك في الساعة المناسبة .

هنا خطت لوكريس بضع خطوات . ثم إذا بها تعود فجأة إلى روزا وتسألها بصوت منخفض مرتجف : ما السبب الذي يدفعك لقتله ؟ فرفعت روزا فانوزّو رأسها وأجابت قائلة : وأنت ؟ فاقشعرّت لوكريس ومضت دون أن تجرؤ على الإجابة ، ولكنها تمتمت في نفسها قائلة : إنني مجنونة ، وأشعر أنني أصبحت عصبيّة . ولكن تُرى ، أين سمعت صوت هذه العجوز ؟

أين سمعتْ صوت هذه العجوز ؟ لقد أخذ يخيّل إليها أن هذا الصوت يثير في نفسها ذكريات مختلطة عن بستان مهدّل مليء بالبرتقال ، حيث ترتفع ضحكات أطفال يمرحون إلى جانب امرأة رائعة الحسن جالسة في ظلّ شجرات كبيرة .

أين تُرى سمعتْ هذا الصوت ؟

وظلّت تفكر بهذا طويلاً . وعندما لم تتذكر شيئاً نزعت هذه الفكرة من رأسها . وفي تلك الليلة لم تأوِ لوكريس إلى سريرها بل ظلّت تنتظر قدوم النهار بفارغ صبر . وأخيراً قدم النهار بصباحه الذي أطلّ . غير أن البابا لم ينزل إلى الحديقة، ذلك أنّ بورجيا العجوز كان يتأهّب للسفر مصدراً أوامره منذ الساعة الرابعة بإعداد ما يترتّب ليستطيع الإبحار متى يشاء. إلا أنه عند الساعة الثامنة قال لآنجيلو: أريد أن أتنزه مرّة أخيرة بين الأزهار التي طالما أحببتها .

ثم نزل إلى الحديقة وراح يداعب بطرف أصابعه الأزهار التي كان يحبّها أكثر من سواها . إلا أن نفسه كانت تتصوّر المشهد المخيف الذي تعدّه لوكريس لغريمتها ، وهو سلبُها براءتها وعفّتها ثم قتلها ! وعندما فكر بالعذاب الذي سيعانيه راكستان انبلجت ابتسامته وقال للراهب آنجيلو : ما أروع هذه الأزهار ! وما ألذّ أن يحيا الانسان !

أما روزا فكانت قد قضت هذا النهار صامتة صابرة في الغرفة التي تركتها فيها لوكريس . وفي المساء قبل الساعة الثامنة بقليل فتحت لوكريس عليها الباب بغتة وأومأت إليها أن تتبعها . وبعد

لحظات كانت الاثنتان معاً في غرفة البابا . هنا قالت لوكريس : ما زلتِ مصممة على التحدّث إليه ؟ قالت الماغا : هذا ضروري ! قالت : هل تكونين مسؤولة عن كل شيء ؟ قالت : إطمئني... سيموت والدك .

فاقشعرّت لوكريس واصفرّ وجهها . إلا أنّ روزا سألتها قائلة : لا شك أنه معتاد أن يشرب قبل النوم ؟ قالت لوكريس : نعم ، نبيذاً مقوّياً .

في ذات الوقت كانت لوكريس تشير إلى خزانة صغيرة «هو» وحده يملك مفتاحها ، أو على الأقل كان يعتقد كذلك . فقالت روزا : أعتقد أنك تستطيعين فتحها ؟ فأخرجت لوكريس من ثوبها مفتاحاً صغيراً وفتحت وهي تهتف قائلة : أسرعي. فتفحّصت روزا داخل الخزانة التي كانت تضمّ ما عدا المؤونة ، ما يقرب من اثنتي عشرة قنّينة من النبيذ الخاص الذي كان الشيخ يشرب منه كل مساء قبل النوم قرابة إصبع بإصبعه. وكان يوجد على أحد الرفوف كوبان أحدهما من الذهب والآخر من الفضّة، وكان البابا يستعمل دونما تمييز الواحد أو الآخر . فأمسكت روزا فانوزّو كوب الفضة وأخذت تنظر إليه ، فقالت لها لوكريس : هيّا أسرعي ! فهزّت الماغا العجوز كتفيها ثم بحثت في صدرها وأخرجت منه مربّعاً صغيراً من رقّ محمرّ وقالت: هذا هو السمّ . فعندما تُفرك حافة الكأس بهذا الرقّ يعلق على الفضة غبار لا يمكن لمسه، وهو يلتصق بالمعدن ولا يسقط عنه حتى إذا مُسح بشدّة . أما من يضع شفتيه على حافة الكوب فهو لا محالة ميت .

هنا قدمت روزا للوكريس كوب الفضة ومربع الرق المحمر.

فتراجعت لوكريس مرتعبة وتمتمت قائلة : أتريدين أن أضع السم بيدي ؟ قالت: العدالة تقتضي أن تفعلي . وإنه لمن العدل أن يموت بيد ابنته . ماذا ؟ هل أنت خائفة يا لوكريس؟ فقالت لوكريس: أصمتي أيتها الشقيّة ! قالت الماغا : خذي إذن كوب الفضة هذا إذا كنت تريدين ألا يسمعنا أحد ، وامسكي قطعة السمّ هكذا ، أجل هكذا ... وافركي الآن ... أفركي أيضاً . حسناً يا ابنتي ، ما أبرعك ! يجب أن تتذكري نفسك في المستقبل وأنت تسممين كوب الفضة الذي ستقع على حافته شفتا والدك !

وكانت لوكريس تفعل ما تقوله لها روزا فانوزّو ، ولقد انتبهت انتباهاً غامضاً إلى أن الساحرة قد دعتها ابنتها . وعندما انتهت من عملها أخذت روزا كوب الفضة من يدها وقالت لها : يكفي ! امضي الآن ، فالباقي يتعلق بي أنا .

فخرجت لوكريس متراجعة إلى الوراء وهي مصفرّة الوجه مصطكّة الركبتين. وعندما أصبحت روزا فانوزّو وحيدة أعادت كوب الفضّة إلى المكان ذاته الذي أخذته منه . ثم حركت كوب الذهب قليلاً من موضعه . وبعد أن دفعت باب الخزانة الصغيرة دون أن تغلقه تماماً ، اتجهت إلى حجرة متصلة بغرفة البابا فجلست هناك وأخذت تنتظر . وفجأة إذا بها تنتصب واقفة لأنها سمعت كلاماً في غرفة رودريك بورجيا ! ولقد أعارت أذنيها لكي تستمع إلى هذا الكلام .

*

أما المتكلم فإنه رودريك بورجيا ذاته الذي كان عائداً إلى غرفته بعد أن انتهت نزهته . ولقد كان في هذه الساعة مرح الخاطر هنيّ الفؤاد ، بعد أن تبدّدت جميع مخاوفه ولم يبقَ له من شاغل سوى عودته المقبلة إلى روما حيث سيستأنف سير فتوحاته الطبيعي بعد أن يتخلص من راكستان .

بهذه الأشياء كان يحلم بورجيا العجوز وهو يتهيأ للاستراحة في سريره . ولقد تحدّث مع آنجيلو عدّة دقائق أيضاً ثم أمره أن ينصرف . وعندما أصبح وحيداً دنا من الباب فأقفله على دفعتين مراقباً غاله بعناية . ولم يكد يدور على نفسه حتى أبصر روزا فانوزّو واقفة في وسط غرفته ! ويا لذهول هذا الشيخ الذي منعه ذعره عن أن يطلق حتى صرخة واحدة! أما الماغا فقد راحت تنظر إليه بوجه هادىء حتى اطمأنّ قليلاً واستطاع أن يتمتم قائلاً : ماذا جئت تعملين هنا ؟ فقالت : جئت لإنقاذك أيها السيد . فصاح البابا وقد استعاد روعه قائلاً: لإنقاذي؟ ولكن كيف استطعت الدخول إلى هنا ؟ فقالت : دخلتُ إلى القصر متذرّعة بأن لديّ جواهر مختارة أودّ أن أعرضها على لوكريس . وكنت أنت في الحديقة فاستفدت من الفرصة للتسلل إلى هذه الحجرة حيث انتظرتك.

فارتعش البابا لأنه لو كان هنالك قاتل لكان باستطاعته أن يفعل ما فعلته الماغا . إلا أنه قال : ولماذا لم تطلبي رؤيتي في

الحديقة ؟ قالت : لأنّ مثل هذا العمل يثير انتباه القاتل . قال : القاتل ؟ إنه إذن داخل هذا القصر ؟ قالت : وهل كنت تراني هنا لو لم يكن الخطر مداهماً وقريباً جداً ؟

لفظت الماغا هذه العبارة ذات الوجهين بلهجة غريبة ، ولكن البابا العجوز لم ينتبه لها لشدّة ذعره ، ثم ما لبث أن قال : أريد أن أصرخ وأنادي الحرس وآمرهم بالتفتيش في كل مكان !

ثم اتّجه نحو الباب ، فأوقفته الماغا بإشارة منها وقالت بلهجة جادّة ارتجف لها بورجيا : إيّاك أن تصرخ لأن الموت هو الذي سيقبل لنجدتك ! فقال مذعوراً : ماذا تقصدين ؟ بالله عليك ! قلت إن القاتل داخل هذا القصر ، فهل يريدون قتلي ؟ اجلسي أيتها الماغا الطيّبة ، لا شك أنك أردت إنقاذي كما كنت تفعلين دائماً ، ولكن أخبريني بكل شيء أيتها الماغا الطيّبة . ولما رأته الماغا في الحالة الذهنية التي كانت تريدها ، أي شارد اللبّ من الهلع غير قادر على التفكير ، تابعت قائلة : أردت أن أنقذك هذه المرة أيضاً لأنني أريد مهما كلّف الأمر إنقاذ ابنة الكونت آلما التي أقسمتَ لي بالعمل على إطلاق سراحها . فقال : تماماً كما تقولين . ولولاي لكانت بياتريكس قد لاقت حتفها . إن قسمي لشيء مقدّس . هيّا تكلمي إذن ! فأخذت الماغا بورجيا العجوز بيده وقادته أمام الخزانة الصغيرة التي تحتوي على الكوبيْن الذهبي والفضي . فصاح البابا عندئذ متعجباً : إنها مفتوحة ! من الذي فتحها ؟ قالت : الراهب آنجيلو . قال : هو ؟ لقد سمّم النبيذ الذي أشربه ، أليس كذلك ؟ فهزّت الماغا رأسها وقالت : أنظر إلى الكوبين أيها السيد . فصاح

بورجيا قائلاً : لقد لمسوا كوب الذهب ! فأنا ألاحظ دائماً مكان الكوبين الحقيقيّ ... كوب الفضة لم يُلمس ولكن كوب الذهب هو الذي تغيّر . آه ، إنني أعرف الآن لماذا رأيته شاحب اللون . لقد تركني ثم عاد إليّ كامد الوجه . قالت : لقد سمّم كأس الذهب على أمل أن تستعمله في هذا المساء أو غداً .

فأخذ البابا يرتجف كمن أصيب بالبرداء ، وأخذت أسنانه تصطكّ اصطكاكاً مخيفاً . وبعد إطراقة قصيرة صرّ بأسنانه قائلاً : هل أنت متأكدة من أنه لم يسمّم النبيذ بكامله أو الكوبين معاً ؟ فابتسمت الماغا وأخذت كوب الفضة وتناولت قنينة نبيذ ، وملأت الكوب حتى ثلثيه ، ثم أفرغته ببطء في فمها حتى النقطة الأخيرة قائلة للبابا : أرأيت أن النبيذ غير مسمّم ؟ لقد سمّم الراهب آنجيلو كوب الذهب فقط .

هنا تناول الشيخ بعصبية القنينة التي أمسكتها الماغا فوضعها على الطاولة ، ووضع إلى جانبها الكوبين ، وأخذ يضحك ضحكة شرسة . ثم غمغم قائلاً : ستَرين ! إختبئي في الحجرة لترى الدور المضحك الذي سألعبه مع آنجيلو .

فاتّجهت روزا فانوزّو نحو الحجرة بقدمين متصلّبتين ، بينما راح البابا يدقّ جرسةً صغيرة دقّات متتالية . وعندما تراكض الحاجب أمره قائلاً : ليأتِ قارئي إليّ ! وبعد لحظات ظهر آنجيلو ، فقال له البابا : ناديتك يا ابني آنجيلو لتشرب معي قليلاً من هذا الخمر . فتمتم الراهب متلجلجاً وقد صعد الدوار إلى رأسه ، قال : رحماك أيها الأب الأقدس ! فقال البابا ساخراً : ما بك ؟ أريد أن

أشرب نخبك وأن أكرّمك فأسقيك بالكاس الذهبية. هيّا خذها.
فبلغ الرعب من الراهب حدّه الأقصى ، وهو منذ دخوله إلى غرفة البابا أخذ يرتجف ويردّد في نفسه قائلًا : « لقد خانتني الماغا ، وسأموت ! » ولقد انغرزت هذه الفكرة في ذهنه بسرعة صاعقة وسرعان ما أكّدها تصرّف البابا الذي أخذ يصبّ نبيذاً في الكوبين ، ثم دفع الكوب الذهبيّ نحو آنجيلو وأمسك بالكوب الفضيّ وقال : اشرب ! فارتمى الكاهن على ركبتيه وزفر قائلًا : عفوك يا مولاي ! قال : ماذا ؟ أتراك جننت ؟ قال الراهب : بل إنني شابّ ولا أريد أن أموت . قال البابا : هل تموت إذا أخذت قليلًا من الخمر ؟ أنظر ...

وهنا رفع بورجيا العجوز كأسه الفضية عالياً ثم أفرغها في جوفه متمهلًا وكأنه يتذوّق بلذّة خمرتها الجيدة ، وعندما انتهى قال بلهجة صارمة : اشرب الآن ! قلت لك اشرب !

فأخذ آنجيلو الكاس الذهبية وأطبق عينيه ثم أفرغها في فمه . فانفجر البابا ضاحكاً وأمسك بيد الراهب وصرصر قائلًا : ماذا رأيت يا آنجيلو ؟ هل نجحت جريمتك ؟ وهل أنت مسرور الآن لأنك أردت تسميم وليّ نعمتك ؟ مت إذن أيها الحقير ! مت ، وليمزّقك العذاب الذي كنت تعدّه لي !

ـ كلا ، لن يموت هذا الشاب !

واستدار البابا نحو الصوت الذي لفظ هذه الكلمات ، فأبصر روزا فانوزّو تنظر إليه رماديّة الوجه كأنها شبح من الأشباح ، فوثب نحوها وهو يجأر قائلًا : ماذا تقولين أيتها الساحرة الجهنمية ؟

فأجابته روزا بصوت يسيل معه فرح أسطوري ، قالت : أقول إن هذا الكاهن لن يموت ! وأقول إنك أنت المائت يا رودريك ! لأن كوب الذهب لم يمسّه شيء ، ولأنك شربت من كوب الفضة المسموم !

وهنا ارتفع صراخ مزدوج حزين مخيف : صراخ الراهب الذي هرب مترنحاً هاذياً من الفرح ، وصراخ الرعب الذي انطلق من حنجرة البابا اسكندر السادس . ولم يكد هذا الصراخ يرتفع حتى أخذت تتصاعد قرقعات وجلبة مداهمة ، وضجيج انفجر بعيداً ، وإذا دخان قاتم يملأ الغرفة ، وشُعَل قانية تملأ الليل بضيائها الحزين ، وكأن قصر لوكريس أخذ يشتعل برمّته !

تمثال البرونز

*

كنا قد رأينا كيف انتزع سبادا كاب راكستان من سهْوته الحزينة ، حوالى الساعة التاسعة من المساء ، حيث شرع الفارس يسير متباطئاً نحو القصر . وعندما وصل إلى الصخرة التي عيّنها له جيا كومو عند أسفل السور العالي وقف وأخذ يهزّ رأسه قائلًا : إني لا أرى أحداً ! لا شك أن هذا الشيخ لم يستطع أن يفعل شيئاً . ولا أظنّه قادراً أن يفعل . هيّا يا صديقي سبادا كاب ، لديك الوقت الكافي للانسحاب .

وإذا بضجّة خافتة تسقط خلفها ، فاستدار سباداكاب متطلعاً ثم هلّل فرحاً وهو يشير إلى شيء يتدلى من أعلى السور . وعندما رآه راكستان صاح قائلًا : إنه حبل ! وقبل أن ينهي كلمته كان سباداكاب قد وثب نحو الحبل المعلّق بحجر كبير في أعلى السور، فاقترب راكستان منه وتشبّث بالحبل بكلتا قبضتيه وراح يتسلّق بخفّة حتى أضحى بعد دقيقتين في أعلى السور . هنا أخذ يتطلع بنهم نحو الداخل ، فرأى أن الحديقة تنتهي تحت قدميه ، ورأى في وسطها كتلة القصر المظلمة ما عدا بعض النوافذ المنارة . ولكنه سرعان ما لمح ظلًا دونه بقليل ، فجرّد خنجره من غمده ووضعه بين أسنانه مصمماً أن يقفز على الرجل المجهول فيقتله . ولكن الظل خطا نحو ممرّ يتسرّب الضوء إليه ثم صاح قائلًا : أسرع ! هيّا أسرع !

وعندما ارتفعت هذه الكلمات نحو راكستان عرف أن الصوت صوت جياكومو . في هذه اللحظة بلغ سباداكاب أعلى السور وهمس قائلًا : إنزل يا سيدي ، أنا أمسك الحبل .

فتمسّك راكستان بالحبل وانزلق في ثوانٍ معدودة ، بينما كان سباداكاب معلقاً في الفضاء يشدّ على الحبل. ولم يكد راكستان يضع قدميه على الأرض حتى انتصب سباداكاب وقفز وراءه . أما جياكومو فقد أعاد كلامه قائلًا : أسرعا لئلا يدهمنا الوقت ! ثمّ اندفع راكضاً دون أن يعبر في الممرات الواضحة ، بل متوغلًا بخط مستقيم في البقع المغروسة من الحديقة ، وجرى راكستان وسباداكاب خلفه صامتين . وبعد خمس دقائق من الجري المتواصل

توقّف جياكومو عند جدار القصر ، بالقرب من قاعدة تمثال برونزيّ ، ثم رفع عينيه نحو نافذة مضيئة وأشار إليها بذراعه قائلًا: إنها هنا !

فتطلع راكستان إلى النافذة ، فأبصر بريفيرا وقال : كيف الوصول إليها ؟ فقال جياكومو : أصغ لي جيداً : لقد وصل قيصر بورجيا منذ قليل ، وإنه الآن مجتمع بشقيقته ، فلا جدوى إذن من محاولة الصعود إلى فوق على درج القصر لأنك ستُقتل لا محالة في منتصف الطريق . انظر إلى النافذة : يجب الدخول من هنا إلى تلك الغرفة ، وعندما تخرج منها خذ ممرّ اليسار وانزل في أول درج تصادفه فتنتهي إلى باحة القصر . هيّا امضِ بسرعة ، فبعد عشر دقائق لن يعود بإمكانك النزول في سلام ! هيّا ، وإلى اللقاء !

هنا انطلق جياكومو وغاب في الممرّ الذي ذكره حيث فتح باباً يوصل إلى غرفة منخفضة مزدحمة بجرزات الحطب . وعندما دخل إلى هذه الغرفة أخذ يغمغم في نفسه قائلًا : لوكريس وقيصر هما في غرفتها ، هناك إلى فوق ، والوالد المسخ لهذين المسخين هو في غرفته أيضاً ! ولقد دقت الساعة الرهيبة ... فلتقض النار على العائلة بأجمعها لأن النار عقاب الهالكين !

ثم أضاء مشعلًا فظهرت سحنة هذا الشيخ الصغيرة الشيطانية كأنها إنذار بالموت .

*

ولم يكد جياكومو ينتهي من كلامه حتى أخذ راكستان يدرس الموقف بنظرة سريعة . ولقد رأى أن هذا الجناح من قصر

لوكريس إنما هو مزيّن بأعمدة نصفية كورنثية مدخّلة في الجدار، وإلى جانب كل عمود ينتصب تمثال برونزيّ على قاعدة رخاميّة. أما التمثال الذي اقتاد جياكومو راكستان إلى جانبه فقد كان يمثل الامبراطور أغسطوس بقامته الضخمة. وكانت الغرفة التي أشار إليها جياكومو في الطابق الأول على ارتفاع خمسة وعشرين ذراعاً تقريباً، فأمسك راكستان يد سباداكاب وقال له: عندما أصعد إلى الغرفة أسرع أنت وتمركز إلى جانب الباب، وعندما أطلّ عليك ألقِ بنفسك على الحرس واقتل واطعن وافتك واقضِ على من يعترضك حتى يُفتح الباب!

ـ سأفتحه، سأفتحه بالقوة! فأومأ عندئذ راكستان إلى التمثال وقال لسباداكاب: إصعد! فوثب سباداكاب إلى القاعدة وشرع يتسلق التمثال مستعيناً بنواتىء ردائه البرونزيّ وجعل راكستان يتسلّق وراءه. فقال سباداكاب: وصلت إلى الذراع! قال: إصعد أيضاً! قال سباداكاب: ها أنذا على الكتف! قال راكستان: قف على الرأس!

فأطاعه سباداكاب، وكانت قدماه كأنهما غارزتان في رأس التمثال الجبّار، وكان منتصباً متصلباً وذراعاه ملتصقتان بجسمه حتى بات لو أتى بحركة واحدة لسقط على القاعدة محطم الجمجمة. وبعد قليل كان راكستان على كتف التمثال، وإذا به يزفر قائلاً: تركّز جيداً! فقال سباداكاب: تركزت!

هنا شرع راكستان يتسلق صاحبه كأنه في أسطورة أو حلم، وسرعان ما همس قائلاً: أعطني يدك. فحنى سباداكاب قبضته

وذراعه ما تزال ملتصقة بجسمه، فوضع راكستان قدمه في يد سباداكاب وأخذ يرتفع بجهد بطيء متصل لا تقطعه هزّة واحدة. وبعد لحظة كانت قدماه على كتفي خادمه. هنا رفع راكستان ذراعيه حتى لمس طرف أصابعه حافة النافذة. وبينما كان سباداكاب ساكناً مشنّج الجسم، شعر بقدم تضغط على رأسه، ثم بثقل جسم راكستان ثمّ ... انتهى كل شيء. فنزل عندئذ من مكانه الشاهق، وعندما وضع قدمه على الأرض أخذ يعدو نحو الباب الذي عيّنه جياكومو. وعندما رفع عينيه إلى النافذة شاهد راكستان متشبثاً بحافتها وأظافره مغروزة في الحجر وهو يحاول الارتفاع بجهد يفوق حدود الطبيعة!

الأمل

*

منذ ذلك المساء الذي استطاعت بريفيرا أن تنزل فيه إلى حديقة القصر، لم تعد لوكريس بورجيا تزورها على الإطلاق. ومنذ ذلك الحين ظلت غرفتها مقفلة. أما هي فقد قررت بمحض اختيارها أن تموت! وكانت خطتها بسيطة ومريعة في وقت واحد: وهي أن تنتحر بخنجر عندما يطلّ قيصر عليها بوجهه المقيت إذ أن الموت لا يخيفها. غير أن جنانها الثابت كان يهن أحياناً كلما فكرت براكستان لأنها كانت تقول في نفسها: كم سيتألم عندما

يصله نبأ موتي !

وفي مساء أحد الأيام كانت بريفيرا متكئة إلى نافذتها تحلم ، وفي إحدى اللحظات خُيّل إليها أن شبحاً يتحرك تحت نافذتها عند قدمَي التمثال العملاق الذي كانت تشرف على رأسه البرونزي . وسرعان ما تراءى لها أن الشبح هو رجل حقيقي يحاول أن يستثير انتباهها . وإذا بكلمة تكاد تكون غير مسموعة لأنها لفظت بصوت منخفض تتصاعد إليها :

– سبيرانزا ! (وهي كلمة إيطالية بمعنى الأمل) .

وعند سماع هذه الكلمة أجابت بريفيرا بصرخة خفيفة ، ثم ارتمت على أريكة وأخذت تضغط على صدغيها وهي تتمتم قائلة : الأمل ؟ أما زال لي نصيب فيه ! ولكن من أين يُسمح لي أن آمل بشيء !

وبينما كانت تتلفّظ بهذه الكلمات ترامى إلى سمعها وقع خطوات في الممرّ ، فانتصبت بقامتها الفارعة وهي تنتظر بفارغ صبر حدوث عجيبة تنقذها من سجنها الرهيب . وفجأة امتدت ذراعها نحو الباب وهي تتمتم متلعثمة تقول : سبيرانزا ! سبيرانزا !

وبغتة فُتح الباب بعنف وظهر قيصر بورجيا !

وكانت أفكار بريفيرا قد انطلقت بعيداً عن قيصر ، حتى أن ظهوره كان مفاجئاً وغريباً شديد الغرابة عما كانت ترجوه ، لذلك فقد انفجرت على شفتيها المصفرّتين ضحكة ألم وجنون ، ثم أمسكت خنجرها ورفعته ! ولكن الخنجر لم يهوِ على صدرها لأن قيصر كان قد ارتمى عليها وأمسك بمعصميها وأخذ يشدّ عليها شداً

عنيفاً حتى انفرجت أصابعها وسقط الخنجر من يدها . هنا رأت الخطر نصب عينيها ! وكان وجه قيصر الملتهب في هذه اللحظة بعيداً قدر إصبعين عن وجهها ، ولقد سمعته يقول هازئاً : إنني أحبّك يا ابنة آل آلما !

– أيها المسخ الحقير ، إنني أمقتك !

فقرّب قيصر وجهه جامعاً شفتيه لتقبيلها ، ولكنها تراجعت بقامتها إلى الوراء ، فإذا بقيصر يجأر جئير غضب تاركاً معصمَي الفتاة ، إذ أنها كانت قد بصقت على وجهه . وظلّ قيصر يجأر ، إلا أنه أحسّ بأنها ستفلت من يده لأنها وثبت نحو النافذة ، فارتمى عليها مزمجراً يقول : إنكِ لي ! وسأمتلكك غصباً !

عندئذ حاولت بريفيرا محاولة أخيرة أن تدفع عنها هذا الحيوان المفترس الذي أعاد كلامه قائلاً بلهجة المنتصر : بلى ، إنكِ لي ! وسأمتلكك بالرغم منك ! عندئذ صرخت بريفيرا صرخة نزاع أخير منادية تقول وهي تلهث : إليّ ! إليّ يا راكستان !

فإذا بصوت رهيب يزمجر في الخارج قائلاً: هاأنذا ، لبّيك لبيك!

وفي اللحظة ذاتها تحطّم الزجاج تحطّماً مرعباً ، ثم اندفعت النافذة بعنف ، وإذا بكائن مبدّد الشعر مشوّش الثياب ملموم كالكرة ، ينشب ويتدحرج ثم يرتمي كالصاعقة على قيصر الذي تراجع إلى الوراء مزمجراً يقول : راكستان اللعين !

في هذه اللحظة بالذات كانت بريفيرا قد سقطت مغمىً عليها . أما قيصر فقد سحب من منطقته خنجراً عريضاً قصيراً وتهيّأ لمجابهة راكستان الذي اندفع نحوه مزمجراً يقول : لسوف تموت !

ولقد أصبح الرجلان الآن على بعد خطوة واحدهما عن الآخر . وكان قيصر مجدولاً على نفسه وراكستان منطوياً إلى الأمام والخنجر مشهوراً في يد كل منهما في منظر مخيف . ولقد صمت الاثنان ، غير أن نظراتهما كانت تشتعل مضطرمة . هنا أصبح الصمت ثقيلاً وكأنه نذير بالموت ! إلا أن زفيراً غريباً كان يتصاعد من أعماق ممرّات القصر ، كما أن جلبة كانت ترتفع بعيداً بعيداً . ولكن الرجلين كانا لا يسمعان شيئاً .

وبغتةً خطا راكستان إلى الأمام فاستقبله قيصر بالخنجر الذي لمع حدّه الفولاذي كبرق خاطف ، إلا أن النصل اخترق ثياب الفارس دون أن يجرحه . هنا حصل اشتباك وحشيّ ، فمنافرة سريعة ، فصوت سقطة صمّاء على الأرض ، فالتحام جسدين متدحرجين ، ثم حركة ذراع صاعقة تبعتها زفرة مخنوقة وانبجاس دم ! هنا وقف راكستان محمرّ الوجه مخيفاً ورائعاً في وقتٍ معاً ، وثيابه ملطّخة بدم قيصر ، ثم انحنى على بريفيرا الفاقدة الرشد فضمّها إلى صدره بحنان عظيم . وبعد أن أصلح طيّات ردائها بعناية فائقة حملها على ذراعيه الصامدتين وراح يسير بها في اتجاه الدرج ، منحدراً بها بين ألسنة اللهيب والدخان المتصاعد كزوبعة هوجاء . وكان يقفز على الدرج قفزة إثر قفزة ، وعندما وصل إلى أسفله كان لاهثاً ، محروق الحاجبين والشعر ملذوع اليدين ، منهوكاً من التعب ، هاذياً هذياناً مؤثراً . وبعد قفزة أخيرة ، وبعد اجتيازه سعير لهب أخير ، وصل راكستان إلى باحة القصر . ولكنه لم يكد يخطو بعض خطوات حتى سمع نافذة تُشقّ ،

ورأى امرأة شعثاء الشعر تصيح بأعلى صوتها قائلة : اقتلوه ! اسحقوه ! انحروه بخناجركم !

هذه المرأة صاحبة هذا الصراخ هي لوكريس بورجيا ! ولقد سمع بعض الرجال المتخلّفين في باحة القصر زعيقها المرتفع ، وشاهدوا رجلاً يهرب وثيابه نصف محروقة ، وسحنته رهيبة ، وبين ذراعيه امرأة . فاندفعوا نحوه لكي يحيطوا به . أما راكستان فقد زجر بصوت يشبه هزيم الرعد وقال : إفسحوا لي في الطريق ! إفسحوا لي في الطريق !

ولكن لوكريس ظلت تولول صارخة تقول : اقتلوه ! اقتلوه !

فإذا بثلاثة خنّاجر تلفظ شررها ، فاندفع راكستان إلى الأمام ولكنّ خنجراً أصابه في كتفه اليمنى شاقّاً لحمه شقّاً عريضاً . فدار على نفسه وإذا بالرجل يصرخ صراخاً متألماً عنيفاً لأن راكستان كان قد أخذ معصمه بين أسنانه ونهشها حتى نصفها ! وفجأة ارتفع صوت صارخ يقول : إفسحوا في الطريق ! إفسحوا في الطريق .

وكان سيف يدور كالإعصار دورات عنيفة ، ولقد وقع على اثنين من المهاجمين فشجّ رأسيهما شجاً . هذا السيف هو سيف سبادا كاب الذي تابع هديره صارخاً يقول : إلى الأمام أيها السيد !

وراح راكستان يثب مسرعاً ومن خلفه سيف سبادا كاب الذي يلتهب في دورانه الرهيب . وأخيراً اجتاز الفارس البوابة الكبيرة ، وتبعه سبادا كاب بعد أن صرع آخر المهاجمين . ووراء الاثنين عبر جياكومو مغلقاً البوابة خلفه . هنا زجر راكستان قائلاً لسبادا كاب : أسرع بالإشارة للسفينة ستيللا كي تقترب .

فانطلق سبادا كاب إلى الأمام بينما ظلّ راكستان متابعاً سيره نحو البحر وهو شارد اللبّ يضغط بين ذراعيه حبيبته بريفيرا التي كان رأسها يستريح على كتفه المدمّاة التي جرحها خنجر أحد الحراس. وفجأة اشتعلت ثلاث نيران على رأس قمة صخرة : إنها العلامة التي يرسلها سبادا كاب لصاحب السفينة ستيللا المختبأة في أحد الخلجان الصغيرة . أما راكستان فقد كان يتمتم قائلاً : إلى الأمام !

ولقد أضحى الآن مترنحاً يكاد لا يستطيع الوقوف على قدميه إلا بجهد عظيم . وبعد قليل أخذ يسمع ارتداد الأمواج المصطدمة بصخور الشاطىء ، ولقد أبصر الصخرة حيث اشتعلت ثلاثة نيران، فزفر مرة ثانية قائلاً : إلى الأمام ! وبعد لحظات أخذ يسمع لثغ مجاذيف الزورق المقترب من الشاطىء ، وبغتة أخذ صراخ وجلبة يرتفعان وراءه ، وإذا بصوت جياكومو قائلاً : إننا مطارَدُون !

غير أن صوتاً من القارب صرخ قائلاً : إصعد إلى الزورق ! إلى الزورق ! ورأى راكستان نفسه على الشاطىء ، وشاهد سبادا كاب وجياكومو في القارب مع بحّارة يرفعون المجاذيف . أما وراءه فقد ظهرت فجأة أنوار مشاعل كثيرة . فرفع بريفيرا بين ذراعيه وبجهد أخير عبر بها فوق حافة القارب الذي راح يجري مسرعاً فوق الأمواج ، بينما ظلت ترتفع على الشاطىء لعنات الرجال المطاردين !

كلمات روزا فانوزو الاخيرة

*

رأينا كيف هرب الراهب آنجيلو هاذياً من الفرح في اللحظة التي هتفت بها الماغا موجهة كلامها للبابا تقول : كلا ، لن يموت هذا الكاهن ! بل أنت الذي ستموت يا رودريك لأنك شربت من الكوب المسموم !

ولم يكن لدى آنجيلو غير فكرة واحدة ، هي أن يهرب . ولكنه بغتة اصطدم بباب مغلق ، فوقف لاهثاً . ثم رأى نفسه محاطاً بالدخان فغمغم قائلاً : أرى النار تشتعل في القصر ! ثم حاول أن يفتح الباب ولكنه لاحظ مرتعباً أن الباب مقفل من الخارج ، فعاد في الطريق التي أتى منها ، فسار في الممرّ الذي يؤدي إلى غرف البابا حيث أبصر غرفة مفتوحة فارتمى في داخلها . ولكنه شاهد امرأة تنظر من ثقب في الحائط إلى مشهد لا شك أنه كان يحذّرها تحذيراً : مشهد نزاع اسكندر السادس الأخير . ولا شك أنها لم تسمع خطى آنجيلو القادم إلى الغرفة ، ولا زفرات الحريق الذي شبّ في القصر : هذه المرأة هي لوكريس .

وأخذ الراهب يتأملها بنظرة مربدّة ، وسرعان ما تراءى له مشهد الكنز الكبير المخبّأ في المغارة فأخذ يرتعش ، لأن الفرصة مؤاتية الآن . وإذا به يبحث عن خنجره الذي كان يحمله دائماً تحت ثيابه ، ثم تقدم خطوة إلى الأمام . ولكن لوكريس في هذه اللحظة أخذت تتراجع إلى الوراء وعيناها مصوبتان دائماً على

النقب . ولقد سمعها الراهب آنجيلو تتمتم بهلع قائلة : إنها أمي ! ولقد ساعدت أمي على قتل والدي !

فارتدع الراهب عن فعلته ولم يبقَ في ذهنه بعد فشل محاولته غير صورة الحريق ، لذلك فقد اقترب من لوكريس وقال : القصر مشتعل يا سيدتي ويجب أن نهرب ! فقالت لوكريس وكأنها أفاقت من حلم مزعج : القصر يشتعل ! هذه هي ألسنة اللهيب ! آه ، يا للشمعة الرائعة التي ستحترق في عرس بياتريكس !

ثم انفجرت ضاحكة ، وانطلقت تجري ومن ورائها الراهب آنجيلو ، حتى دخلت إلى غرفة تطلّ نافذتها على باحة القصر . وعندما فتحت النافذة لترى ما يجري أبصرت فجأة راكستان وهو يحمل بريمفيرا بين ذراعيه ، فأثارها منظره وجعلها تصرخ من الحنق والجنون ، حتى لقد مزقت ولولاتها الصاخبة أفق القصر .

وعندما غاب راكستان خلف البوابة الكبيرة اندفعت لوكريس نحو غرفة بياتريكس فرأت قيصر ممدداً فاقد الحركة في مستنقع من الدم . عندئذ أرادت أن تنطلق إلى الخارج ولكن الباب أقفل فجأة في وجهها ، وتعالت صرصرة مفتاح في مغلاقه ، ثم سمعت صوت الراهب آنجيلو وهو يناديها قائلاً: الوداع يا سنيورا لوكريس ! لك نيران الجحيم ولي كنزك المخزون في الكهف !

فراحت لوكريس تدور في الغرفة كنمرة شرسة ، إلا أن حركة من راكستان أوقفتها وجعلتها تتمتم قائلة : سيجيا ! ولكن لكي تلتهمه ألسنة اللهيب !

وإذا بها تنفجر ضاحكة ضحكة حادّة ثم تقول:الباب السري!

كلاّ ، لم ينتهِ كل شيء . ثم أمسكت قيصر برجليه وجرّته إلى زاوية الغرفة وضغطت على الحائط فسُمع صرير لولب فولاذيّ ، تبعه انخساف في أرض الغرفة ، وإذا بالزاوية التي جرّت لوكريس إليها أخاها أخذت تنزل رويداً رويداً حتى غاب الاثنان بعد لحظة قصيرة .

أما هذا الباب المتحرك الذي انتقلت عليه لوكريس فقد أنزلها إلى أقبية القصر حيث تركت أخاها ممدّداً ثم اندفعت إلى الباحة الكبيرة . وبعد دقيقتين كانت مع حرّاسها تجري في أعقاب راكستان . ولقد رأينا كيف أنها وصلت متأخرة .

عندئذ طردت لوكريس حرّاسها عنها بحركة وحشيّة ، وقرفصت فوق صخرة وراحت تنظر إلى القارب الذي لم يكد يقترب من السفينة حتى جرت مبتعدة كطائر من طيور البحر . هنا زفرت لوكريس زفرة حنق وعجز واستدارت نحو القصر فرأته غارقاً في سعير النيران . ثم إذا بها تبصر رجلاً راكعاً على صخرة ووجهه منكبّ إلى الأرض : إنه الراهب آنجيلو الذي بعد أن اعتقد بأن لوكريس قد قضت نحبها مع والدها وشقيقها قيصر ، اتجه نحو الصخرة المعقودة فوق الكهف الذي يحتوي الكنز. وعندما بلغها انحنى فوقها ناظراً إلى داخلها لكي يتأكد من أنه في الموضع الذي كان قد عيّنه .

أما لوكريس فقد عرفته في الحال ، فإذا بابتسامة صفراء تمرّ على وجهها المشوّه من الحنق . عندئذ أخذت تقترب منه بخطىً صامتة ، ثم إذا بها تثب بغتةً فترتفع ذراعها وتنخفض في حركة

مزدوجة وبقوّة مخيفة . ولم يلفظ الراهب صوتاً واحداً لأن خنجر لوكريس قد قتله في الحال . عندئذ نظرت لوكريس حولها نظرة جنونية ، وإذا بها تغمغم مزمجرة : من القادم أيضاً ؟

إنه شبحٌ كان يتقدّم نحو البحر . وفجأة ظهر هذا الشبح على وهج النيران فعرفته لوكريس وغمغمت قائلة : أمّي ! أمّي !

أمّا روزا فانوزّو فقد مرّت دون أن تراها ، ولقد كرّرت لوكريس قولها وهي ترتجف : أمّي ! أمّي ! وظلت روزا فانوزّو تتحدر نحو البحر . وعندما وصلت إلى رمال الشاطىء مدّت ذراعيها متابعة سيرها نحو الموج .

*

ولنعد إلى بداية المشهد ، ففي اللحظة التي غادرت فيها روزا فانوزّو الحجرة الصغيرة لتدخل إلى غرفة اسكندر السادس ، وفي اللحظة التي هرب فيها الراهب آنجيلو فرحاً بنجاته من التسمّم ، أطلق البابا جأرة يائسة ثم تقدّم من الماغا فأمسكها بيديها وغمغم قائلاً وقد استولى الهلع عليه : إنك كاذبة ، أليس كذلك؟ لم يكن الكوبان مسمّمين . ولكنّ الماغا قالت بصوت هادىء حزين بطيء : قضي الأمر يا رودريك ، وسيبدأ نزاعك الأخير بعد لحظات . فقال : أيتها الشقية ! أيتها الغبيّة ! ولكنك أنتِ أيضاً قد شربتِ من الكوب الفضيّ ، أرأيت أنك كاذبة ! قالت : هذا يعني أنني أيضاً سأموت ، ألم أقل لك إن مصيرينا مرتبطان واحدهما بالآخر ؟ قال : كلا إنك كاذبة ! فلو كنت مسموماً لبدأت أشعر بالألم . تباً لك أيتها الساحرة الحقيرة !

ولم يكد بورجيا العجوز يرفع قبضتيه ليهوي بهما على الماغا حتى ارتمى فجأة في أريكة إلى جانبه ، وإذا بوجهه يمتلىء بقعاً حمراء ، وإذا بعينيه تخرجان من محجريهما ، وإذا به يتمتم قائلاً : آه ، إنها لم تكن كاذبة ! فساقاي لا تقويان على حملي لأن صقيعاً بميتاً أخذ يشلّهما . آه ، يا لهذا الصقيع الصاعد إلى جسدي ! بالله دعيني أعيش ! إشفقي عليّ ! إليّ يا لوكريس ، إليّ يا قيصر !

هنا انفجرت الماغا قائلة : أوتدعو قيصر ولوكريس أيها الغبي؟ أتعلم من أرسل الكاهن إلى هذه الجزيرة لكي يسمّم لك ؟ إنه قيصر ! أتعلم من سمّم لك الكأس ؟ إنها لوكريس !

فتمتم البابا مصعوقاً يقول : ولداي ؟ فقالت الماغا : أجل ، ابنك وابنتك ! قال : قتلني إذن ولداي ؟ آه ما أقسى هذه الجريمة ! ولكن من أنت لتكوني شريكة جرمها ؟ وماذا فعلت لك أيتها الساحرة الشقيّة ؟ بلى ، قد تكونين والدة أحد الذين قضيت عليهم سافكاً دماءهم . قالت : إبحث عني في ذكرياتك البعيدة . قال : إذن أنت شقيقة أحد ضحاياي قبل أن أصبح كاهناً ، يوم كنت أشهر الحرب على مقاطعات إيطاليا وما إليها . قالت : عد إلى أبعد من ذلك يا رودريك . عد إلى شبابك ، إلى إسبانيا ، إلى جاتافا .

فانطلق البابا في صرخة ممزقة وقال بصوت متحطم : إسبانيا ! جاتافا ! عرفتك الآن : إنك روزا !

ثم جمع يديه وانزلق عن الأريكة ساقطاً على وجهه وزافراً يقول : إنك روزا ! روزا التي تركتها ! أم أولادي ! آه ، لقد

فهمت الآن ! فقالت : أجل ، أم لوكريس وقيصر ! وامرأة رودريك بورجيا ! الآن قلت الحقيقة . قال : أرجوك ، أنقذني ! لقد أحببتني كثيراً في الماضي وما زلت تحبينني الآن. فقالت الماغا: أتطلب إليّ أن أنقذك أيها الغبيّ ؟ أتدري كم تألمت بسببك ؟ لقد ألقت بي ابنتي خارج قصرها كمتسوّلة فقيرة ، وجعل ابني رجاله يهدّدونني بالسوط . أجل ، لقد أحببتك ! بل لقد عبدتك ! فقال : باسم هذا الحب أسألك الرحمة والشفقة . قالت : أوتسألني الشفقة، أنت الذي لم تشفق عليّ أبداً ؟ قال : حنانيك ، الرحمة والشفقة !

عندما لفظ رودريك هذه الكلمات كان صوته قد أصبح ضعيفاً ، وكان صقيع الموت قد تصاعد إلى يديه وذراعيه ولم يبق منه سوى جذع ما زال حيّاً ، ولكنه كان يختلج في لجّة الموت المخيفة . أما روزا فانوزّو فقد زمجرت قائلة : الرحمة والشفقة ! إنه يجرؤ على لفظ هاتين الكلمتين ، وهو الذي بسببه مات والدي ووالدتي ميتة الخجل والعار ! وبسببه نزف قلبي العاشق دمه نقطة نقطة ! وبسببه تحمّلت أقسى عذاب تستطيع أن تتحمّله امرأة ! مت إذن يا رودريك ! مت هالكاً وأنت مقتنع بأن يد ولديك قضت عليك !

وهنا توصّل بورجيا أن يرفع رأسه وقال : لتحلّ عليك لعنتي أيتها الملعونة ! فأجابته روزا فانوزّو بصوت قاتم تقول : مت هالكاً يا رودريك ! فإذا برودريك العجوز يتقلّص في نوبة أخيرة، ثم يلفظ صراخاً أجش ، ثم يسكن مفتوح الشدق . وهكذا لفظ اسكندر السادس نفسه الأخير !

وظلت روزا فانوزّو تحدّق فيه طيلة لحظات وهي تتمتم كلمات مختلطة . وبعد أن نظرت حولها نظرة مخبولة وقفت وهي تتمتم بصوت منخفض تقول : من قال إن رودريك قد مات! رودريك، حبيبي ، إنك حيّ ! وإنك لتحبّني يا رودريك ! فانتظرني لأنني قادمة إليك !

ثم اجتازت غرفة وعبرت في ممرّ يتراكم فيه الدخان وأخذت تنزل على درج نصفه مشتعل ، وبعد أن خرجت من باحة القصر مرّت إلى جانب الصخور وانحدرت نحو الشاطىء حيث أحسّت أنها توغّلت في مياه البحر . إلا أنها راحت تتقدم أكثر فأكثر حتى وصل الموج إلى كتفيها ، فظلّ رأسها وحده فوق حدود الماء. عندئذ أبصرت عيناها في نظرة أخيرة سفينة خفيفة مرحة تندفع مع الريح . وفي مؤخرة السفينة كان ظلال ملكتان متعانقتان هما راكستان وبريفيرا الثملان من الفرح والحب . عندئذ انتزعتها موجة عاتية فدحرجتها وجرّتها معها ، فإذا بها تصرخ صرختها الأخيرة تقول : إنتظرني يا رودريك ! ها أنذا قادمة إليك ... لأنني أحبك !

ثم غابت في اللجّة إلى الأبد .

حدائق مونتفورتي

*

ها نحن الآن بعد انصرام ثلاث سنوات ، في مونتفورتي ، في

حدائق قصر آل آلما الفسيحة ، وذلك في عشيّة من عشايا الصيف الفاترة ، بعد غياب الشمس خلف الجبال العالية . وها نحن نرى زمرة قد اجتمعوا هناك إلى جانب مقعد رخاميّ وتحت صفصافة كبيرة مورقة. هؤلاء الجماعة هم أصحاب القصر ، مع المدبّر الأول جياكومو الذي راح يراقب الخدم وهم ينقلون بعض المرطبات ، ومع رئيس الحرس السنيور سباداكاب الذي كان متكئاً على سيفه الثقيل يتأمّل لوحة أمام عينيه .

وعلى المقعد كانت بريفيرا وروزيتّا جالستين، وعلى بعد عشر خطوات منهما كان رافائيل سانزيو يتمّ لوحة كان قد بدأها سابقاً . وكان يتدحرج عند قدمَي بريفيرا طفل عمره سنة تقريباً يُدعى مانفريديّ تذكاراً للأمير الذي حملت بريفيرا اسمه، أما هذا الطفل فإنه ابن راكستان وبياتريكس .

وإلى جانب هؤلاء جميعاً جلس رجلان وراحا يتحادثان على حدة ، هذان الرجلان هما الفارس راكستان الذي أضحى الكونت آلما سيّد مونتفورتي وصديقه ماكيافيللي الذي قال متابعاً حديثه : أوَتعلم أنك قوّة هائلة من قوى الطبيعة؟ فأجابه راكستان ضاحكاً: لا شك في هذا مطلقاً . فتابع ماكيافيللي قائلاً : لقد وجّهت للبابوية ضربة قاصمة . على كل حال ، كل شيء من العهد القديم آخذ إلى التداعي والانقراض . فلقد انتهى آل بورجيا . والتجأت لوكريس إلى « فرّاري » محاولة أنَ تتزوج من دوقها الفقير ، مبذرة بجنونها المعهود الملايين التي انتزعتها من الرومانيين . أما قيصر فإنه يحارب بحالة بائسة معرّضاً للموت بين ساعة وأخرى

بسبب جرحه العميق الذي قد ينفتح لأقل جهد . ولكن مقابل ذلك ، هذه هي الفنون والعلوم التي أخذت تعيش ، فالعالم يولد من جديد . بلى ، إنه « مولد » حقيقي !

في هذه الأثناء كان راكستان يبتسم لبريفيرا ويتتبّع بنظراته حركات ابنه الذي يزحف نحوه . وتابع ماكيافيللي يقول : بلى ، إنه عهد ولادة جديدة .

في هذه اللحظة وصل الطفل مانفريديّ إلى أبيه وتشبّث بساقه صارخاً صرخة انتصار . فرفعه راكستان بين ذراعيه عالياً وتمتم قائلاً : بلى ، إنه « مولد » حقيقي !

عندئذ شعر ماكيافيللي بأن هذه الكلمة إنما تختصر فكرته الشاملة العميقة، فأخذ يبتسم لهذه اللوحة الساحرة أمام عينيه: صورة روزيتا وبياتريكس المتشابكتين ، ورافائيل سانزيو الحادب بحبّ على قماشته الملوّنة ، وراكستان الرافع ابنه عالياً بين يديه كأنه في ساعة مجيدة . ولما لم يجد معنىً أجمل من معنى الولادة ينطبق على هذا المشهد الرائع خفق قلبه وقال :

— يا « للمولد » الجميل !

تمت

كابيتان غداً ، وأن أستأنف سياحاتي الجميلة في الجبال وفي الوديان؟
أجل ، ومن ترى يمنعني عن كل ذلك ؟
إلا أن صورة بريفيرا خفقت أمام عينيه ، وإذا به يراها جميلة تحت نقابها الأسود ، وفي عاطفة حزنها الغامر ، وبالدموع المتساقطة من عينيها . ولكم كان يودّ أن يقدّم مختاراً عن كل دمعة منها كأساً من دمه ! عندئذ شعر أن هذه الصورة لم تعد لتتركه أبداً ، فتنهد طويلاً وتمتم مصعّداً من أعماق قلبه : بريفيرا !

وبينما كانت يده المشنّجة على عينيه الملتهبتين بالحمّى ، شعر أن يده هذه قد ابتلّت بشيء : أجل ، لقد كان راكستان يبكي ...
وإذا به يجدّف قائلاً : أهذا الحدّ أنا مضطرب ! آه ، إن هذا ليفوق قدرتي . إني أحب ، أجل ، هنا يكمن الداء ! إني أحب ، ولا يتطرّق شكّي إلى ذلك . ولكن هنالك أدوية للحب أيتها الأبالسة ! ثم ماذا يمكنني أن آمل من حبها وقد رأيتها محاطة بهؤلاء الأسياد الكبار ، ومن بينهم مَن ملكوا الجمال والشباب والشجاعة . ولا شك أنها عشيقة أحد هؤلاء ! لذلك عدّ أدراجك أيها الفارس واذهب منذ غد حاملاً وداعك للأمير بورجيا ...

إلا أن فكرة جديدة أتته ، فارتجف قائلاً : أأترك بورجيا ! أأترك هذا الرجل الذي سيكون سبب ثروتي ! هذا الذي جعلني قائداً والذي هيّأ لي طريق المستقبل والمجد الذي طالما حلمت به . ثم كيف أتنازل عن كل شيء ساعة بلوغ الهدف ، ولماذا ؟ أجل ، لماذا؟
وإذا بالجواب يأتيه في غمرة من الفرح المرّ :
– من أجلها ... من أجلها سأتنازل عن لقبي كقائد ! ومن

أجلها سأرفض الثروة والمجد وسأترك بورجيا لأنه عدوّ آل آلما ، ولأنه حمل يده على والدة بريفيرا . أجل ، سأفعل كل هذا دون أن تدري « هي » . فهيّا إلى الطريق يا راكستان ، وهيّا إلى السفر إلى مكان آخر قد ينتظرك فيه البؤس ، لا لشيء إلا لأنك جننت فسمحت لقلبك أن يخفق !

مصادفة غريبة !

*

دخل راكستان إلى روما واتّجه نحو نزل « جانوس الجميل » . وبينما كان يقطع الشارع الضيّق المؤدي إلى النزل اصطدمت رجله بشيء مطروح على البلاط الحجريّ ، فانحنى متمتماً : ما هذا ؟ رجل ؟ أهو سكران أم جريح ؟

وهزّ الفارس الرجل الذي لم يتحرّك ، ثم فكر في نفسه قائلاً : يا للمسكين ، إنه في حالة محزنة . ولكنه غير جريح ، لأن يدي لا تقع على شيء من الدم .

واستطاع راكستان ، على غَبَش الفجر ، أن يميّز بأن هذا المجهول شاب ذو شعر مموّج كستنائيّ جميل ، وجبهة عريضة نافرة ، ووجه شديد التعبير . ولم يلبث الفارس أن عرف أن الشاب مغمى عليه فقط ، إذ أنه شعر بخفقان قلبه . عندئذ رفعه بين يديه وحمله على كتفيه وانتقل به إلى النزل حيث راح يقرع الباب بقدمه . فهبّ برتولومايو وفتح الباب بسرعة وساعد

راكستان على نقل الشاب الذي ما زال غائباً عن وعيه ، إلى غرفة الفارس. هناك وضع الشاب المجهول على السرير ، وشرع راكستان وصاحب النزل بمعالجته بالدلك أو بالنقر على يديه أو بسكب الماء البارد على صدغيه .

ولقد سأل برتولومايو الفارس قائلاً : هل هو ميت ؟ ثم أضاف: ولكنني أعرفه ، فهو يأتي أحياناً إلى هذا المكان ليشرب زجاجة نبيذ أبيض وليأكل بعض السمك مع أحد أصدقائه . إنه رسام يدعى رافائيل سانزيو .

إلا أن هذا الاسم لم يعنِ شيئاً بالنسبة للفارس الذي ظلّ متابعاً عمله دون أن يجيب بروتولومايو بشيء . وبعد قليل تمتم يقول : ها هو ذا يستفيق !

عندئذ أخذ الشاب يفتح عينيه عائداً إلى الحياة ، فسارع راكستان إلى سؤاله ، قال : هل تحسّنت حالك الآن يا سيدي ؟

– شكراً ، نعم تحسّنت ! ولكن من أنت ؟

– إني أدعى الفارس راكستان .

– وأنا رافائيل سانزيو ، الرسّام . وإني أشكرك على عنايتك بي ، ولكن من ترى نقلني إلى هنا ؟

– أنا نفسي ،فقد وجدتك مطروحاً في الشارع على بعد عشرين خطوة من هنا ، ولم يكن هنالك شيء يدلّ على أنك حيّ .

– أجل ، كنت سائراً في شارع « الينابيع الأربعة » .

ثم رفع رافائيل يديه مغطياً بهما وجهه ، ومغمغماً يقول : يا له من حلم مخيف .

وكان راكستان ما يزال يتفحّصه بعطف شديد ، واجداً أن مجمل وضعه يجهر بألم يوهن قواه . وقال : ينبئني وجهك يا سيدي بأن غمّاً مريراً قد سبب حالتك التي كنت فيها . وإنه ليسعدني أن أقدّم لك يد المساعدة إذا كنت بحاجة إلى ذلك ، لأن سيماءك تثير فيّ محبّة لا تقاوم .

فنظر رافائيل إلى محدّثه بعطف شديد ، شاعراً بأن المحبة التي أظهرها له أخذت تحلّ عقدة ألمه . وبعد أن تفحّصه مدّة دقيقة قال : أجل ، أرى أنني أستطيع الثقة بك لأنني أراك منطوياً على صديق حقيقي .

ثم مدّ كلّ من الرجلين يده لمصافحة الآخر ، فيما استطرد راكستان يقول : لقد دعوتني يا صاح « صديقك » ، فأرجوك أن تعتمد عليّ لمساعدتك. فوثق رافائيل بصاحبه لأنه كان يحسّ بحاجة للتنفيس عن كربه ، وقال : إني ، كما ترى ، أتعس رجل .

فابتسم راكستان ابتسامة مريرة وتساءل إذا كان بالإمكان أن يوجد إنسان أتعس منه . ثم سأل صاحبه بطريقة آليّة قائلاً : هل أصابك سوء الطالع فأحببت فتاة دون أن تبادلك هي الحب ؟

فهزّ رافائيل رأسه وأجاب يقول : إني أحبها ... وهي تحبني. وهذا ما يزيد في شقوتي . أما أنت يا سيدي فإني ألاحظ من لهجتك بأن قلبك معذّب .

– دعكَ مني الآن ، أنا رجل مسكين لا أملك من العالم سوى سيفي وتعطشي للمجد ، ولقد جننت فأحببت امرأة رفيعة المقام . إنني أحبها ، هذا صحيح ، ولكنها لا تحبني !

– آه يا سيدي ، إنني أشفق عليك من كل قلبي .

ما ألطف هذا المنظر ! منظر هذين الشابين اللذين ينسيان آلامهما ليعزّي كلّ منهما الآخر . غير أن راكستان أخذ يبتسم ابتسامة مشوبة بالحزن ، ثم قال : يا لها من حادثة مضحكة ! إنك أنت الذي تتألم ، وأنت الذي تحتاج إلى مساعدة ، غير أنني أنا الذي أندب حظي طالباً التعزية . فلنكفّ إذن عن الكلام عني . وعلى كل حال فسوف أنسى كل شيء بعد خمسة عشر يوماً عندما سأعود إلى حياتي المتشرّدة تحت الشمس ...

– وهل ستهجر روما ؟ فأجاب الفارس دونما تردد: قريباً جداً، إلا إذا استطعت حقيقة أن أنفعك بشيء .

لقد كان راكستان مصمماً على الهرب دون أن يعترف أمام نفسه بأنه سيكون سعيداً إذا استطاع أن يتعلّق ولو بقبس من الرجاء ، ذلك أن هذه الفكرة لم تخطر على باله . أما رافائيل فقد استأنف يقول بجد : إني أعتقد يا سيّدي بأن عونك لي سيكون ثميناً ، لكي أستطيع الكفاح ضد أعداء ما زلت أجهلهم،وهم أقوياء ولا شك ، وإني وحيد مع صديق لي كنت في طريقي إليه .

– ثق بأنني لن أبخل بأية مساعدة .

وكان النهار قد أضاء قليلاً غرفة راكستان الصغيرة ، فأخذ شباب الرسام يظهر في ريعان النور بهيّاً رصيناً ، وأخذ الفارس يشعر بازدياد حبه لهذا الفتى المجهول الذي استطرد قائلاً : جئتُ أيها الفارس منذ أكثر من سنة إلى روما حاملاً رسائل توصية كان قد زوّدني بها أستاذي الفنان الشهير باروجان . ولقد كنت قادماً

من مدينة أوربان ، مسقط رأسي ، بعد إقامة قصيرة في فلورنسا لكي أقوم بدراسة اللوحات الفنية الموجودة في قصور روما وخاصة في الفاتيكان . ولقد أقبلت على العمل بنشاط مقتنعاً بأن فنّ الرسم سيكون الهدف الوحيد في حياتي ، إلى أن أبصرتُ أحدَ الأيام في حيّ من الأحياء الفقيرة فتاة تخرج من بيت متواضع وهي مسربلة بأجمل ما يكون الحسن . فسأله راكستان قائلاً :

– هذه الفتاة ، أهي أميرة قلبك ؟

– إنها الفتاة التي أحببتها منذ ذلك الحين ، والتي عبدتها وصرت بدونها لا أشعر بأيّة سعادة . ولقد تبعتها يومئذ إلى حي الغيتو ودخلت معها إلى البيت الذي كانت تسكنه بصحبة ساحرة عجوز تدعى الماغا . أما هذه العجوز فقد جعلتني أشعر بالنفور منها لأول مرّة ، ولكنني عدتُ فرأيتها خليقة بالاحترام ، لا سيّما وأن لافورنارينا كانت تبدو إلى جانبها أكثر حسناً وروعة .

– لافورنارينا ؟

– نعم ، إنه لقب حبيبتي هذه التي كانت لقيطة والتي أخذتها الماغا إلى بيتها وجعلتها تعمل في الأفران . ولقد طلبت من الماغا أن تسمح لها بالمجيء إلى مرسمي لكي تجلس أمام ريشتي بعض الأوقات فرفضت الماغا طلبي هذا ، ولكنها عادت إلى الإذعان بعد عدّة زيارات، وبعد أن فهمت حبي وشهدت احترامي الجمّ لطهارة هذه الفتاة .

– ولا شك أنها أصبحت تحبك بعد وقت قصير ؟

– نعم أيها الفارس . ثم إن حبّنا أخذ ينمو يوماً بعد يوم حتى

لقد قرّرنا أن نتزوج . وكانت روزيتا تحبني حباً بسيطاً كقلبها العذريّ ، فيما رحت أزداد بها تعلقاً وشغفاً . وأخيراً ، ومنذ بضعة أيام ، حدّدنا تاريخ الزواج بعد أن توسّلت إليّ الماغا بأن أقدّم هذا التاريخ وبأن نجعل الزواج سرّياً، وبأن نبتعد عن روما حالاً بعد الإحتفال . ذلك أن خطراً كبيراً كان يهدّد حياة روزيتا . أما هذا الخطر فقد كنت أجهله ، ولم أستطع أن أنتزع سرّه من صدر الماغا . إلا أنني رأيتها شديدة الاضطراب ، فقرّرت أن أتبع رأيها ، وحضّرت كل شيء للسفر . ثم في هذه الليلة بالذات صحبت روزيتا إلى كنيسة الملائكة حيث كلّلنا كاهن هناك . وعندئذ وقعت الداهية المخيفة !

واصفرّ رافائيل وقد أخذ العرق يبلّل جبينه . فحضّه راكستان على متابعة قصته قائلاً : هيّا ، تشجع ! أما رافائيل فقد تابع يقول : كنا قد خرجنا من الكنيسة ، قليلاً بعد الساعة الثانية ، وأزمعنا أن نجدّ الخطى نحو الباب الفلورنسيّ حيث أعدّت عربة لانتظارنا ، فإذا بهجوم مباغت يُشنّ علينا . فأصابتني منه ضربة قاسية على رأسي طرحتني فاقد الوعي . وعندما أفقت لم أجد روزيتا، فأسرعت إلى بيت الماغا، ولكنها هي أيضاً كانت مفقودة.

— وعلى من يقع ظنّك ؟

— لا أدري ! لقد خُطفت روزيتا، وهذا هو الخطر الذي كانت الماغا تحذّرني منه . وإنني أظن أن الماغا خُطفت هي أيضاً. ولكن تُرى من الفاعل ؟ هذه هي العقدة التي أقلّبها في رأسي . وعندما خرجتُ من بيت الماغا أردت الذهاب إلى الصديق الذي أعدّ لي

العربة ، إلا أن الألم تغلّب على قواي، فسقطت في عرض الطريق شاعراً أنني سأموت على البلاط . ولولاك لكان نصيبي الموت .

لفظ سانزيو هذه الكلمات الأخيرة بصوت مختنق ، لأنه كان يتألم ألماً قاسياً. فأمسك راكستان بيديه وقال له: تشجّع يا صديقي ! إن حادثتك حزينة ، ولكنها لا تدعو إلى اليأس . والآن أخبرني، أما لديك أيّة فكرة عن هؤلاء الأعداء الذين حدّثتك عنهم الماغا ؟

— ليس لديّ أية فكرة . آه ، يا ليتني أعرفهم !

— ماذا كنت تفعل إذن ؟

— أفاجئهم في عزلتهم ، وعندما أواجه المغتصب يتقرّر لديه مصيري ، وأكفّ عن الألم لأنني أقتل أو تعود روزيتا إليّ !

— ولكن يجب التوصّل إلى معرفة هذا المغتصب . ألا تعرف أعداء لك ؟

— أعداء لي ؟ كلا .

— هل تعرف مزاحماً لك على الفتاة ؟

فهزّ رافائيل رأسه مرتجفاً ، وتنهّد قائلاً : هذا ما يحملني على اليأس . وهذه هي الفكرة التي يكاد ينفجر لها رأسي. لقد كان هناك من يحبّ روزيتا ، لأن الماغا كانت تعرفه وقد حذّرتني مراراً ، ولكن بعد فوات الأوان .

ثم راح الرسّام الشاب يفتل ذراعيه فتلاً عنيفاً ، فالتفت إليه راكستان وقال متأثراً : صدقني أنك لن تنال الفوز إلا بالهدوء والسيطرة على النفس . لأن سيطرتك على نفسك تجعلك أن ترى بوضوح. ولنفترض أن مزاحماً لك خطف روزيتا ، فهل تحبك هي؟

– أجل ، وإني متأكد من هذا !

– المرأة التي تحبّ تكون قويّة ، ولا يمكنك أن تتصور أن روزيتا ستقبل الوضع الذي أُرغمت عليه . لا شكّ في أنها ستكون مراقبة ، ولكنها منذ الآن بدأت تعمل على الاتصال بك .

– لقد رددتَ إليّ الحياة ، فأنا لم أكن أفكر بهذا .

– من جهة ثانية، ما يزال لي بعض النفوذ، إذ أن أميراً كبيراً في روما يريد لي الخير . ولسوف أتركه ، ولكنني لا أشكّ بأنه سيجدّ في البحث عن روزيتا .

عندئذ نهض رافائيل وارتمى بين ذراعي راكستان ، هاتفاً : لقد أنقذتني ! لقد أنقذتني مرتين وجعلتني أولد من جديد ! وإني لأعجب بالظروف التي جعلتك منذ ساعة تمرّ بقربي فتمدّني بالعون وتصبح أغلى صديق عندي .

وكان راكستان يبتسم لأن هذا الفرح الغامر الذي بعثته يداه كان يخفف من عتوّ الألم الكامن في صدره . وقال للرسام : والآن هيّا اذهب يا رافائيل وابقَ هادئاً حتى أراك ثانية .

– ومتى أعود فأراك ؟

– بعد ساعتين على الأكثر . ولكن أين أجدك ؟

– عند صديقي الذي حدّثتك عنه . إن اسمه ماكيافيللي ، وهو يقطن في شارع « الينابيع الأربعة » مقابل النصب الذي يحمل هذا الإسم .

– إنتظرني إذن عنده ، وليكن حليفك الأمل .

فاندفع رافائيل إلى الخارج مقوّى مستفيضاً بالأمل . أما

راكستان فقد تنهّد متمتماً في نفسه يقول : إنه سعيد ، لأن له فتاة تبادله الحب !

خاطفو لافورنارينا

*

قضى راكستان ليلة بيضاء ، غير أنه لم يكن يشعر بأية حاجة للراحة والنوم بعد أن هيجته أحداث الليل والأفكار التي كانت تعصف في رأسه . لذلك فقد اتجه سيراً على قدميه نحو قصر «سانت آنج» والساعة ما تزال صباحية ، لأنه كان يعلم بنهوض الأمير بورجيا باكراً. وعندما وصل الفارس إلى قاعات الانتظار في الجناح الخاص بقيصر ، وجدها خالية من رجال الحاشية ومن القوّاد ، إلا أن أحد نظّار القصر تقدم نحو راكستان وقال له : مولاي قيصر موجود الآن في الفاتيكان ، وإني مكلّف بإعلام حضرة الفارس.

– في الفاتيكان ؟

– نعم ، لأن هذا الصباح هو موعد مقابلة مع قداسته .

– والأمير كلّفك بإعلامي ؟

– مولاي أمرني أن أضيف بأنه ينتظرك في صالة المقابلات البابوية .

فخرج راكستان، وبعد دقائق معدودة كان في الفاتيكان حيث دخل تواً إلى الردهة الرسمية . فإذا في هذه الردهة جمعٌ يلغطون منتظرين وعيونهم شاخصة إلى باب كبير فخم . وكان هذا الباب

يُفتح من حين إلى حين فيخرج منه وصيف يسير بين منادّين يرتديان بزّة من الحرير الأبيض . وكان الوصيف يلفظ اسماً ما ، فيردده أحد المنادين بصوت مرتفع . عندئذ يتقدّم كردينال ، أو قائد ، أو جماعة من النواب ، ويدخلون في الباب بصحبة الوصيف . فإذا باللغط يعود فيحلّ محل الصمت الكبير الذي يسود المكان .

أما هؤلاء الحضور فقد كانوا كرادلة ومطارنة جالسين في أرائك رحبة ، أو قادة نبلاء من أصحاب الرتب العالية ، أو كهنة شباناً معطرين ، أو بعض رجال الحاشية الذين كانوا يترصّدون خروج سيدهم لكي يتسابقوا فيما بينهم : من الذي يبتسم له أولاً ! أما راكستان فقد راح يفكر في نفسه بأن ردهة الانتظار الملكية تبدو فقيرة أمام هذه الردهة البابوية . ثم انتقلت فكرته إلى بياتريكس ، بريفيرا البطلة التي تجرؤ وحدها ، في إيطاليا كلها المغلوبة على أمرها ، أن تقف في وجه هذا العملاق الضخم . عندئذ جاء حاجب ولمس راكستان في ذراعه ، فانتفض مرتجفاً ، غير أن الحاجب أسرع يقول : ليغفر لي حضرة الفارس .

– ولكن ماذا تريد ؟

– أن يتبعني سيدي الفارس إذا أراد .

– إلى أين ؟

– إلى ردهة المقابلات ، إذ أنني أملك الأمر بإدخالك إلى هناك .

– وهل سأجد هناك الأمير بورجيا ؟

– إن غبطة مولاي بانتظارك .

فتبعه راكستان دون أن يمعن في طرح الأسئلة والتفكير . وسار الحاجب أمامه يزلق بين هذا الجمع من الحاضرين . وعندما رأى أنظار الحشد متعلقة به ، شعر أن دعوته هذه إنما هي إنعام كبير يخلع عليه . ولكنه إنعام لا طائل تحته إذ أنه كان مصمماً أن يودّع قيصر ، لأن فكرة محاربة بريفيرا كانت وحدها تثير النفور في قلبه . كما أنه كان يشعر من جهة ثانية بأن الاستقبال الذي استقبله به قيصر يمنعه من الانقلاب عليه . ولكن ماذا يمنعه أن يستفيد من صداقته المتينة للأمير ، فيطلب بعض العون الأكيد لصديقه رافائيل !

وبينما كانت تدور في رأسه هذه الأفكار المختلفة ، دخل إلى ردهة المقابلات من باب عائليّ مخصّص فقط لذهاب وإياب أفراد العائلة المقرّبين ، ولكم أثار هذا العطف الخاص بين أفراد الحاشية همهمة من الإعجاب الحقيقيّ .

ولم يكد راكستان يدخل حتى رأى الوصيف منتصباً عند الباب ومن حوله المنادِيان . وكان قرب النافذة العالية اثنا عشر كاهناً يقومون بوظيفة الكتبة ، وقد راحوا يكتبون بسرعة غريبة . أما حول الردهة فقد كانت حلقة من حرس النبلاء واقفين متصلّبين والسيوف في أيديهم دون أن تندّ عنهم حركة واحدة . وفي وسط الردهة جلست امرأة أمام طاولة وراحت تفضّ كدسة من الرسائل مكوّمة أمامها . وعلى بُعد بعض خطوات منها ، استلقى رجل مدرّع نصف استلقاء على أريكة ، وراح يهزّ ساقيه وإحداهما فوق الأخرى .

أمّا الرجل فإنه قيصر بورجيا . وأما المرأة فإنها لوكريس

بورجيا . ولم يلبث قيصر أن جأر قائلاً : هوذا راكستان الشجاع الذي يمكننا أن نلقبه ، كقرينه الفارس الشجاع بيّار : « الفارس الذي لا يخاف ولا يُهان » . فقاطعه راكستان وقال : عفواً يا مولاي ! ولكن قيصر تابع قائلاً : لم تريه يا أختي كيف يقبض على رجل ليقذفه كما تُقذف الكلة من الحجر . ولم تريه كيف يقفز بحصانه فوق ثلاثة صفوف من المسلحين الأنذال .

فقالت لوكريس : رويت لي عنه كل هذا يا أخي . إجلس أيها الفارس ودعنا نتحدّث .

في هذه الأثناء كان راكستان منحنياً أمام المرأة الحسناء وقد لمعت أمام عينيه ذكرى خاطفة لمفاتن القصر الضاحك. أما لوكريس فقد قالت وهي تنزّه عينيها على إحدى الرسائل: الكردينال فيشتي يحتجّ على حصتنا من العائدات التي نطلبها عن كل زواج أو دفن . ثم أضافت وهي تستدير نحو الكتبة تقول : أكتبوا له بأن يتمسّك حرفياً بمنشورنا الرعائي الأخير المتعلّق بهذا الباب . ثم مالت إلى راكستان تقول : ساعدني أيها الفارس على فضّ هذه الرزمة !

فأطاع راكستان متعجباً مذهولاً ، إذ أن لوكريس كانت تتصرّف كأنها البابا ، ولم تعد لوكريس تلك ، خليعة القصر الضاحك ، بل إنها الآن ملكة صلدة العينين رصينة الحركة ، أو دبلوماسية ، أو وزيرة تعمل في مصالح الدولة . هنا ضحك قيصر وصاح قائلاً : أراكِ متعجباً أيها الفارس ! ستراها تقوم بأعمال أخرى كثيرة . إن لوكريس هي رأسنا القويّ . فقال الفارس :

لا يدهشني هذا يا مولاي ، ولكنني معجب بالنشاط الفكريّ الذي تبذله مولاتي الدوقة . أما لوكريس فتابعت تقول : رسالة من مبعوثنا في بيزارو يعلمنا فيها بأن سكان بيزارو الطيبين أخذوا يتحركون ، ومن بينهم ألفا مسلّح . خذ ، هذه الرسالة لك يا قيصر . فقال قيصر : حسناً، سنحلّ كل شيء مرّة واحدة! فقالت لوكريس من جديد :

– أكتبوا لسفير إسبانيا بأن ما يطلبه مستحيل ، وأن ملك إسبانيا هو كاثوليكي صميم ، وهو يفهم ذلك. أما إذا لزم الأمر فإننا نفهمه ذلك نحن ! فصاح قيصر ضاحكاً :

– يا للشيطان ! علامَ تغضبين ؟ قولي ، ماذا جرى ؟

– لا شيء ، تفاهة بسيطة .

وكان راكستان يشهد بدهشة هذا الفصل حيث ظهر جلياً دور لوكريس التي كانت تتصرف كأنها البابا. ولقد شعر باشمئزاز أمام هذا الجرم المشهود وهذه الجرأة الوقحة ، إلا أنه ظلّ في مكانه الذي انعكس عليه ظلّ زاوية يرى كل شيء ويسمع كل شيء . وهنا قالت لوكريس لأحد الكتبة : أكتب للكردينال أورسيني بأن قداسته يدعوه إلى الغداء غداً في فيللا « بيلفيدير » . فسألها قيصر بصوت منخفض يقول : إذن سيتناول الكردينال المسكين أورسيني غداءه معنا غداً ؟ فقالت لوكريس :

– هذا يعلّمه كيف يقوم بتحقيقات عن موت أخينا المسكين فرنسوا .

فارتجف راكستان ، وقد بدا له أنه فهم المعنى المشؤوم وراء

هذه الدعوة إلى الغداء . غير أن لوكريس قالت بصوت مرتفع : هل عثر على قاتل شقيقنا العزيز ؟ فأجابها قيصر بلامبالاة ، يقول : أمرت بإيقاف عشرين متّهماً. وقد خضع اثنا عشر منهم حتى الآن للتعذيب ولكنهم يرفضون الاعتراف. أجل، من الواجب اكتشاف القاتل لأن جريمة كهذه يجب أن يعاقب مرتكبها. فقالت لوكريس بلهجة باردة : هذا هو رأيي أيضاً .

أمّا راكستان فقد تساءل إذا لم يكن يحلم ، لأنه كان مقتنعاً بل متأكداً بأن دوق غانديه قد قُتل في القصر الضاحك . وبالرغم من ذلك فقد سمع قيصر يتكلم عن التعذيب الذي يلاقيه عدد من البؤساء كان عليهم أن يعترفوا بجريمة لم يقترفها أحد منهم . عندئذ أحسّ أن الضرورة تقضي بأن يودّع الأمير بورجيا ويغادر روما ، غير أنه فكر برافائيل سانزيو ، فغيّر رأيه وقرّر الانتظار . ولقد كان على وشك الاقتراب من طاولة لوكريس عندما فُتح باب صغير فدخل منه راهب عرف راكستان أنه دون كاركونيو . غير أن دون كاركونيو لم يرَ الفارس لأنه توقّف قرب الطاولة مديراً ظهره لراكستان . ولم تكد لوكريس تراه حتى سألته قائلة : ماذا فعلت ؟ فقال الراهب : لقد تمّ كل شيء أيتها الأميرة .

– حسناً ! هذا ما سيفرح أبي .

– ولقد صرعنا الرسام على الأرض .

– آمل أنكم لم تقتلوه ؟ لأن أبي يريده أن ينهي لوحة التجلّي التي بدأها .

– كلا أيتها الأميرة لم نقتله ، وسيعود إلى رشده . أما الفتاة

الصغيرة فقد خطفناها ونقلناها وفقاً لأوامرك إلى تيفولي .

– بديع ! يمكنك أن تنسحب يا معلم كاركونيو. والآن أيها الوصيف أعلن بأن المقابلات انتهت .

فانسحب الراهب . أما راكستان فقد مكث باهت اللون . ولكي لا يصرخ فقد راح يعضّ على شفته حتى كاد يسيل منها الدم.

فكرة رائعة

*

رأينا إذن أن كاركونيو هو خاطف روزيتّا ، وأن عمليّة الخطف هذه تمّت بأمر من بورجيا ، وأن الفتاة نُقلت إلى تيفولي. هذه النقاط الثلاث تركّزت في رأس راكستان الذي راح يتساءل متعجباً : تُرى ، ما أمر هؤلاء اللصوص الذين تتألّف منهم عائلة آل بورجيا ؟! ثم ما هي الغاية من خطف الفتاة ؟

إن كلمة تيفولي التي التقطها صدفة وبطريقة عابرة هي بمثابة علامة من النور . لأنه راح يتذكر كل ما يُروى عن هذا البيت الريفي الخاص باسكندر بورجيا ، وكل ما يُهمس عن فصول اللهو والمتعة فيه .

وهنا انتابته رجفة قويّة إذ راح يفكر برافائيل الذي أثار في قلبه صداقة حارّة . ورأى أنه من الواجب الإسراع إلى إخباره بالحقيقة ، لذلك فقد أخذ يبحث عن طريقة ينسحب فيها دون أن

يثير الإنتباه ، ولكنه أحسّ فجأة بأن يداً رقيقة قبضت على يده :

– بماذا تفكر أيها الفارس الجميل ؟

لوكريس هي التي كانت تتكلم . فأجهد راكستان نفسه لكي يتغلّب على رجفة القرف الذي انتابته. واستطاع أخيراً أن يبتسم. أما قيصر فقد صاح قائلاً : بأي شيء تتآمران ؟ فتمتمت لوكريس في أذن راكستان قائلة : إلى هذا المساء ، عند الساعة العاشرة ، في القصر الضاحك . ثم أضافت بصوت مرتفع : ها أنذا أترك لك صديقك الفارس يا أخي ، فإلى اللقاء .

فحيّا الفارس تحيّة عميقة محاولاً إخفاء اضطرابه . فقال قيصر وهو يشبك ذراعه بذراع الفارس : أختي بالحقيقة امرأة قادرة ، أليس كذلك ؟

– إنها رائعة يا مولاي !

– أجل ، فهي التي تصرّف شؤون الفاتيكان ، لأن أبي بدأ يحسّ بالتعب . ولكن تعالَ معي لكي أقدّمك إليه ، لأنني من أجل هذا قد انتظرتك .

– أرجوك يا مولاي ... في وقت آخر تقدّمني إليه ، لأنني لست مستعداً الآن للحصول على هذا الشرف .

فقاطعه قيصر وهو يجرّه بذراعه قائلاً له : ولكنني تكلّمت عنك مع والدي وهو يريد أن يراك .

فتبعه راكستان وقد استجمع قواه ليزداد صبراً وتحمّلاً . وبعد برهة وجيزة وجد نفسه في غرفة مفصولة عن ردهة المقابلات بباب قماش . ولا شكّ أن اسكندر السادس كان قد سمع كل شيء

من وراء هذا الباب . أما قيصر فقد اجتاز هذه الغرفة حتى وصل إلى مكتب أبيه . وهناك ، في هذا المكتب ، كان البابا جالساً في أريكة عريضة .

وعندما دخل راكستان رمقه البابا بنظرة سريعة محاولاً النفوذ إلى شخصيّته ، فانحنى الفارس ، إلا أن البابا كان قد أمسك بيده قائلاً بلطف ، إجلس يا ابني ، فأنا لا أستقبلك بوصفي البابا ، رأس الكنيسة ، ولكن بوصفي والد قيصر ولوكريس . لقد سمعت ولديّ هاذين يتحدّثان عن صفاتك حتى تشوّقت إلى رؤيتك . فقال راكستان متلعثماً :

– أيها الأب الأقدس ، لشدّ ما أنا مرتبك من الشرف الأثيل والعطف الذي تسبغه عليّ قداستكم .

أجل، لقد وجد راكستان الكلمة الصائبة:فهو حقيقة مرتبك. لا سيما وأنّ ما عرفه في الليلة الماضية قد ساهم في إعطائه عن البابا فكرة مخيفة يلتقي فيها الحقد والقرف . بينما هو الآن أمام شيخ صالح سوداويّ القسمات ، يبتسم بأدب شهيّ ، وتنمّ حركاته عن تودّد ساحر. ولقد لاحظ اسكندر السادس عمق التأثير الذي سبغه على الفارس ، فمرّت على شفتيه ابتسامة من الرضى ثم قال بلهجة أكثر رقة : خذ راحتك يا ابني واترك جانباً كل تكلّف ! أريدك أن تحدّثني بحريّة كما يتحدث ابنٌ إلى أبيه . فأجاب الفارس وهو يجلس على أريكة وقال : سأحاول إطاعتك أيها الأب الأقدس .

– لقد جئتَ إذن إلى إيطاليا لتعمل في خدمة ولدي قيصر ؟

– كان هذا هو مقصدي أيها الأب الأقدس .

ـ ويمكن أن يكون لك مقاصد أخرى ، يا بني ، فأنت من الرجال البسلاء الذين إذا ما وُجّهوا يمكنهم تحقيق أشياء عظيمة .
فصاح قيصر قائلًا : آه يا أبي ، يا ليتك رأيته يوم جنازة فرنسوا !
فغمغم بورجيا العجوز ماسحاً عينيه وقال: يا لفرنسوا المسكين الذي أدمت خسارته قلبي!ولكن لا يحقّ لي ويا للأسف أن أستسلم لعواطف الحزن الأبويّ ، لأن أمور الدولة هي فوق أحزاني ذاتها.
كلما أمعن البابا في الحديث ، كان راكستان يشعر بأن شيئاً يسرّي عن قلبه ، لأن أملًا مبهماً جديداً أخذ يتسرّب إلى فكره: لعلّ هذا الرجل يفهم حبّه فلا يحمله على القتال ضد بريفيرا. ولعله، هو راكستان ، يُفلح بإثارة الشفقة في نفس البابا على هذه الفتاة ! لذلك فقد قال :
ـ أيها الأب الأقدس ، إني أتوسّل إلى قداستكم لكي تثقوا بأني من أشدّ المخلصين لكم .
ـ أعلم هذا أيها الفارس. فأنت ذو قلب نبيل، ونفسك تحتوي كنوزاً من الإخلاص.وإني أتوجّه الآن إلى إخلاصك هذا ما دمت تقدّمه لي بهذه العفوية المؤثّرة . فقال قيصر: الفارس راكستان، يا أبي ، هو أهل للمهمة التي ستوليه إيّاها .
فارتجف راكستان إذ شعر أن هناك مهمّة ستوكل إليه ، وها هو قداسة البابا بشخصه يحدّثه عنها . ولكن ترى ، ألا يستطيع مقابل ذلك أن يطلب من البابا أن يصرف النظر عن الحملة المعدّة ضد قلعة مونتفورتي ؟ لا شكّ أن الحظ أخذ يبتسم له لأن مصادفة الظروف ستسمح له في آن واحد، بخدمة هذا الشيخ الجليل،وبإنقاذ

الفتاة التي يعبدها . وكان اسكندر السادس يتتبع على وجه الفارس الأفكار التي كانت تولد في قلبه . وعندما تأكد من انفراج وجهه أنه لا شك حاصل على ما يريد ، انطوى على نفسه صامتاً بعض دقائق ثم قال :
ـ أيها الفارس ، لي خصوم يورثونني الألم العميق لأنهم يجهلون حقيقة أفكاري ، ويشوّهون مقاصدي . لقد حاولت طيلة حياتي أن أحارب الكبار لكي أقترب من الصغار ، وأردت أن أحدّ من قوة الأمراء لكي أرفع من شأن المتواضعين الودعاء . ومع ذلك فقد خلق لي تطبيق هذه الأفكار كثيراً من الخصوم الأشداء الذين يحاربونني بأسلحة مسمومة هي أسلحة النميمة ، مشوّهين سمعتي بروايات أخجل من ذكرها الآن .
هنا تذكّر راكستان نماذج من هذه الروايات التي تلصق باسكندر بورجيا أحطّ تهم الفجور وأنذل وسائل القتل ، حتى أن دعوةً ما على الغداء أصبحت تدلّ بمفهومها على حكم قاطع بالموت . أنه تذكّر وهو يرتجف قصة اختطاف روزيتا ، معيداً إلى فكره الحوار الذي جرى بين لوكريس ودون كارلوتيو . ترى ، كيف يمكنه الاعتقاد بأن هذا الشيخ ذا الوجه الجليل هو حقيقة ذلك المسخ الذي كان يتصوّره ؟!
ثم تابع اسكندر السادس قائلًا : لقد سمح الله يا بُنيّ بأن أنتصر على معظم الأشرار ، ولكنهم ما زالوا أقوياء ! وهنا صرخ قيصر يقول : يا أبي ، نستطيع أن نموت في سبيلك إذا لزم الأمر ! لا شكّ أن لي عيوبي ، إذ أنني عنيفٌ شرس أحياناً ، ولكنني

أحمل قلباً خفاقاً في صدري .

وهزّت حماسة قيصر هذه الفارس ، وساهمت في إقناعه أكثر من دبلوماسية البابا المدروسة ، لذلك فقد صاح بحرارة يقول : يوم تموت يا مولاي مجاهداً في سبيل قداسته ، عندئذ نموت نحن الاثنين معاً !

فقال اسكندر بورجيا :

ـ أيها الفارس ، ما سأطلبه منك هو أبسط كثيراً من هذا .

ـ أنا مصغٍ أيها الأب الأقدس .

ـ إليك الموضوع إذن : هنالك بين خصومي من لا يريد إلقاء السلاح بأيّ ثمن .

فظنّ راكستان أن الأمر متعلق بيريفيرا ، ولكنه تنفّس الصعداء عندما سمع البابا يقول مستطرداً : إنه رجل يقوده الغرور فإذا زال هذا الرجل سيعمّ السلام إيطاليا ، وسيتجنّب ولدي قيصر حرباً سوف يضطرّ إلى إعلانها ، كما أن ابنةً بائسة أحبّها كأبٍ رغم انجرافها في حركة التمرّد ستعود إلى السعادة والهدوء .

لا شك أن هذه الكلمات واضحة وتعني بريفيرا . فهل هنالك إذن رجل آخر مرتبط مصيره بمصير بياتريكس ؟ لربما كان يحبها ؟ إنه لسوف يكرهه إذن كرهاً شديداً ! واستأنف البابا قائلاً : أجل ، إذا غاب هذا العدوّ فسيسود النظام أنحاء إيطاليا . فتساءل راكستان قائلاً : لعلّه سيطلب إليّ أن أغتاله ؟!

وتابع البابا كأنه قرأ فكرته يقول : لا أريد سفح دمه ولكنني أطلب خطفه فقط ، والإتيان به إلى هنا . فقال راكستان مندهشاً :

ـ أن أخطفه !

ـ إن هذا الخطف لن يصطدم بعقبات كبيرة من جهة هذا الرجل الذي نريد الإتيان به إلى روما ، لأن هذا الرجل لا يطلب أكثر من أن يعلن خضوعه لي ، ولكنه سجين أصدقائه .

ـ فهمت أيها الأب الأقدس ، فهو عدوك الراغب في أن يكون صديقك !

ـ أتقبل إذن ما أطلبه منك ؟

ـ يبدو لي أن هذه الغزوة لا تحتوي على مخاطر كبيرة ، وكنت أفضّل فرصة أستطيع فيها تعريض نفسي للخطر في سبيل قداستكم !

ـ ولكن اطمئن أيها الفارس ، فالغزوة هذه تقتضي التعرض إلى أهلك الأخطار ، لأنها تقتضي ضبط النفس والشجاعة مع السريّة التامة ، ولأن الرجل الذي يقبلها سيعمل منفرداً ، جامعاً حنكة الدبلوماسي إلى شجاعة الجنديّ العمياء . وإنك تملك جميع هذه الصفات أيها الفارس ، ويمكنك أن تنجح في هذه المهمة . فكّر فقط بأنك ستدخل وحيداً إلى قلعة محصّنة ، وبأنك ستعمل بين أعداء يخشى جانبهم ، وبأنك ستخطف بالقوة أو بالإقناع رئيس الحامية لكي تأتي به إليّ . أي أنك ستعرّض حياتك للموت ألف مرّة !

فابتسم راكستان لفكرة القتال . ولقد خيّل إليه أنه مبصر إحدى تلك المغامرات الرهيبة التي كان يزيّنها له خياله بشاعرية لا يحسّها المرء إلا حيال المخاطر التي تستهوي الفؤاد . لذلك فقد

سارع إلى السؤال قال : ومتى السفر ؟

– حالاً ! ويستطيع قيصر أن يجمع جيشه . أما مونتفورتي ، فلا شك أنها ستخضع لنا بعد أن تفقد قائدها . فردّد راكستان مصفرّ الوجه هذه الكلمة : مونتفورتي ؟!

– أجل ، يجب أن تمضي إلى هناك ، والرجل الذي ستستولي عليه هو الكونت آلسا .

فغمغم الفارس في نفسه وقد انهارت أحلامه وعاودته رؤيا مزعجة ، قائلاً : والد بياتريكس ؟ فصرخ قيصر يقول : ماذا بك أيها الفارس ؟ أما الفارس فقد ردّد قائلاً :

– الكونت آلسا ! وقلعة مونتفورتي !

– نعم ، هل في الأمر من عجب ؟

– أبداً ، أبداً !

– ماذا قررت إذن ؟

– قررت أنني لن أقوم بأي شيء ضدّ الكونت آلسا وضدّ قلعة مونتفورتي .

فجأر قيصر بصوت أجشّ قائلاً : وما هو السبب ؟ فلم ينتبه راكستان للتهديد الكامن في هذا الصوت ، ولكنه انفجر يائساً يقول : أيها الأب الأقدس ، وأنت يا مولاي قيصر ، أصغيا إليّ : لو طلبتما أن أحارب وحيداً جميع أعدائكما ، لقبلت . ولكن من المستحيل أن أحارب ضد الكونت آلسا ومونتفورتي .

فسأله قيصر مرّة ثانية قائلاً ، بينما كان البابا يرفع ستارة باب ويفعل إشارة غريبة : وما هو السبب ؟ فصرخ الشاب التعس الذي

طار صوابه ، يقول : السبب هو أنني أحبّ حباً جنونياً حتى الموت ، وإنني لأفضّل أن أموت ميتة رهيبة على أن أشعر ولو بالخيال ، أنني استحققت احتقارها وحقدها .

– إنك تحب ؟ من ؟ قل من هي ؟

– إبنة الكونت آلسا ، بياتريكس ، بريفيرا !

فجأر قيصر جأرة صاخبة ، وسحب خنجره وهجم نحو الفارس. غير أن اسكندر السادس ارتمى على ابنه بمسكاً معصمه بين يديه وكأنها كلابة ، ثم قال بالإسبانية : إنك مجنون ، دعني أنا أعمل .

فتراجع قيصر بورجيا . فقال البابا عندئذ برقّة غريبة : أيها الفارس إصفح عن إبني قيصر لأنه عنيف . وها إني أراه منذ الآن نادماً على الغضب الذي استسلم إليه . فقال راكستان وقد عاد إليه عقله أمام الخطر ، قال : مولاي حرّ بتصرّفه . فقال البابا :

– وأنت أيضاً أيها الفارس حرّ بعواطفك . ولكننا لا نستطيع أن نحتفظ إلى جانبنا برجل بلغ به الإخلاص إلى هذا الحدّ لمصالح أعدائنا ، لا سيما إذا كان من قدرك . لذلك فإنني أرجوك أن تترك روما بأسرع ما استطعت . ولكن ... كلا ، لا أريد أن أضغط عليك ، بل أعطيك فرصة شهر لعلّ تفكيرك يعيدك إلينا . فأجابه راكستان بحرارة يقول :

– إني أشكر قداستكم ، وإني سأستفيد من هذه الفرصة الممنوحة لي . ثم قال في نفسه : سأترك روما في هذا المساء بالذات.

فقال البابا برقّة متناهية : لذلك لن أودّعك الآن ، راجياً أن نلتقي بك مرّة ثانية . هيّا امضِ بسلام .

فحيّا الفارس قيصر بورجيا ، وانحنى بورع أمام البابا ، ثم خرج من باب رفع اسكندر السادس ستارته لكي يفسح له طريق المرور . عندئذ صاح قيصر حانقاً يقول : ماذا فعلت يا أبي ؟ هذا الرجل هو عدوّي اللدود ، وكانت تكفيه طعنة خنجر واحدة .

– بل هناك طريقة أحسن : المقصلة .

– المقصلة ؟

– أجل ، إنك لم تكتشف حتى الآن قاتل إبني وأخيك دوق غانديه ، أليس كذلك ؟ حسناً ، أنا اكتشفته بنفسي . وعند الغد نبدأ بمحاكمته ، وبعد ثمانية أيام يمكن لرأسه أن يتدحرج ... أما هذا القاتل ، فهو الرجل الذي خرج الآن من هنا . إسمع ، يجب أن نعتقله منذ الآن .

وفي الواقع فقد سُمع بعد لحظات ضجيج معركة عنيفة ، ثم هدأ كل شيء . وإذا برجل يظهر في الباب : إنه دون كاركونيو الذي سأله البابا قائلاً :

– ماذا حصل ؟

– انتهى كل شيء أيها الأب الأقدس ، وأصبح الرجل في الزنزانة مكبّلاً بسلاسل الحديد ... ولقد كلّف الأمر غالياً : خمسة قتلى وثلاثة جرحى .

– لتُنقل الجثث ، وليوزّع خمسون ذهبية على الأحياء من المقاتلين .

– ألم أكن يا مولاي على حق عندما سألتك أن تتخلّى عنه ؟ فأجابه قيصر قائلاً : بلى ، كنت على حق . أمّا فيما يتعلّق بدون

كاركونيو فقد وعدته يا أبي بأن نعطيه خراج كنيسة « القديسة مريم الصغرى » . فقال البابا المزيّف : فليكنْ له ذلك .

فانحنى كاركونيو حتى الأرض ، ثم انسحب مختفياً . عندئذ سأل اسكندر الثالث يقول :

– والآن يا ابني ، أتظن أن خنجرك كان يستطيع اكتشاف قاتل فرنسوا ، مظهراً لشعب روما الغبي أن آل بورجيا يعرفون تطبيق العدالة السريعة الصالحة ؟

– إني معجب بك يا أبي ، لأن حكمتك لامتناهية !

– أعرف هذا . ولكن يلزمنا الآن شخص يأتينا بالكونت آلما .

– يمكننا يا أبي أن نختار أسطور، لأنني حاقدٌ عليه منذ وصول راكستان اللعين .

– ليكن إذن ! إني أوافق على أسطور . ولكن اتركني الآن يا قيصر لأنني أريد محادثة أختك لوكريس .

الحلقة الخامسة

*

كان راكستان قد خرج من عند البابا وابنه قيصر مسرع الخطى مبتعداً عن قيصر بورجيا، فيما كان بالأمس فخوراً بأن يقود الحملة في خدمته . وإذا به يشعر فجأة بمن يمسكه من ذراعيه ويشدّه

بعنف، وإذا برأسه مغلّف بقبّعة سميكة شدّت حول عنقه بحبل. فلم يستطع أن يفوه بصرخة واحدة لأن القمع القماشيّ كان يخنق أنفاسه . إلا أنه جمع قواه وفتل عضلاته حتى تصلّبت كالفولاذ ، وبهزّة مفاجئة استطاع التملّص من العقال المزدوج الذي يشلّ ذراعيه . وإذا بصوت كار كونيو يصيح قائلاً: قبضنا عليه! فأجاب راكستان قائلاً : كلا أيها الوغد !

ثم قفز قفزة واحدة وهو طليق اليدين ، واحتمى بأقرب زاوية إليه وهمّ بأن يمتشق سيفه ، إلا أن الراهب سبقه إليه وانتزعه منه وهو ينفجر ضاحكاً ويقول بسخرية : لقد اقتلعنا ناب الخنزير. إلا أن راكستان أجابه بحزم يقول: يبقى هذا أيها الجبان! ثم شهر من حزامه خنجراً قصيراً ذا حدّ صلب وهوى به أمامه بعنف وعلى غير ما تحديد ، فجاءت ضربته في الفراغ . عندئذ انتظر لاهثاً والخنجر مرفوع في يده اليمنى ، بينما راحت يده اليسرى تحاول عبثاً التخلّص من القبّعة، فاسودّ وجه كار كونيو من الغضب الشديد وجمع رجاله في نصف حلقة حول راكستان الملتصق بالزاوية . وكان اثنان منهم يحملان حبالاً طويلة . وبعد لحظة أشار الراهب بيده فهجم الرجال كتلة واحدة متراصّة ، محتدمين مع الفارس في معركة ضارية راح يتخلّلها نشيج خفيف ، غير أنها لم تدم أكثر من دقيقة واحدة . وكانت ذراع راكستان ترتفع كل ثانية وتهوي فينغرز الخنجر في صدرٍ أو في كتفٍ أو في ذراع ، هكذا كما تقوده الصدف . واستمرّ راكستان يهوي بخنجره على هذه الكتلة المتحرّكة حوله كالزوبعة . ولكنه سقط فجأة ، لأن كار كونيو

نجح بلفّ الحبل حول ساقيه . عندئذ انتهى كل شيء . فحُمل راكستان موثوقاً ورأسه ما يزال داخل القبّعة . إلا أنه شعر أنهم يهبطون به على درج إثر آخر ، ثم يدخلون في أروقة عديدة ، ثم ينزلون من جديد ، حتى وصلوا إلى باب ففتحوه وقد صلصل حديد على حديد . عندئذ شعر راكستان ، بعد أن وضع على الأرض ، ببرد جليديّ ينزل على كتفيه . كما أنه شعر بأن زنديه وكاحليه مضغوطة في حلقات ، وبأن صرير مفاتيح بدأ يُسمَع فوق أضلاعه وإذا بصوت كار كونيو يقول :

— إنزعوا القبّعة عن رأسه .

عندئذ ظلّ راكستان برهة وجيزة مبهور البصر بنور مشعل كان متّقداً بالقرب منه ، ثم رأى نفسه في قبوٍ ضيّق وشاهد أنه مربوط بأربع سلاسل مغروزة من أحد طرفيها بالجدار ، ومنتهية عند طرفها الآخر بحلقات مغلقة بواسطة أقفال متينة . وكان لهذا القبو سقفٌ عالٍ وجدران سوداء مطليّة بالقطران تدبّ بين حجارتها عناكب قبيحة المنظر . أما الأرض فقد كانت من التراب المرصوص تنتشر فوقها بقع مياه آسنة توزّع روائح كريهة . ولم يكن فوقها مقعد للجلوس ، ولا قشّ للنوم .

وكانت سلسلتا الرجلين تسمحان للسجين بأن يسير خطوتين فقط إلى الأمام ، وكانت سلسلتا المعصمين تسمحان له بتحريك ذراعيه وكتفيه ، وباستعمال يديه . وكان بقربه إبريق ماء مغلّف بالقصب ، وفوق الإبريق رغيف خبز يابس [1] .

١ — جميع هذه الاوصاف والاوصاف اللاحقة حقيقية ، لا سيما فيما يتعلق بزنزانة الاقامي التي كانت موجودة في غالبية سجون العصر والتي كانت رهيبة تثير الرعب .

أما قصر سانت آنج فقد كان يحتوي ستة صفوف من السجون المبنية الواحد فوق الآخر : صف في الطابق الأول ، وصف في الطابق الأرضيّ ، والأربعة الأخرى تحت الأرض . وكان كل صفّ يحتوي عدداً من الزنزانات يتضاءل شيئاً فشيئاً . فالطابق الأول يحتوي اثنتي عشرة زنزانة ، أما تحت الأرض فقد كان الصفّ مؤلفاً من زنزانة واحدة . حتى أن هذه السجون المتراكبة كانت تؤلف هرماً معكوساً غرزت قمّته في الأرض . ولقد كان قيصر بورجيا يدعو هذه السجون « حلقات الجحيم » .

وكانت زنزانات الطابق الأول مخصصة لضبّاط القصر الموقوفين. أو للأسياد الرومانيين الذين ارتكبوا هفوة صغيرة . وكانت هذه الزنزانات تؤلّف الحلقة الأولى . أما الحلقة الثانية فإنها مؤلفة من الطابق الأرضي الذي يحتوي على سجون عساكر الحامية . من هنا يبدأ الولوج تحت الأرض ، فنجد أولاً صفاً من الزنزانات المنارة والمهوّاة بنوافذ صغيرة ذات قضبان حديدية : إنها الحلقة الثالثة المخصّصة للصوص والقتلة . وتنزل بعدئذ طابقاً آخر فندخل إلى الحلقة الرابعة : وهي كناية عن خمس أو ست زنزانات لا سلاسل فيها ، وفي كل منها مقعد خشبيّ مع قليل من القش : هذه الحلقة للمحكوم عليهم بالموت . وتنزل بعد ذلك إلى طابق آخر فإذا نحن في الحلقة الخامسة المؤلفة من ثلاث زنزانات تشبه الزنزانة التي وصفناها سابقاً . في هذه الزنزانات يُسجن المتّهمون الخطرون الذين سيقدّمون إلى المحاكمة بسبب جرائم هائلة . وأخيراً تأتي الحلقة

السادسة المؤلفة من زنزانة واحدة على عمق خمسة طوابق ضخمة تحت الأرض ، وهي كناية عن بئر سوداء تتألف دائرتها من بعض خطوات . وكان التعس الحظ الذي يُدلّى إلى هذه اللجّة بواسطة حبل ، لا يستطيع الجلوس ولا النوم لأن المساحة مفقودة ، ولأن الماء يغمر قعر هذه البئر حتى ركبتَي السجين . وبا لهذا الماء الآسن الموبوء الذي ألقي فيه بعدد كبير من الأفاعي والعلاجيم والعقارب الكبيرة . وعندما كان يدلّى بالمحكوم إلى هذه البئر، كانت تهجم عليه العلاجيم والأفاعي والعقارب الجائعة .

أما راكستان فقد كُبّل بالسلاسل في إحدى الزنزانات الثلاث من الحلقة الخامسة ، وذلك بعد نقله من الفاتيكان إلى قصر سانت آنج داخل نفق يشبه النفق الذي يعرفه البابا وقيصر ولوكريس وحدهم . وعندما نُزع القناع عن رأسه ألقى حوله نظرة سريعة ، وكان كاركونيو قد صرف رجاله وخرج بعد أن رمق السجين بنظرة حاقدة .

وعندما أصبح راكستان وحيداً تمتم قائلاً:ها قد هرب العدوّ. ولقد قضي عليّ !

ورغم أنه كان شاباً زاخراً بالحياة ، فقد بدا له الخلاص من انتقام آل بورجيا مستحيلاً.ولكنه بالرغم من وضعه المفزع الرهيب كنا نراه آنذاك أبعد عن اليأس منه في تلك الساعة التي خرج فيها من حجرة طريق المدافن وهو مقتنع أنه منفصل عن بريفيرا إلى الأبد . ذلك أنه بات يشعر الآن بتحرّره من قيصر بورجيا ، ولو

كان طليقاً لمّا استطاع ساعة واحدة أن يُعلن عداءه لهذا الرجل الذي أسبغ عليه جميع دلائل العطف . أجل ، إن قيصر قد حرّره لأنه اعتقله دون أيّ سبب ، وهذا الاعتقال هو الآن بمثابة خلاص له ، لأنه لو استعاد حريته الآن لكان يستطيع دون أي وسواس أن يضع حياته في خدمة بريفيرا .

ثم أخذت الساعات تجري بعضها إثر بعض . فراح راكستان يحاول اقتلاع كلاّب السلاسل المغروز في الجدار الحجريّ ، ولكنه لاحظ أنه لو استعمل أداةً صلبة لكان بحاجة إلى عدّة أيام لكي ينتزع الحديد من الجدار . ثم عاد يجرّب كسر الأقفال حول معصميه ضارباً الواحد على الآخر ، ولكن دون نتيجة غير إثخان ساعديه بالرضوض . ثم أخذ آخر الأمر يشدّ على السلاسل راجياً أن تكون حلقةٌ منها بالية فتنفصم ، ولكن عبثاً . عندئذ جلس وقضم كسرة من الخبز ، ثم إذا بالتعب يتغلب على القلق والاضطراب ، فهجع راكستان في مكانه ونام .

ولكنه ما لبث أن استفاق فجأة وقد سمع جلجلة المزالج في زنزانته التي دخل إليها الضوء . ثم ولج إليه حارسان يحمل كلّ منهما مشعلاً ، ومن خلفهما أربعة مسلحون، ثم ثلاثة رجال مقنّعين وقفوا أمامه . أما في المعبر الخارجي فقد لمح راكستان رماحاً وحراباً .

وإذا بأحد الرجال المقنّعين يدنو منه سائلاً يقول :

— أهو أنت الفارس راكستان ؟

— نعم يا سيدي ، وانت ؟

— أنا قاضي المحكمة العليا ، أصدر أوامري دون استئناف أو

تمييز باسم العدالة البابويّة والعدل الإلهي . وإنك متّهم بالمجيء إلى إيطاليا للتآمر على حياة قداسة البابا وعائلته . فأجاب راكستان قائلاً:

— بل جئت إلى إيطاليا لأضع في خدمة الأمير بورجيا سيفاً قاطعاً .

— هناك شهود يُثبتون بأن نواياك مختلفة عن الهدف الذي تعترف به ، ولكننا لا نتّهمك إلا بجريمة القتل . فقال راكستان معجباً أكثر منه متأثراً :

— جريمة القتل ؟

— لقد طعنت بخنجرك فرنسوا بورجيا ، دوق غانديه .

فطار صواب راكستان ، وظلّ صامتاً يهزّ كتفيه .

— أجب على التهمة ... أرى أنك صمتّ ؟

— صمتّ لأن هذه التهمة باطلة . ولعلّكم تعرفون القاتل أكثر مني . لقد شككت حتى الآن بما رأيت سابقاً ، وإني أتأكد الآن أنني لم أخطىء . ألا اخبروا غبطة قيصر بورجيا أن يسهر جيداً على محو آثار الدم عند الطعنة المقبلة من خنجره .

فارتجف الرجل الواقف إلى يمين القاضي الذي سارع إلى القول: عبثاً تحاول التأثير على المحكمة وعلى تغيير مجرى العدل . هل يمكنك الإثبات بأنك لم تطعن فرنسوا دوق غانديه ؟

فأخذ راكستان يصفر لحناً من ألحان الصيد . فصاح القاضي قائلاً : أكتبوا أن المتهم قد اعترف ! فأجاب راكستان مسرعاً : أكتبوا أيضاً أن قاضي المحكمة العليا يكذب في هذا .

ودون أن يجيب أخذ القاضي ورقة راح يقرأها بسرعة ،

منتهياً بهذه الكلمات : يُحكم عليك بالموت ، وينفّذ فيه الحكم بعد ثلاثة أيام ... ثلاثة أيام فقط لكي يستعطف الرحمة السماوية .

– وأنت لك حياتك بكاملها لكي تحاول غسل ضميرك من هذه الجريمة التي ترتكبها .

وبعد عدّة لحظات كان راكستان وحيداً . وقد تمّت هذه المحاكمة بسرعة جعلت راكستان يتساءل إذا لم يكن حالماً . ولكنه بعد قليل استطاع أن يستعيد بوضوح جميع مراحل هذا الفصل ، لأن كلمات الحكم نفسها عادت الآن تتجاوب في أذنيه :

– يحكم عليه بالرمي في الزنزانة الأخيرة حيث يقضي اثنتي عشرة ساعة لكي تعود الندامة إلى هذه النفس الفاسدة ثم يُنقل من هناك حياً أو ميتاً لكي يجري قطع يديه في الساحة العامة . ثم تقطع عنقه على سندان العدالة بواسطة فأس أو ساطور غليظ . وبعدها تعرض جثته على خشبة طيلة يومين بعد تنفيذ الحكم .

ولكن ماذا تراها تكون هذه الزنزانة الأخيرة؟ إن راكستان ليجهل كل شيء عنها ، ولكنه يدرك تماماً أن الجلاد سيقطع عنقه . عندئذ انتقل بتفكيره إلى قيصر بورجيا ، وهمهم قائلاً : زه ، زه ، من هذا السيد الذي اخترته ، والذي كان سيعطيني بدل دروس المجد دروساً في القتل ! ولكنني تخلصت الآن من دروسه !

روزا ساحرة حي الغيتو !

*

يذكر القارىء أن رافائيل سانزيو، بعد خطف امرأته الصبية، كان قد عدا مسرعاً إلى حي الغيتو ليخبر الماغا بما حدث له، ولكنه لم يجد حينئذ مربيّة روزيتا .

أما الماغا فبعد أن خرج رافائيل من بيتها مصطحباً معه عروسه لافورنارينا ، وقعت في نوبة من اليأس وراحت تصيح في نفسها : إنني وحيدة الآن ! وحيدة في العالم ! وحيدة مع أفكاري الملعونة ومع الانتقام !

ولكن عاد إليها الهدوء فجأة ، عندئذ دخلت إلى الكوخ الذي استقبلت فيه البابا منذ حين ففتحت الصندوق الخشبي القديم ، وأخذت منه الصندوقة الصغيرة، ثم ملأت حزامها بالذهب والحجارة الكريمة . وعندما فرغت من عملها هذا ، قالت بصوت مرتفع :

– انتهى الآن كل شيء ، ولن تدعوني فيما بعد أمّها ، ولم أعد الآن لا أماً ولا زوجةً ولا عشيقة : الآن أنا الانتقام الهارب في الليل .

ثم خرجت . وبعد عشر دقائق كانت أمام القصر الضاحك ، فدارت حوله ، وعندما بلغت من البناء النقطة التي تكاد تتصل بمياه التيبر وقفت أمام بابٍ فتحتْه بمفتاح صغير . وكان من الراجح أن روزا العجوز لم تكن تستعمل هذا المفتاح للمرّة الأولى، يدلّ على ذلك اجتيازها باحة صغيرة دون تردّد ، ودخولها في ممرّ طويل ثم

تسلّقها درجاً ضيّقاً في نهاية هذا الممرّ . وعند بلوغها الطابق الثاني اتجهت الماغا بخطىً ثابتة في متاهة الممرّات التي يتفرّع بعضها من بعض . وكانت تسير صامتة حتى وصلت إلى باب فنقرت عليه بطرف ظفرها . وبعد أن انتظرت قليلاً عادت فنقرت عليه مرة ثانية ولكن بطريقة خاصة . فشُقّ الباب بعد دقيقة من الانتظار وخرج منه صوت يتمتم قائلاً : هذه أنت يا سنيوريتا ؟ يا للعذراء مريم ! كم يدكِ باردة ... إجلسي قليلاً بينما أنير شمعة .

وجُرّت الماغا بيدها ثم جلست دون أن تنطق بكلمة واحدة . أما الرجل الذي استقبلها بصوته فقد مضى وأنار شمعة بدا على نورها أنه شيخ صغير الجسم يشبه بسحنته مفيستوفليس ، ويعرفه القراء لأنهم رأوه يدخل إلى نزل « جانوس الجميل » حاملاً لراكستان كيساً من النقود الذهبية ، أي أنه مدير القصر الضاحك : السنيور جيا كومو. هنا قال الشيخ الصغير للماغا : ضعي هذا الشال الصوفي على كتفيك يا سنيورا ، وهذا المسند تحت رجليك . كيف حالكِ الآن ؟

وكان يقف باحترام وإجلال أمام العجوز الجالسة .

– يا جيا كومو ، أريد أن أراها .

فانتفض الشيخ وجمع يديه قائلاً : ماذا تقولين يا سنيورا ؟

– أريد أن أرى لوكريس .

– ولكن كيف تريدين أن أوقظها من النوم لكي أخبرها بزيارة كهذه ؟

– من يحدثك عن هذا ؟ لا أريد أن يوقظها أحد . أريد أن

أدخل إلى غرفتها ، هذا كل شيء .

– أثناء نومها ؟

– أجل ، وما يمنع ؟

– ولكن يمكنها أن تستيقظ فتقتلك ! إنها نمرة !

– إنك تتكلم يا جيا كومو حيث يجب أن تطيع . ألم بعد باستطاعتي أن أعتمد عليك ؟ يا لهؤلاء الرجال، يقسمون يمين الطاعة ويؤكدون استعدادهم للموت عند الإشارة الأولى ثم إذا بهم ينكثون !

فارتمى جيا كومو على ركبتيه،وقد انطفأت ابتسامته الساخرة وحلّ محلها حزن حادّ انتشر على وجهه المحفّر بالأخاديد . ثم قال بصوت مختنق : مولاتي ، يا مولاتي العزيزة والنبيلة ، إنني ما زلت مستعداً للموت في سبيلك .

– ولكنك لست مستعداً لإدخالي إلى غرفة لوكريس، أليس كذلك؟ إسمع يا جيا كومو ، عندما أتيتَ من إسبانيا كنت تتبع آثار الرجل الذي أقسمتَ على قتله ، أصحيح هذا أم لا ؟ فقال مدبّر القصر : هذا الرجل كان قد سمّم لي حياتي . فقد كان لي في « جاتيفا » امرأة كانت تحبني وكنت أعبدها . فإذا به ينصب لها فخاً ويوقعها فيه ، فبقيت ثمانية أيّام أفتش عنها يائساً ، وإذا بها تعود في مساء يوم إلى البيت ، فتروي لي الحقيقة الرهيبة ، وهي أن الرجل قد اغتصبها ، وبعد أن شبع منها تركها تذهب . وعندما أنهت امرأتي كلامها انتحرت بخنجر أمام عيني . ولو لم تفعل لنحرتها أنا بيدي . عندئذ أقسمت فوق جثتها بأن أنتقم لها،ورحت

أسعى وراء الرجل وأراقبه فإذا به يأتي إلى روما ويصبح كردينالاً ثم بابا ... ولكنه أصبح على درجة عظيمة جداً من السلطان حتى لم يعد لي أمل في الوصول إليه . وإذا بي أصادفك في هذا الوقت يا سنيورا فأعرف ، رغم ثيابك الحقيرة ، أنك السيدة الرفيعة المقام التي كنت أحياناً أشاهدها في «جاتيفا» راكبة في عربتها الفاخرة .

ـ هذا صحيح يا جياكومو ، كنتَ حزيناً فعزّيتك ، وفقيراً فأعطيتك ، وضعيفاً فوعدتك بالمساعدة . ولقد وفيتُ بوعدي .

ـ أجل ، لأنك أنقذتِ الكنز الذي كان باقياً لي : ابنتي نينا التي جلبتها من جاتيفا ، والتي كان جمالها الرائع ينسيني ، كلما نظرت إليها ، أن أمها كانت ميتة .

ـ تابعْ يا جياكومو ، وبرهن لي عن قوّة ذاكرتك .

ـ تأكّدي يا سنيورا أن ذاكرتي بدونكِ ضعيفة . ولكنني أعرف أنني قضيت عدة سنوات في روما قبل أن أدخل بفضل نصائحك وبفضل تأثيرك أنت ، إلى هذا القصر كمدبّر ثانٍ . وبعد أن اجتهدت لربح ثقة الأميرة لوكريس أصبحت في مركز المدبّر الأول. وإذا بكِ في مساء أحد الأيام، وكان عمر نينا أربع عشرة سنة ، تأتين في طلبي. كانت نينا تعيش مع الخادمة في بيت كنا قد استأجرناه بناءً على نصيحتك، ولم تكن تخرج إلا عند المساء. وإني أذكر أنك في ذلك المساء قد أنقذت ابنتي من خطر مداهم كان سيقضي على آخر ما تبقّى في قلبي من حب . ذلك أن قيصر ابن البابا كان قد رأى نينا ، فأراد أن يغتصبها كما اغتصب أبوه امرأتي. ولكنك أسرعت تناديني فذهبنا معاً إلى جوار البيت الذي تقطنه

نينا ، ثم اختبأنا ورحنا نراقب ما يجري حولنا . لم أكن أعرف ماذا تقصدين ، ولكننا أبصرنا فجأة دزينة من الرجال يتقدّمون ويدخلون إلى البيت . فأردتُ أن أنطلق نحوهم صارخاً : نينا ! ابنتي نينا ! ولكنك قلت لي عند ذاك : إنها في أمان ، أصمت !

لقد كنتِ عالمة بما سيحدث ، فهرّبتِ طفلتي دون معرفتي . وإذا بالرجال يمرّون أمامنا مجدّفين ، وعلى رأسهم قيصر بورجيا . منذ ذلك الحين أقسمت لك عرفان الجميل كما أقسمت الحقد على آل بورجيا .

ـ وإنك تبرهن عن عرفانك الجميل بمنعي عن رؤية لوكريس؟

ـ كلا يا سنيورا ! لا أمنعك عن شيء . أطلبي حياتي فأقدّمها لك . ولكنني كنت خائفاً عليك من الدخول على الأميرة .

ـ كنت خائفاً عليّ؟ ولكن يا جياكومو، ألا تريد أن تنتقم؟

ـ بلى ، أريد الانتقام ! فأنا لا أعيش إلا من أجله . ولكم كان حقدي قوياً لأنني استطعت طيلة هذه السنوات أن أفرض عليه الصبر والانتظار !

ـ حسناً يا جياكومو ! ولكن ألا تفهم بأنني أنا أيضاً أريد أن أروي ظمئي للانتقام ؟ ألا تفهم أن حقدي يطلب الهدف ذاته الذي تطلبه أنت ؟ يجب أن تفهم على الأقل أن ساعة الانتقام قد دقّت دقتها الأخيرة .

لفظت الساحرة هذه الكلمات بحيوية غريبة وبلهجة صارمة ، وقد ارتاحت قسمات وجهها وكأنها استعادت شبابها ولو إلى حين . عندئذ صاح جياكومو قائلاً :

– يخيل إليّ أنني أراك شابة كما كنت من قبل .

– إن الحقد هو الذي يعيد إليّ الشباب .

– أجل ، إنك الآن كما كنت في إسبانيا ، في « جاتيفا » .

– إسبانيا ! جاتيفا ! كم هذا قديم ! قديم !

وراحت تتكلم ببطء حتى أن جيا كومو كاد لا يسمع ما تقول:

– لكم كنت سعيدة وغنية ! وكم بعثت الفرح في عائلة فانوزّو الوجيهة حتى أخذ يتسابق على طلب يدي أشرف الأسياد معجبين بجمالي وأنا في الثامنة عشرة من العمر . ولكنني لم أكن أحلم إلا بسعادة العيش لأن والدي ووالدتي كانا يعبدانني كصنم إلهيّ حتى أنهما كانا يفرضان نزواتي كقوانين على قصر فانوزّو . عندئذ أخذ الشبان يتخاصمون على ابتساماتي ، ولكنني لم أحب واحداً منهم . حتى أتى رودريك بورجيا فحلّ ضيفاً على عائلة فانوزّو التي استقبلته وأكرمته كما يكرم أشراف إسبانيا ضيوفهم من الامراء ، لا سيما وأنه من سلالة ملوك آل أراغون ، وابن أخ البابا كاليكوست الثالث .

فصاح جيا كومو متعجباً وبلهجة عميقة الحقد ، قال : رودريك بورجيا ذاته ! مغتصب النساء !

فلم تجب الماغا ، ولكنها تابعت قصتها قائلة : وعندما رأيته فهمت معنى الحب . لأنه كان فاتناً قدريّ الجمال ، تقع عيناه في قلبي موقع العاصفة . وتعشقته روحي حتى أنها لم تعد ترى سعادة إلا في امتلاكه إلى الأبد . وعندما رحل عن قصرنا لم يكلف نفسه إلا إشارة واحدة، فتبعته تاركة أبي وأمي وبيتنا والعائلة، مسرورة

بأن أكون أمة له، دون أن أتساءل عن سبب ذلك أو عن غايته.

وكانت الماغا كأنها في نوبة من تلك النوبات التي تخرج فيها جميع الأسرار النائمة في القلب إلى الشفتين ، أي أنها كانت تتكلم كأنها وحيدة ولا يسمعها أحد . وتابعت تقول :

– ومنذ ذلك اليوم ابتدأت قصة الاستشهاد في حياتي ، ذلك أنني عندما ذكرتُ لرودريك قسَمه بأن نجعل حبنا شرعياً بواسطة الزواج ، انفجر ضاحكاً. فاقتنعتُ عندئذ بأن الحب في نظره ليس إلا رياءً. وانقضت سنوات عديدة مات خلالها أبي وأمي من شدّة اليأس . وكنت خلال هذه السنوات قد رُزقت أولاداً ، فحاولت أن أرتبط في الحياة بعاطفة الأمومة مستعيضة بها عن الحياة الزوجية الحقيقية . ولكن رودريك أتاني يوماً متأففاً من وجودي ، وإذا به بعد يومين يتركني ويغيب مخلّفاً وراءه بطاقة كتب عليها هذا السطر الوحيد : « ها أنذا أبتعد عنك ما دمتِ ترفضين الابتعاد عني » . فأسرعت إلى غرفة الأولاد فإذا هم قد اختفوا ! فأصابني عارض من الجنون،ومرضت حتى كدت أشرف على الموت.ولكن عندما استعدتُ صحتي رأيت أنني ما زلت أحبّ رودريك .

ثم أضافت هذه المرأة التي كانت تدعى روزا فانوزّو قائلة : يا للأسف ، ويا لتعاستي وجبني ! لقد أحببته طيلة سنوات عديدة . أحببته من بعيد وتبعته إلى روما ثم قضيت حياتي بعدئذ وأنا أحصي عدد عشيقاته المتجدّدات كل يوم ، حتى أخذت تنمو في قلبي رويداً رويداً حاجةٌ إلى الانتقام . ثم أخذ الحقد يتصارع مع الحب في نفسي حتى غلبه وانتصر عليه .

– لقد تألّمت إذن كثيراً ! وأولادك ماذا حلّ بهم ؟

– عندما كبروا أردت أن أقول لهم الحقيقة ، فإذا بقيصر يريد أن يقتلني ، وإذا بفرنسوا يريد أن يسجنني ، وإذا بلوكريس تقذفني إلى الطريق .

– سنيورا ، لشدّ ما تضرّ بك هذه الذكريات المريرة !

– بل إنها تنفعني يا جياكومو ، لأنني عندما أنقّب جروح قلبي يخيّل إليّ أن الألم يخف ، والألم هو الحب . إسمع : بين جميع اللواتي أحببتهن رودريك كنت أكره واحدة أكثر من سواها ، لأن رودريك كان يحبّها حقيقة . ولقد حبلت هذه المرأة منه وولدت له طفلاً هو ابنة صغيرة كنت أكرهها كرهاً شديداً . ولكم فرحتُ عندما ترك الوالدان الجبانان الشرسان هذه الطفلة .

– إنك تخيفينني يا سنيورا !

– أما الأم فإنها الكونتيسّة آلما التي قبلت أن يُلقى بابنتها على درج كنيسة الملائكة . وجئت فالتقطت الفتاة ، إلا أن جميع أحقادي انصبّت على رأس هذه البريئة ، فأسلمتها إلى مربية شرسة أخذتْ تذيقها صنوف العذاب ، حتى ذلك اليوم الذي شعرت فيه بأنّ قلبي انفطر أمام العذاب الرهيب الذي كان يُفرَض على الطفلة . وكان عمرها عشر سنين ، فنقلتها إلى بيتي وهي مصطكة المفاصل من الخوف والألم ، فعاشت فيه وكأنها شعاع من الشمس يدخل إلى الجحيم . وسمّيتها روزيتّا ، فراحت تنمو ويزداد حسنها الذي لا يوصف ، وراحت تزداد بهجتي بها حتى كادت تُنسيني عاطفة الانتقام . ولكن إذا بشيخ طاعن في السن يضطرم اشتهاءً لروزيتّا فيشغف

بها ويريد اغتصابها ! أوَتدري من هو هذا الشيخ يا جياكومو ، إنه رودريك بورجيا ، اسكندر السادس ، أبو أولادي ، وعشيق الكونتيسّة آلما ، ووالد روزيتّا بالذات ! فأكمل جياكومو مرتعداً : وقاتلُ امرأتي ! وقالت الماغا :

– ولكنْ كما أنقذتُ ابنتك نينا ، هكذا أنقذت روزيتّا التي ستترك روما في هذه الليلة بالذات بطريقة أمينة . فهل تفهم الآن يا جياكومو أن الساعة قد حانت للانتقام مني وعنك ؟ لقد ترددتُ كثيراً يوم كانت روزيتا إلى جانبي ، أما الآن فلم يبقَ لي إلا معاقبة الذين بسطوا على حياتي الألم .

– وإني أساعدكِ بكلّ قواي .

– حسناً ، يجب إذن أن يأتي رودريك إلى مقابلتي .

– أتعتقدين أنه يوافق على مقابلتك ؟

– أنا أكيدة من هذا . لأنه يتمنّى أن يعرف كيف أصبحت الماغا وأي مصير هو مصيرها الآن . أتتكلّف بإخباره أنت ؟

– هذا بسيط يا سنيورا .

– أتعرف هيكل العرّافة ؟

– في تيفولي ، قريباً من الفيلا ... لقد دخلتُ إليه مرّة مع لوكريس .

أعرف أسباباً قوية تجعلني أؤكد أن البابا سيقضي فيه بعض الأيام ، لأنه الكهف الذي يقضي فيه مباذله . لذلك سأنتقل إلى هناك ، إلى مغارة طبيعية تطلّ على الهاوية وتبعد فقط عشرين خطوة عن هيكل العرّافة . لقد سكنت قديماً في هذه المغارة ،

وإلى هذه المغارة سيأتي رودريك لمقابلتي . وهو سيخفّ إلى رؤيتي شرط أن تبلغه الخبر .

ـ سأبلغه يا سنيورا ، إعتمدي عليّ .

ـ إنك لا شك خادم أمين . والآن ما دمت تعرف أني والدة لوكريس ، فهيا خذني إليها .

ـ ولكن احترسي يا سنيورا ، فقد تقتلك !

ـ كلا يا جياكومو ، إنها لن تقتلني . ثم يلذ لي أن أتعرّض لمثل هذا الخطر لأنني أريد أن أرى ابنتي قبل أن أقول للماضي كلمة الوداع !

ـ تعالي إذن يا سنيورا ، إني أطيعك .

ثم أطفأ الشيخ الشمعة وأمسك يد الماغا وراح يجتاز بها ممرات وسلالم رخامية ورُدَهاً عديدة حتى دخلا إلى حجرة صغيرة ضيقة . فتمتم الشيخ قائلاً : هنا ! لا أحد يدخل إلى هذه الحجرة ، والباب الذي دخلنا منه لا يفتح أبداً لأن لوكريس وحدها تملك مفتاحه . ولكنني صنعتُ مفتاحاً مثله وفق أوامرك . أنظري : هنا غرفة لوكريس ، والسرير في صدرها ... أمّا الوصيفات فإنهنّ ينمن في الغرفة المجاورة .

ـ إنتظرني هنا !

ثم راحت تفتح بتحفّظ شديد باباً صغيراً يصل الحجرة الصغيرة بغرفة النوم . وعندما اجتازت أم لوكريس هذا الباب تركته مفتوحاً ووقفت برهة تقول في نفسها : « إنها هنا ! ابنتي ! ابنتي التي رمت بي إلى الشارع دون أن تشفق على دموعي . وأنا الآن

لن أشفق على شبابها ولا على حسنها . يا لها من مسخ مقيت كإخوتها الآخرين وكأبيها ! سيأتي دورهم جميعاً . ولكنها هي التي يجب أن تموت أولاً ! »

وقبل أن تنهي هذه الكلمات كانت قد فتّشت في صدرها وأخرجت قمقماً صغيراً فتحته ببطء ، ثم راحت تقترب من سرير لوكريس كأنها لا تمشي بل تنساب في الظلام محدّثة نفسها تقول: « نقطة فقط... نقطة على شفتيها... وستنتهي لوكريس !وسيكون نزاعها مخيفاً . أما بورجيا العجوز فسيشعر غداً بأول ضربة من ضربات الانتقام » .

وظهرت لها لوكريس على ضوء السراج الصغير ، نائمة وعلى شفتيها ابتسامة هاربة . وكان ذراعها متدلياً خارج السرير، وذراعها الثاني يسند رأسها، حتى أنها بدت هكذا متناهية الجمال. أما العجوز فقد وقفت تتأمل لوكريس صامتة ، فرأتها تتحرك قليلاً ، وتتنهد، وتلفظ بعض الكلمات ، ثم تزداد ابتسامتها رقة وروعة .

وعندما استعادت لوكريس سكون نومها العميق ، اقتربت العجوز من قمة السرير موسوسة في نفسها تقول : « إنها تحلم أحلاماً سعيدة لأن ابتسامتها هادئة . وها إني أنحني على سريرها كما كنت أفعل قديماً ، ولكنني الآن أريد أن أقتلها » .

عندئذ أحسّت العجوز بزفير يضغط على صدرها، فتابعت قائلة: « كم كنتِ تحبينني قديماً فتبتسمين لرؤيتي وتسيرين ويدك في يدي إلى النزهات الطويلة حيث كنتُ أقود خطاك العاثرة ! وكنتِ تجرّينني جرّاً ، وتقودين حيثما شئتِ أمّكِ الصغيرة » .

هنا كانت الساحرة قد انحنت حتى كادت تلمس وجه لوكريس، فإذا بهواجس غريبة تستولي عليها، لأنها تذكرت لوكريس ابنتها وهي صغيرة يوم كانت تهزّها على ذراعيها الحنونين. آه، يا لقدرة الطبيعة عندما تتألق بالحنان الغريب!

« لكم كنتِ شرهةً وأنت صغيرة ترضعين من ثديي! حتى أنك في أحد الأيام عضضت ثديي فسال منه الدم، لأن أسنانك كانت حادّة ».

وانهمرت دموع الساحرة العجوز، فأغلقت القمقم بحركة آليّة وأعادته إلى حزامها. ولم يكن ما سقط على شفتي لوكريس النائمة نقطة من السم بل دمعة من دموع أمها! دمعة فاترة، بل دمعة سامية تحتوي هذا الكنز الثمين الذي يدعى قلب الأم.

وعندما لامست الدمعة الحارة المالحة شفتي لوكريس، أحسّت برجفة سرت في جسمها، ثم راحت تغالب النعاس طيلة ثانية، وعندما أفاقت رفعت يدها إلى شفتها وصرخت خائفة وهي تقفز من سريرها قائلة: من تُرى هذا؟

وبعد لحظات أفاقت وصيفاتها وأقبلن مسرعات يحملن المشاعل، بينما راحت لوكريس توزّع عليهن أوامرها الغاضبة تقول: فتّشن كل مكان! فلقد شعرت بشيء هنا على فمي يشبه قبلة شبح من الأشباح.

ففتّشت النساء كل مكان، ولكنهن ما عثرن على شيء. ذلك أن جياكومو كان قد اقتاد الماغا حتى الباب الذي دخلت منه إلى القصر. ولقد سألها وهي موشكة على الابتعاد قائلًا: هل أنت

مسرورة الآن؟ ألم ترَي السيدة لوكريس؟

– كلا، لم أرَ السيدة لوكريس، ولكنني رأيت ابنتي.

ثم انطلقت في الليل متّجهة نحو باب من أبواب روما حيث انتظرت انبلاج الفجر. وعندما فُتح الباب، سارت مبتعدة نحو الريف.

في ردهة الأحلام

*

يومان مرّا على توقيف براكستان، وها نحن مع القراء في الفاتيكان، في مكتبة خاصة كان اسكندر بورجيا يفضّل الجلوس فيها لأنها كناية عن غرفة لطيفة تلذّ فيها الأحلام. الساعة تشير إلى الثامنة مساء. ولقد جلس البابا وقيصر ولوكريس أمام نافذة مفتوحة وراحوا يتحدّثون بصوت منخفض. أما حاشية البابا الموزّعة في أنحاء القصر فقد كانت تتمتم متسائلة: « مجلس عائليّ! تُرى ماذا سينتج عنه؟ أي مرسوم؟ وأية حرب؟ ».

كان اسكندر السادس جالساً في أريكة، وقيصر ممدداً على بعض المساند، ولوكريس منبطحة على بطنها فوق سجّادة، وعيناها شاردتان على روما. وسأل البابا ابنه وابنته قائلًا: هل سافر أسطور؟ فأجابه قيصر بقول: نعم، في هذا الصباح. ولقد جعلتُ كاركونيو في رفقته كما طلبت أنت. وهما في هذه الساعة

على الطريق . ولكن يبدو لي هذا العمل طويلاً !

– عليك بالصبر يا قيصر ! ما زالت الحياة فسيحة أمامك. تُرى ماذا كنت تقول لو كنت مثلي عجوزاً لن يعيش أكثر من بضعة أشهر ؟

– يا لقرون الجحيم ! عندئذ أكون أكثر لجاجة . لا أريد أن تصدأ عزيمتي كما أشعر الآن، ولكنني أحلم بمعارك نخوضها على ظهور الخيل كأننا عمالقة ، وبجموع بشرية أخترقها مع فرساني كما يخترق السفّود شريحة اللحم ... يا لشقشقة المعارك يا أبي ، حين يدخل الرمح في صدر أو في ظهر ، وحين تنفجر جمجمة وتتطاير شرراً ! أجل إني أحلم بكل هذا ، وأشعر بالضجر من قلة القتل ...

وكان قيصر يلفظ هذه الكلمات بشكل مرعب لأن سيماءه كانت تتبدّل وأساريره تتصلب فيما لا يكاد يسمع له صوت . وكان أبوه يتأمله بفضول وإعجاب ، مفكراً في نفسه يقول : « ما أروع هذا النمر ! »

أما لوكريس فلم تفه بشيء ، ولكنها كانت تديم التحديق في الأشياء الغامضة التي هي وحدها كانت تراها في نفسها . أما قيصر فقد استطرد قائلاً : لذلك يا أبي يجب إنهاء الأمر بسرعة ، لئلا تتمرّد إيطاليا كلها علينا . أجل، يجب اقتحام قلعة مونتفورتي! فقال البابا : سنقوم بذلك حال استلامنا أخباراً عن الكونت آلما . وعلى كل حال ، سأمكث هنا لأراقب روما ومونتفورتي في آن واحد ، هنا إلى جانبك أنت الذي ستقود الحرب ، وإلى جانب لوكريس التي تقوم بالديبلوماسية الواجبة . ولكن يا لوكريس

يجب إخبار الماغا بأن رجلاً سينهب إلى زيارتها ، لأنها كانت قد وعدته بشراب خاصّ ستحضّره له . فقالت لوكريس : لم تعد الماغا في روما .

فاقشعرّ البابا وقطّب حاجبيه . ولكن لوكريس أضافت قائلة : إنها في تيفولي . فصرخ البابا بهلع تقريباً : في تيفولي ! لا شكّ أن هذه الساحرة الملعونة تقرأ أفكاري، لأنني كنت سأطلب منها الذهاب إلى هناك . ولكنها ماذا تعمل في تيفولي ؟

– تقوم بواجباتها تجاه العرّافة . وهي تسكن كهفاً إلى جنب هيكل العرّافة .

– أجل ، إني أعرف هذا الكهف . لا شك أن كل شيء يسير سيراً حسناً يا أولادي !

فأجابت لوكريس بوجه حرد : بالنسبة إليكما أنت وأخي . فقيصر سيقود المعركة في مونتفورتي ، مستثيراً هكذا حبّ بياتريكس الصبيّة الطاهرة القلب التي يدعوها عشّاقها الكثيرون بريفيرا .

فأخذ قيصر يصفّر من الغضب عند سماعه هذه الدبابيس الساخرة ، ثم زجرها قائلاً : إذا أحبّتني أو لا ، فهي ستكون ملكاً لي...وتابعت لوكريس كلامها تقول : أما أنت يا أبي فإنك ذاهب إلى فردوس اللذائذ ، إلى تيفولي ، حيث ستمتّع بصرك بلوحات الحقول التي ستنبسط أمام عينيك . وسيزداد إعجابك بالطبيعة لا سيما وأن هنالك من سيكون إلى جانبك يساعدك على فهم الجمال الكامن فيها ، أقصد لافورنارينا العذراء التي تنتظرك

هناك .

فاقشعرّ البابا عند سماعه هذا الاسم مثلما ارتجف قيصر عند سماعه إسم بريفيرا . إلا أن لوكريس تابعت القول : وسأبقى وحيدة هنا يقتلني الضجر . فقال قيصر : ولكنك تتسلين بخداع زوجك ، فقالت :

ـ دوق بيزقلية ! يا للأحمق المسكين ! يا للنكرة !

ـ يمكنكِ أن تستنبطي وسائل للتسلية . فقال البابا : فيما يتعلق بالتسلية ، سيحصل الرومانيون على وسيلة يفرحون بها ولا يتذمّرون . فقال قيصر : أجل ، تنفيذ الحكم بالفارس راكستان .

فاقشعرّت لوكريس بدورها . ولكنها سألت تقول : متى سيقطع رأسه ؟

ـ بعد غدٍ عند شروق الشمس ، أتأتين لمشاهدة ذلك ؟

ـ دون شك ! فقال قيصر : هذا الفارس المغوار ، كم يكون موته مسلّياً أكثر لو ألقي في حفرة الأسود !

وكان يعني بهذا الاسم « زنزانة الأفاعي » . وتابع يقول :

ـ غداً صباحاً ندلّيه إليها ، وأريد أن أكون هنالك لأقدّم لهذا الصديق الشهم أحرّ التعزيات . بل أريد أن أهتمّ به لكي يوضع في جحره مصحوباً بخير صحبة : ذلك أن الصيادين انتشروا اليوم في الريف وسيعودون بمجموعة رائعة من الأفاعي والعلاجيم التي سنلقيها في البئر لتكون في استقباله .

وكان قيصر يضحك . ولكنه ما لبث أن قطّب جبينه فجأة وقال في نفسه : إنه يحب بريفيرا ! ومن يدري أنها لا تحبه وأنها لم

تبادله قبلة الحب التي تخصني ! ولكن إذا كان هذا صحيحاً فسأخترع عذاباً لم يخطر ببال مخلوق قبل اليوم ولن يخطر ببال مخلوق على الأبد ، لكي أعذب به هذا الذي اعتدى على ملكي ! »

وخرج الزبد من فمه . ولو كان البابا ولوكريس ينظران إليه عند ذلك لحلّ بهما الرعب . ولكنهما لم يكونا ينظران إليه : فبورجيا العجوز كان تائهاً في تيفولي تحت الظلال مصطحباً معه العذراء التي أعدّها لقبلات شيخوخته . أما لوكريس فكانت حالمة بما يلي : « يا لهذه اللذة الفريدة ! أن أنزل إلى جحيم السجين ساعة تكون نفسه في ساعة نزاع أخير وخوف مرير ، فأستسلم إليه بين سلاسله ، في الدقيقة ذاتها التي يُلقى بها في جب الأفاعي ، حتى تمتزج صرخة الرعب في فمه بصرخة الشبق التي تنتزعها قبلتي من شفتيه ... آه إني بحاجة إلى هذا الصنف من المتعة ! » .

وهكذا فقد كان الثلاثة يعانون تباريح اللذائذ التي تبتدعها رؤى خيالهم المتطرّف . ولقد مضت ساعة وهم على هذه الحال من الصمت والشرود وراء الخيال . وبعدها ، عندما عادوا إلى أنفسهم أخذوا ينظرون واحدهم إلى الآخر . ثم قال البابا : إلى اللقاء يا ولديّ ، أريد أن أستريح قليلاً . فقال قيصر : أنا أريد أن أفكر بخطة الهجوم على مونتفورتي . وأنهت لوكريس الحوار قائلة :

ـ أما أنا فإنني أريد أن أبحث عن وسيلة للتسلية !

وبعد بضع دقائق ، كانت لوكريس في غرفتها من القصر الضاحك : استحمّت ، واستلقت على سريرها ، وأمرت مَن حولها أن يتركوها وحيدة . وبينما كان رأسها غارقاً في حرير وسادتها

المحرّمة ، أخذت تفكر بقرارها وبكيفية تنفيذه . إنها تريد أن تمتلك راكستان، وهي مصممة أن تمضي إليه ساعة يكون المسكين على وشك أن يُرمى في زنزانة الأفاعي . ولم تخطر على بالها لحظة واحدة، فكرة إنقاذ الفارس، لأن شيئاً واحداً كان يثير اشتهاءها المريض هو : أن يضمها رجل وهو في ساعة اليأس الأخير .

وعند الساعة الثالثة صباحاً نهضت لوكريس وارتدت ثيابها دون أن تطلب مساعدة الوصيفات ، ثم غلّفت جسدها بمعطف فضفاض وخرجت تسير على قدميها بسرعة نحو قصر سانت آنج . وكانت روما في هذه الساعة ما تزال نائمة ، وكان الصمت يغلّف المدينة الخالدة . أمّا لوكريس فقد راحت بخطىً وئيدة ، وعيناها غارقتان من الشبق والعياء ، تقطع صفاء المدينة متجهة نحو لذائذها التي كانت تجدّ في طلبها حتى على عتبة الموت !

قيصر بورجيا

*

لنعد الآن إلى قيصر الذي دخل إلى غرفة النوم وارتمى على أريكة موجودة هناك . أما فكرته المعذّبة فإنها تختصر بهذه الكلمات : إنه يحبّ بريفيرا ... فهل تحبّه هي ؟

كان قيصر نوعاً من حيوان مفترس ، ولقد أحبّ مرّات عديدة ، ولكن على طريقة الحيوانات المفترسة ، أي أنه لم يكن

يشعر بالغيرة عندما تثير اللذة كوامن حواسه . أما الآن فإن شعوراً « بشرياً » أخذ يتكوّن للمرة الأولى في ضمير هذا الرجل الضاري . وللمرة الأولى يهتمّ بعشّاق هذه المرأة السابقين وبحقيقة شعورها بالنسبة إليه. وإذا بغضب عنيف يملأ جوانبه ، فنهض وراح يسير في غرفته بخطىً عريضة مزبداً مجدّفاً . ثم ارتمى على سريره وهو ما يزال مرتدياً ثيابه ، وعاد إلى التفكير قائلاً في نفسه : إن راكستان يحبها ، وهي أيضاً تحبه ولا شك ، ولقد رآها مراراً . وعندما قال إنه لم يكن يعرفها كان كاذباً . ولكن هل استسلمت إليه ؟ ثم جار صارخاً : آه ، أفضّل ألا أعرف هذا !

وهبّ واثباً من سريره وعاد إلى السير بخطى حيوان ضار ينتفض مزمجراً كلما فكر بفريسته . ثم إذا به يهدأ ويقول : ماذا عليّ إذا كانت قد استسلمت إليه ، ومتى كنت أهتمّ بهذا ؟ لقد كانت له ، ولسوف تصبح لي ، هذا كل شيء !

وذهبت هذه التعزية بدون جدوى ، فقد راح يعاوده السؤال ذاته. وإذا بالجواب يخطر له على الصورة التالية: هيّا انزل إلى زنزانته واسأله ! ، ولكنه طرد هذه الفكرة طرداً يائساً ، وراح يقول :

— أأنا قيصر بورجيا ، أسأل الفارس راكستان إذا كانت عشيقتي المقبلة ما تزال طاهرة ؟ ! كلا ، هذا لن يكون !

وقضى قيصر هكذا قسماً من الليل يعاني القلق الشديد ، فيخور تارة في عياء مريض ، ويستسلم طوراً لعوارض من الهذيان . وأخيراً ، عندما أضناه هذا الصراع الداخلي ، انتهى إلى وضع مخطط يوحّد ظاهرياً بين العواطف المتناقضة في فكره . قال :

— بلى ، سأمضي إليه في زنزانته . يجب أن أعرف الحقيقة . هوذا الصباح قد أوشك أن يطلّ وعليّ اللحاق براكستان قبل أن يوضع في زنزانة الأفاعي لئلا يتعذّر عليّ بعدئذ أن أحمله على الاعتراف ، فلعلّه يتكلم الآن . وإذا اقتضى الأمر فإني أعرض عليه الحرية إذا هو اعترف بالحقيقة ، ولن يرفض هذا العرض إلا إذا كان مجنوناً !

ثم تابع يقول في نفسه مبتسماً : أما مسألة إعطائه الحرية ، فإني أتمّم وعدي وأفتح له باب السجن... ولكن ستأتيه طعنة خنجر من الوراء تخترق ظهره بعد أن يتكلم .

عندئذ مدّ يده إلى خنجره ليتأكد أنه ما يزال في موضعه من حزامه . ثم نزل إلى مكان الحرس فأخذ مفتاح زنزانة راكستان ، ومفتاح أقفال سلاسله، ودخل في النفق الأرضي المؤدي إلى السجن.

الليل الرهيب

*

بينما كان قيصر ولوكريس يستدّان للنزول إلى قاووش الفارس ، وبينما كانا يبحثان عن أغرب طرق المتعة أو الشراسة ، كان راكستان ينام إلى جانب الحائط وقد اختار وضعاً أقلّ مضايقةً من سواه ، ولكنه وضع نهكٌ على كل حال . وكان راكستان يعتقد على صواب بأن عليه أن يتحمل بؤسه بشجاعة

إلى أن يحين الفرج .

أما زنزانة الأفاعي التي هدّده بها قاضي القضاة فقد بات يحسب لها الحساب ، وهو يعرف أنها زنزانة ذات شهرة مخيفة وقد كان دون كاركونيو أول من أخبره عنها ، وذلك عندما عرف هذا الراهب أن عليه مرافقة البارون أسطور في سفره إلى مونتفورتي ، وهذا ما لم يقع منه موقع الرضى ، بل سبّب له كرباً شديداً إذ كيف يمكنه السفر قبل أن يحضر تعذيب راكستان في البئر ؟ ! لذلك فقد أخبره عن هذه البئر محاولاً أن يجني ولو ربع ساعة من اللذة لكي يستعيض بذلك عن حضور المأساة التي سيتعرّض لها السجين . ولم يترك شاردة إلا ذكرها ، شاعراً بغبطة فائقة بأن يروي للمحكوم عليه فصول الدور الذي سيمثّله مُكرَهاً . أما راكستان فقد اكتفى بأن أجابه قائلاً :

— المهمّ ألا ينزلوك معي في البئر . لأن منظر العقارب والعلاجيم والأفاعي وملمسها هما مخيفان فقط، أما منظرك وملمسك فإنهما يثيران القرف والنفور !

وبعد زيارة الراهب هذه لم يعد راكستان يرى أحداً ما عدا سجّاناً أتى يحمل له الخبز والماء . أما الآن فقد كان راكستان نائماً . ولكنه ما لبث أن استيقظ فجأة عندما سطع نور في زنزانته . ففتح عينيه ورأى قيصر بورجيا . ففكر في نفسه قائلاً : ها قد أتت الساعة ليُلقى بي في البئر ... وداعاً أيتها الحياة ! وداعاً يا بريفيرا !

ومع ذلك فقد راح يحدّق بقيصر وجهاً لوجه دون أن يظهر اضطرابه . وعندما لم يشاهد حارساً برفقة بورجيا عاد إليه

الاطمئنان . وزاده اطمئناناً أنه ألقى نظرة على معبر السجن فوجده خالياً . عندئذ عاد يقول في نفسه : لقد أخطأت ، لم تأت الساعة بعد . ولكن ما غاية مجيئه إلى هنا ؟ لعلّه آتٍ كخادمه الأمين كاركونيو ليشبع جوعه إلى الانتقام !

ثم وقف وقال بلهجة ساخرة : السلام عليك يا مولاي ، أعذرني إذا لم أقدّم لك مقعداً تجلس عليه ، فقد نسي أصحاب هذا المسكن أن يضعوا كرسياً فيه .

وكان قيصر قد وضع مشعله على الأرض ، ثم استدار إلى راكستان دون أن يفوه ببنت شفة . فتابع راكستان قائلاً : لا شك أنك قادم لتبدي إعجابك بما صنعت حيلتك ؟ آسف أنني لا أستطيع أن أقابلك بوجه كالذي قد يكون لك لو كنت مكاني !

فكتّف قيصر ذراعيه بينما استطرد الفارس يقول بعد صمت قصير : لأنني بالحقيقة يا مولاي أحتلّ الآن مكانك ، فأنت هو القاتل وأنا هو السجين المكبّل بالسلاسل . ولشدّ ما يبدو لي هذا بعيداً عن المنطق ! أما أبوك فكيف حال قداسته ؟ إنه رجل ماهر ، وإني مقدّر حذقه ومهارته أجمل تقدير ، لأنني قلّما رأيت في حياتي مشعوذاً أصيلاً ومخاتلاً يستطيع بمثل هذه السهولة أن يستعير وجه الرجل الشريف ، حتى جعلني أنتهي إلى الاقتناع بأنه غير القاتل والمسمّم الشهير الذي يلهج بذكره الناس . أرجوك أن تقدّم اعتذاراتي له بهذا الشأن !

فاحتفظ قيصر بصمته ملقياً على راكستان نظرة قاتمة . غير أن راكستان أخذ يضحك ضحكة كان المكان يرجّع أصداءها ترجيعاً

غريباً . وعندما انتهى قال لقيصر : إنك تتساءل لماذا أضحك يا مولاي ؟ إنني أضحك من نفسي ، لأنني لا أعتقد أن هنالك إنساناً أمعن في سذاجته الصبيانية مثلي : تصوّر أنني اعتبرتك أولاً قائداً شريفاً ، بينما أنت صعلوك جبان حقير . وخلتني أرى في يدك سيفاً ملتهباً ، بينما لم يكن في يدك غير خنجر هزيل . وبالرغم من هذا فقد كنت لتصوّرك منذ ساعة على شيء من الهيبة ، إذ كنت ما تزال في نظري صاحب خنجر على الأقل ، ولكن ها أنذا الآن أنزلك عن هذه القاعدة ، لأنك هبطت يا مولاي إلى مستوى صاحبك كاركونيو الذي أتى هو أيضاً إلى زنزانتي ليراني كيف أموت . هكذا أنت يا مولاي قيصر ، لقد جئت لتشبع نهمك من اصفرار قد يبدو على وجهي . قل لي ماذا جئت تفعل إذن ؟ فقال قيصر فجأة : أتيتُ لأقدّم لك الحرية .

— الحرية ...

— نعم . لقد حكم عليك بالموت دون أن تكون أنت قاتل فرنسوا . لقد طعنته أنا بخنجري ، ولكنهم أدانوك أنت . إنما باستطاعتي ، إذا أردتَ أنت ، أن أفتح أقفال سلاسلك في دقيقة واحدة لكي تصبح حراً . فقال راكستان : لا أفهم ماذا تقول . فقال قيصر بصوت لاهث : حسناً ، سأوضح الأمر . هذه الفتاة بياتريكس ، هل تحبّها ؟

— نعم أحبّها !

فتشنّجت يد قيصر فوق مقبض خنجره . وقال : وهي ، هل تحبّك ؟ أجبني .

ـ وما شأنك أنت ؟

ـ شأني أن أعرف إذا كانت تحبك الآن ، أو إذا أحبتك في الماضي؟ فقال راكستان وقد لمع برقٌ في عينيه: ولكن هل يعنيك هذا الأمر ؟

فتقدّم قيصر إلى الأمام ، شاعراً بأنّ سورة الغضب الشديد أخذت تزمجر في داخله. وجار ناسياً التصميم الدبلوماسي الذي وضع منذ حين خطوطه في رأسه ، وقال : تكلم ! يجب أن تتكلم !

فتجمّع راكستان على نفسه مستحضراً قوّته الرهيبة ، لأن فكرة مفاجئة أعادت إليه بصيصاً من الأمل الجنوني . وقال : لقد أخطأت يا مولاي، فلن تعرف شيئاً.. أما الحقيقة الساطعة فسأحمل سرّها معي إلى البئر التي أمرت بوضعي فيها . فزأر قيصر يقول : ولكنني حزرت ! لقد امتلكتها ! فدونك إذن الموت !

وفي اللحظة ذاتها هجم على راكستان شاهراً خنجره . أما راكستان الذي كان ينتظر هذه الحركة ويتمناها ويرقبها بأمل، فقد أبصر الضربة هاوية عليه ، فانتفض بحركة صاعقة وأمسك بمعصم قيصر وكأنه غير مكبّل بسلاسل ثقيلة . فحاول قيصر بانتفاضة خاطفة أن يتملص من قبضته، غير أن يد راكستان الثانية هوت على عنقه ، فشعر أن أصابع حديدية أخذت تغرز رويداً رويداً في بلعومه. وهنا قال راكستان بصوت أجش:وقعتَ الآن في قبضتي!

ثم جرت مقاومة خلال نصف دقيقة فقط ، لأن راكستان قتل معصم قيصر وعجنه عجناً بينما مضت يده الثانية تدقّ عضلات عنقه . عندئذ أرخى قيصر خنجره وسقط على ركبتيه . واستمرّ الضغط

على عنقه حتى سُمع زفيره ، فتركه راكستان ممدداً على الأرض وكأنما زهقت أنفاسه، ثم انكفأ عليه يفتشه بعصبية محمومة. وتساءل في نفسه قائلاً : ولكن لعلّه كان كاذباً ! لعله لا يملك المفتاح !

ثم خفق زأرة في صدره لأن يده وقعت في حزام قيصر على مفتاح صغير حديدي . فأخذ المفتاح وأدناه من القفل حول معصمه الأيسر، ثم من بقية الأقفال الأربعة التي فُتحت بعد ثوان معدودة. عندئذ انحنى راكستان فوق قيصر وقلّبه قليلاً وتمتم قائلاً : سيعود إلى وعيه بعد قليل . لو كانت لي نفسية آل بورجيا لكانت الفرصة مؤاتيه للاجهاز عليه ، وهذه أجلّ خدمة تقدّم للانسانية ! ولكن هذا ليس من شأني .

وكان راكستان قد حلّ حزام قيصر وربطه حول خصره . كما أنه وضع على رأسه القلنسوة المخملية السوداء التي كان ابن البابا يعتمرها عادة . وأخيراً استولى على معطفه والتفّ به ، ثم قال : باستطاعتي أن أكون قيصراً لائقاً ، على ما يبدو لي !

عندئذ ألقى نظرة أخيرة على قيصر المغمى عليه ، ثم اتجه نحو الباب . وفي اللحظة التي كان سيجتاز فيها الباب تذكر شيئاً ، فعاد توّاً على أعقابه . وإذا به ينحني وينهمك طيلة دقيقة في عمل غريب كان يندّ عنه صوت بعض السلاسل . وعندما انتصب واقفاً ظلّ برهة غارقاً في الضحك .

تُرى ماذا فعل الفارس؟ لقد كبّل بالسلاسل الأربع معصمَي وكاحلَي الرجل المغمى عليه ، مغلقاً بالمفاتيح جميع الأقفال. فغدا قيصر مكبّلاً بالحديد ، في الوضع ذاته الذي كان فيه راكستان

منذ ربع ساعة .

وخرج راكستان من الزنزانة ، والتفت إلى يمينه فرأى أن المعبر الذي كان ينيره ضوء خافت يرسله المشعل الذي كان ما يزال في القاووش ، ينتهي بعد بعض خطوات فقط . ولكنه أبصر في أسفل الجدار الذي يسدّ هذا المعبر ثقباً مستديراً . فاقترب منه ، وإذا به يقول مرتجفاً : ها ، ها ! ها هوذا جبّ الأفاعي الشهير . لا شك أن مولاي قيصر بورجيا لا ينقصه الخيال . يا للشيطان ، ما أقسى أن يتعفّن المرء داخله !

ثم ابتعد عنه بحركة من الكراهية والاشمئزاز ، داخلاً في المعبر اليساري الذي طوله خمس عشرة خطوة ، والذي ينتهي بدرج اتجه راكستان نحوه بسرعة وأخذ يصعد عليه . ولكنه فوجىء بنور يظهر ، ذلك أن أحد حرّاس السجن كان واقفاً في أعلى الدرج وفي يده قنديل . فظلّ راكستان متجهاً نحو الرجل وهو مغلّف بمعطف قيصر وأصابعه مشنّجة على الخنجر . فسأله الحارس قائلاً : أيريد مولاي أن أنير له الطريق ؟

فلم ينطق راكستان بكلمة واحدة ، ثم راح يتسلّق الدرج الثاني بينما ظلّ الرجل واقفاً في مكانه ، إذ أنه اعتقد أن مولاه يطلب العزلة . أما رأس الدرج الثاني فلم يكن عليه أحد ، لذلك فقد تنفّس راكستان الصعداء .

وكان أمام راكستان درج أخير عليه أن يجتازه لكي يصبح طليقاً . فصعد عليه ، ولكنه لم يتسلّق ثلاث درجات منه حتى وقف فجأة في مكانه ، لأن شخصاً كان ينزل على الدرج . ولتذكر

أن هذا الدرج هو لولبيّ ضيّق !

وظلّ راكستان مسمّراً في مكانه كأنه ينتظر . ولقد كان القتل كريهاً بالنسبة لطبيعته ، ولكنّ الأمر متعلق الآن بحياته : فإذا عرفه هذا النازل على الدرج فهو منذ الآن رجل ميت .

ولم تمضِ لحظة واحدة حتى رأى راكستان ضياء مشعل ينعكس على الجدران مقبلاً نحوه . ثم ظهر حالاً الزائر المجهول . وكان الفارس قد غرّق قلنسوته في رأسه ورفع قبّة معطفه حتى أنفه . وإذا بصوت رقيق يهتف قائلاً : أخي ! فرفع راكستان عينيه مغمغماً في نفسه : « إنها امرأة : السيدة لوكريس ! » إلا أن حركته كشفت قليلاً عن وجهه فعرفته لوكريس . وإذا بها تبتسم ابتسامة ماكرة ، قائلة : أظنّ أن هذا هو حضرة الفارس راكستان ؟

— هو بذاته يا سيدتي .

وفي الوقت ذاته كان راكستان قد سحب خنجره من غمده مستعداً للموت بعد أن يقتل أكبر عدد من الأخصام ، في حال صراخ الدوقة وطلبها النجدة . وقالت لوكريس : أفارّ أنت من السجن أيها الفارس العزيز ؟ قال : لقد ضجرت يا سيدتي من الكهف الذي أسكنني فيه والدك .

— وإنك تشعر بالحاجة لاستنشاق الهواء بعيداً عن هذا المكان ؟

— أجل يا سيدتي . ثم إن لديّ زيارة سأقوم بها .

— زيارة ؟ لمن ؟ لطريق فرنسا ؟

ـ كلا يا سيدتي ، لك أنتِ .

ـ لي أنا ؟

ـ كنت أتصوّر أنك لا تستطيعين نسيان الموعد الذي شرفتني بمنحي إياه في القصر الضاحك. وإني ألمح يا سيّدتي على جبينك الصارم حقدك عليّ لأنني لم أذهب للقائك في ذلك المساء نفسه . إمنحيني عفوكِ يا مولاتي ، لأنّ والدك أوجد لي في ذلك المساء شغلًا منعني عن الحضور... فقالت لوكريس متعجّبة: والآن كنتَ قادماً إليّ؟

ـ أؤكد لكِ ذلك يا سيدتي .

ففكرت لوكريس بضعة ثوان ، ثم قالت فجأة : حسناً، تعال إذن . فقال : هاأنذا أتبعك . قالت : ولكن يجب أن أنذرك أيها الفارس أن رجال الحرس هم في أعلى هذا الدرج،وهم ضابط وعشرون من الرجال ، ويأتي بعدهم حرس الشرف ، وقد تتعرّض لفضول بعضهم . وبعد حرس الشرف هنالك باب يتعذّر عليك فتحه وحدك ، وعندما يفتحونه لك فلن تسير عشر خطوات دون أن تُعرف وتمسك . وهب أنك أصبحت خارج السجن فمن يضمن لك أن شغلاً ضرورياً لن يطرأ عليك ليمنعك عن الزيارة التي أنت مزمع القيام بها ؟ فقاطعها الفارس بلهجة رصينة قائلًا : ما دمت تمنحينني يا سيدتي شرف مرافقتك حتى قصرك فلن يكون في العالم شغل يستطيع أن يصدّني عن صحبتك ، حتى ولا الحاجة إلى الهرب من صداقة آل بورجيا القاتلة . ففكرت لوكريس قائلة في نفسها : هذا رجل حقيقي ! ثم قالت بصوت مرتفع : هيا ، تعال .

وكما قالت الأميرة ، فقد كان في أعلى الدرج كتيبة من الحرس

اجتازتها لوكريس وكأنها برفقة أخيها . وعندما وصلا إلى الباب فتحته ودخلت متوكئة على ذراع راكستان ، فأصدر القائد أمراً لجنوده بالتأهّب فإذا بهم ، وهم عشرون ، يصطفّون في خطين متناسقين . أما لوكريس فقد مضت تقول بصوت مرتفع : آه ، يا أخي ، كم أنا سعيدة بلقائك ، لأن هذه الممرات الأرضية تخيفني ، وإنني لآنف من زيارتها أثناء الليل .

وكان القائد قد فتح الباب ، فخرج راكستان ولوكريس بعد برهة إلى ساحة القصر . وعندما وصلا إلى الباب الكبير كان هنالك أيضاً ضابط وكتيبة من الرجال عددهم ضعف عدد الكتيبة الأولى. وعند رؤيتهم لوكريس ومَن ظنوه أخاها قيصر ، صدرت الأوامر ذاتها وجرى العرض العسكري نفسه . إلا أنها أسرعا باجتياز الباب . عندئذ استطاع راكستان أن يتنفس تنفساً عميقاً ...

النمرة العاشقة

*

المسافة بين قصر سانت آنج والقصر الضاحك كانت جد قصيرة . ولقد مضت لوكريس وهي صامتة ومتعلقة بذراع الفارس ، تتقدم في شبكة من الشوارع الصغيرة . أما راكستان فقد تساءل مرات عديدة إذا لم يكن من الأفضل له أن يغيب عند منعطف زقاق من الأزقّة التي كانا يدخلان فيها . إلا أنّ ميله آنذاك إلى الاقتحام

والتحدّي ، وثقته الكبيرة بقوّته العجيبة وبمهارته في فن السيف وبإمكانيات خياله ، كل هذا جعله يتبع بعناد دوقة بيزاقلية داخلاً معها إلى القصر الضاحك .

كل شيء كان نائماً في هذا القصر الفسيح الغنيّ . أما لوكريس فقد اقتادت راكستان إلى المخدع الذي استقبلته فيه في المساء الأول . وهناك قالت له : إجلس أيها الفارس ، ها إنني لك !

قالت هذا ثم مضت ، فتساءل راكستان في نفسه يقول : ماذا تراها مدبّرة لي ؟ قد يكون الوقت قد حان لأمضي فأستنشق الهواء خارج روما ، لأن قيصر ربما أفاق من إغماءته ، وحذارِ حذارِ من يقظته !

وبعد دقائق عادت لوكريس وهي تحمل طبقاً من الفضة يحتوي أصنافاً من الطعام ، وفي وسطه كوب واحد . ولقد وضعته أمام الفارس وقالت مبتسمة : أريد أن أنسيك خبز وماء سجون سانت آنج .

ـ ماذا تفعلين يا مولاتي ؟

ـ لا شيء ، إني أخدمك !

ـ تريدين إذن أن تجعليني أحسّ بالزهو والخيلاء ، إذ أن السنيورا لوكريس بورجيا هي التي تخدمني بنفسها ؟ ولكن هذا كثير على جنديّ فقير مغامر مثلي .

ـ أنظر إلى هاتين اليدين ، إنها تخدمان البابا فقط . ولا يستطيع سيّد آخر أن يفخر بأنه رأى لوكريس تصبّ في كأسه الخمر كما أصبّها الآن في كأسك ، أيها الفارس !

وراحت لوكريس تملأ الكوب الوحيد . وكان راكستان يتمنّى أن يعرف ماذا تحمل هذه الخمرة الحبابيّة الجميلة : الحياة ؟ أم الموت ؟ وقال : كلامك هذا يا سيدتي مثير لمشاعري .

ـ كيف أيها الفارس ؟

ـ أجل ، ستبقى هذه الدقيقة الخالدة محفورة في قلبي إذا ما عشت طويلاً أو « قصيراً » ، ولكن لسوء حظي ، فأنا لا أشعر بالجوع ولا بالعطش .

فهتفت لوكريس وهي تضحك وتصفّق بيديها : ها قد وُجد أخيراً شخص يثير الخوف في نفس راكستان الشجاع ، وهذا الشخص هو أنا .

ـ الخوف يا مولاتي ؟

ـ أجل أيها الفارس ، إنك خائف من هذا الخمر . فقال راكستان وهو يقبض على الكوب : كلا يا سيدتي ، إنك مخطئة . ولا أحد يستطيع أن يدّعي أنني خفت . وإليكِ البرهان !

وبرشفة واحدة أفرغ راكستان في جوفه نصف الكوب . فقالت لوكريس : والآن دوري . ثم أخذت ترشف بهدوء بقيّة القدح ، واضعة شفتيها في المكان ذاته الذي وضع راكستان فيه شفتيه . ثم قالت مبتسمة : أنت ترى الآن أنك إذا متّ مسموماً فلك من يرافقك . فحدّث راكستان نفسه قائلاً : يا للمرأة الغريبة ! أما لوكريس فقد تابعت قائلة : ولكنني لم أمارس مرّة في حياتي هذه التسلية . إنك تشكّ إذن بي معتقداً أنني أسمّم الناس ؟ فأجاب راكستان قائلاً : أنا أعتقد يا سيدتي أنك قادرة

على أكبر الأعمال ، هذا كل ما أعتقد . لذلك فأنا أفكر بأنه إذا اعترض طريقك معترض ، فإنك عند ذاك تشبهين تلك النيازك التي تحرق كل شيء يعترض طريقها . ولا شك أن من يعترض طريقك هو مقضيّ عليه بالموت ، تماماً كما يُقضى بالفناء على شيء يقف في طريق نيزك .

واهتزّ صوت راكستان اهتزازاً غريباً ، فارتعشت لوكريس وفهمت أن الفارس لا يُغلب في هذا المضمار ولا في سواه . وبالواقع فقد ظهر من كلام راكستان أنه يتهمها بأنها مسمّمة ، ولكنها قبلت منه هذه التهمة كأنها مديح أسبغه الفارس عليها ، وقالت : أخبرني الآن كيف خرجت من زنزانتك ، وكيف وجدتك فارّاً بقلنسوة أخي ومعطفه وسيفه ؟

فأراد راكستان أن يلجأ إلى أسلوب مثير ، فأجاب قائلاً : المسألة بسيطة يا سيدتي . لقد جاءني أخوك يعرض عليّ هذه النذالة : أن يمنحني الحرية مقابل بوحي له بفكرة سرّية عن امرأة، في حال معرفتي بها .

— ومن هي المرأة ؟

— بياتريكس ، إبنة الكونتيسة آلما التي قُتلت حديثاً .

— وبعدئذ ؟

— بعدئذ انتظرتُ مولاي قيصر بورجيا الذي أشعلته أجوبتي ، أن يدنو مني ليقتلني ، فأمسكت به وخنقته قليلاً لأقضي على مقاومته ، ثم كبّلته بالسلاسل مكاني ، وخرجت .

— كبّلته بالسلاسل ؟ وتقول لي هذا ؟

— لأنك تطلبينه يا مولاتي !

فامتقع وجه لوكريس قليلاً ولمعت عيناها بألق شديد ، ثم نهضت وخطت بعض خطوات . ففكر راكستان في نفسه قائلاً : يجب أن أستعدّ لأنها ستصرخ منادية من يطعنني كما طُعن أخوها فرنسوا . إلا أن لوكريس اقتربت منه قائلة : إنه عمل فريد، هذا الذي قمتَ به !

— أوَتلومينني يا سيدتي ؟

— كلا ، إني معجبة بك .

— لقد كان الأمر متعلقاً بحياتي ، إنني الآن غاضب على ما بدر مني ، ولكن المرء في مثل تلك الساعة يفعل ما يستطيع .

— ومن ذا يلومك ؟ قلت إني معجبة بك. فهتف راكستان في نفسه قائلاً: يا للشيطان! ها إن المرأة المسمّمة تصبح فاجرة. ولشدّ ما يبدو لي أن مسّالين هي أكثر خطراً من لوكوست [١] .

ثم تابعت لوكريس قائلة بصوت بدأ يرتجف : وهذه الفتاة ، أيها الفارس ، أتحبها ؟

— دعينا يا مولاتي من هذا الحديث !

— إنك تحبّها . قال لي ذلك أخي ، وهذا ما أراه الآن على وجهك . لا يهمّنك الأمر إذا كنت تريدها ، فإني أعطيك إيّاها !

فندّت عن راكستان إشارة صغيرة،وتابعت لوكريس تقول: إنك تريد هذه المرأة ، وقلت لك إني سأعطيك إياها . ولا يمكنك

---

١ ـ لوكوست هي احدى طابخات السم الشهيرات في روما القديمة. ومسالين امراة الامبراطور الروماني كلود ، ولقد اشتهرت بتهتكها .

أن تتصوّر ما يمكنني فعله لإسعاد الرجل الذي أحبه . وإني أحبك يا راكستان ! أحببتها إذن ، ولكن أحبيني أنا أيضاً ! أحبيني لأنك بعد الساعتين اللتين قضيتهما إلى جانبي بتّ تخصّني قليلاً ، وأنا أخصّكَ بأجمعي .

ـ سيدتي ...

ـ أحبيني يا راكستان، أجل، أحبيني! وسيكون لك ما تريد. أوتريد أن تهرب ؟ إنني أملك في جزيرة كابريرا قصراً محصّناً لا يجرؤ أحد على الوصول إليك إذا كنت فيه . وإني سوف أجلب إليك حبيبتك بياتريكس ، فتحبّها ، شرط أن تحبّني أنا أيضاً .

ـ أقسم لك يا مولاتي بأنك تملئين نفسي بالكره والنفور .

ـ أجل ، إني أعرف هذا . ولكنني أحبك أكثر . فأنا ظمأى يا راكستان إلى كرهك ! هيا أبصق في وجهي إذا شئت ، ولكن أحبيني ! ألا تريد أن تهرب ؟ بل أتريد أن تكون قيصراً آخر ، أكبر وأقوى وأقدر ؟ أتريد أن أنزل إلى أقبية سانت آنج فأقتل أخي قبل أن ينقذوه ؟ ولا شكّ أن أبي سيطيعني ، فإذا لم يطعني أقتله هو أيضاً وأجعلك بابا تحلّ محله .

عندئذ وقف راكستان، فشبكته لوكريس، وراحت بإحدى يديها تمزّ[illegible] إليها رأس راكستان . ولقد كانت تزفر قائلة : أحبيني!.. أحبيني!

ـ يا سيدتي ، إليّ بأعنف سمومك ، وبأصلب خناجرك ، وبكل ما تشائين . وابتعدي فقط عن لمسي ! أتركيني أيتها الفاجرة ، أتركيني ، فإن الجريمة تتسرّب من عروقك ، والقرف

يتقطر منك !

ـ أحبيني ، يا راكستان ، أحبيني !

ـ ليُعطَ لساني للكلاب إذا كنت أهين امرأة ، أما أنت فلست امرأة ، إنك غولٌ شرس ، بل إنك عاهرة ولي الحقّ بإهانتك .

وبقوة عنيفة تخلص من ضمّتها ، فانفكّت ذراعا لوكريس وتراجعت ممتقعة اللون ، وإذا بها تزأر : ألا تريد أن تحبني ؟

ـ إني أقسم لك بأن كلماتك تلك يا سيدتي جعلتك على بُعد إصبع واحد من الموت .

ـ أيها الجبان !

ـ جبانٌ حقيقةً لأنني لا أخلّص العالم من وجودك ! ولأنني لم أقتل المسخ الذي يعرض عليّ النذالة والجريمة ! أيّ خير للناس في قتل أخيك وأبيك ؟! فصرّت بأسنانها وصاحت تقول : جبان ! كنت حسبتك رجلاً فيما أنت خادم للنساء . إنك لا تريد الحب ، مفضلاً عليه سمّي القويّ وخنجري الصقيل ... فكن مطمئناً ، وإليك بالاثنين معاً !

وهجمت عليه شاهرة خنجراً تناولته عن الطاولة ، وقد كانت شفرته مسمومة بسمّ غريب ، حتى أن أقلّ خدش منه يقضي بالموت المحتّم الصاعق .

فوثب راكستان من مكانه ، ووقف خلف الطاولة متمتماً في نفسه يقول في غضب شديد : آه ، يا ليتها رجل ، ! أوَ أقتلها ؟ ولكن كلا ، كلا ، لا أستطيع !

فقلبت لوكريس الطاولة ووثبت نحو راكستان الذي كان واقفاً ينتظر . عندئذ مدّ ذراعيه وأمسك بمعصمي لوكريس التي زأرت قائلة : لسوف تموت !

ـ إحذري يا سيدتي أن تقع اللعبة المسمّمة عليك فتصيب منك جرحاً !

وضغطت يداه على معصمي لوكريس التي عوت من الألم . فأفلت الخنجر من يدها وسقط منغرزاً في الأرض . فانطرحت لوكريس متقلّبة ، بينما ركع راكستان فوقها يمنعها عن الحراك. وعندما أمسك خنجره بُهت وجهها وغمغمت قائلة : ها إني قد انتهيت ! ولكنّ راكستان قال بلهجة باردة : إني أعفو عنك كما عفوت منذ قليل عن أخيك النذل . ولكن انتهى الآن كل شيء ، فإياكما أن تقعا تحت يدي مرّة ثانية لأنني سأسحقكما كما تسحق الأفاعي الشريرة .

عندئذ نهض عنها وأخذ خنجرها معه ثم دخل إلى غرفة مجاورة. ونهضت لوكريس بدورها مصفرّة مزمجرة ، ثم أخذت تقرع جرساً وهي تصيح بغضب شديد : إليّ أيها الحرس ! إليّ ! إلى القاتل !

فظهر رجال مسلحون ، وتابعات بدا عليهنّ الرعب. فقالت : إنه هنا في القصر ! فاحرسوا المنافذ . إنه قاتل دوق غانديه ، وقد أراد طعني بخنجره .

في الوقت ذاته انطلقت لوكريس وراء راكستان ومعها عدد كبير من الحرس والخدم بينما انحدر آخرون نحو الأبواب مشهرين

أسلحتهم .

وكان راكستان قد اجتاز غرفتين أو ثلاثاً ، فإذا به فجأة في ردهة الولائم ، وهناك سمع صراخاً ووقعَ أقدام تقترب نحوه ، كما أنه سمع صوت لوكريس . فتساءل في نفسه يقول : تُرى ، هل سأموت ؟

ثم نزّه نظره الحادّ في أرجاء الردهة ، وتمتم قائلاً : هنا الساحة الحمراء ، وهذه طريق الدم ! وها هي طريق الجريمة تصبح الآن طريقاً للحرية !

ولقد تذكر بأن آثار الدم التي تبعها مرّة أوصلته إلى التيبر ، فاندفع في ذلك الاتجاه. وفي اللحظة التي غادر فيها الردهة من الباب الداخليّ ، ظهرت لوكريس في القاعة من الباب الآخر ، فأبصرته ، وراحت تصرخ لاهثة : ها هوذا ! سنقبض عليه !

وبعض قفزات اجتازت قاعة الولائم . ولقد كانت مطاردة رهيبة ! وعندما وصلت إلى الغرفة الأخيرة كان راكستان قد دفع بمنكبه الباب المطلّ على التيبر . فولولت لوكريس قائلة : ها هو إقبضوا عليه !

فانفجر راكستان ضاحكاً ، وإذا بالحرس يقفون مذعورين . أما لوكريس فقد نطقت بلعنة رهيبة أملاها عليها الحنق واليأس ، وسقطت على ظهرها مغميّاً عليها . ذلك أن راكستان كان قد وثب إلى النهر مختفياً في مياه التيبر الصفراء .

بيع كابيتان ، حصان الفارس

*

عند أول بشائر الفجر كان رجل يهوديّ يطرق باب نزل « جانوس الجميل »، فأطل المعلم برتولومايو من النافذة وعرف زائره المبكر ، فقال بصوت خافت : حسناً ، ها إني نازلٌ لأفتح لك !

ثم نزل ففتح باباً ثانوياً دخل منه اليهوديّ إلى باحة النزل .

– صباح الخير يا افرايم الشجاع . جئتَ في الموعد تماماً .

– تماماً . ولكن لماذا استدعيتني في هذه الساعة المبكرة حيث لا يزال الناس الشرفاء نائمين ؟

– أخفض صوتك ! لقد استدعيتك باكراً لكي لا يعرف أحد ما سأبيعك إياه !

– لعلّ كل هذا التستر لكي تبيعني جحشاً هرماً كما بعتني سابقاً !

فقاد بارتولومايو اليهودي إلى عمود يسند سقيفة ، وأشار بيده إلى إعلانٍ صغير مخطوط باليد كان ملصقاً على هذا العمود .

– إقرأ هذا ، يا معلم أفرايم .

فراح اليهودي يقرأ المنشور الذي كان يعلن عن تنفيذ حكم الموت براكستان في النهار ذاته . وعندما انتهى اليهودي من قراءته راح يحدّق بصاحب النزل الذي قال : لقد دعوتك لأبيعك ثياباً مستعملة ، وحصاناً جيداً مع مرجه .

– ولكن لماذا جعلتني أقرأ هذا المنشور ما دمت كسواي على علم بمضمونه ؟

– ألم تفهم؟ إن الثياب هي للشقيّ الذي سيُقتل. وهذا الحصان هو حصان راكستان ! أتفهم الآن لماذا دعوتك باكراً؟ لأن الناس إذا عرفوا أنني آويت راكستان هذا أفسدوا صيتَ هذا النزل .

فهزّ اليهودي رأسه وقال : هذا صحيح .

– أما أنت فإنك ستبيع هذه الثياب وهذا الحصان بربح كبير ، لأنها تخص لصاً خطيراً ، وهذا ما يجعل ثمنها يزيد ثلاثة أضعاف إذ أنها تثير فضول المشترين .

– كلا أيها الصديق ! لا أريد أن أثير انتباه رجال العدل إلى تجارتي الضئيلة . بع أنت نفسك الثياب والحصان، ويمكنك بسبب فضول الناس الذي تدّعيه أن تجني ربحاً كبيراً ! فقال برتولومايو بلهجة تستدرّ الشفقة : هذا صحيح ، ولكنني أخاف !

– أتخاف على نفسك ولا تخاف عليّ؟

– إقبل على الأقل بمشاهدة هذه الثياب وهذا الحصان . أما السعر فبالإمكان التفاهم عليه .

– الآن بدأت تقول شيئاً معقولاً . هيّا ، أريد أن أرى كل شيء . أما مصدر هذه الثياب وهذا الحصان فلا أريد أن أعرفه لا منك ولا من سواك . سأعدّ لك الثمن الموافق ولن نتكلم عن الأشياء الأخرى .

– تعال ... ولنبدأ بمشاهدة الثياب .

وبعد ثوان قصيرة كان برتولومايو واليهوديّ أفرايم مستلمين في غرفة راكستان لجدلٍ حامي الوطيس حول الأسعار . ولكنهما انتهيا إلى الاتفاق . فقال برتولومايو : إحملها معك ، وتعال نرى

الحصان .

ـ كلا ، سأتركها هنا. لأننا إذا لم نتفق على الحصان فسيكون البيع باطلاً ، وحملها مجرّد عناء !

عندئذ انتقلا إلى الإسطبل وكان كابيتان هناك يدقّ الأرض بحافريه الأماميّين ويصهل . ولقد كان هذا الحيوان المسكين ينتظر صاحبه متضجراً من بقائه وحيداً في الإسطبل . أما أفرايم فقد تأمل بأعجاب الرجل العليم ، هذا الجواد الأصيل . وعندما اتفق الرجلان على السعر ، فكّر أفرايم بالثياب وعاد برفقة برتولومايو ليجلبها من غرفة راكستان . ولكن إذا بهما يصيحان من الدهشة . فإن الثياب كانت قد اختفت . أما اليهوديّ فقد قال وقد استبد به الشكّ : ما معنى هذا ؟ فأجاب برتولومايو مرتجفاً : لا أعلم شيئاً !

ـ أيّ لص مرّ من هنا وسطا على الثياب التي أصبحت تخصني ؟

ـ ولكن جميع أهل النزل نائمون .

ـ ماذا تظنّ إذن ؟

ـ أظن أن هذا ضرب من السحر .

ـ أسحراً كان أم سرقة ، يجب أن تعيد إليّ ما دفعته من ثمن الثياب ، محتفظاً فقط بثمن الحصان .

عندئذ اتّجه أفرايم نحو الإسطبل ، ظاناً أن برتولومايو قد دبّر له لعبة ما ، ولقد تبعه صاحب النزل الذي أذهله اختفاء الثياب السريع . وعندما دخلا معاً ، وقفا مصعوقين، إذ أن الحصان كان قد اختفى هو أيضاً . فنظر كلّ من الرجلين إلى صاحبه مرتجفاً بعد أن تبدّدت ظنون اليهوديّ، لأنه كان ممكناً لصاحب النزل

أن يحمل الثياب ويخفيها ، أما الحصان فيستحيل حمله وإخفاؤه . وهنا تمتم اليهوديّ قائلاً: إني لا أفهم شيئاً ! فقال برتولومايو مرتعداً: ولا أنا !

ـ أظن أن لصاً سطا على الحصان ، لا سيما وأنك تركت باب النزل الجانبيّ مفتوحاً ، كما هو الآن ، أنظر ...

ـ أنا متأكد أنني أغلقته ، أما فتحه من الخارج فمستحيل ! فقال أفرايم اليهوديّ : هذا أمر عجيب غريب ! على كل حال ، إني آسف على ضياع تعبي وانزعاجي ... أما الآن فما عليك إلا أن تعيد لي الفضّة التي نقدتك إياها منذ حين ثمناً للحصان وللثياب .

ـ عليّ أن أعيدها لك ؟

ـ ماذا ؟ أوتمزح ؟ تدفع الدراهم أو أقصّ الحادثة لقاضي الحي . فصاح صاحب النزل مرتعباً : كلا ، كلا ! أرجوك ألا تفعل !

وكم كانت قاسية تلك الساعة على برتولومايو ، عندما اضطرّ إلى إعادة الذهبيّات التي حصّلها من بيع حصان لا يخصه . وبينما كان أفرايم عائداً على أعقابه ، كان برتولومايو يدخل إلى ردهة النزل العمومية مغمغماً في نفسه : لا شك أن هذا النزل مسكون !

وهكذا ، فقد بيع كابيتان دون أن يتمّ البيع، ولقد كان من العسير قبض الثمن رغم أن الرجلين اتّفقا عليه .

أجراس روما !

*

عندما غطس الفارس في مياه النهر المصفرّة كان في رأسه فكرة ، هي أن يقترب من درجات نزل « جانوس الجميل ». لذلك فقد راح يسبح تحت سطح الماء . وعندما عام على صفحة النهر رأى نفسه بعيداً عن غرضه ، فتنشّق دفعة كبيرة من الهواء ثم غطس من جديد . وبعد حين عاد فوضع أنفه خارج الماء فإذا به الآن بمجاورة النزل الذي كان ضيفاً فيه . وبعد تجذيفات قليلة نشيطة وصل إلى الدرجات التي كان يقصدها ، فصعد عليها ، ووقف قليلاً ينفض ثيابه المبلّلة ، مغمغماً في نفسه يقول : لتقتل الحمّى الخبيثة الأخ والأخت ! هذين الشريرين اللذين لا شبيه لهما في الشرّ ، فالأول يريد أن يقطع عنقي والثانية تريد أن تطعنني بهذا الخنجر الجميل الذي أضعته في التيبر . وها إن هواء روما قد أصبح فاسداً بالنسبة لي .

كان راكستان يخاطب نفسه بهذا الحديث ، إلا أنه لم يُضع ثانية واحدة، بل دخل تواً إلى غرفته حيث وجد ثياباً معروضة على السرير ومن بينها بذلة حربية كان قد اشتراها مساء اعتقاله . عندئذ ، وبلمحة عين ، باشر إبدال ثيابه المبللة بالثياب الناشفة التي كانت تنتظره ، والتي عندما رآها تمتم في نفسه قائلاً : شكراً لبرتولومايو ! لا شك أنه أراد أن يوفّر عليّ عناء التفتيش في الخزانة .

وبعد أن ارتدى رداءه كاملاً وتدرّع بدرع من الجلد الصلب ، حزم حول خصره حزام قيصر بورجيا الذي كان يحتوي سيفاً رائعاً . ثم تنهّد وقال : يا لسيفي المسكين الذي بقي بين يدي ذلك المخلوق القبيح الذي يدعى كاركونيو . ولكن هذا السيف غير رديء أيضاً ، ويبدو لي أنني لم أخسر شيئاً في هذه المبادلة .

وفي الواقع لم يخسر راكستان شيئاً في مبادلته سيفه بسيف قيصر . لأن سيفه لم يكن يملك صفة أخرى غير كونه بتّاراً لا يهون في أية تجربة. أما سيف قيصر الذي أصبح ملك يمين الفارس، فقد كان مزيّناً بقبضة رائعة، وقد شاهد راكستان على هذه القبضة ماسة فائقة الحسن ، وبعض الجواهر من الحجارة الكريمة وهنا قال الفارس في نفسه : فلنرحل الآن دون أن نترك أثراً ما !

وبثانية واحدة جمع في صرّة الثياب والجزمة والقلنسوة والسترة المبللة ورماها جميعها في التيبر . ثم انسحب خارج غرفته على رأس قدميه ووصل إلى فناء النزل ، وبعد أن عبر بسرعة في ظل الجدران دخل إلى الإسطبل مقترباً من كابيتان ليضع السرج على صهوته واللجام في حنكه ، وعندما رآه تمتم دون استغراب يقول : أرى أن كل شيء جاهز ! نعمت صباحاً يا كابيتان ! إنك سعيد لرؤيتي ، أليس كذلك ؟

فمضى كابيتان يصهل من الفرح ويدقّ البلاط بحافريه . فهدأه راكستان ثم جرّه بلجامه نحو الساحة حيث وقف يترقّب قليلاً . وعندما لم يجد أحداً همس قائلاً : الساحة خالية ، هيّا إذن إلى الطريق .

وقاد الفارس حصانه بسرعة إلى الباب الجانبيّ ففتحه وعبر بكابيتان ، ثم امتطى صهوته وابتعد يخبّ وهو يقول في نفسه : سوف يفتّشون عنّي في الشمال ، ناحية فلورنسا ، فلأمضينّ إذن نحو الجنوب باتجاه نابولي .

وهكذا فقد اتجه نحو الباب الجنوبي من روما . وكان هذا الباب مفتوحاً لأن الشمس كانت منذ حين قد بزغت إلى الأفق . ولما اقترب راكستان من باب روما الجنوبي تمهّل وراح يسير سيراً عادياً لكي لا تجذب السرعة الأنظار إليه .

ولكن في اللحظة التي عدّل الفارس فيها سيره ، منتقلاً من الخبب إلى السير البطيء، وبينما كان شاخصاً بنظره المشتعل نحو هذا الباب الذي يمثّل الحرية ، إذا بخيّال يخرج من أحد الشوارع ، فتصدر عنه إشارة تعجّب ، ثم يقترب من راكستان ملقياً عليه السلام باحترام. ولقد كان هذا الرجل في الأربعين من عمره، نحيلاً، مقدّداً ، ذا وجه أحرقته الشمس يخترقه شاربان سوداوان، وعينان لامعتان كياقوتتين خمريتين . ورغم امتطائه جواداً جميلاً فقد كان مرتدياً ثياباً فقيرة ومغلفاً بمعطف حقير . إلا أنه حاول أن يستثير انتباه راكستان متمتماً بصوت متواضع يقول : إني حاجبك يا مولاي ، ومستعد لخدمتك !

غير أن راكستان لم يسمعه ولم ينظر إليه . ذلك أن جرس كنيسة القديس يوحنا أخذ يجلجل برتينه الضخم، وإذا بثلاثمائة جرس موزعة في كنائس روما أخذت تتجاوب معه بطنينها البرونزيّ . عندئذ أخذت النوافذ تفتح ، والرؤوس المذعورة تُطلّ . وإذا

بضجيج لا يوصف يتصاعد من المدينة . هنا زجر راكستان يقول : هذه هي الأجراس تقرع بسببي نفيرَ الخطر ، ولا شك أنهم سيقفلون أبواب المدينة . فإلى الأمام يا كابيتان !

وأرخى راكستان لجام حصانه فوثب صاهلاً ثم انطلق بخطّ مستقيم نحو الباب ، تاركاً الحصى تتطاير تحت وقع حوافره . وإذا بالجنود الذين تأهّبوا لإقفال الباب تلبيةً لأوامر النفير يصرخون به قائلين : قف ! انتهى المرور !

وكان كابيتان إذ ذاك على بعد عشرين خطوة من الباب ، فلمزه راكستان بمهازه لمزة مضاعفة أسالت الدم من كشحيه . إلا أن ضابط الحرس زأر قائلاً : قف ! لا يمكن المرور ! فزجر راكستان يقول : بل يجب أن أمرّ !

وحصل اصطدام رهيب ، فانقلب الضابط وتدحرج ثلاثة أو أربعة جنود على الأرض . أما كابيتان فقد عبر كإعصار من الأعاصير ، أو كقذيفة مدفع ! ولقد نجا راكستان !

ولكن تُرى بأي شيء فكر راكستان بعد نجاته ؟ لقد فكر أولاً بحصانه ، فلاطفه مربّتاً على عنقه بينما كان سابحاً يشق الفضاء . وقال له : شكراً يا كابيتان ، شكراً يا صديقي الأمين ! لقد آلمتك بالوخز الشديد ، ولكنني كنت مضطراً كما رأيت .

ثم أدار رأسه نحو المدينة فرأى أن الجنود انتهوا من إقفال الباب . وكانت الأجراس في البعيد البعيد ما تزال تطنّ طنيناً متواصلاً ، فصرخ راكستان منتشياً :

– إعوِ يا قيصر ! إعوِ يا قيصر ! واعوي يا لوكريس !

واعووا يا آل بورجيا ذكوراً وإناثاً ! إن حناجركم النحاسية لتحتفل الآن بحريّتي .

وفي الحقيقة كان آل بورجيا وحدهم يستطيعون قرع نفير الأجراس . ولم يكن لهذا النفير سوى هدف واحد : التشهير براكستان ، وحثّ الناس والجنود على القبض عليه .

وأدار راكستان رأسه مرة ثانية إلى الوراء ، فلاحظ أن خيّالاً يلاحقه ويعدو خلفه . وعندما علم أنه أمام عدوّ واحد ، هزّ كتفيه وأخذ يبتسم . عندئذ كان قد وصل إلى قرب ساقية ، فأوقف حصانه ، وقفز عن صهوته إلى الأرض . ثم راح يغرف الماء بجوف يده ليبرّد به الجرح الذي تركه المهاز في كشحي كابيتان .

من هو الخيال سبادا كاب ؟

*

غير أن راكستان ظلّ يراقب بعينه العدوّ الذي كان يتقدّم نحوه بسرعة . وإذا بهذا الخيّال يدركه بعد لحظات قليلة . ولكن ترى من يكون هذا الرجل الذي حيّا الفارس بتواضع جمّ ساعة أخذت تقرع أجراس المدينة .

أما راكستان فقد كان على أهبة الدفاع عن نفسه ، واقفاً ويده على مقبض سيفه . إلا أن الرجل نزل عن حصانه وأخذ يقترب منه

وهو يقوم عند كل خطوة بتحية معظّمة . ولقد لاحظ راكستان أنه لا يحمل سيفاً ، ولكنه بادره قائلاً : لا شك يا صاح أنك تريد لي شرّاً ؟

— بل أنا حاجبك الذي يودّ خدمتك يا مولاي .

— وماذا تريد إذن ؟

— حديثاً ... إذا سمحت !

— وماذا لديك ؟

— لديّ اقتراح سأعرضه على معاليك .

— دع يا صاح جميع ألقابك جانباً .

— إني أطيعك فأقول : يا سيدي الفارس .. فقاطعه راكستان قائلاً : ولكن كيف تعرف أنني فارس ؟

— هذه مسألة بسيطة ، بل إنني أعرف اسمك . إنني أعرفك ، ومن لا يعرفك في روما حيث لا يتحدّثون إلا عنك كيف لقّنت أسطور الشهير درساً عند دخولك إلى القصر الضاحك ؟ ولطالما تندّر بذلك الخدم ! وفي اليوم الذي كان علينا أن نقتلك فيه ..

— هات أرِنا صراحتك !

— والله يا سيدي الفارس ، كان كاركونيو قد دفع لنا مالاً كثيراً لكي نصرخ أنك قاتل مولاي دوق غانديه ، ولكي نعاجلك بطعنة نجلاء بين كتفيك .

— لحاك الله يا صاح ، إنك رفيق مرح !

— أجل ، ولكنك جعلته من رسل الجحيم ، ساعة قبضت عليه بجلد رقبته وقذفته في وجهنا كنواة ثمرة عفنة . فأنا إذن كنت من

أولئك الذين سحقهم سقوط الراهب عليهم . لذلك فعندما شاهدت بطولتك تلك ، وعندما أبصرتك تقفز فوق خناجرنا ، هزّني لك إعجاب كبير .

– أهنئك ، إنك تثير شعوري بالزهو والاعتزاز !

– وكان إعجابي بك شديداً . فقلت في نفسي : إن دخولي في خدمة سيد مثلك يفتح لي باب الشرف والثروة .

– ما اسمك يا صاح ؟

– يدعوني رفاقي سبادا كابّا .

– أي الرجل المعدم . أهذا إسم أم شتيمة ! ؟

– هذا إسمي الوحيد يا مولاي بنصّه وفصّه .

– دعنا من الإسم يا سبادا كاب ، وانتظر يا صديقي . أوترى هذه الطريق ؟ أنا سأمضي من هنا نحو الجنوب ، وأنت ستمضي من هناك نحو الشمال ، وبأسرع ما تستطيع ، قبل أن تتعرّف إلى العصا التي سأقصّها من هذه الشجرة خصيصاً لكي تتشرّف بها سلسلةُ ظهرك !

فصرخ سبادا كابّا (أو سبادا كاب كما أخذ يدعوه راكستان بلهجته الفرنسية) مولولاً يقول : لقد طردني سيدي الفارس ، ويلي ماذا سيحلّ بي ! أصغِ إليّ يا مولاي الفارس ، إني أتوسّل إليك . لقد كرهتُ حياتي الماضية وصرت أتوق للعيش بأمن وسلام ، فأنا لا أفكر بأي شر . آه ما أجمل أن ينام المرء دون أن يستيقظ كل مرّة مذعوراً مقفقف الشعر من الرعب ! وما أجمل أن يشعر المرء أن الناس الذين يمرّون بقربه ينظرون إليه بلا كره

أو حقد !

– لقد اخترتني إذن لكي ألقنك دروس الفضيلة ، هذا رائع ! ولكن لماذا وقع اختيارك عليّ ؟

– لقد فكرتُ بك لأنني لم أرك قويّاً ومغواراً فحسب ، بل لأنني قرأت أيضاً في عينيك الطيبة الكامنة في قلبك . فتمتم راكستان قائلاً : يا لك من شيطان مسكين !

– إني أقسم لك يا سيدي بأنني كرهت تلك الحياة ، وكرهت كاركونيو هذا الراهب الذي كان يندسّ بيننا دائماً ليدلّنا على ضحايا جديدة . لذلك يا سيدي عندما عرفت باعتقالك ، وعندما عُلّقت المناشير على أبواب الكنائس معلنة أن يديك ستقطعان ، وعنقك ستحزّ ، انفجرتُ بالبكاء ... أجل أنا سبادا كابّا الشجاع ولا شفقة ، الشريد ولا قانون ، قد بكيت !

– هذا لطيف من قبلك ، ولكنه ليس سبباً كافياً ...

فقاطعه سبادا كابّا قائلاً : وأردتُ أن أنقذك ، طالباً معونة رفاقي ، ولكنهم كانوا جبناء فرفضوا . عندئذ قررت أن أغادر روما قاصداً نابولي حيث أفضّل أن أكون متسوّلاً شريداً على البقاء في مهنتي هذه الحقيرة . وهكذا فقد دبّرت حصاناً .

– وكيف دبّرته ؟

– كان هذا آخر مساوئي ، ولكنني كنت مضطراً إليه : لقد شاهدت هذا الحصان مربوطاً بباب نزل ، ففككته ، ولم يكن على الحصان إلا أن ينهب الريح !

– أجل ، لا شك أنه لم يحتج إلا إلى إشارة واحدة منك !

– وفي هذا الصباح كنت متجهاً بطمأنينة نحو باب نابولي ، فأبصرتك فجأة ... ويا لغبطة نفسي ! وكنت على وشك أن أخاطبك عندما ارتفع طنين الأجراس . فإذا بك تطير فأطير خلفك وإذا بك تجتاز الباب كالعاصفة ، فأجتازه بعدك . وإذا بك تقف ، فها أنذا واقف معك . آه يا مولاي الفارس أنقذني من الحياة الجهنمية التي عشتها مرغماً .

فشعر راكستان أن سبادا كابًا كان صادقاً ، فقال له : ومن الذي أرغمك على أن تكون من قاطعي الطرق ما دمت تشعر بميل لمهنة الرجل الشريف ؟

– لا أدري . قد يكون المثل العاطل ، أو الانزلاق ، أو الحاجة . أنظر يا سيّدي الفارس ، لقد سألتني عن إسمي وأنا لا أملك إسماً . أما أبي ؟ فإني لا أعرفه . وأمي ؟ إنها مجهولة هي الأخرى . ولكم تسوّلت وأنا طفل ! ولكم سرقتُ لأسدّ رمقي وأنا رجل ! وما أنا غير قمامة بشريّة فقيرة ! ولكم أتمنى أن أرى يداً واحدة تمتدّ إلى شقائي وبؤسي !

فاستبدّت الحيرة براكستان ، لا سيما وأنه كان يتمنى أن يجد خادماً يفهمه . ولا شك أن سبادا كاب هذا أهلٌ لتحقيق أمنيته . ولكن هناك في الوقت الحاضر عقبة كبيرة تمنع الفارس من تحقيق هذا الطلب الباذخ ، لأن الخادم يحتاج إلى معونة ماليّة ، بينما كان راكستان فقيراً كأيّوب الصدّيق. لقد كان فقيراً لأنهم نزعوا عنه سيفه وحزامه حيث كانت دراهمه . ولا شك أن سيف قيصر الذي استولى عليه كان غنياً بالماسة وبجارة الياقوت ، ولكن متى تُراه

سيجد الفرصة لبيع هذه الجواهر ؟ لذلك فقد قرّ رأي راكستان على إبعاد سبادا كاب . فالتفت إليه وقال : إسمع ، لقد اقتنعت بأنك نطقت بالحقيقة . وإني أصارحك بأنك لم تنفّرني منك . بل إنني آسف لقسوتي عليك منذ برهة .

– كم أنت طيب يا سيدي الفارس !

– ولكننا سنفترق ، لأنني لا أملك ما أستطيع إنفاقه على خادم .

– هذا هو السبب فقط ؟

– إنه سبب كافٍ كما يبدو لي .

– كلا يا سيدي الفارس ! ضعني في خدمتك ولا تدفعنّ لي شيئاً . ستدفع لي عندما تصبح غنياً .

– لحاك الله يا بنيّ ، إنك تتكلم بحرارة تعجبني . وها أنا آخذك لقاء إصرارك . فأنت منذ الآن ستعيش في بيتي .

فقذف سبادا كاب قبعته في الفضاء من شدة الفرح ، وأخذ يصرخ قائلاً : مَرحَى للشمس وللفرح ! والوداعَ الوداع لروما ودسائسها ! وليعش مولاي الفارس !

– يا للشيطان المسكين !

هذا كل ما تمتم به راكستان بجنان دون أن تسمح له فتوّته الواثقة الكريمة بأن يتساءل إذا كان هذا الرجل جاسوساً أم لا .

ولنضف أن كل شعور من هذا النوع كان يكون خاطئاً، لأن سبادا كاب كان صريحاً ، وقصّته صحيحة .

وعندما امتطى راكستان جواده عادياً في طريق نابولي ، كان

سبادا كاب يتبعه على بعد خمس عشرة خطوة كما كان يرى الأتباع يفعلون مع الأسياد الكبار . غير أن راكستان ناداه إلى قربه قائلاً : أتعرف طريقة جانبية نستطيع بواسطتها الوصول إلى طريق فلورنسا ؟

– أترى يا سيدي الفارس تلك الباقة من السنديان على ألف خطوة أمامك ؟ بعدها بقليل توجد كنيسة صغيرة مهجورة . وإلى يمين الكنيسة ، على بعد عشرين خطوة، توجد درب تحقق غرضك. ولكن ألا يريد سيدي الفارس الذهاب إلى نابولي ؟

– أوتستجوبني يا سيد سبادا كاب ؟

– أوه ! عفواً ... إنها عادة قديمة .

– أجل ، عادة السؤال يتبعها عادات أخرى ، كطلب المحفظة أو الحياة مثلاً ...

هنا هتف سبادا كاب بلهجة حزينة أثّرت على راكستان ، قال : آه ، لست غفوراً يا سيدي !

– زه ، زه ! إنك تثأر لنفسك إذن ! تعجبني ثورتك هذه ، وإني أعتذر إليك .

– الآن سيدي الفارس كريم جداً .

في هذه اللحظة وصلا إلى جوار كرم السنديان ، فوقف راكستان مستفسراً عن الطريق ، فإذا به يشاهد غمامة غبار ترتفع في البعيد البعيد ، فقال : ها إنهم يطاردونني !!

وكان الجرد الذي يسير فيه الفارس ورفيقه كناية عن سهل كئيب يُرى فيه الخيّال على مدى البصر وفي كل الاتجاهات. وكان

كرم الزيتون وحده كناية عن ملجأ موقّت . تُرى أيهرب راكستان ؟ ولكن أينما اتّجه ، إلى اليمين أو إلى اليسار أو إلى الأمام ، فإنه سينكشف، وعندئذ تصبح المسألة مسألة سرعة فقط. لذلك فقد قال لرفيقه سبادا كاب : إتبعني إذا استطعت !

ولكن في اللحظة التي أراد فيها الانطلاق ، أوقفه هذا قائلاً : يجب ألا تهرب ، لأنك إذا فعلت وقعت في الأسر لا محالة . إذ أن هؤلاء الرجال سيتقصّدون آثارك في ثلاث دقائق .

– وما الحيلة إذن ؟ الاختفاء مستحيل في هذا الكرم .

– تعال يا سيدي ، تعال !

وبيعض وثبات مسرعة اجتاز الاثنان الغابة الصغيرة ، وعندما وصلا إلى كنيسة صغيرة مهدّمة تقريباً ، قفز سبادا كاب عن فرسه وأدخل خنجره في قفل الباب الذي فتح .

– لحسن الحظ أنني أعرف هذه الحيلة . فقال راكستان :

– هذه فكرة حسنة فلندخل ! أدخل أولاً .

– كلا ، أدخل بمفردك ... أوه ، ثق بي يا مولاي !

ووقف الفارس لحظة ينظر إلى سبادا كاب ، فرمقه هذا بنظرة احتجاج على شكه به . عندئذ قفز راكستان إلى الأرض ودخل إلى الكنيسة جارّاً حصانه كابيتان خلفه . فأقفل سبادا كاب الباب وعاد إلى صهوة فرسه .

ولقد كان راكستان ، من شقّ في الباب ، يستطيع أن يرى ويسمع كلما يحدث على الطريق . لذلك فقد وقف خلف هذا الشقّ بعد أن وضع يده على فم كابيتان ، وبعد أن وخزه وخزات

عديدة ليمنعه عن الصهيل، ومضى ينتظر بشجاعة ، مخططاً في رأسه تصميم معركة حامية الوطيس . وعندئذ قال في نفسه : إذا كان هذا الرجل خائناً فلا شك أنني ضائع . على كل حال ، لم يكن بيدي اختيار الوسائل ... ها قد اقترب الرجال ...

فإذا بكتيبة من الجنود تجتاز كرم السنديان ثم تخرج منه . وكان عددها خمسين خيّالاً وعلى رأسهم قائد يجري على فرسه مسرعاً . أما سبادا كاب فراح يسير هادئاً لملاقاتهم آخذاً الجهة السفلى من الطريق . ولم يكد يراه القائد حتى صاح به قائلاً : قف! من أين أنت قادم ؟

— من نابولي يا مولاي . وإني قاصدٌ روما لوفاء نذرٍ عليّ ولرؤية قداسة البابا .

— هل التقيت بخيّال تدلّ هيئته على أنه هارب ؟

— خيّال ؟! أجل ، ولقد تكلمت إليه . فهمهم القائد :

— وماذا قال لك ؟

— سألني إذا كانت الطريق التي يسلكها هي طريق نابولي ، فعندما أجبته بالإيجاب راح يجري و كأنّ الشيطان في ثيابه .

— لسوف نقبض عليه ! كم المسافة التي يسبقنا فيها ؟

— ساعة تقريباً .. وإذا سمعتم رأيي فإنها تصبح نصف ساعة .

— وماذا علينا أن نعمل ؟ تكلم ، وإني أتعهد أن أحصل لك على مقابلة مع قداسته .

— حسناً إذن ! بعد مسافة نصف ساعة تقريباً ستصادفون أمامكم طريقين : الأولى إلى اليمين تؤلف شعبةً طويلة ، وهي التي

أخذها الرجل الذي تطاردونه ، والثانية إلى اليسار وهي تختصر المسافة ، فسيروا فيها وستربحون أكثر من نصف ساعة . فجار القائد عندئذ يقول :

— إلى الأمام ! قريباً سنقبض عليه ! وأنت أيها الرجل الشهم تعال غداً واسأل عني في قصر سانت آنج حيث أكون مع الحرس، ولسوف نكافئك مكافأة كبيرة .

ثم انطلقت الكتيبة تنهب الأرض بعدْوها ، وبعد دقائق معدودة كانت غمامة الغبار قد اختفت. فعاد سبادا كاب إلى الكنيسة وفتحها ، فوثب راكستان إلى صهوة حصانه .

— هل رأيت يا مولاي ؟ وهل سمعت ؟ فأجاب راكستان مبتسماً: لم أرَ شيئاً ! ولم أسمع شيئاً ! لأنني كنت أخاطب القديس « بانكراس » شفيع هذه الكنيسة .

— آه يا سيدي ! وهل أجابك ؟

— نعم ، لقد أجابني بأنه يغفر جميع ذنوبك الماضية .

الغرفة السرية في نزل « لافورش »

*

دخل راكستان في الدرب التي عيّنها له سبادا كاب ، وراح يخبّ على حصانه طيلة ساعتين . ولقد أصبح الآن إلى شمال المدينة الخالدة بعد أن خرج من بابها الجنوبي . أما الوقت فقد آذن على

الظهيرة . لذلك فقد نادى سبادا كاب قائلًا : ماذا تفعل لتتغذّى عندما تكون خالياً من الطعام والمال ؟ فمدّ الخادم ذراعه نحو أشجار اكتست أغصانها بأوراق عريضة مسننة وقال : عليك بأثمار التين . فقال الفارس : التين ! هيّا نبترد به ونسدّ رمقنا ! فقال سبادا كاب : ولكنه غير ناضج تماماً . فقال راكستان : لا تسأل عن هذا ، ولنسرع إلى شجرات التين .

فهمّ سبادا كاب أن يتسلّق إلى شجرة منها، غير أن راكستان قال له : دع عنك هذا ! أنا سأصعد إلى شجرة بنفسي، لأن تسلّق الأشجار يذكّرني بعهد الطفولة يوم كنت أنزع أعشاش العنادل في غابة « مون روج » ، والشحارير في غابة « مونمارتر » .

ثم قفز عن صهوة حصانه وراح يتسلّق إلى الشجرة بخفة فائقة، ولكنه لم يكد يصل إلى الأغصان العالية حتى كشّر مزعوجاً ، لأن الثمار لم تكن ناضجة. وغمغم في نفسه قائلًا : يا للغداء البائس؟ إني لأتأسف الآن على الخبز والماء الذي لقيته في ضيافة قيصر بورجيا ... وعلى النعمة التي اغتصبها من المساكين !

ومع ذلك فقد راح راكستان يقطف ثمار التين ويقذف بها إلى سبادا كاب. فإذا بهذا الأخير يصرخ فجأة وهو يرفع نحو راكستان وجهاً قلبته الدهشة والخوف قائلًا : التين ! فقال راكستان: التين! ماذا به ؟

– لقد أصبح ذهباً !

– أأصبحت تهذي ؟

– أنظر أنت نفسك إلى الثمرة الأخيرة التي رميتها إليّ .

ومد سبادا كاب ذراعه معيداً للفارس ديناراً ذهبياً راح يلمع في الشمس . فهتف راكستان مذهولاً يقول : هذا أمرٌ عجيب غريب .

وإذا بسبادا كاب يصرخ من جديد قائلًا : هذا دينار آخر يسقط ... وهذا دينار ... بل مطر من الدنانير !

ثم قفز عن حصانه وأخذ يجمع عشرة من الدنانير الذهبية التي سقطت من الشجرة . فذهل راكستان ، وأخذ يلتفت حوله حتى وقع نظره أخيراً على حزامه الذي وجده ممزوقاً . ذلك أن غصناً نافراً علق به فمزقه مزقاً صغيراً راحت تنزل منه الدنانير العجائبية. عندئذ صاح راكستان قائلًا : الذهب من حزام قيصر بورجيا !

ثم نزل عن الشجرة بسرعة ، فنزع حزامه وفتحه فإذا هو محشو بالذهب ، لأن قيصر بورجيا لم يكن يخرج إلى مكان دون أن يكون حزامه مملوءاً . وكان هذا المال يُحشد في جيوب صغيرة تمتدّ على طول الحزام الذي يحمل سيفه .

ولا شك أننا نتذكر راكستان عندما خرج من زنزانة قصر سانت آنج كيف حزم نفسه بحزام قيصر بورجيا طمعاً في سيفه . وقد كان يحتوي هذا الحزام أكثر من مائة دينار ذهبي ، ما عدا بعض الدراهم الأخرى: إنها الثروة تنزل على راكستان وصاحبه في دقائق قليلة ؟ وهنا قال راكستان فرحاً : إن مولاي قيصر بورجيا يصلح الحال متى أراد ! فشكراً يا قيصر ! أما الآن فإنّ هذه الثمرات غير ناضجة ولا تؤكل . فهل تعرف نزلاً أو مطعماً قريباً من هنا ؟ فقال سبادا كابّا :

ـ هناك على طريق فلورنسا ، وعلى بعد ساعة من هنا ، يوجد نزل « لافورش » حيث يمكنك أن تكون في أمان ، بعيداً مائتي فرسخ عن روما وعن آل بورجيا . وإني أعرف صاحبه لأنه أحد أصدقائنا الذي كان يساعدنا فيحفظ لنا في قبوه بعض البضائع حتى تمر قافلتنا ، لقاء قسط من الأرباح .

ـ أجل ، لا شكّ أنه مهرّب شريف ... هيّا إذن إلى نزل « لافورش » لا سيّما وأنني أعرفه .

هنا أخذ راكستان يتذكر لقاءه الأول بقيصر بورجيا ، ومبارزته لأسطور الهمام . وعندما وصلا إلى نزل « لافورش » على طريق فلورنسا كانت الساعة قد بلغت الواحدة . هناك مضى سباداكابّا يقود الحصانين إلى الإسطبل بينما دخل راكستان إلى غرفة منخفضة ذات ستائر مبللة معلّقة أمام النوافذ ، يصدر عنها ابتراد كاف . وكان همّه الأول أن يطلب من الخادمة غذاء سميناً . وبينما كانت الفتاة تُعدّ الطاولة دخل صاحب النزل وقال بصوت منخفض لراكستان : أخبرني الخادم أن سيدي من أتباعنا . فقال راكستان متعجباً: من أتباعكم ؟ فأجاب صاحب النزل غامزاً بعينيه بقول : نعم . لذلك على سيّدي ألا يخشى شيئاً ! وإذا أراد سيدي أن يتبعني فإنني أقوده إلى مكان أمين . وإني أتشرّف أن أخدم سيدي بنفسي . فحدّث راكستان نفسه قائلاً : المغامرة ممتعة ! لقد حصل لي الشرف الآن أن أعتبر من كبار مهرّبي روما .

عندئذ قاد صاحب النزل راكستان إلى غرفة في الطابق الأول يُصعد إليها بدرج يقع مدخله في الساحة ، ولقد سدّ بابه بيرميل

كبير . وقال له : لا يمكن أن يفكر أحد بالوصول إلى هنا في طلب سيدي الذي يستطيع أن يقضي عدّة أيام دون خطر .

ـ شكراً يا صاح . هات لنا الغذاء .

كانت الغرفة صغيرة إلا أنها مجهّزة بما يضمن الراحة لمسافر قد يقضي فيها إقامة طويلة : ذلك أنها تحتوي سريراً ومقعداً وأريكة وطاولة وعدّة شموع وكتباً للتسلية والترويح عن النفس . وكان لها نافذة صغيرة ذات شقوق مغلقة تطل على الطريق .

وبعد قليل عاد صاحب النزل يحمل سلة من الطعام . ولم يكد يضعها أمام الفارس حتى تناول منها فطيرة من السمك اللذيذ شرع ينهشها قائلاً : أين سباداكابّا ؟ فأجابه صاحب النزل بقوله : خادم سيدي يتناول الطعام في المطبخ .

ـ دعه يأتي إليّ عندما ينتهي .

وكان راكستان يأكل بنهم دون أن يضيّع ثانية واحدة ، إلا أنه كان يهمس في ذاته قائلاً : شيء عجيب ! لقد عشت جنباً إلى جنب مع أسياد روما فلم أصادف بصحبتهم غير الجرائم الشرسة . وإذا بي أصادف رجلاً شريداً ، فينقذ حياتي . وأستضيف صاحب نزل بسيط ، فيحميني ! تُرى ، ألا توجد نبالة القلب إلا بعيداً عن أصحاب المراكز والألقاب من « النبلاء » ؟

وقطع حضور سباداكاب على الفارس أفكاره هذه . وقال راكستان : هل تغدّيت ؟

ـ كما لم أتغدّ منذ عشر سنوات يا سيدي . وأن يعرف المرء أن الخبز الذي يأكله ليس ثمناً لدم مراق ، شيء يثير الشهية حقاً .

— حسناً ! وهل استرحت ؟

— إني مستعدّ للسير حتى الليل .

— رائع ! سوف تعود إلى روما . فصاح سبادا كاب مرعوباً يقول : إلى روما ؟ هل تعب سيدي الفارس مني ؟

— كلا ، إطمئنّ من هذه الناحية . ولكن يجب أن تعود إلى روما مسرعاً . أتعرف شارع الينابيع الأربعة ؟

— أعرفه جيداً . لأنني كنت دائماً أشرب من مياه النبع ذي الأفواه الأربعة كأنني أشرب خمراً فاخرة .

— إذن ، ستقرع على باب يقع مقابل النبع تماماً ، فتطلب الكلام مع السيد ماكيافيللي . وعندما تقابله قل له أن يخبر صديقه رافائيل سانزيو بأنني أنتظره هنا حتى نهار الغد . وعندئذ يمكنك أن تعود .

— ومتى تأمرني بالذهاب ؟

— حالاً وسريعاً !

فنزل سبادا كاب مسرعاً . وبعد ثلاث دقائق سمع راكستان وقع حوافر منطلقة ، وقال الفارس في نفسه : يبقى أمامي ساعات طويلة ، فلأفكر إذن باستعادة قواي . ثم تمدّد على الكنبة ، ونام نوماً عميقاً .

*

والآن لنستفد من هجعة الفارس عائدين قليلاً إلى جانب قيصر بورجيا الذي تركناه نصف مخنوق ومصفداً بالأغلال في زنزانة راكستان . ولقد رأينا أن أصابع الفارس الحديدية لم تتركه إلا

على شفير الموت ، غير أن قوّته الجسدية المتينة تغلّبت على بوادر الاختناق ، فعاد يسترجع وعيه قليلاً قليلاً . وإنه لمن الصعب علينا أن نعطي فكرة حقيقية عن الذهول الذي سيطر عليه عندما رأى نفسه مكبلاً في ذلك القاووش . ثم إذا بسَوْرة الغضب الشديد تحلّ محلّ الذهول ! وإذا بالرعب ينقضّ عليه ، لأن أحداً لم يكن يسمع صراخه وهو يخور ، ولأن أحداً لم يحضر لإنقاذه ، حتى أنه راح يتساءل إذا كان سيبقى مهجوراً في مثل هذه الحال حتى يموت .

ولكن فجأة وصل وقع خطى سريعة إلى أذنيه ، فزال الرعب الذي بدّل لون وجهه ، ولم يبقَ في عينيه إلا بريق الحنق المتأجّج . إلا أنه بقي صامتاً يضغ خطط الانتقام الرهيب مضغاً . وعندما أقبل إلى الزنزانة جماعة القوّاد والحرس وخدام السجن ، اكتفى بأن قال لهم على عجل : حطّموا هذه الأقفال ! أما هؤلاء المساكين المرتجفون أمام غضبه فقد راحوا يغمغمون متوسّلين : آه يا غبطة المولى ! يا غبطة المولى !

وبعد عشر دقائق كان قيصر بورجيا طليقاً . وعندما دار بعينيه الحمراوين على جماعة الحرس الذين أقبلوا لنجدته حط عليهم كابوسُ الرعب والصمت .

وسرعان ما سألهم قيصر بقوله : من الذي كان حارس الدور الرابع ؟ فأجابه رجل ضخم الجثة وقد تقدّم منحنياً وممتقعاً من الخوف ، قال : أنا يا مولاي !

— ألم تسمع صراخي ؟

– كلا يا مولاي !

– ألم تسمع شيئاً ؟ كنت تنام إذن . إنتظر ، ساتركك نائماً إلى الأبد .

ثم تقدم من العملاق فأمسكه بذراعه ودفعه أمامه ، فاندفع العملاق كغلام صغير . وعندما خرجا من باب الزنزانة ، أدخله إلى ممرّ اليمين ، أمام الثقب المستدير الأسود، وأمام بئر الأفاعي، وقال له بصوت بارد : إقفز !

فارتمى العملاق على ركبتيه وبسط ذراعيه وهو يصرخ: رحماك يا مولاي !

– إقفز أيها البهيم !

– الرحمة يا مولاي . الرحمة لامرأتي وأطفالي !

ولم يستطع أن يقول أكثر من هذه الكلمات لأن قيصر ركله فجأة بقدمه ، فألقى به في البئر . فسقط الشقي وهو يجأر من الرعب جأرة مخيفة. عندئذ أخذت تسمع صرصرة الماء مع نوع من الشقشقة والدمدمة : إنها معركة الحارس الشنيعة التي ابتدأت مع العقارب الجائعة أثناء الليل .

وعاد قيصر فقال : من كان قائد المركز ، هناك ، فوق ؟

– أنا يا مولاي .

وبحركة سريعة مفاجئة سحب قيصر خنجر حارس كان واقفاً إلى جانبه وغرزه في كتف القائد الذي سقط من توّه ميتاً. ثم أخذ قيصر ينظر إلى الآخرين من القواد والحراس وخدام السجن وهو يرتجف تحت نوبة الحنق الصاخب . وكان أمامه ثلاثة وعشرون

رجلاً أخذ يعدّهم ، وهم قواد بسلاء عرّضوا بحياتهم ألف مرة من أجله ، وسجانون أشداء باستطاعة واحدهم أن يسحقه لو شاء بضربة واحدة من قبضته ، إلا أنهم جميعاً وقفوا بلا حراك أمامه، ممتقعين، منتظرين . هنا قال قيصر فجأة : أما أنتم ...

وصمت كأنه يفتش عن شيء .. ثم عاد يقول: أما أنتم فادخلوا إلى هنا !

ودل على الزنزانة التي كبّله راكستان فيها ، فدخلوا إليها دون أن ينبسوا بكلمة واحدة ، ودون أن يقوموا بحركة واحدة . عندئذ أغلق قيصر عليهم الباب، ووقف متنهداً يهمهم بصوت أجشّ يقول : ليموتوا جميعاً من الجوع والعطش !

*

وبعد خمس عشرة سنة ، وُجد في أحد الأيام وفي هذه الزنزانة بالذات ثلاثة وعشرون هيكلاً عظمياً مكوّماً بعضها فوق بعض ، بأوضاع بشعة غريبة ، كأنها هياكل قطيع مفترس مات ضواريه وهم يمزّق واحدهم الآخر .

*

أما قيصر فقد دخل في الممرّ الذي سار فيه راكستان ، وإذا بخيال يظهر عليه عند أسفل الدرج ، فزأر قائلاً : وأنت ، من تكون ؟ فأجابه الشبح بضحكة منفجرة ، ثم فتح معطفه ، فبدا شخصه على ضوء قنديل برز دون المعطف . فصاح قيصر يقول : لوكريس !

– أنا بنفسي ! أنا التي أنقذتك .

– أنت ! وكيف عرفت ؟

– تعال ، سأقول لك ! راكستان هو الذي تجرّأ فأخبرني ، ولقد حاول أن يطعنني بخنجره .

وبعد دقائق قليلة كان قيصر يوزّع الأوامر تلو الأوامر ، والمناشير تلو المناشير. وإذا بنفير الأجراس يتصاعد من ثلاثمائة قبّة من قباب روما. وإذا بجميع المنادين في المدينة يدورون في الشوارع ناثرين على الجماهير هذه الوعود المغرية : « إلى الجميع ، نُبلاءَ أو أجراء ، مدنيين أو عسكريين ، كهنة أو علمانيين ، رومانيين أو غرباء ، إليهم جميعاً هذه الوعود التي أقسم عليها علناً قداسة البابا : العفو ، ومغفرة جميع الذنوب والجرائم أيّاً كان نوعها ، والغفران الكامل لمدى الحياة، لكلّ من يقبض على راكستان المجرم المخيف. يضاف إليها ألف دينار ذهبيّ لمن يسلّم لقواد العدالة البابويّة رأس هذا اللصّ المتهم بالعصيان والخيانة والإلحاد والقتل . ويضاف إليها ثلاثة آلاف دينار لمن يسلّم اللص المذكور راكستان حياً للعدالة البابوية ! » .

العربات ذات الستائر الحريرية

*

كنا قد غادرنا راكستان قائماً بطمأنينة ولامبالاة . وكانت الشمس تميل إلى الغياب عندما أيقظه وقع خطوات كانت صاعدة

على الدرج الخشبيّ . فنهض حالاً ووقف على قدميه ، فإذا بسبادا كاب يدخل ومن خلفه رافائيل سانزيو وماكيافيللي . فهتف الفارس مادّاً يده للرسّام ، قائلاً : هوذا أنت ! فقال رافائيل : صديقي ، ماذا ألمّ بك ؟ لقد بلغني خبر توقيفك وعلمتُ أنهم سيعدمونك . وإذا بي في هذا الصباح أسمع نفير الأجراس ، وأصوات المنادين الذين يدلّلون على رأسك . فقال راكستان :

– لنتصرف حسب القاعدة ، إذ من الضروري أن تعرّفني على رفيقك أولاً . فقال رافائيل : صديقي ماكيافيللي ، وهو مفكر كبير سينتزع إعجاب العالم في المستقبل . ولكنّ ماكيافيللي قال وهو يمدّ يده لراكستان : أما اليوم فإن الفارس راكستان هو الذي يثير إعجاب المدينة الخالدة ، لأن الناس في روما لا يتحدثون إلا عنك ، لا سيما بعد أن قدّر آل بورجيا رأسك بثلاثة آلاف دينار . ولكن سحقاً لهم ، وتهانيّ لك يا سيدي .

فضحك راكستان وقال : لا يعرفون تقدير رأسي كما أقدّره أنا بنفسي. إذن لقد دلّلوا على رأسي بالدنانير ؟ (ثم أضاف موجهاً الحديث لسبادا كاب) : وهل عرفت ذلك أنت؟ فأجاب سبادا كاب قائلاً : إنّ أول شيء شاهدته في روما هو جدول الأسعار الذي كانوا يعلقونه على باب كنيسة. ولقد شاهدت أيضاً المرسوم البابوي المذيّل أيضاً بتوقيع غبطة قيصر بورجيا .

– وماذا فكّرت حينئذ ؟

– رأيت نفسي مزهواً بأن أخدم سيداً يقدّرون ثمنه غالياً .

– أحسنت ! هيّا أحضر بعض زجاجات من النبيذ .

فمضى سباداكاب مسرعاً . أما راكستان فالتفت إلى صاحبيه وقال : كان هذا الرجل منذ يومين يزاول مهنة السرقة ، ولم أعرفه إلا منذ هذا الصباح ، ولقد أرسلته إلى روما حيث عرف أنه يربح بتسليمي ثلاثة آلاف دينار ذهبي ... ولكنه لا يسلمني ! فصاح رافائيل قائلاً : يا للتهوّر أن تستسلم لمثل هذا الشريد البائس ! فالثمن المدفوع كبير ومغرٍ أيها الفارس . فقال ماكيافيللي : هذا صحيح ، ولكن ثقة الفارس اللامحدودة بهذا الرجل تجعله يرتبط به بإخلاص .

في هذه البرهة عاد سباداكاب يحمل الزجاجات بين يديه . وعندما جلس الفارس مع صديقيه إلى الطاولة أسرع فقال: لنتحدث الآن ! إن ما حدث لي بسيط جداً ..

ثم أخذ يسرد سرداً مفصلاً جميع الأمور التي حدثت له منذ أن قال لرافائيل أن ينتظره في بيت ماكيافيللي ، وذلك قبل أن يذهب إلى قصر سانت آنج ليودّع قيصر بورجيا وليثير انتباهه إلى خطف روزيتا الغامض . إلا أنه لم يذكر الحديث السريع الذي سمعه بين الراهب دون كاركونيو والأميرة لوكريس ، هذا الحديث الذي له علاقة بحادثة الخطف . وعندما انتهى من قصّته التفت إلى الرسّام وقال : الآن دورك أنت ، أخبرني ماذا جرى لك . لقد تركتك يائساً ، وها إنني أراك الآن مغتبطاً تقريباً . أرجو أن تكون قد وجدت امرأتك وحبيبتك الضائعة ؟ فقال رافائيل : كلا، لم أجدها. ولكن القضية تسير سيراً حسناً. فقاطعه ماكيافيللي بحذر قائلاً : إنما يجب أن تعترف بأن ما رواه لنا

الفارس يثبت عدم ثقتي بذلك الرجل ، بل ذلك المسخ . فأجاب رافائيل وقد بدا عليه أنه حالم بشيء : هذا صحيح . ولكن تلك الوعود التي قطعها لنا هل يمكن أن ... فقاطعه راكستان قائلاً: لا أفهم شيئاً من كلامكما يا سيديّ ! فقال رافائيل :

— ستفهم كل شيء: بعد أن تركتك مضيت إلى بيت ماكيافيللي الذي حاول أن يموّه عني ، ولكن عبثاً . وكنت قد أخبرت ماكيافيللي كيف أنك أنقذتني ، وما أردتَ عمله لإنقاذ حبّي . ولقد انتظرناك بفارغ الصبر . فقال راكستان في نفسه :

— هذا غريب ! ما زال الذهول بادياً عليه ! أما رافائيل فقد تابع قائلاً :

— ومرّت ساعات عديدة . وعندما طال غيابك خرجنا وجئنا إلى نزل « جانوس الجميل » لعلنا نتسقط أخبارك. فأخبرنا برتولومايو ما أصبح يعرفه جميع الناس في روما، أي اعتقالك بالتهمة الخطيرة التي ألصقوها بك . أما أنا فلم أتصور ثانية واحدة أن نفسك نفس قاتل حقير . فقط ماكيافيللي وحده راح يقارن بين إمكانية قتل فرنسوا بورجيا على يدك ، وبين طباعك التي صوّرتها أنا له . فقال ماكيافيللي :

— ولكن من يقتل شخصاً من آل بورجيا ليس بقاتل : إنه طالب عدالة . فتابع رافائيل قائلاً :

— مهما كان من أمر ، فقد بشتُ يا صديقي الحميم بما حدث لك . وكان يمتزج حزني عليك ببعض الأنانية . إذ أنك أوحيت إليّ ثقة تفوق الحدود وصفاً ، فكنت متأكداً بأنني لا محالة واجد

روزيتا بواسطتك، أو بأنني فاشل بدونك . إلا أنني لم أفقد الأمل منك ، بل كنت أحدّث نفسي بأن الحكم عليك كان وليد خطأ ولا بدّ أنهم سيطلقون سراحك بعد حين . ولكن مع الأسف ، فقد علمنا بأنهم حاكموك وحكموا عليك .

ـ ولكنها محاكمة طريفة ، طبخت في أقل من عشر دقائق !

ـ أخيراً ، وفي هذا الصباح ، بعد أن دبّ اليأس إلى نفسي حضرتني فكرة ... فقال ماكيافيللي :

ـ فكرة لم أوافق عليها بل عارضتها . فسأله راكستان قائلاً: وما هي هذه الفكرة ؟

ـ لقد فكرت أن ألجأ للبابا. فصرخ راكستان مرتعشاً يقول: للبابا ! فقال رافائيل : نعم ، لأن هذا العجوز ، بالرغم من الرذائل التي يلصقونها به ، يملك بنظري صفة ثمينة : إنه يحبّ الفنون. ولقد أظهر لي مرّات عديدة ترحيباً طالما أثّر عليّ . لذلك فقد فكرت بأنه لن يرفض الاهتمام بمصيبتي . فأعاد راكستان قوله ذاهلاً : « فكرت أن تلجأ للبابا ! » أما رافائيل فقد تابع روايته قائلاً :

ـ فذهبتُ في هذا الصباح إلى الفاتيكان . ولقد فرحتُ أولاً عندما علمت بخروجك من السجن وبفرارك منه، لا سيما وأن جميع الأفواه راحت تتحدث عن ذلك . وعندما وصلت إلى الفاتيكان دخلت حالاً إلى مكتب البابا دون ما إذن سابق ، فشكرته ، فأجابني بأنه كان يطلب مخاطبتي بشأن لوحة « التجلّي » التي شاهد تصميمها . عندئذ أخبرته بأن العمل أصبح مستحيلاً عليّ ، ورويت له ببعض كلمات حادثة اختطاف روزيتا. فأخذ يهوّن عليّ ويشجّعني

على الاحتمال ، ثم دعا إليه المركيز روكاسانتا مدير البوليس البابوي الأعلى ، فرويت أمامه قصتي مرّة ثانية . فأجاب المركيز بأنه سمع حديثاً عن هذا الخطف ، وبأنه يعتقد أن مكان الفتاة المخطوفة غير خافٍ عليه . فأمره البابا في حضوري بأن يبدأ في الحال تحرّياته العمليّة . عندئذ أقسم المركيز على أنه سيطيع أمر البابا إطاعة تامّة ثم انسحب . فلم أعد أدري كيف أشكر قداسة العجوز الشهير . ولقد قال لي بأنه سيسافر في هذا النهار إلى تيفولي ليقضي فيها بعض أوقات الراحة والاستجمام كعادته السنوية . ثم أمرني بالخروج بطيبة كبيرة وهو يوصيني بالطمأنينة والهدوء ، لأنه حتى في غيابه سيهتمّ بقضيتي حتى تنتهي إلى صالحي الخاص . وطلب مني أن أعود إلى العمل بنشاط ... فوعدته بذلك . وهذا أيها الصديق الحميم ما جعلني أطمئن .

كان راكستان يصغي بانتباه لهذا الحديث، ولقد رمقه رافائيل بعينه كأنه يستفسر عن رأيه الخاص . فقال الفارس عندئذ : ماذا تعتقد يا سيد ماكيافيللي ؟

ـ إنني أعتقد بأن اسكندر السادس هو المثال الكامل للأنانية الشرسة، وأن ترحيبه الزائد يقوّي حذري منه. هنا تابع راكستان يقول وكأنه حالم :

ـ ولكن ... ألم تقل يا رافائيل أنه ذاهب اليوم إلى تيفولي ؟

ـ بلى ، هو الآن في الطريق إليها ، ولقد سبقنا نحن موكبه بطريق جانبيّة قصيرة . وهو سيمرّ بعد قليل أمام هذا النزل ، ها هو ... أصغ ... هل سمعت ؟

فإذا بهم يسمعون ضجيج كتيبة كبيرة من الخيّالة تقترب نحوهم من بعيد . فقام راكستان وأتى إلى النافذة ، وإذا به يشاهد على بعد خمسماية خطوة من النزل عربة كبيرة ذات ستائر حريرية تبرز في وسطها شعائر البابا الحمراء ، وتجرّها اثنتا عشرة بغلة . وكانت العربة محاطة بعدد من النبلاء الخيّالة ، ومن بينهم كرادلة يتميّزون بقبّعاتهم الحمراء. ولقد كان في مقدمة هذا الرتل طابور من الحرس، ولقد كان منهم طابور آخر في المؤخرة .

وعاد راكستان ببصره إلى العربة فرأى قرب الستائر اليمنى قيصر بورجيا مفكّراً قائماً يبرز بيزته المخملية السوداء . وكانت العربة لا تبرح تتقدّم حتى أن بعض خيّالة الموكب قد اجتازوا النزل . فهمس رافائيل آخذاً بيد راكستان يقول : تُرى ، ماذا يفعل قيصر لو عرف أنك هنا ؟ إلا أن راكستان لم ينقل نظره عن العربة ، فإذا بهبّة نسيم تحرّك ستائرها ، فظهر البابا مستلقياً في داخلها، قارئاً في كتاب. ولكنها كانت لمحة سرعان ما امّحت. فقال راكستان : هل رأيتا ؟

ـ البابا !

ـ حسناً ، فهل تريد يا رافائيل أن تعرف ما هي قيمة صداقة اسكندر السادس ؟ وما هو وزن وعوده وعهوده ؟ وهل تريد أن تعرف إلى أين يقصد هذا العجوز الذي وعدك منذ حين باكتشاف حبيبتك ؟ فتمتم رافائيل مصفرّاً يقول : قل لنا !

ـ إني أعرف مَن أمر باختطاف روزيتا ! فصاح رافائيل بصوت مرتجف : تكلّم !

ـ كن جلوداً وتشجّع ! لأن عدوّك مسلح بسلطة كبيرة ، ولا يردعه شيء في سبيل إرواء شهواته . وإن خاطف فتاتك هو هذا الذي رأيته يمرّ ! إنه هو نفسه الذي كان يسخر منك عندما وعدك بأنه سيعيد إليك حبيبتك التي ما زلت تبكي من أجلها .

ـ البابا ؟ هذا مستحيل !

ـ هذه هي الحقيقة . لقد وقعت عينا هذا الشيخ على شباب روزيتا وعلى نضارتها فأحبها لأنه يحبّ اللحم الطري ... وإنني متأكد من كل هذا لأنني سمعت بأذنيّ هاتين، ورأيت بعينيّ هاتين.

سقط رافائيل سانزيو من فوره على الكرسي منهوكاً ، وراح يقول: إني أتذكر الآن... فأنت لا شك على صواب،لأنني عندما حملتُ له لوحتي « العذراء على كرسي » أخذ يحدّق فيها تحديقاً غريباً ، وسألني عن النموذج الأصلي ، وطلب مني أن يراها . إني أفهم الآن كل شيء ! يا لهذه السفالة ! فقال ماكيافيللي: أجل،هذه أشياء جديرة بآل بورجيا وحدهم . إلا أن راكستان تابع قائلاً : إن البابا ذاهب الآن إلى تيفولي ، أليس كذلك ؟ إنه ولا شك ذاهب إلى لقاء روزيتا التي أمر بنقلها إلى هناك . ولكنْ قف يا رافائيل ، إلى أين أنت راكض هكذا ؟

ـ يا للرجل الحقير ! أريد أن أمضي في أثره !

ـ يا للشيطان! يجب أن تصبر قليلاً لئلا نفقد كل شيء.ولسوف تلاقي حتفك قبل أن تقول كلمة واحدة وقبل أن تقوم بحركة واحدة . ولن ينجّي حتفك روزيتا. فتمتم رافائيل عندئذ يقول:

ـ هذا صحيح ، فما العمل إذن ؟ فقال راكستان :

— أن تبعد عنك اليأس أولاً، لأن بورجيا قويّ والخطر الذي يحيط بروزيتا هو خطر جسيم، ولن نلاقي النصر إلا إذا حاربنا القوة بالذكاء، والتهديد بالفطنة. فعليك إذن أن تحتفظ بهدوئك ومتانة أعصابك. وإني أعلم أن الموقف حرج، ولكن إليك مَثَلي: فمنذ بضع ساعات كنت محكوماً عليّ بقطع عنقي، وها إنني الآن مستعد للقيام بأيّ عمل لحل مشكلتك. فأنت ترى إذن أنك تستطيع بحزمك ودرايتك أن تخرج ظافراً من أصعب الأزمات.

وكان راكستان يتكلم بحرارة مشتعلة حتى أن ماكيافيللي، على ما يبدو عليه من برود، أمسك بيده قائلاً: كم أنت قوي!

أما رافائيل فقد شعر هو الآخر بأن قوّته أخذت تعود إليه، فالتفت إلى راكستان وقال: يا صديقي الحميم، إنك تنقذني أيضاً من اليأس. فلتكن مباركة تلك الساعة التي صادفتني بها! فقال راكستان: حسناً، فلننظر الآن في الخطة التي سنلجأ إليها...

— تكلم أيها الصديق، ماذا يجب أن نفعل؟

— أن نتعشّى أولاً، لأن الأفكار التي تصدر عن الجوع تكون هزيلة ولا تطبّق. فهيّا يا سباداكاب!

فأقبل سباداكاب مسرعاً، وراح راكستان يؤلف لائحة الطعام. وعندما جلس الأصدقاء الثلاثة إلى الطاولة شرع الفارس يقصّ عليهم كيف سمع في نهار اعتقاله، أقوال الراهب كاركونيو وهو يقدّم للوكريس تقريره عن اختطاف روزيتا. فقال ماكيافيللي: إني أعرف هذا الراهب، ولقد فزتُ بصداقته. وإنني أحياناً أحصل منه على تفاصيل ثمينة أدفع ثمنها كلمة مديح. لأن

هذا الرجل المضحك له مطامع بالسياسة.

— حسناً، هذا يمكنه أن يخدمنا.

وكان الليل قد أقبل عندما انتهوا من العشاء، هذا العشاء الذي كان حزيناً بالرغم من جهود راكستان. ولقد اتّفق الثلاثة على السفر إلى تيفولي حيث يمكنهم التصرف وفقاً للظروف. وفي صباح اليوم الثاني، عند الفجر، سار راكستان وماكيافيللي ورافائيل في الطريق، ومعهم سباداكاب الذي يسير خلفهم. وكان راكستان يضع خطة للهجوم. وكان رافائيل غارقاً في أفكار حزينة. أما ماكيافيللي فقد كان يستعيد في مخيّلته تصميم الفيللا البابويّة التي كان قد زارها من قبل. وبعد قليل بزغت الشمس فاهتزّ راكستان قائلاً: ما بالكما كئيبين؟ إن من يرانا يحسب أنّا برفقة ميت، مع أننا سائرون في طلب الحياة والشباب والحب! آه، عندما أفكر أنهم كانوا في هذا الصباح سيقطعون رقبتي وقبضتيّ، وعندما أفكر بجلاّد روما المسكين! لا شكّ أن هذا الشهم لا يجبني الآن ولا يستطيع أن يتصورني لأنني حرمته من لذة هذا المشهد! أجل، هذا خروج على قواعد الذوق! ولا شك أن عملي هذا سيجعله يشمئزّ من مهنة تقطيع الرؤوس! فلم يستطع ماكيافيللي ورافائيل أن يمتنعا عن الضحك. أما راكستان فقد تابع القول: يتبقّى علينا أن نجعل حضرة رودريك بورجيا يشمئز من مهنة خطف النساء. فهل نحن الآن في الطريق التي توصلنا إلى ذلك؟ فقال ماكيافيللي: لن نحيد عن هذه الطريق. وقال سانزيو: أشكركما أيها الصديقان. إنكما تضعان نفسيكما في خدمة عاشق بائس لم تتعرّفا إليه إلا منذ

حين ، فكيف يمكنني أن أشكركما . فأجاب راكستان ضاحكاً: ترسم وجهي في إحدى لوحاتك ، وهكذا أكون أنا قد منحتك قليلاً من السعادة ، وتكون أنت قد منحتني الخلود ، فأكون أنا مديناً لك !

فأثّر هذا المديح اللطيف ، وهذه الثقة التي تظهر على وجه راكستان وفي حديثه ، في نفس رافائيل الذي صاح قائلاً : ليبقَ هذا عهداً بيننا طيلة الحياة ، وحتى الموت !

وكان هؤلاء الرفاق قد تركوا منذ ساعتين طريق فلورنسا ، وساروا وفقاً لتعليمات ماكيافيللي ، فوق سلسلة من الجبال تختلط رؤوسها بزرقة السماء . وفجأة صرخ ماكيافيللي قائلاً : تلك هي تيفولي ! وكانت ذراعه تشير إلى مجموعة من البيوت البيضاء الغارقة في اخضرار البساتين الكثيفة المنبسطة فوق وديان تتدحرج في مطاويها شلالات صاخبة ذات زبد أبيض . فراح رافائيل يتأمّل بتأثّر عميق هذه القرية التي خطفت إليها امرأته ، والتي راحت تبدو وكأنها عشّ صقر كامن . ثم أخذ يتمتم بحنجرة يعضّ عليها الألم والقلق قائلاً :

— روزيتا ! حبيبتي روزيتا ! إلا أن ماكيافيللي تابع قائلاً : أنظر ، أترى هناك إلى يسارنا ذلك الوادي العميق الذي يؤلف هاوية سحيقة ! في هذه الهاوية يضيع نهر « الآنيو » بهديره الذي نسمعه إلى هنا.. ثم ألا ترى على حافة تلك الهاوية هاتيك الأعمدة التي يأكل منها العليق ؟ إنها آثار معبد العرّافة .

— أرى كل شيء ، وماذا بعد ؟ تكلّم !

— هناك إلى يمين المعبد ، وعلى بعد ألف خطوة من الهاوية ، ألا ترى تلك الأبنية المحاطة ببستان كبير تسدّه من كل صوب أسوار عالية ! ذلك هو قصر اسكندر بورجيا الريفي .

فراح رافائيل يهمس مادّاً ذراعيه نحو القصر الأنيق المزهر المتألق جمالاً ، ويقول : حبيبتي روزيتا !

ولقد هزّت الشفقة قلب راكستان وماكيافيللي فراحا يهوّنان على الشاب التعس . وبعد ساعة دخل الثلاثة مدينة تيفولي الصغيرة، ونزلوا في فندق منحرف بعيد عن الأنظار .

شيخوخة اسكندر بورجيا

*

هذه الفيللا التي مدّ رافائيل سانزيو نحوها ذراعيه كانت قصراً من قصور الصيف ، مجهّزاً بما يوفّر الراحة للفكر واللذة للعين . ففي البستان ، تحت عقد ملتفّ من شجر الرمّان ، قام تمثال رخاميّ لملاك الحب وهو يلعب مع حورية من حواري الحقول . وقرب هذا الملاك كان مقعد من الرخام الورديّ جلست عليه صبية امتلأت عيناها بالدموع . هذه الصبيّة هي روزيتا . وكان إلى جانبها امرأة في الأربعين من عمرها، وهي قهرمانة خادّة التقاطيع، تراقب جميع حركاتها . وكان خلف القهرمانة رجلان مختبئان بين النبات الأخضر المستطيل ، يترصّدان الفتاة ، ويتأهبان للهجوم

ساعة يحدث شيء .

ولقد مرّ أربعةُ أيّام والفتاة حبيسة في فيللا قرية تيفولي ولقد كانت تحاول عبثاً أن تفهم ماذا جرى لها ولماذا أتي بها إلى هناك . وكانت دائماً بقربها تلك المرأة التي لا تتركها أبداً ، حتى أثناء الليل ، حيث تنتظر القهرمانةُ الفتاة أن تطبق عينيها لكي تستلقي هي على مقعد بجانبها .

تُرى، ماذا حدث لرافائيل ؟ هذا هو السؤال الذي كان يستولي على روزيتا ويلقي بها فريسةً للقلق والخوف . ومع هذا لم تفكر الفتاة ثانية واحدة أن تطرح هذا السؤال على المرأة التي تراقبها لأنها كانت تخاف منها خوفاً شديداً .

وفي صباح أحد الأيام شعرت روزيتا بحركة خارقة تجري حولها ، فقد سمعت وصول عربة أو عربات ، ثم ضجيج ذهاب وإياب في ممرّات القصر . ولكن بعد ساعة عاد كل شيء إلى السكون . وكانت روزيتا آنئذ في غرفتها . بعد قليل دخلت عليها امرأة وهمست بعض كلمات في أذن سجّانتها، ثم جلست على أريكة موجودة هناك . ففكّرت روزيتا في نفسها قائلة : لا شك أنهم أبدلوا ناظرتي بناظرة ثانية .

عندئذ خرجت سجّانتها مسرعة ، متجهة نحو الجناح الذي فيه مساكن البابا . هناك أدخلها كاهن شاب إلى غرفة فسيحة معزولة يستريح فيها البابا وحيداً . ولم يكد البابا يراها حتى سألها قائلاً : ما وراءك يا سيّدة بيارينا ؟ فغمغمت القهرمانة وهي راكعة على ركبتيها تقول : أيها الأب الأقدس ! فقال الرجل العجوز : أيتها

السيدة ، ما بالك تسكعين وتركعين ؟ تذكّري أن اسمي هو كونت « فاينزا » . رودريك فاينزا . هل فهمت الآن ؟ فقالت القهرمانة : فهمت !

— حدثيني الآن عن مهمّتك .

— لقد جرى سفرنا دونما حادث يذكر يا سيدي الكونت ... أما الصغيرة ، فبعد أن ولولت قليلًا ، عادت كما يبدو إلى الانسجام مع حياتها الجديدة .

— حسناً ، إنها إذن قابلة للتدجين . وماذا تُراها تقول ؟

— لا تقول شيئاً .

— يا للشيطان ! هذا أمر خطير . ألم تحاولي أن تتحدثي معها قليلًا لكي تموّه عن نفسها ؟

— بلى ، ولكن ربما كان أسهل على التمثال أن يتكلم من أن تقول هي شيئاً .

فبقي البابا يفكر لحظة خافضاً رأسه . ثم رفع جبهته وقال : يا سيدة بيارينا !

— نعم يا سيدي الكونت .

— إفهميني جيداً ، يجب أن تهيّئي لي مقابلة مع الفتاة ، لأنني سأقول لها بعض الأشياء ، بيني وبينها ، أتفهمين ؟ سأبوح لها بأسرار عن مولدها وعائلتها .

— سيدي الكونت هو صاحب الرأي ، وما عليه إلا أن يأمر .

— أجل ، إنني صاحب الرأي . ولكن هذه الفتاة تجهل أن اختطافها بالقوّة كان لصالحها . لتتصوّر فقط أنهم يريدون حرمانها

من حقوق العائلة ، فيما يجب أن تعود إليها حقوقها وألقابها وامتيازاتها . هذا ما سأحدّثها عنه ، ولا شيء آخر سواه ، هل سمعت يا سيدة بيارينا ؟

ـ نعم سمعت : أي أنه يجب إعداد الفتاة لاستقبالك ، وللاصغاء إليك .

ـ كما تصغي لأبيها . ولكن كلا ، لا تقولي هذا ، بل قولي كصديق يتمّ بسعادتها . إذهبي الآن !

فابتسمت السيدة بيارينا ابتسامة قبيحة ، ثم اختفت .

*

أما في اليوم الثاني فقد عقد بورجيا جلسة من نوع آخر ، وذلك في الغرفة ذاتها . لقد كان البابا في هذا اليوم جالساً في أريكة، وهو ملتفّ بمعطف يغطي كل جسمه ، وإلى جانبه طاولة صغيرة عليها زجاجات عطر ، ودبابيس شعر ، ومساحيق ، وكل ما كان من وسائل الزينة .

وبينما كان كاهنه المقرّب آنجيلو يقرأ له بصوت عال ، كان رجل يروح ويجيء حول الأريكة حاملاً بيده زجاجة وأداة حديدية ، ويدلّك وجه البابا ببعض المساحيق . ومن وقت لآخر كان الرجل يقدّم له مرآة من صنع فينيسيا ، فيعبّر البابا بكلمة عن شعوره بالرضى أو بالنفور . وعندما أنهى المزيّن عمله قال البابا : هذا حسن ، إنك فنان أصيل .

ـ لو كان سيدي الكونت يسمح لي ، لأعدته إلى الشباب بأقلّ من لمح البصر . وتتمّ العملية بأن أسكب على شعره هذه

الزجاجة الصغيرة .

ـ كلا ، أفضّل شعري الأبيض . ويكفيني فقط أن تُخفي هذه التجاعيد المزعجة .

حينئذ حيّا المزيّن « الفنان » وانسحب . فسأل البابا كاهنه قائلاً : كيف تجدني يا آنجيلو ؟ فأخذ الكاهن يتفرّس في وجه العجوز بانتباه ، ثم قال : أجدك جميلاً على قسوة وجلال .

ولم يكن آنجيلو كاذباً ، لأنه كان من المستحيل أن نتعرّف خلال زودريك بورجيا إلى العجوز ذي السبعين من السنين . فقد كانت عيناه السوداوان تلمعان بنار قاتمة تحت حاجبيه الكثّين العريضين ، وكان شعره أبيض ، ولكنه يسكب على وجهه مسحة من الحزن الذي يلطّف من صلابته . حينئذ دخل وصيف غرفته وشرع يلبسه بزّة خيّال من المخمل البنفسجي ، ثم ألقى فوقها معطفاً قصيراً من الحرير البنفسجيّ أيضاً . أما الزنار الذي لفّه بورجيا حول خصره فقد كان من الحرير المقصّب ، يحمل سيفاً للزينة ذا مقبض فخم . ثم جاء دور رأسه فوضع عليه قلنسوة ينزل شعره من دونها على قبّة عريضة من التنتناء ، بطريقة تجمع بين الرقّة والصرامة . وعندما نظر آنجيلو إليه صرخ صرخة إعجاب صادق ، ذلك أنه رأى أن الإرادة لدى بورجيا قد تغلّبت على الشيخوخة ، فأصبح يثير اهتمام كل من ينظر إليه . أما البابا فقد ابتسم ، وودع الكاهن ، ثم خرج !

*

عندما انتقل بورجيا إلى جانب روزيتا لم يكن يشكّ أبداً بأن

مشروعه سينتهي إلى مخرج سيّء ، لأنه كان يعتقد بأن الفتاة ستستسلم إليه ، إن لم يكن في النهار ذاته ففي مهلة قصيرة . وعندما دخل إلى غرفة الفتاة وقف عند العتبة محيّياً ، فقالت القهرمانة : ها هو كونت فاينزا آت لزيارتك ! ثم انسحبت مسرعة . فأغلق بورجيا الباب وتقدّم نحو الفتاة قائلاً : أتسمحين يا ابنتي بأن أتحدّث إليك بأشياء تثير اهتمامك ؟

فتراجعت روزيتا إلى الوراء ، واسعة العينين ، مذهولة ذهولاً لا يوصف ، وهي تتمتم قائلة : البابا ! الحبر الأعظم ! فارتعش بورجيا ، إذ شعر بأن تصميمه أخذ ينهار ، لأنها تعرفه . وقال : إنك مخطئة إنني كونت فاينزا . فركعت الفتاة قائلة : كلا ، لست مخطئة أيها الأب الأقدس ، فقد شاهدتُ قداستك مرات متتالية : في زيّاح عيد الرحمة ، وفي قدّاس الفصح ، وفي كنيسة القديس بطرس . إنك صاحب السلطان ، سيّد روما والعالم بأسره ، ولا شكّ أن وجودك سينقذني من هنا !

— إطمئني يا ابنتي ... وانهضي ! فقاطعته الفتاة متأثرة تقول : أيها الأب الأقدس ، إنني ضحيّة جريمة خطف . لقد اختطفوني وانتزعوني من ذراع زوجي ! ولقد جيء بي إلى هنا . أيها الأب الأقدس إني أطلب العدل منك أو بالأحرى لا أطلب سوى شيء واحد : أن تُفتح أبواب هذا البيت المغلقة عليّ وأن ترفع عنّي رقابة هذه المرأة القبيحة ، وأن يُسمح لي بأن أمضي في طلب زوجي، زوجي رافائيل الذي يحبّني! إنك تعرفه أيها الأب الأقدس لأنك أظهرت عطفك عليه ، ولأنه منذ وقت قريب كان سعيداً

عندما حمل لك لوحته الجميلة عن العذراء . آه لقد كنت بائسة ، لا شك أن حضورك الآن سينقذني .

وانفجرت روزيتا بالبكاء، إلا أن بورجيا لم يكن يسمع بكاءها لأنه كان يكاد يمزّقها بعينيه [redacted] . ولقد شعر بأنه يفقد السيطرة على نفسه، فأمسك بيد الفتاة ، وقال بصوت مرتجف : إنهضي ، لا أستطيع رؤيتك راكعةً عند قدميّ . وارتعشت يده عندما لمست يد لافورنارينا، بينما راحت الفتاة تشعر بذهول غريب لأنها لا تستطيع فهم حالة البابا هذه . ولم يكن منها إلا أنها أخرجت يدها من يده وجلست مترنحةً تقول : إغفر لي يا أبتِ الأقدس ، فقد تألمت كثيراً .

— يا ابنتي ، إذا أردتِ فإنك لن تتألمي بعد الآن .

— لسوف تتركني أمضي ، أليس كذلك ؟

— أجل ، إنني أعدك .

فصرخت روزيتا من الفرح وأخذت بدورها يد البابا فحملتها إلى شفتيها وهي تقول : آه كم أنت رجل طيب ! كنت أعلم أنك ستنقذني . وسأذهب حالاً ، أليس كذلك ؟

— كلا يا ابنتي لن تذهبي حالاً ... لأنه من الضروري أن تقضي هنا يومين أو ثلاثة .

فتراجعت روزيتا إلى الوراء ، وابيضّ وجهها ، لأن فكرةً مخيفة كانت قد طردتها عادت تستقرّ في رأسها ، فصاحت قائلة : إذن أنت الذي أمرت باختطافي ! أنت رودريك بورجيا !

فاقشعرّ بورجيا وأحسّ أنه يكاد يفقد عقله ، وإذا به يتقدّم

فجأة من روزيتا ويمسكها بمعصميها قائلًا بصوت منخفض: أجل أنا! أنا أمرت بخطفك . فهل تجرئين على مقاومة أوامر الحبر الأعظم ؟ فلم تجب روزيتا بشيء ، بل راحت تنعطف إلى اليمين وإلى اليسار وإلى خلف لتتخلص من القبلة التي كانت تقترب منها ، وكان بورجيا العجوز يتلجلج قائلًا وهو يمّ بشبقه الملتهب : تكلمي، تكلمي... وقولي لي فقط بأنني لا أستثير نفورك . ودعيني فقط ألمس شعرك جرثومتج ! فقالت الفتاة لاهثة : أيها الرجل الحقير !

– أتريدين أن تكوني دوقة ... أو أميرة ؟

وجرت معركة قصيرة ، إذ أن بورجيا بعد أن اشتعلت عيناه وطار صوابه ، استجمع قواه وعاد يحاول محاولة أخيرة وهو يتمتم قائلًا : إنك لي ! ها إنني قابضٌ عليك !

وفجأة إذا به يقف مذعوراً أبكم : فقد ضاعف اليأس عزيمة روزيتا وأفلتت من ذراعيه واثبة إلى الوراء بعد أن انتزعت منه سيف الزينة الذي كان معلقاً بزنّته ، وقالت الفتاة بصوت بارد : أيها الأب الأقدس ، لأقتلنّك إذا خطوتَ نحويَ خطوة واحدة !

وعندما رأى البابا بأي هدوء لفظت الفتاة هذه الكلمات ، أيقن أنها أصبحت في آخر درجة من درجات الهياج ، فبردت حمّاه فجأة وقال: لا تخافي شيئاً ! فقالت روزيتا وقد وضعت السيف بين يديها كحاجز فولاذيّ صغير يفصل بينها وبين الذئب المتربّص بها : لست الآن خائفة ! فغمغم بورجيا قائلًا : الوداع إذن ، سنعاود حديثنا في وقت آخر يا عزيزتي !

قال بورجيا العبارة الأخيرة باللاتينية ثم خرج دون أن يجرؤ

على إتيان حركة واحدة . وعندما أصبحت روزيتا وحيدة أخذت السيف وهي ما تزال محافظة على هدوئها الشرس ، فكسرته من رأسه ، محتفظة بقطعته كأنها خنجر حادّ ، ثم انفجرت باكية .

أما رودريك فبعد أن أصلح من وضع ملابسه عاد إلى غرفته حالماً . ولقد أخذ يفكر في نفسه مبتسماً ويقول : لقد أصبحت مسناً ، ولقد أفسدت كل شيء بتسرعي ، ومن ثم فقد خفت ، وتراجعت ... آه ، لم يكن في الماضي يوقفني سيف تلوّح به يدٌ جميلة. على كل حال لقد تمّت الضربة الأولى. فلنتركها الآن تفكر!

وعندما وصل إلى غرفته ، قال للكاهن آنجيلو الذي خفّ مسرعاً إلى استقباله : أتعرف وادي نهر « الآنيو » ؟

– نعم يا قداسة الـ ... يا سيدي الكونت .

– يمكنك أن تعيد إليّ الآن لقبي . إسمع : على ضفّة الوادي يوجد كهف برّي ، وإني أريد منك أن تتنزّه قليلًا في جواره للتأكد مما إذا كان يقطن هذا الكهف امرأة عجوز يعرفونها في روما باسم الماغا .

– وإذا كانت العجوز هناك ، أيها الأب الأقدس ؟

– قل لها إنني سأزورها في هذه الليلة .

البستاني الساذج

*

كان راكستان وصديقاه قد نزلا في فندق فقير المظهر يدعى

« نزل الزهور ». ولا شك أن هذا الفندق قد أثار انتباه راكستان بتواضعه وانحرافه عن الأنظار. ولم يكد الرفاق الثلاثة يستريحون قليلاً حتى خرج راكستان على قدميه وحيداً، ثم عاد بعد ساعة حاملاً تحت إبطه رزمة من الثياب، ودخل حالاً إلى غرفته.

في هذا الوقت كان ماكيافيللي منهمكاً في رسم تصميم لفيللا البابا على الورق، لأنه قام بزيارتها في السنة الماضية وهو ما يزال حافظاً في ذاكرته الخطوط الرئيسية من تنظيمها الداخلي. وعندما خرج راكستان من غرفته كان متغيّر الشكل حتى كاد لا يعرفه صاحباه، وإنه ليشبه الآن أحد أولئك التلاميذ الألمان القادمين إلى إيطاليا لتحصيل المعارف القديمة من منابعها الأصلية. وسرعان ما قال راكستان: يمكنني الآن أن ألمّ بالقصر. فهتف رافائيل قائلاً: سنرافقك نحن أيضاً!

ـ كلا يا صاح، فاليوم مخصّص فقط لجمع المعلومات. لا تخف سيأتي دورك ساعة تحين المعركة. فقال رافائيل: ولكن ألا يمكنني مساعدتك منذ اليوم؟ فتدخّل ماكيافيللي قائلاً: لندعنّ الفارس يعمل كما يريد! قال راكستان: هذا ما أريده. أما أنتما فاستعدّا للمهمّة التي سوف تكون صعبة.

ـ وهل رسمت خطة لخطف روزيتا؟

ـ كلا! يجب أن نخطف شخصاً آخر.

ـ شخصاً آخر! ومن هو؟

ـ اسكندر بورجيا!.

ثم خرج راكستان تاركاً صديقيه في حالة من الذهول. وبعد

حين قال ماكيافيللي: إنه على حق، عندما تموت الأفعى ينتهي سمّها. إن بورجيا العجوز هو الذي يهدّد روزيتا فيجب إذن أن نصوّب الضربة إليه أولاً. وعندما نستطيع أن نقبض عليه، نستطيع أن نؤكد نجاة روزيتا. أرأيت يا رافائيل أن راكستان رجل ثمين! إنه شجاع ومخلص، ومغامر ذكي سريع الخاطر.

وفي الواقع فقد كان راكستان في هذه القضيّة أروع وأنبل مما يظنّ ماكيافيللي، لأنه هو أيضاً كان يحب، وكان يشعر أن فكره يطير نحو معبودته بريفيرا. ولكنه كان لا يقول شيئاً بل يحتفظ بهواجس فكره ومتاعب قلبه دون أن يبوح بها. إلا أنه كان قد رتّب تدبيراً يصون حقّ صاحبيه وحقّ نفسه.

وفي طريقه إلى الفيللا البابويّة كان راكستان يفكّر في نفسه قائلاً: إن تيفولي تقع على طريق مونتفورتي، ولا شك أن جيش قيصر سيمرّ من هنا، وسأعرف أية ضربة سأوجّه إلى مدافعه.

ثم قضى نهاره يدور في جوار الفيللا الريفية. وفي المساء، عندما عاد إلى « نزل الزهور » قال لصديقيه: إليكما طليعة ما جمعت من المعلومات، فنحن نعرف الآن قوة العدو: ففي الفيللا وتوابعها يوجد خمسون حارساً مسلحاً مع ما يقرب من الثلاثين من أصناف الخدم، مع عشرين من الكتبة والأمناء من الرهابين أو الأسياد. وأعاد الكرّة في اليوم الثاني، لأنه كان قد تحدّث البارحة مع أحد الخدم، وهو اليوم يرجو الحصول على صيد أكبر. لذلك فقد التجأ إلى كتلة من الصخور واختبأ بين الأعشاب المرتفعة النامية بينها وراح يراقب الفيللا ومنافذها. ولما كان موضعه مرتفعاً على

طريق تيفولي ، فقد أمكنه أن يشاهد قسماً من البساتين الداخلية. وبعد أن قضى ساعة في هذا المكمن شاهد شيخاً مسناً مقبلاً نحوه وهو يسير ببطء ماسحاً جبينه من العرق . وكان الفارس قد شاهد هذا الرجل خارجاً من الفيللا ، من باب صغير في البستان يفتح مباشرة على طريق تيفولي . فقال في نفسه : هذه طريدة لعلّها تفيدنا !

ثم خرج من مَرْقبه ومضى لملاقاة الشيخ المرتدي حلّة نصف برجوازية ونصف جبليّة. وعندما دنا منه حيّاه بأدب جمّ وبابتسامة جعلت الرجل الساذج يقف متعجباً . ولقد حيّا راكستان الرجل بالألمانية قائلًا : نهارك سعيد ! وهي الكلمة الوحيدة التي يعرفها من هذه اللغة — فقال الرجل : لا أفهم ما تقول ! فقال راكستان: إذن أتكلم باللغة الإيطالية ! ثم راح يتكلم معه بلغة دانتي محاولاً أن يشوّهها قدر استطاعته . فسأله الرجل العجوز قائلًا : هل أنت غريب ؟

— إنني ألمانيّ جئت إلى روما لأعمال مختلفة وفي طليعتها أن أشاهد ولو من بعيد قداسة البابا الشهير اسكندر بورجيا أعزه الله .

وخلع راكستان قبعته، فقلّده الشيخ قائلًا آمين ! ثم استطرد فقال : ولكن قد لا تتحقق رغبتك هذه أبداً ، لأن قداسته ليس في روما .

— يا لتعاستي ! أنا القادم من بعيد هكذا سيراً على القدمين ..

— قداسة البابا هو هنا في قصره الريفيّ الذي لا يغادره أبداً .

— وكيف عرفت أنه هنا ؟ هل لك الحظ والشرف أن تكون

من المقرّبين إليه ؟

فرفع الشيخ قامته وقال: إنني البستانيّ الأكبر في قصر تيفولي، وإنني أراه كل يوم تقريباً متنزهاً في البساتين . فهتف راكستان قائلًا : أيها البستاني ، خمّس كفّك هنا ، فأنا أيضاً أدرس فنّ العناية بالبساتين . فقال البستانيّ مزهوّاً :

— ماذا تقول أيها الشاب ! أنت أيضاً تدرس علم الأزهار والنباتات ؟

— أجل ، وليس لي مطمح آخر . وها أنذا معترف لك بأن ما دفعني إلى القدوم إلى إيطاليا ، إلى جانب شوقي لرؤية قداسة الحبر الأعظم ، هو قبل كل شيء رغبتي في دراسة هذه البساتين الرائعة التي وصل صيتها إلى ألمانيا نفسها، ومن بينها بساتين تيفولي.

— ماذا ؟ أيتحدّثون في ألمانيا عن بساتين تيفولي ؟

— إن صيتها يا سيدي يملأ الدنيا بأسرها .

فرفع الشيخ الساذج عينيه إلى السماء ، لأنه كان يشعر باللذة المسكرة التي يخلقها المجد ، ولأنه كان مقتنعاً من أن هذه البساتين التي انتشر صيتها في العالم لم تكن غير بساتين البابا ، أي بساتينه التي يشرف عليها هو . وبعد أن ابتسم ابتسامة متجليّة ، قال : تريد إذن أن تكون بستانياً ؟

— هذا هو مطمحي الوحيد .

— أوتعرف التطعيم ؟

— التطعيم لم يعد سراً خافياً عليّ ، فقد حوّلت أشجاراً كثيرة من الإجاص إلى تفاح ، وتوصّلت إلى تطعيم البرتقال على الليمون

الحامض .

– والزهور ، هل لك معرفة بعلمها ؟

– معرفة كبيرة ! فأنا أعرف ألفين من أنواع الورد، وثلاثماية عائلة من أنواع المنتور . وأستطيع أن أقول لك عمر أترجّة أو قرنفلة، وأخبرك عن أنواع الزنبق المختلفة وعن أصناف الخشخاش.

– وماذا تعرف عن الأثمار ؟

– أوه ، الأثمار ، الأثمار !

– ترى هل أهملت هذا الفرع من علوم البساتين ؟

– كلا ! كيف أهمل ذلك ؟ فالأثمار هي التاج الثمين في علم البساتين . أتريد أن أخبرك شيئاً ؟

وهنا أمسك راكستان بذراع الشيخ الذي قال بتأثر : أجل ، تكلم ! فتكلم راكستان قائلاً: لقد اكتشفت... هل تحفظ السر؟

– إنني أقسم بالقديس بونيفاس والقديسة بترونيل .

– لقد اكتشفت نوعاً من الدرّاق لا يوجد في أي مكان .

– هل هذا ممكن ؟

ثم جلس العجوز الساذج على حجر ، في ظلّ بعض الأشجار ، لأنه كان بحاجة إلى الراحة والتأمل . وجلس راكستان إلى جانبه قائلاً : يا معلم ، أتريد أن تُريني بساتين قداسة البابا التي جئت من بلد بعيد لرؤيتها؟ فارتعش البستانيّ من الحبور والقلق: من الحبور، لأنه للمرة الأولى في حياته الطويلة يجد شخصاً يفهم روحه كبستاني وينادي به « يا معلم »، ومن القلق ، لأن طلب راكستان المفاجيء جعله يشعر أنه مستسلم لتجربة الشيطان .

– ما اسمك أيها الشاب .

– بيتروس ماينينغباو مكرخير . فقال البستانيّ مذعوراً : آمين ! أما أنا فإن اسمي بونيفاس بونيفاتزي وإني كما ترى رجل يائس .

– لقد لاحظت عليك الحزن ساعة تشرّفت بمصادفتك ، فهل يمكنني أن أعرف السبب ؟

– أجل، لا أستطيع أن أخفي شيئاً عن صديقٍ مثلك، لا سيما وأنك أوحيتَ إليّ بثقة لا أستطيع التعبير عنها .

– إنها ثقة متبادلة يا معلم ... هاتِ أخبرني ما هو سبب تعاستك .

فأخذ بونيفاس بونيفاتزي يتذوّق لحظة لقب « يا معلم » الذي أسبغه الشاب عليه ، ثم تابع يقول : إعلم يا سيد بيتروس بأن ثمار الدرّاق هي التي تثير شهيّة الأب الأقدس .

– وأنا أيضاً أفضّل الدرّاق على كل ثمر آخر .

– ولكن إليك ما تقول عنها السنيورا لوكريس بورجيا وكيف يأكلها البابا: مشرحة إلى قطع، ومغمّسة بالنبيذ في كوب بعد رشّها بالسكر ، ويا لها عندئذ من أكلة فاخرة ! إنما يجب أن تكون الدرّاقة ناضجة نضوجاً تاماً ، وألا تكون مسوّسة . وهذه هي المشكلة المزدوجة التي لا يمكن حلّها ، لأنني إذا قطفت الدرّاق قبل أن يسوّس يكون فجاً ، وإذا انتظرته كي ينضج يولد فيه الدود . أما هذه السنة فإنها مخيفة يا سيدي ، لأن المرض أصاب جميع الثمار ولم أستطع أن أنقذ من العدوى سوى صفّ

واحد من شجر الدرّاق ، ولا أعلم إذا كنت سأنقذه إلى النهاية .
وهل تعلم ماذا يحدث إذا فُقد الدرّاق من البستان ؟

– ماذا يا معلم ؟

– يشنقونني حالاً !

– إنك تخيفني ! أوَيشنقونك من أجل الدرّاق ؟!

– أجل ، هذا ما يحدث . ففي السنة الماضية عندما أخبرت قداسته بأن المرض فتك بإحدى الدرّاقات أجابني قائلاً : « تدبّر الأمر بنفسك ، واحذر أن ينقطع الدرّاق عن طاولتي لأنني عندئذ سآمر بشنقك في أكثر الشجيرات مرضاً لعلّها بذلك تستعيد الصحة » .

– أرى أن قداسته لا يكره المداعبة ، ولكن على كل حال أنا أستطيع إنقاذك يا معلم . هيا اطرد الخوف من نفسك لأنني أملك سرّاً لا يخطىء لوقاية الدرّاق من الحشرات والمرض .

– لا شك أن السماء أشفقت عليّ عندما أرسلتك لمساعدتي . هيا قل لي سرّك .

– هذا مستحيل . يجب أن أطبقه أنا بنفسي . فتمتم البستاني قائلاً : ولكي تطبقه يجب إذن أن تدخل إلى البساتين ؟

– هذا ضروري .

ولكنهم يعلّقون مشنقتي إذا دخلت ! بل يفعلون أكثر من هذا !

– كيف ؟ ماذا تقول ؟

– أنا وحدي أستطيع الدخول إلى بستان قداسة البابا الخاص.

وحدي مع المساعدين الذين يخضعون لمراقبتي ، لأن لقداسته أعداء كثيرين ، هل فهمت ؟ فقال راكستان بسذاجة : كلا لم أفهم !

– أنت لا تفكر بالشرّ ، ولكن هناك أشرارٌ يستطيعون تسميم الثمار التي سيأكلها قداسته .

– آه ، كم هذا فظيع !

– لذلك يأخذ قداسته الاحتياطات الكافية ، وقد محضني كامل ثقته . ولكنه أنذرني بأنه إذا دخل غريب إلى البساتين فلسوف يأمر الجلاد بأن يسلخني حيّاً ، أو أن يرفعني على المشنقة .

– يا للشيطان ! سيشنقونك إذا فتك المرض بالدرّاق ، وسيشنقونك إذا أدخلت إلى البستان الرجل الوحيد الذي يستطيع إنقاذ أشجارك : هذه لا شك مفارقة قاسية !

– أجل ، وهذا ما يؤلمني !

– دعنا إذن من هذا الحديث يا معلم ، فلعلّك تستطيع وحدك إنقاذ الصفّ الأخير من درّاقك .

– هذا مستحيل !

– على كل حال ، لو وفّرتَ لي الدخول إلى البستان لكنتُ الوحيد الذي يعلم ذلك ، ولكان البابا يجهل هذه المخالفة .

– إنك تغريني أيها الشاب .

– لا شك أنني سأنقذك من الشنق بإنقاذي درّاقاتك المهدّدة بالمرض ، وأنك ستنال المجد إلى الأبد عندما ستطّلع على طريقتي الجديدة في التطعيم .

– بالله عليك يا سيد بيتروس أن تكفّ عن إثارة لواعجي !

– ولا شك أنك ستملك أسراراً لا تقدّر قيمتها إن سمحت لي بالدخول إلى البستان ... ولكن دعنا من هذا الحديث ما دام الأمر متعذّراً .

– كلا أيها الشاب ، لقد قررت ، ويجب أن تدخل !

– ولكن من الأفضل ألا تتعرض للتأنيب ! وإني لا أعتقد على كل حال بأن قداسة البابا سيسمح بشنقك من أجل مسألة تافهة كهذه .

– ثم لن يعرف أحد بدخولك البستان .

– هذا صحيح ، لأنني سأختبىء جيداً ! ولكن ، ألن يؤنبك ضميرك على هذا التقصير في واجباتك ؟

– يا لله كم أنت ساذج ! دعني وشأن ضميري . قلت لك يجب أن تدخل .

– ما دامت هذه رغبتك ، فما عليّ إلا أن أطيعك !

– إسمع إذن ، إنني ساكنٌ بيتاً صغيراً في البستان. وفي المساء عند الساعة الثامنة يمضي جميع معاونيّ لأنهم يقطنون في الأبنية العامة من تيفولي ، وإنني أقفل جميع مداخل البستان فلا يستطيع أحد عندئذ أن يدخل إليه ما عدا قداسته . في هذا المساء ، عند الساعة العاشرة ، إقترب من الباب الذي تراه هناك ، فأدخلك لكي تعمل أثناء الليل ... أما في النهار فإني أخفيك في مسكني .

– إنني أقبل يا معلم ... رغبةً في خدمتك .

– ولسوف أجعلك، مقابل خدمتك لي، تقوم بزيارة البساتين. ولسوف أجد لك فرصة لرؤية الأب الأقدس .

– آه ! يمكنك هكذا أن تحقق جميع أمانيّ . وإن هذا ليفوق أجراً رغباتي !

– إذن إلى المساء ، عند الباب الصغير .

عندئذ شدّ الشيخ الساذج بحرارة على يدي راكستان ، ثم انكفأ نازلاً نحو الفيللا البابويّة، بينما مضى الفارس صاعداً نحو تيفولي. وعندما وصل إلى «نزل الزهور» قال لرفيقيه : ها قد أصبح بورجيا في قبضتنا وفي هذه الليلة بالذات علينا أن نخوض المعركة !

الوادي الرهيب

*

ذلك هو نهر الآنيو المنهمر في غور سحيق بالقرب من الآثار التي ما زالت تدعى حتى الآن بمعبد العرّافة. وكان جانبا هذا الغور ينحدران انحداراً مستقيماً ويتألفان من طبقات صخرية مكدّس بعضها فوق بعض ، وقد نبت في شقوقها نبات برّي . ومن أعماق هذا الغور كان يتصاعد هدير النهر الذي تتكسّر أمواجه على صخور مخضرّة، ثم تكوّن مستنقعاً صغيراً، ثم تتابع جريانها في منعرجات مجنونة بين كتل الغرانيت الصخرية: هكذا كان وادي نهر الآنيو!

وكانت الصخور في الجانب الأعلى من الوادي، تماماً فوق مستنقع الآنيو ، ترسم كهفاً تضاربت حوله أقوال غريبة ، إلا أن أكثر الناس كانوا يعتقدون بأنه باب من أبواب الجحيم . وأكبر دليل على هذا الاعتقاد أن دخاناً ذا رائحة غريبة كان يتصاعد دائماً منه. لذلك

فقد كان هذا المكان مثيراً للريبة والخوف ، ولم يكن أي رجل عاقل يغامر بالدخول إليه عند قدوم الليل، لأن المرء لا يكاد يدخل تحت قنطرته حتى يشعر و كأنه في ظلام نصف الليل الدامس .

أما الآن فها نحن نبصر مشعلاً يحترق في قعر كهف منيراً جوانبه بضياء شاحب غريب. كما أننا نشاهد في إحدى زواياه كدسة من الأوراق الجافة ، تستخدمها كسرير لها امرأة عجوز مكبّة على عمل خاص . ولعلنا عرفنا أن هذه المرأة العجوز هي الماغا ، أو بالأحرى روزا فانوزّو التي ، بعد أن دفعت بلاطة من الغرانيت على منفذ يقع في قعر المغارة ، وقفت تقول في نفسها : هوذا باب الهرب مؤمّن !

ثم شرعت ترمي أوراقاً على هذه البلاطة الصخرية ، وحفنات من التراب . وبعد أن أتمّت عملها خرجت من الكهف وعبرت في الدرب الضيّقة التي تفصل بين المغارة والهاوية ، حتى بلغت هضبة مشرفة على ما يجاورها من الأرض . وبعد أن رنت بنظرها النافذ الحادّ ، وأصاخت بأذنها ، أخذت تقول: سوف يأتي ! وبعد قليل سيصبح من كان حبيبي جثة يجرّها النهر إلى الهاوية . سوف يأتي واثقاً من نفسه ، وهو لا يعلم أنني أنتظره ! سوف يأتي في طلب الحب ، ولكنه سيجد الانتقام ! أجل ، هذه المرّة لن يتقاعس فؤادي ، فلقد ذهبت روزيتّا مع زوجها ، وهي الآن في مكان أمين ، ولا شك أنها وصلا الآن إلى فلورنسا . أجل هذه هي النهاية الضرورية : اليوم رودريك ، وغداً قيصر ، ثم ... أنا نفسي!

ولم تكد تنهي هذه الكلمات حتى انحنت إلى الأرض لأنها

سمعت وقع خطوات قادمة من بعيد . فقالت في نفسها : هذا هو ! سيعلم بعد دقائق من أنا ! سأدفعه دفعة واحدة إلى الهاوية ... وسينتهي من أمر عشيقي كل شيء ! ثم عادت إلى الكهف حالمة تسير بخطىً وئيدة . وهناك جلست القرفصاء إلى جانب المشعل . ولم تكن الماغا مخطئة ، لأنّ رجلاً كان يتجه نحو المغارة ، وهذا الرجل هو بورجيا العجوز الذي بعد أن دار حول الصخور ، تطلع قليلاً إلى هاوية الوادي ، ثم اقترب من مدخل الكهف .

ودخل بورجيا دون أن ترفع الماغا رأسها وجلس على أحد حجرين كبيرين كانا بمثابة مقعدين في هذه المغارة ، ثم قال: إذن ، لقد تركتِ روما أيتها الماغا ؟ قالت : جئتُ أنتظرك هنا ، قال : و كيف عرفتِ بقدومي ؟ ترى هل تملكين علم الغيب ؟ فهزّت الماغا كتفيها وقالت : ألا تأتي كل عام إلى تيفولي في مثل هذا الوقت لتقضي فيها أسبوعين ؟ قال : هذا صحيح ، السحر عندك يعتمد على الملاحظة . غير أنك تعرفين أشياء يجهلها الآخرون . فأجابت قائلة : لقد درست وظائف النباتات ، هذا كل شيء. قال: أين ؟ في مصر ؟ قالت : كلا ، في إسبانيا . قال : في إسبانيا ! هل سكنتِ في إسبانيا ؟ فأجابت تقول : نعم ، ولكنني تعلمت في إيطاليا وفي تيفولي نفسها . وإنني عالمة بالأعشاب : أستخرج منها عصاراتها التي تشفي أو تقتل ، والتي تعطي الموت أو تعطي الحب.

— الحب ؟!

— الحب ... أو الموت ، وكلاهما متساويان ! قال : إنكِ تتكلّمين ببرارة. قالت : لأنني تألمت كثيراً. فسألها قائلاً: والآن؟

فتنهّدت وأجابت قائلة : بعد قليل ، سينتهي ألمي! فقال : ولكن لماذا قمتِ بكل هذه الدروس ؟ وأيةُ فكرة دفعتك نحو هذا العلم المنكر بين علوم السحر ؟

ـ إنها الفكرة التي جعلتني أعيش حتى الآن: فكرة الانتقام .

فاقشعرّ البابا ، لأنه أخذ يرى خلال شخص الماغا كائناً قوياً مخيفاً . إلا أنه هزّ برأسه وأسرع فقال : أيتها الماغا ، أتذكرين وعدك في روما بأن تركبي لي شراباً يجعل المرأة التي تشربه تحبّني؟ كنتِ قد طلبت مهلة شهر ...

ـ الشراب جاهز !

أجابت العجوز هذا الجواب لكي يتسنى لها أن تفكر . أما ما كانت تفكر به فهو رهيب ، لأنها أعدّت العدة لقتل رودريك بورجيا ، عشيقها ، وأبي أولادها ، والذي عانت بسببه ألف ميتة . ولقد صممت على أن تدفعه ، عندما يتراجع نحو مدخل المغارة ، لكي يسقط في هاوية الوادي. أجل،لقد كانت على وشك أن تنتصب أمامه وأن تلفظ اسمها في وجهه كدقّة جرس حزين ، اسمها روزا فانوزّو الذي سيخفض رودريك جبينه لدى سماعه ولا شك . هذا ما كانت روزا تفكر به . ولكنها أضافت لكي تربح الوقت ، لا سيّما بعد أن رأت البابا يصرخ من الفرح عند ذكر الشراب،قائلة: هل ستعود إذن إلى روما ؟ فقال البابا : إلى روما ؟ ولماذا؟ قالت: ألم تقل لي إن الشراب معدّ لفتاة شاهدتها ، وكان الرسام قد رسم صورتها ، وإنها تُدعى لافورنارينا ؟ فقال : بلى ، ولكنني لست بحاجة إلى المضيّ إلى روما في طلبها ، لأن لافورنارينا هي هنا .

ولنتصوّر كائناً كيف يشعر بالذهول والشرود والخوف عندما يرى صاعقة تنزل عند قدميه ! بمثل هذه الرجفة وهذه الأحاسيس شعرت الماغا عندما سمعت كلام البابا . ولكن سيطرتها على نفسها كانت قوية بحيث أنها لم تلق صرخة واحدة،ولم تلفظ كلمة واحدة. ولقد تحوّلت كلّ فكرتها الآن وكل إرادتها إلى نقطة واحدة : أن تعرف ما إذا كان بإمكانها إنقاذ روزيتا من براثن هذا المسخ ، وما هي الطريقة لبلوغ هذا الأرب . إلا أنها وقفت منتصبة وهي ترتجف وتصك بأسنانها وتضغط على نفسها لكي لا يخونها مظهرها . ولقد انفرجت عيناها متألقتين بألق حيوان مفترس. أما بورجيا فقد وقف هو أيضاً واضعاً يده على خنجره ، ثم زجر قائلاً : ماذا ألمّ بك أيتها العجوز المجنونة ؟ فاستجمعت الماغا قوّتها وشجاعتها وقالت:لا تهتم ، إنها نوبة عصبية تنتابني أحياناً . وهي ستمر سريعاً ، لا تخف !

وكان الاعتذار من قبل هذه العجوز المجنونة طبيعياً ، حتى أن بورجيا عاد فجلس مطمئناً ، منتظراً بصبر عبور النوبة عن الماغا . أما هذه فقد كانت تفكر في نفسها قائلة : إذا قتلتُ رودريك فسيقضى على روزيتا ، لأنها بين يدي قيصر ولوكريس . هذا أكيد لا شك فيه ، لأن لوكريس روح شرّيرة ، وهي تعلم أنّ رودريك أتى إلى هنا،فإذا لم يعد ستصب حقدها على روزيتا وعليّ.

هذه الأفكار كانت تتعاقب في خاطرها كأنها بروق تشقّ سماء عاصفة داكنة. وهي الآن في حيرة من أمرها، فإذا نجا بورجيا فإن فرصة الانتقام ستضيع من يدها ، وستكون روزيتا عرضة لمخالب الوحش،وإذا قتلته فسيعمد قيصر ولوكريس الموجودان في

الفيلا البابوية إلى قتل الفتاة . وفجأة أثارت ابتسامة وجهها المتألم ، فجلست وقالت بصوت يسيطر عليه هدوء عجيب : إذن الفتاة في تيفولي ؟ هذا حسن رائع ، ويسهل الأمور .

ـ هذا صحيح أيتها الماغا ، لأنني لو تركتها في روما لعرّضتها للهرب ، ومعاذ الله أن تفلت من يدي ! ولكن أخبريني عن هذا الشراب ، لقد قلت إنه جاهز ؟

ـ نعم إنه جاهز يا مولاي . فقال بورجيا بنهم شديد : هاته إذن !

ففتّشت الماغا في جيب معلقة بحزامها وأخرجت قمقماً صغيراً وقالت : هذا هو الشراب . فقبض اسكندر بورجيا على القمقم وهو يتهلّل فرحاً ، وقال : وما هي طريقة استعماله ؟ فقالت : يُسكب في الماء أو في الخمر . فقال : القمقم بكامله ؟ قالت : كلا ، ثلاث نقط فقط ، والنقطة الرابعة تقتل . فسألها قائلاً : ثلاث نقط إذن ؟ قالت : أجل ثلاث نقط . قال : وما هو مفعوله ؟ قالت : سوف ترى بنفسك .

وساد صمت قصير . فالتفّ بورجيا بمعطفه تاركاً عن عمد كيساً من النقود يسقط على الأرض ، ثم خرج دون أن يفوه بكلمة واحدة . أما الماغا فقد سمعت وقع أقدامه لمدة لحظات قليلة ، ثم انتهى كل شيء ممتزجاً بهدير النهر . حينئذ سقطت على ظهرها مغمياً عليها .

*

السنيور بونيفاس بونيفاتزي ، البستانيّ الأول في فيلا تيفولي ، كان شخصاً طريفاً . وكان اسكندر السادس يقدّره كثيراً ، وكانت لوكريس تمنحه ودّها وصداقتها. وكان بونيفاس هذا خاضعاً لأوامر مشدّدة . وزيادة في الحذر فقد كان اسكندر السادس يطلب إليه أن يقدّم له بنفسه في أوّل كل وقعة الثمار التي سيأكلها في آخر الوقعة، فيختار البابا منها اثنتين أو ثلاثاً، ويقدمها لبونيفاس لكي يأكلها في حضرته . وكان البستانيّ المسكين يظل طيلة الوقعة واقفاً هناك أمامه . وبعد ساعة ، عندما كان يأتي دور الثمار ، كان البابا يأكلها بنهم واطمئنان ، لأنّ عوارض السمّ لم تكن تبدو على بونيفاس . وكان بورجيا العجوز يستخدم الأسلوب نفسه مع خازنه وطباخه .

إلا أن بونيفاس هذا كان معززاً معتبراً يبسط سلطته على جيش صغير من المساعدين المكلفين بالقيام بالأعمال الصعبة ، ويسكن بيتاً صغيراً منفصلاً ، مبنياً في زاوية من بستان البابا الخاص لا يدخله أحد سواه . أما مساعدوه فقد كانوا ينزحون أثناء الليل . وكان هذا الشيخ الساذج يحبّ ثمار حديقته وأزاهيرها حباً جماً يصل إلى درجة الشغف بها . إلا أنه رغم أمله بإنقاذ درّاقاته المصابة، وشوقه لمعرفة النوع الجديد من الدرّاق الذي اكتشفه راكستان ، لم يُدخل الفارس إلى حديقة البابا في الليلة ذاتها للقائها ، إلا بعد

هواجس عنيفة .

اما راكستان فقد وجد نفسه مختبئاً في بيت البستانيّ . وكان ماكيافيللي ورافائيل ينتظرانه في الخارج على بعد ماية خطوة من الباب الصغير المنحرف ، مختبئين في ظلال أشجار السرو . وكان سباداكاب يروح ويجيء بين « نزل الزهور» وأشجار السرو ليجلب الأغراض التي هم بحاجة إليها . أما الأحصنة فقد كانت تنتظر هناك مجهّزة للركوب . وعندما اقترب راكستان من الباب الصغير داخلًا إلى البستان ، وبعد أن أصبح في بيت البستاني ورأى وجهه الذي بدا عليه الرعب ، عرف عندئذ أيّة تضحية قام بها بونيفاس ، فأسرع إلى تعزية عاشق الزهور بقوله: كم أنا سعيد يا سيدي بدخولي إلى هنا ، وها أنذا مستعد لأبوح لك بجميع أسراري . فقال البستاني : وهل ستخبرني عن نوع الدرّاق الذي لا يعرفه أحد ؟ فقال راكستان : أجل ، سأخبرك حتى عن هذا النوع . فهتف بونيفاس يقول: آه! أنا مدين لك بأكثر من حياتي. أما راكستان فلم تغفل عينه عن مراقبة البستان . وتابع البستاني قائلًا :

ـ وما هي الطريقة لإنقاذ دراقاتي ؟

ـ سأعطيك غداً لائحة النباتات الضرورية لصنع المسحوق الواقي . وهو الذي سيقضي على الدود والحشرات .

ـ إلى الغد إذن ...

ـ ولكن أخبرني ، ألم تقل لي إن قداسته يأتي أحياناً للنزهة في هذا البستان ؟

ـ بلى ، إنه يأتي ليلًا . فقداسة البابا يحبّ دائماً أن يشرد أثناء

الليل وحيداً بين هذه المسابك والأحواض. أما اليوم فإنه يستريح.

ـ وأنا الذي كنت آملًا أن ألمح قداسة الحبر الأعظم !

ـ ستراه غداً ، من هذه النافذة .

ـ إذن يمكننا أن نفيد من غيابه هذه الليلة ، فنمضي لزيارة شجراتك المريضة . وهكذا يمكنني غداً أن أعمل بسرعة لأنني أكون مطّلعاً على التربة .

ـ هذا صحيح ، تعال .

ثم أطفىء النور ، ونزل الاثنان إلى الحديقة . ولقد كانت هذه الحديقة جنّة وارفة تستحقّ الثناء الذي كان راكستان يسبغه عليها هكذا لغاية في نفسه . وبعد أن شاهد راكستان الدرّاقات المريضة طمأن البستانيّ بأنه سيشفيها . ثم دخلا معاً إلى البيت مسرورين حيث قضيا ليلة هادئة. وفي اليوم الثاني مكث راكستان مختبئاً داخل البيت ومنهمكاً بسحق بعض النباتات التي كان بونيفاس يحضرها له مسجّلًا على دفتره كل ما يعمله بيتروس. وغنيّ عن القول أن راكستان أصبح الآن يعرف داخل البيت معرفة جيدة . لذلك فقد قام إلى جديلتَي حبال ، وإلى كُمامتين مصنوعتين من الثياب فوضعهما جانباً وهو يتمتم قائلًا: واحدة للمعلم بونيفاس ، وواحدة لقداسته .

ولكنه كان يجهل شيئاً واحداً : أين يخبىء البستانيّ مفتاح الباب الصغير ؟

وعبر النهر بطيئاً ، وملّ راكستان من طول الانتظار لا سيما وأنه كان مضطراً أن يقضي معظم وقته في التكلم عن الزهور

والثمار وفي الإجابة عن الأسئلة الكثيرة التي يطرحها بونيفاس عليه. وعندما أقبل المساء قام البستاني فأغلق بعناية نوافذ بيته ثم أشعل شمعة وهو يقول : قد يأتي قداسته هذا المساء !

ـ في أية ساعة ينزل الأب الأقدس عادة ؟

ـ نحو الساعة التاسعة . وإنه يتنزه نصف ساعة تقريباً . وعند الساعة العاشرة يكون جميع من في الفيللا نائمين .

في هذه اللحظة كان راكستان مضطرباً لا يستطيع الجلوس في مكانه . وإذا بالساعة التاسعة تدقّ ، فوقف توّاً خلف النافذة . ولم يثنه عن وقفته هذه غير صوت البستاني وهو يقول : هذه هي الساعة العاشرة ! فلن ينزل الأب الأقدس هذه الليلة إلى البستان ، ولا شك أنه سيأتي غداً لأنه من الصعب أن يمضي يومان متتابعان دون أن يأتي قداسته لاستنشاق الهواء النقيّ في جوٍّ من العزلة . وهنا أخفى راكستان إشارة ملل ونفاد صبر . ولكنّ الليل طفق يتقدم ، فتثاءب بونيفاس وقال : ها قد حان وقت الراحة والنوم. وكانت الساعة قد أشرفت على الحادية عشرة ، فإذا بجرسٍ حزين يقرع فجأة في الليل. فرفع بونيفاس قبعته عن رأسه. أما راكستان فقد ارتعش وقال : ما هذا ؟ فقال البستاني : إنه جرس الكنيسة يقرع دقّة حزن . لقد مات أحدٌ في الفيللا ، وهو شخص رفيع المقام وإلا لما قُرع الجرس أثناء الليل. فأحسّ راكستان بعاطفة تشاؤم تنتابه . وعندما اقترب البستاني من النافذة كان الجرس ما يزال يُرسل نداءه الحزين ، فإذا به يقول :

ـ هذا نعي امرأة !

ـ امرأة ؟!

ـ أجل، لأنه لو كان الميت رجلاً لكان رنين الجرس مزدوجاً، أصغر ...

ثم إذا بالبستانيّ يصرخ فجأة . فقال راكستان : ما بك ؟

ـ هوذا البابا !

فوثب راكستان إلى النافذة ، حيث دلّه بونيفاس بإصبعه على ظلّ راح يتنزّه مضطرباً . فتمتم البستانيّ قائلاً : ترى ماذا حدث؟ فلكي يبقى البابا ساهراً يجب أن ...

ولم يستطع بونيفاس إكمال عبارته لأن كمامةً سدّت فمه بعنف ثم عُقدت خلف رأسه . ولم يلبث أن فقد توازنه وانقلب على ظهره ممتقعاً من الخوف . وإذا به يشاهد راكستان يوثق رجليه بسرعة خاطفة ، وإذا به يجد نفسه في لمحة عين مربوطاً لا يستطيع الحراك . هنا قال له راكستان : إذا تحركت ستموت موتاً ! أين مفتاح باب البستان الصغير ؟ أسرع ، يكفي أن تدلّني بعينيك . فأطبق بونيفاس عينيه بشجاعة معلناً أنه لن يجيب . إلا أن راكستان سحب خنجره وقال بلهجة باردة : أسرع ! فرمقه بونيفاس بنظرة تأنيب ثم خفض عينيه نحو صدره. فأسرع راكستان يفتش بين ثيابه حتى عثرت أصابعه على المفتاح ، فأخذه ودسّه في حزامه . وبعد أن التقط الكمامة الثانية مع جديلة الحبال التي كان قد ألقى بها على الطاولة ساعة هجومه على البستانيّ ، انطلق مسرعاً إلى الخارج .

وكان الليل دامساً رغم الألق الذي كانت تنشره ملايين النجوم.

أما راكستان فقد راح يسير على يديه حتى وصل إلى الممرّ الذي يتنزّه فيه البابا ، وهو ممرّ غارق في ظلال أشجار الزيزفون المتشابكة الكثيفة . ولقد عرف راكستان اسكندر بورجيا الذي كان يسير بخطىً غير منتظمة ويداه مشبوكتان خلف ظهره ، ورأسه منخفض ، وفي فمه كلمات غير مفهومة .

وفجأة وثب راكستان عليه وطرحه على الأرض . فظلّ البابا صامتاً طيلة ثانية من الخوف . إلا أنّ هذه الثانية كانت كافية لكمّ فمه لكي يتعذّر عليه الصراخ . ثم تابع راكستان عمله فأوثقه في بضع ثوان كما أوثق بونيفاس من قبله . وعندما انتهى من أمره حمله على كتفه ونقله إلى بيت البستانيّ حيث وضعه على سرير هناك وهو مشتعل العينين من الحنق والخوف . عندئذ عاد راكستان إلى الحديقة راكضاً نحو الباب الصغير . وعندما فتحه كان رافائيل وماكيافيللي مختبئين هناك. أما سبادا كاب فقد كان يحرس الأحصنة تحت شجرات السرو . وعندما رآهما راكستان صاح بهما قائلاً : هيّا أسرعا ، لقد قبضنا عليه . فدخل الثلاثة معاً متجهين إلى بيت البستاني . وكان رافائيل يشعر بخفقان فؤاده الشديد ، وكان ماكيافيللي كعادته بارداً مصمماً . أمّا راكستان فقد كان فخوراً لأنه يملك بين يديه مصير سيد العالم على الإطلاق .

وبينما كان الثلاثة يندسّون في البستان ، كان جرس الكنيسة الحزين ما يزال يرسل من ثانية إلى ثانية أصداءه التي تمزّق صمت الليل !

*

كان رودريك بورجيا قد عاد إلى داره بعد مقابلته للماغا دون أن يلاحظه أحد ، لأنه كان يملك في تيفولي كما في الفاتيكان مداخل ومخارج خاصة لا يعرفها أحد سواه . وعندما وصل إلى غرفته أخذ يفحص القمقم الصغير الذي أعطته إياه الساحرة وجعل يتمتم قائلاً : غداً ، غداً ستكون لي . إنها الفتاة التي هزّت مشاعري أكثر من أيّة امرأة أخرى . ولكن إذا قاومتني فلن أدري أيّ جنون سيعتريني ! ثم اربدّت عيناه بنظرة قاتمة ، ولكنه هدأ من روعه قائلاً في نفسه : سأمتلكها بهذه الزجاجة !

كان علم العرافة والسحر منتشراً انتشاراً عظيماً في عهد بورجيا، ولقد رأيناه مرّات عديدة يلجأ إلى الماغا بشأن عواطفه الجنسية . لذلك فهو الآن مقتنع بأن محلول القمقم سيحوّل العذراء المشتهاة إلى عشيقة . ولقد مكث ما تبقّى من الليل يحلم بهذه الأشياء ويتصور في خياله أساليب مختلفة يصل فيها الشبق إلى حدود الشراسة. أما النهار الذي عقب تلك الليلة فقد مرّ بطيئاً ، وكان بورجيا قد أمر أن يتركوه وحيداً . وعندما جاء المساء دعا إليه القهرمانة بيارينا ، وسألها قائلاً : أين الفتاة يا سيدة بيارينا ؟ فقالت : في الحديقة . قال: ألم تحن ساعة عودتها ؟ قالت: بعد لحظات وجيزة. فقال : أخبريني ، أليس من عادتها الشرب عند المساء ؟ فأجابت تقول : بلى، إنها تشرب كثيراً بسبب الحمّى. قال:وماذا تشرب؟

فقالت بيارينا: تشرب الماء . والماء موجود في زجاجة . والزجاجة على طاولة قرب سريرها .

وكانت القهرمانة تتكلم وهي ترمق البابا بنظرها . فرأته يحلم قليلاً وعيناه مغلقتان . وإذا به يشحذ قوّته لكي يعود إلى الحديث، غير أن بيارينا كانت قد اختفت ، فأخذ البابا مطرقة صغيرة وهمّ أن يقرع الجرس ، ولكنه لم يفعل لأن بيارينا عادت وهي تحمل قنينة بيدها . فابتسم بورجيا العجوز ابتسامة فيها كثير من الكبرياء لامتلاكه خدماً لهم هذا القدر من النباهة . أما بيارينا فقد قالت : فكرت بأنه من واجبي أن أجلب لك زجاجة الماء لكي تراها ، وهذه هي ممتلئة حتى نصفها .

ثم وضعت الزجاجة على طاولة ، دون أن تبدر على بورجيا إشارة رضى أو إنكار ، ولكنه قال : إذهبي يا بيارينا فأخبري الكاهن آنجيلو بأنني لست بحاجة إليه هذا المساء لأنني سأنام . ثم عودي إلى هنا . فغابت القهرمانة. عندئذ اقترب بورجيا بسرعة من الزجاجة وأفرغ فيها بيد غير مرتجفة ثلاث نقط من الشراب الذي يحتويه القمقم . وعندما نظر إلى الماء رأى أن لونه لم يتغير . ولم تغب القهرمانة طويلاً ، إلا أنها لم تكد تدخل حتى رمقت الزجاجة بعينيها وانتظرت صامتة،لأنها تعلم ما عليها أن تفعل الآن. أما البابا فقد قال لها باطمئنان وهدوء : تستطيعين الانسحاب يا سيدة بيارينا ، ولكن لا تنسي أن تعيدي هذه الزجاجة إلى مكانها لأنني لست بحاجة إليها . فأمسكت القهرمانة القنينة وغطتها جهاراً بطرف شالها مظهرة أنها الآن مهتمة بها اهتماماً خاصاً ، ثم

انسحبت من حضرة البابا . فظلّ هذا الأخير يحلم بما سوف يحدث، منتظراً الدقيقة التي حدّدها للقيام بمغامرته الجديدة .

وعند الساعة التاسعة خرج من غرفته واتجه حالاً نحو غرفة روزيتا . فإذا ببيارينا تعترض طريقه فجأة في أحد الممرّات القاتمة. وتقول له : لقد شربت روزيتا من الزجاجة ثم نامت ، فأغلقتُ الباب عليها ، وهذا هو المفتاح . فتناول بورجيا المفتاح من القهرمانة التي اختفت حالاً كما يختفي شبحٌ من الأشباح ، ثم دنا من الباب ففتحه بتأنٍّ وبطء وهو مصفرّ يرتجف قليلاً . وعندما دخل كان ضوء خفيف ينير الغرفة .

كان السرير إلى اليسار مغطىً بشراشف واسعة من الحرير المخرّم ، وعند رأسه طاولة صغيرة أنيقة تحمل لوحاً من البلور يحمل بدوره الزجاجة المشؤومة مع كأس فارغة تقريباً . وكان عند أسفل السرير طاولة ثانية عليها شمعة توزّع نوراً لطيفاً ينحرف قليلاً عن رأس الفتاة الذي بقي في الظلّ .

وأخذ بورجيا العجوز ينظر إلى الفتاة فيرى غدائر شعرها المحيطة بوجهها كإطار جميل [illegible] من خلال الحرام الحريري ، وذراعها المستريحة فوق [illegible] تألقة البياض في الظلام. حينئذ ارتجف بورجيا وأغلق الباب خلفه واقترب من الفتاة حتى انحنى فوقها : ترى ، [illegible] مشتهى [illegible] الشبق الذي بعثه فيها شراب الحب؟ لذلك فقد [illegible] واضعاً يده على الذراع البيضاء... ولكنه لم يلبث أن انتصب مذعوراً وعيناه مطبوعتان برعب لا

يوصف . فقد كانت ذراع الفتاة باردة كأن بها من الجليد بعض ما يكون في الجثث . وكان فمها جامداً لا يخرج منه نفس واحد . فتراجع بورجيا إلى الوراء وأخذ يحدّق ، فإذا الفتاة لا تتحرك ، وإذا بخطوط جسدها يابسة لا شكّ في ذلك .

وتصدّع العجوز من الخوف ، واقترب من الشمعة فحملها بيده ، ولكنه لم يجرؤ على إنارة وجه الفتاة ، فبقي في مكانه حيناً يتلجلج ... وبعد دقيقة استحثّ شجاعته وتقدّم ، فسقط النور على وجه لافورنارينا ... وكاد بورجيا يصرخ إلا أنه خنق آهة الرعب التي صعدت إلى حنجرته ، لأنّ لافورنارينا كانت ميتة ! ميتة منذ زمن : فبشرتها شاحبة مصفرّة ، وشفتاها متقلصتان وقد بدت عليها انفراجة الموت .

عندئذ أطفأ بورجيا الشمعة فجأة و كأنه خاف أن يفاجئه أحد في جريمة قتل . إلا أن عتمة الديجور زادته رعباً فسقطت الشمعة من يده ، وتراجع حتى الباب وهو منقطع الأنفاس ، ولم يستعد روعه إلا بعد أن خرج من الغرفة . وهناك عند الباب بقي عدّة دقائق يسحقه الذهول فلا يستطيع حراكاً . ثم إذا به يدنو من الباب فيقفله ويضع المفتاح في جيبه ويمضي قائلاً في نفسه: لقد ماتت ، ولكن كيف ؟ بلى لقد ماتت بسبب الشراب ! أنا قتلتها ، ولربما كانت يدي ثقيلة فسكبت أكثر من ثلاث نقط . ثلاث نقط فقط قالت ليَ العجوز ! ولكن مستحيل أن تموت ! فلعلّ هناك سمّاً معاكساً ... وإذا وجد هذا السمّ المعاكس فالماغا وحدها تعرفه.

وبعد دقيقة واحدة ركض بورجيا مسرعاً نحو وادي الآنيو ،

وشعر بأن الهواء الطلق قد أعاد إليه قليلاً من الهدوء. ولكن ترى، هل كانت الماغا تنتظره؟ لقد كانت على باب مغارتها تحدّق بنظراتها في الليل . ولم يكد رودريك بورجيا يصل إليها حتى صاح قائلاً : أيتها الماغا ، لقد حدث شيء خطير ! ولست أدري إذا كان الخطأ مني أو منك ، على كل حال فالفتاة مريضة ، مريضة جداً ... ألا تملكين سماً معاكساً ؟

— آه ! إنها مريضة ؟ وتتألم كثيراً ؟

— لست أدري ، إنها تموت ، فهل تملكين السمّ المعاكس ؟

— إنها تموت ؟ فقط هذا ؟

— أيتها الماغا ! أين السمّ المعاكس لشرابك الشيطاني ؟

— هذه الأنواع من الشراب قد تخدع أحياناً من يستعملها ، فيعانق بلهء ذراعيه الجسد المعبود ، ولكن سرعان ما يلاحظ أنه معانق جثة هامدة .

فزمجر بورجيا العجوز وهو يهزّ ذراع الساحرة العجيبة التي كانت تحتفظ بهدوء غريب وقال: أيتها الماغا ، قلت لك إنني تركتها ميّتة ، فهل تملكين سماً معاكساً لذلك الشراب يستطيع أن يعيد إليها الحياة ؟ قالت: لا تقل إذن إنها تموت ، قل لقد ماتت ! فقال: والسمّ المعاكس ؟ قالت : هل رأيتَ عينيها ؟ كيف هما ؟ قال : جامدتان لا تبصران . قالت : وفمها ؟ هل لاحظت فمها ؟ قال : متقلّص ، ذو شفتين صفراوين منقبضتين . فقالت : أيضاً سؤال واحد: كيف يداها وأظافرها ؟ قال: أظافرها محاطة بلون أزرق. أسرعي بالسم المعاكس أيتها الماغا ، فإنني متأكد أن وقت إنقاذها

لم يفت . فهزّت العجوز رأسها وقالت بلهجة واضحة: نعم! فقال: لقد فرّجتِ عن قلبي ! والسمّ المعاكس ، هل تملكينه ؟ فأجابته قائلة : نعم ! فتنهّد بورجيا العجوز تنهدة اطمئنان عميقة وقال : أعطيني إياه بسرعة ! قالت : كلا !

فانعقل لسان البابا لحظة كمن لا يفهم . إنه يعرف أن الفتاة تموت ، والساحرة العجوز تملك السمّ الشافي ، ولكن لماذا ترفض أن تعطيه إياه ما دام يطلبه منها ؟ ترى ، هل هي في حالة نوبة عصبيّة ؟ بلى قد يكون هذا هو السبب . وهنا قال لها: أيتها الماغا، عودي إلى نفسك لأنك الآن في حالة شاذة . فهزّت الساحرة رأسها وقالت : لم أكن في حياتي أعقل مني الآن ، يا بورجيا ! فاقشعر البابا ، لأن الماغا للمرّة الأولى تدعوه باسمه ، ولقد شعر بأن داهية ستحلّ على رأسه . وقال لها : ولماذا تمانعين في إعطائي الشراب المعاكس ؟ قالت : لأنني أريدك أن تتألم يا رودريك .

هذه المرة صُعقَ بورجيا لأن صوت الماغا أخذ يتغيّر ، ولقد خيّل إليه أنه يعرف هذا الصوت . ترى أين سمعه ، ومتى ؟ وسألها يقول: ألا تريدين إنقاذ هذه التعيسة؟ فأجابت الماغا وقد تراجعت إلى داخل المغارة حتى كاد يصبح من العسير على بورجيا أن يراها ، فقالت: كلا ، لا أريد لأنني أعرفك . فأعاد العجوز قوله مذهولاً: هل تعرفينني ؟

– وأعرفها هي أيضاً . أصغِ يا رودريك ! لقد تركت هذه الفتاة منذ ست عشرة سنة على درجات كنيسة الملائكة . تركتها أمها الجبانة المجرمة التي كانت عشيقة لك .

– كنيسة الملائكة ! أجل إنني أتذكر ... وأتذكر أمها التي كانت ...

– أمها الكونتيسة آلما التي كانت عشيقتك . أما الفتاة التي تركت على الدرج ، والتي التقطتها ... الفتاة التي كاد شبقك أن يدنّسها ، والتي قتلتَها الآن بيديك ، هذه الفتاة هي ابنتك !

فترنّح البابا وقد شعر أن ساقيه لا تحملانه ، ثم تمتم قائلاً : ابنتي ! وتابعت الماغا تقول: والآن ، أتريد أن تعرف يا رودريك لماذا لا أنقذها ما دمتُ قادرة على ذلك ؟

إلا أن بورجيا لم يعد مستمعاً إليها . ولكنه خرج من المغارة هارباً كمن أصابه مسّ من الجنون وراح يعيد الكلمة التي انحفرت في فكره قائلاً: ابنتي ! ابنتي ! أما روزا فانوزّو فقد همهمت قائلة: إنه بدء العقاب !

شريد الليل

*

تاه رودريك بورجيا على وجهه قرابة ساعة في الجبل تعترضه الصخور وتمزق ثيابه أشجار العلّيق . غير أن هذا الشّرود في الليل ساعد على إيقاف نوبته فإذا بالتفكير والتعليل يحلان مكان الهياج الذي عصفت به نفسه . ذلك أنه لم يكن مطبوعاً على التأثر الطويل بل إنه لم يبقَ من هذا الشعور الذي طغى عليه وكاد يسحقه سوى

شيء من الذهول ، وإذا به يتمتم في نفسه يقول : مالي والتفكير بهذا ! ومع ذلك فقد ظلّ يفكر به ، لأن الصدمة كانت عنيفة . ومن ثمّ فقد حضرته فكرة الرسولين اللذين ربما كانا الآن عائدين بالكونت آلما ، وفكرة قيصر الذي يعدّ جيشه للهجوم على مونتفورتي ، القلعة التي تحميها بياتريكس، أخت لافورنارينا الميّتة والبنت الثانية للكونتيسة آلما .

ـ يا لضراوة القدر ، الذي يلعب الآن بمصير عائلتين !

وعندما عاد إلى الفيلا جهاراً دون تخفّ ، كان متبقّياً من مجمل تلك الحوادث التي مرّت عليه اضطراب خفيف يحاول السيطرة عليه ، ولكن دون نجاح كامل : ذلك أن الخوف أصبح يعاوده من حين لآخر . إلا أنه لم يلبث أن اتجه نحو غرفة الفتاة التي تنام نومتها الأبدية ، راغباً في أن يرى كيف هي « ابنته » . إنه يريد الآن أن ينظر إليها بعيني أب لا بعينَي وحشٍ ضار كما كان يفعل سابقاً . ولكنه لم يكمل طريقه، بل عاد توّاً، لأن رعباً خرافياً سطا فجأة على نفسه . وها هو الآن يشعر أنه بحاجة لشخص حي يكلّمه . فمرّ أمام غرفة الكاهن آنجيلو وقرع على بابه . ففتح الكاهن فجأة ثم صرخ بدهشة يقول : أيها الأب الأقدس، هل أنت تعيب ؟ فقال البابا : كلا ، كلا ، يا آنجيلو . فقال الراهب : أما زلت ساهراً حتى هذه الساعة من نصف الليل؟فأجاب البابا متلعثماً: أريد أن أراك ، أجل أريد ... أن تمضي فتدقّ جرس الحزن ؟ فقال الراهب : في مثل هذا الليل ؟ قال : أنا أريد هذا ! فسأله الراهب يقول: ومن هو الميت أيها الأب الأقدس؟ قال البابا: تلك

الفتاة التي أتت بيارينا بها . فليُقرع جرس الحزن من أجل هذه النفس المسكينة ! فقال الراهب آنجيلو : ها إني مطيع أيها الأب الأقدس ! آه ، ما هذه المصيبة ... فتاة بمثل هذه النضارة ! أوترى ضرورياً أن أعود لأرى قداستك ؟ فقال البابا : كلا ، يا آنجيلو... أحسّ أنني بحاجة إلى الراحة .

فاتجه آنجيلو راكضاً نحو الكنيسة الصغيرة ، وظلّ بورجيا واقفاً في مكانه . ولم يبرحه حتى سمع أول ضربات الجرس الحزين ، وإذا به يثب مذعوراً لأن طنين الجرس أعاد إليه أزمة الرعب الذي استولى على نفسه ، فهام على وجهه في الحديقة دون أن يجرؤ على دخول غرفته ودون أن يراه أحد من خدمه . وهناك أخذ يستنشق الهواء بملء صدره لكي تعود إليه السكينة . ولكنه شعر فجأة بأن أحداً قبض عليه في الظلام ، وبأن كمامة سدّت فمه . وإذا به يهوي على الأرض موثوقاً بالحبال .

ولقد مرّ معنا أن راكستان نقل رودريك بورجيا ووضعه على سرير ، ثم أسرع إلى باب البستان الصغير ففتحه وأدخل صديقيه إلى بيت البستاني. وعندما اجتمع الثلاثة في حضرة البابا جلسوا إلى جانبه على إسكملات صغيرة ، وكان رافائيل شديد التأثر بينما كان راكستان بارداً ، أما ماكيافيللي فقد بدا عليه أنه يشاهد ، بنوع من الفضول ، هذا المشهد الغريب الذي يجري أمام عينيه . ولقد تناول راكستان الكلام أولاً فقال : إنتبه أيها الأب الأقدس ، سأنزع كمامتك بعد حين، وإني أقسم لك أننا لن نسيء إليك بشرّ، وإنما نحن هنا ثلاثة رجال نطلب العدالة دون أن نكون قتلةً

سفاكين . ولكنني أحذرك : إذا صرخت صوتاً واحداً فسأغرز في عنقك هذا الخنجر إلى ثلاثة أصابع !

فأشار البابا أنه يطيع . عندئذ فكّ راكستان كمامته وأجلسه على السرير بشكل مريح ، فأخذ روعه يعود إليه رويداً رويداً لا سيّما وأن وجود رافائيل سانزيو جعله يسترد شجاعته المفقودة. وإذا به يلتفت إلى البستانيّ الذي ما زال في موضعه ملقىً على السرير مكموماً ، ثم يقول : أنتَ أيضاً يا بونيفاس المسكين ! ولكن اطمئنّ يا صاحبي فهؤلاء الرجال مسيحيّون لن يستفيدوا من وضعنا ليوقعوا بنا شرّاً . على كل حال ، أرجو ألا يحلّ غضبهم إلا عليّ وحدي .

في الواقع كان بورجيا يحاول بهذا الكلام معزفة دوْر البستاني البائس في هذه المغامرة. أما راكستان فقد قرّر إنقاذ هذا الشيطان المسكين ، فوجّه كلامه للبابا قائلاً : تا الله ، ليس من المؤكد أنني سأعفو عن كلب الحراسة هذا العجوز ، يا له من كلب مجنون ! لقد كاد يوقظ الجميع بمقاومته اليائسة . وكان يودّ أن يعضّ ويموت في سبيل قداسة البابا . إلا أنني سألقنه درساً قاسياً ! فقال بورجيا : إني أعدكَ يا بونيفاس ، إذا أفلتّ ، بأن أزيد راتبك مائة دينار ذهبي في السنة . وبانتظار ذلك فإنني أمنحك بركتي. أما الآن فإنني أنتظر أيها السادة أن تقولوا ماذا تريدون مني . تأكدوا أنني لن أصرخ . ولكن إذا كنتم تطمعون بحياتي فهيّا اقتلوني ! فقال راكستان: أيها الأب الأقدس ، قلت لك إننا لن نوقع بك شرّاً. فقال البابا: ماذا تريدون إذن ؟ فصاح رافائيل قائلاً : نريد عدالة !

نريد عدالة أيها الأب الأقدس ! فقال الأب الأقدس: يا ابني، إنني لا أطلب سوى العدالة . فقال راكستان بحيويّة : دعني أتكلم أنا يا صديقي رافائيل، واسمح لي أن أضع جانباً طيبة قلبك! ثم التفت إلى اسكندر بورجيا وقال: أمّا نحن فإننا نطلب العدالة في جريمة.

– ومن هو المجرم ؟

– أنت يا رودريك بورجيا !

– إنك تهين الحبر الأعظم يا سيدي .

– إسمع ! لم يعد لك في نظرنا هذه الصفة ، ولقد جرّدناك من هذ اللقب !

فامتقع وجه بورجيا وأخذ يخشى نهاية مشؤومة لحالته هذه . أما راكستان فقد تابع قائلاً : أجل ، لستَ في هذه الساعة سوى أسير بعد معركة . فقال : ولكن ثلاثة رجال مقابل شيخ في السبعين من عمره ؟ قال راكستان : إنك على خطأ : ثلاثة رجال مقابل أمير محاط بالحرس والرجال المسلحين والخدم، والعالم بأسره يرتجف خوفاً منه .

– ولكن ما هي جريمتي ؟ لعلني ضحيّة حكم خاطىء ؟

– كلا ! أستطيع أن أتهمك بقتل الكونتيسة آلما التي توفيت حديثاً .

– لا يدَ لي في قتل هذه الامرأة التعسة لأن لآل آلما في روما ، أعداء رهيبين .

–وأستطيع أن أتّهمك باعتقالي وبالحكم الظالم الذي صدر علي!

وكان بورجيا قد عرف راكستان منذ اللحظة الأولى ، إلا

أنه قال بدهشة أثارت إعجاب ماكيافيللي: اعتقالك؟! ومن تكون يا سيدي ؟

– إنني الفارس راكستان الذي نصبتَ له كميناً حقيقياً ، ولقد اعتقلتني بواسطة جلاوزتك الذين رابطوا في الطريق التي أمرتني أن أسير فيها ، فقال البابا : آه يا بنيّ ! لكم شجبتُ حماسة الراهب الأحمق الذي أخذ على عاتقه أمر توقيفك ، بل إنني كنت أجهل كل شيء حتى الحكم بالموت عليك . ولم أعرف جميع هذه الأمور إلا ساعة دُلّ على رأسك دون أمر مني . ولكن عندما عرفت ذلك أسرعت فأبطلت الحكم الظالم الذي أنزل بك . أجل ، صدّق هذا يا بنيّ ! فمكث راكستان مذهولاً لأن بورجيا العجوز كان بمقدوره الإجابة عن كل شيء ، وإذا به يفكر في نفسه قائلاً : إذا كان صادقاً فلا شك أنني أخطأت في تقدير موقفه ، وإذا كان كاذباً فيا له من ممثّل هزليّ ! وفي الحقيقة كان البابا حزيناً ، ولكن الصفاء كان يهيمن على وجهه . وكان في نظراته رقةٌ متألمة وتصبّر رجل كريم يعلم أن الناس يجهلون حقيقة نواياه. ثم إذا براكستان يتابع قائلاً : دعنا من هذا ، وإنما يبقى عليّ أن أحدّثك عن الحادث الخاص الذي اجتمعنا من أجله . لقد اختُطفت صبيّة في إحدى الليالي في روما ونُقلت بالقوّة إلى هذا المكان. ولقد جرت حادثة خطفها نتيجة لأوامرك أيها الأب الأقدس ، وإنني أملك البرهان القاطع على ما أقول . فقال البابا بهدوء :

– أوَتتكلم عن الفتاة التي اختطفت بعد زواجها بقليل من صديقي رافائيل سانزيو الذي هو حاضر هنا الآن ؟ فصرخ رافائيل

لاهثاً : نعم أيها الأب الأقدس ، وإني أطلبها منك بحقّ الزواج ! فغمغم البابا قائلاً : يا للأسف ! يا للأسف ! ثم انهمرت دمعة من عينيه فقال راكستان بصلابة: أوَتنكر خطف الفتاة؟ فقال بورجيا: كلا لا أنكره بل أعلنه جهراً !

– هذا يفوق كل حدّ ، فلأيّ غرض دنيء تُراك سلكت مع الفتاة هذا السلوك العنيف ؟

– إنك تتكلم عن غرض دنيء ! ولكنك ستندم ندامة مرّة على هذه الأفكار المشينة التي تدنّس بها نقاء هذه الطفلة .

– فلماذا خطفتها إذن ؟

– لأنني صاحب حق .

– إنك تملك إذن حق الحياة والموت على الناس ؟

– بل إنني أطلب حقّي الأبوي . وما دمتَ ترغمني على الاعتراف فإنني أقول : تلك الفتاة هي إبنتي !

الفتاة الميتة

*

فأخذ راكستان وماكيافيللي ورافائيل سانزيو ينظرون كل منهم إلى الآخر قائلين في ذهول : إنها ابنته !

في هذه الأثناء كان بورجيا ينظر إليهم بزاوية عينه نظرة حادّة ماكرة . وكان رافائيل أكثر الثلاثة اضطراباً لأن كلمة

البابا البسيطة هذه قلبته رأساً على عقب ، وجعلته يدرك أن شعوراً جديداً بدأ يدخل إلى قلبه ، فالرجل الذي جاء الثلاثة لمعاقبته هو أبو روزيتا ، ويا لغرابة الأشياء كيف أخذت تتضح بهذا الشكل، فإذا بمشاعر الاحترام الحنون تحلّ محلّ الغضب في قلب سانزيو الذي راح يغمغم قائلاً : أيها الأب الأقدس ، لك في قلبي تقديس مضاعف إذا كنت أبا الفتاة التي أعبدها .

ثم قام من توّه بحركة عفوية ففكّ وثاق بورجيا العجوز ، فهزّ راكستان كتفيه وتراجع إلى الوراء بينما كان ماكيافيللي ينتظر بارداً نهاية هذا المشهد . عندئذ قال البابا بلطف : يا بنيّ ، يا ولدي العزيز ، كنت عالماً بحبك لابنتي ولقد نزف قلبي دماً عندما اضطررتُ إلى التصرف بهذا الشكل . فقال رافائيل : لا شك أنك ستقودني إليها أيها الأب الأقدس ، لأنك لن تقف في طريق سعادتها وسعادتي. فهتف البابا بألم ظاهر يقول: أقودك إليها؟ يا للأسف ! هيّا اقتربوا أيها السادة لأنه يحق لكم أن تعرفوا كل شيء ، ويكفيني منكم العهد بألا تبوحوا بما سأقوله لكم ، ألا اقترب أيها الفارس . فقال راكستان : تكلم أيها الأب الأقدس، إني أسمع جيداً من هنا !

وكان البابا قد نهض عندما فكّ رافائيل وثاقه ، وتطلّع بنظرة سريعة ليرى إذا كان باستطاعته الاقتراب من الباب ، إلا أن راكستان كان هناك يسند ظهره إلى القفل وهو مكتوف اليدين يراقب النافذة . وعندما خطا البابا جانباً قال له الفارس : أرجوك لا تبرح مكانك أيها الأب الأقدس ، لأنك قد تتعرّض

قرب النافذة إلى رطوبة الليل! فرفع البابا عينيه إلى السماء وجلس .

فتمتم رافائيل يقول : أبي ، إسمح لي بأن أدعوك بهذا الاسم ، حدّثني عن روزيتا . فقال البابا متألماً : كانت تدعى روزيتا كما سمّتها الامرأة التي التقطتها .

– أجل الماغا المسكينة ، يا لها من امرأة فقيرة محبّة طيبة ! كم مرة حاولتُ أن أنتزعها من تلك الحياة البائسة ، ولكنها كانت ترفض لأن نفسها المتعبة كانت تصوّر لها الحياة مليئة بأعداء يرقبونها دائماً . وتابع بورجيا العجوز قائلاً: الاعتراف الذي سأبوح به لكم صعب عليّ كثيراً . فقال رافائيل : لا يليق بنا أيها الأب الأقدس أن نجعلك تحني رأسك تحت عبء ذكرياتك الخاصة التي لا يحقّ لنا الحكم عليها ... فقاطعه راكستان قائلاً : دع قداسته يتكلم ! فتابع البابا موجّهاً حديثه إلى رافائيل : ويزيد في صعوبة اعترافي أن لك الآن حقوقاً على ابنتي ، ومن ثم فإن ما سأرويه لك هو مخيف إلى درجة أنك لن تصدّق شيئاً إذا لم أطلعك على الحقيقة كلها . فصاح سانزيو مذعوراً : مخيف ؟ ماذا ترى ستخبرني ؟ إنني أرتجف لسماعي هذا الجرس الذي يقرع حزيناً .

فنهض البابا وكان وجهه يبدو وهو محاطٌ بشعره الأبيض ، أنه حقيقة على شيء من الجلال . ولقد أرجف كلامهُ الشجيّ ماكيافيللي نفسه ، وذلك عندما قال بلهجة خطابية : رافائيل ، يا بنيّ العزيز ، أنت تعرف إلى أية درجة أحببتك ، وإذا كان لي بقيّة حب لديك فإنني الآن أستصرخ قلبك لكي تستمع إليّ بهدوء رجل مسيحيّ قويّ ! فتمتم سانزيو بصوت مختنق يقول : تكلم !